جامعة يحي فارس بالمدية
كليَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة
قسم العلوم الإنسانيَّة
شعبة التَّاريخ

المجتمع الشامي من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن 19م

أطروحةٌ مُقدَّمةٌ لنيل شهادة الدُّكتوراه الطَّور الثَّالث نظام LMD

تخصُّص: الدَّولة العثمانيَّة

إعداد الطَّالب:
حصاد عبد الصمد

إشراف:
د/ مولود قرين

لجنة المناقشة

الاسم واللَّقب	الرتبة	الصّفة	المؤسسة الأصليَّة
حكيم بن الشيخ	أستاذ التعليم العالي	رئيسًا	جامعة يحي فارس المدية
مولود قرين	أستاذ محاضر أ	مشرفا ومقرّرًا	جامعة يحي فارس المدية
حميد قريتلي	أستاذ محاضر أ	عضوًا مناقشًا	جامعة يحي فارس المدية
عبد الرزاق تومیات	أستاذ محاضر أ	عضوًا مناقشًا	جامعة يحي فارس المدية
دليلة بوجناح	أستاذ محاضر أ	عضوًا مناقشًا	جامعة البليدة 02
دحمان تواتي	أستاذ محاضر أ	عضوًا مناقشًا	جامعة تيبازة

السّنة الجامعيّة: 2022-2023م/1444-1445هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

- إلى الوالدين الكريمين العزيزين على قلبي واللذين كان دعائهما خير معين لي في الحياة.

- إلى زوجتي الفاضلة العزيزة على قلبي التي قسمت معي مشقة البحث وصبرت علي حتى وصلت لهذه اللحظة.

حصاد عبد الصمد

كلمة الشكر

الحمد لله على توفيقه وفضله فلولاه ما كنت لأبلغ هذا .

يقول الله عز وجل في محكم تنزيله : "لئن شكرتم لأزيدنكم " ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، فكل الشكر والتقدير والامتنان لكل من ساعدني في إنجاز هذا العمل من قريب أو بعيد وأخص بالذكر:الأستاذ المشرف الدكتور مولود قرين الذي كان لي نعم الموجه والمرشد والناصح طوال فترة إنجاز المذكرة، والشكر موصول أيضا إلى الأساتذة اللذين درست على أيديهم بقسم العلوم الإنسانية لجامعة المدية ولجامعة سعيدة على كل ما قدموه لنا من دعم مادي ومعنوي، والشكر موصول أيضا لزملائي الذين قاسموني مشقة الدراسة والبحث وأخص بالذكر أخي وزميلي دربال السعيد الذي أمضيت معه تسع سنوات في مجال الدراسة والبحث، ولا أنسى أخي الذي لم تلده أمي حسين الذي لطالما شجعني وحفزني.

كما لا أنسى بالذكر كل أفراد أسرتي الصغيرة والكبيرة الوالدين الكريمين، زوجتي، أبنائي عائشة ومحمد وعبد الرحمن وإخوتي فريد، فاطمة، سارة الذين أسأل الله عز وجل لهم التوفيق والنجاح والسداد في حياتهم .

مقدّمة

01- التعريف بالموضوع:

كتبت في القرن التاسع عشر ميلادي مادة علمية غزيرة ترتكز على يوميات الرحلة ومخاطرها، وكثر هم الرحالة الذين زاروا الشرق عامة، وبلاد الشام خاصة، وكان ذلك بعد الانفتاح الكبير الذي عرفته بلاد الشام على الدول الأوربية بسبب الامتيازات التي منحت للدول الأوربية من قبل الدولة العثمانية، واختيار بلاد الشام كان بسبب احتوائها على عدد كثير من المقدسات الدينية المسيحية، ومن أبرزها كنيسة القيامة التي تحتوي على القبر المقدس، بالإضافة إلى الكنائس الأخرى والمزارات الموجودة لدى المسيحيين في كتاباتهم المقدسة، إذ تحولت مدينة القدس خاصة والشام عامة قطبا للحج المسيحي العالمي، وتزايد الرحالة بشكل كبير لاسيما الحجاج، دون أن ننسى الأهداف الأخرى التي دفعت الرحالة للقيام بهذه الرحلات، ويأتي الرحالة الفرنسيون في الطليعة من حيث عدد الرحلات، وقد خلفوا إرثا تاريخيا كبيرا من خلال تدوين رحلاتهم التي تميزت بالشمولية، وغطت كل جوانب الحياة العامة في الشرق، ووفرت للباحثين قاعدة خصبة لدراسة خصائص وبنيات هذه الشعوب.

شكلت بلاد الشام منذ العصور القديمة محطة هامة من محطات الشرق التي شد الأوربيون إليها الرحال، لاسيما الرحالة الفرنسيون الذين جبلوا على حب الترحال الذي غدا بعد الحروب الصليبية تقليدا من تقاليدهم، ويمكن القول أن بدايات الرحلة الفرنسية إلى الشرق جاءت على شكل ديني، وعرفت وتيرتها تزايدا لتبلغ ذروتها خلال القرنين 18 و 19 الميلاديين إذ ارتفع عدد الرحالة وتكاثرت أدبيات الرحلة، وكانت الرحلات تتم في شكل جماعي أو فردي وتكونت من حجاج، مبشرين، تجار، وانضم إليهم الأدباء والمفكرون وغيرهم، واختلفت أغراضهم من هذه الرحلات؛ فمنهم من كان يرغب في زيارة الأماكن المقدسة في إطار ما يعرف بالحج المسيحي، ومنهم من كان هدفه المعرفة واكتشاف أسرار الشرق، إضافة إلى الأهداف التجارية والتجسسية، وكل ذلك نتج عنه رصيد وثائقي كبير يمكن الاعتماد عليه في كتابة جزء من تاريخ المنطقة، وإعطاء صورة عنها من زاوية أخرى، وبنظرة أجنبية قد تغطي بعض الجوانب التي أهملتها الكتابات المحلية أو تدعمها، وتتيح للباحثين إمكانية النقد أو التأييد مع أخذ الحيطة والحذر والتمحيص والتدقيق جيدا قبل استعمالها.

02- أهمية الموضوع:

تزودنا الرحلات الفرنسية بمادة إثنوغرافية، وديموغرافية غزيرة عن حياة وعادات الشعوب الإسلامية في الشرق خلال القرن 19م، ولا يمكن دراسة تاريخ منطقة بلاد الشام دون إعطاء أهمية للصورة التي رسمها لنا الرحالة عنها، وبالتالي تمكننا من إجراء مقارنات بناءة تعطي مفهوما ونظرة جديدة للتطورات والعوامل المتحكمة فيها، وشخصية الرحالة وثقافته، وميولاته وتربيته، وحتى سنه أثناء رحلته تختلف وعليه تختلف الأفكار والأهداف مما يعطي آفاقا جديدة في البحث في تاريخ المنطقة وفي خلفيات الرحلات التي ستتطور فيما بعد إلى احتلال، وكل هذه العوامل تؤثر على طريقة نظرة الرحالة للواقع وكيفية إصدارهم للأحكام، كما أن بعض الرحالة كانوا يحملون معهم أحكاما مسبقة عن المناطق التي يريدون زيارتها، وهي مستقاة من مطالعاتهم ودراساتهم الأكاديمية أو حياتهم الشخصية أو تكوينهم الديني، ولذلك تختلف مدركاتهم وتحليلاتهم للوقائع.

بصفة عامة يمكن القول أن الرحلات وكتابات الرحالة الفرنسيين تعد من المصادر المهمة في كتابة التاريخ، وعليه فإنه من المهم في الدراسات التاريخية الاهتمام بشهادات وانطباعات الرحالة وملاحظاتهم التي سجلوها؛ وذلك لما تتضمنه من فوائد ومعلومات تاريخية واجتماعية وتراثية، لاسيما وأنهم قد تركوا لنا شهادات كثيرة تعالج مختلف جوانب الحياة في بلاد الشام خلال العهد العثماني تختلف محتوياتها وقيمتها من رحالة لآخر، إذ تؤسس لكتابة تاريخ محلي متعدد الآراء، وتمكن من معرفة خلفيات عديدة أدت لتطورات كبيرة في المنطقة.

03- دواعي اختيار الموضوع:

اختيارنا لهذا الموضوع نابع من مجموعة من الدوافع الذاتية والموضوعية، ولعل من أبرزها ميلنا إلى دراسة التاريخ العثماني لاسيما ما تعلق بتاريخ المنطقة العربية التي كانت جزءا مهما منه، ومن تم سعينا لمعرفة مميزات وخصائص تسيير الدولة العثمانية لهذه المنطقة، ومدى تأثير ذلك على ملامحها العامة، وهذا الأمر دفعنا لخوض غمار هذا البحث الذي هو خاص ببلاد الشام لاسيما وأن تاريخ المنطقة يحتاج إلى مزيد من الدراسات التي تعالجه من زاوية أخرى، والزاوية المختارة هنا هي نظرة الآخر وكيفية رؤيته لبلاد الشام، وقد شجعنا كذلك للبحث في تاريخ بلاد الشام حب المنطقة المباركة المذكورة في القرآن والسنة، وكذلك حب

ثقافة سكانها وعاداتهم الطيبة وتماثل التخيلات عن نمط الحياة بها، لاسيما في الفترة المدروسة وهي القرن 19م الفترة التي كان المجتمع الشامي لا يزال يحافظ فيها على قدر كبير من عاداته وتقاليده الأصيلة، وفي الفترة التي كان خلالها منفتحا على العالم بصدره الرحب، وكذلك من الأسباب الرئيسية لميلنا إلى دراسة بلاد الشام استقرار رمز من رموز الجزائر بها وهو الأمير عبد القادر الجزائري، وأكيد أن اختياره كان نابعا من قناعات دينية وتاريخية وعربية وحضارية؛ لأنه رجل مثقف ويدرك قيمة المكان وطبيعة سكانه وهو الذي كان مخيرا.

04- الإطار الزماني والمكاني:

الإطار الزمني للدارسة حدد بالقرن 19 الميلادي باعتباره قرنا مميزا في تاريخ منطقة بلاد الشام؛ وذلك نظرا لما عرفته من تحولات وتطورات، كما عرفت هذه الحقبة تزايدا للنفوذ الأجنبي في المنطقة بسبب اصدرا الباب العالي لمجموعة من القوانين التي منحت امتيازات جديدة ومتنوعة للدول الأوربية، لاسيما دولتا فرنسا وبريطانيا في إطار ما يعرف بالتنظيمات الخيرية، والتي جعلت رعاياها أكثر حرية في دخول أراضي الدولة العثمانية بصفة عامة والأراضي الشامية بصفة خاصة، وهذا الأمر الذي أدى إلى زيادة ملحوظة في عدد الرحلات الأوربية إليها مقارنة بالمراحل السابقة خاصة الفرنسية منها.

أما بالنسبة للإطار المكاني فقد حصرناه في منطقة بلاد الشام، وذلك نظرا لما تملكه من مقومات تاريخية واجتماعية وحضارية واقتصادية، كما أنها كانت تعد في ذلك الوقت من الأماكن الإستراتيجية الهامة في طريق الحرير، وباعتبارها أيضا مركزا لموكب الحج الشامي، ومركز عبور للقوافل التجارية المتجهة إلى بلاد فارس، وآسيا الصغرى، مصر والجزيرة العربية، واختيارنا لهذا الجزء من الدولة العثمانية يعود أيضا لمكانته الهامة والأساسية مقارنة ببقية الأقاليم العربية التي ضمتها الدولة العثمانية بداية من عام 1516م، ناهيك عن تنوع مميزاتها الدينية والإستراتيجية، وتعدد الموارد الطبيعية التي تملكها، والتي جعلتها محط أطماع الدول الأوربية الاستدمارية، وعلى رأسها فرنسا التي كانت تسعى جاهدة للسيطرة عليها نظرا لما لها من أهمية في نظرها لاسيما وأنها كانت تعتبر نفسها حامية الكنيسة الكاثوليكية، وبالتالي قدسية المنطقة لدى المسيحيين وتواجد كثافة سكانية مسيحية هامة بالمنطقة بالإضافة إلى إيجابيات المنطقة الأخرى، وهذه

الأسباب مجتمعة شجعت فرنسا على العمل الحثيث من أجل السيطرة على الشام وضمها لمستعمراتها، كما أنها كانت تسعى لمنافسة بريطانيا في السيطرة على مناطق النفوذ الهامة من خلال العمل على إيجاد وسائل لربط مستعمراتها المترامية الأطراف، وهو الأمر الذي جعلها تشجع الرحلات التي خدمت مصالحها، وجسدت العديد من أهدافها التي تنوعت لكن توحدت أهميتها نظرا لما قدمته من خدمات كبيرة للآلة الاستعمارية.

05- الدراسات السابقة:

تمكنا بعد بحث شاق من الوصول إلى بعض الدراسات ذات العلاقة بموضوعنا، والتي أشارت في محتواها إلى أمور متعلقة بالمجتمع الشامي، لاسيما الموجودة في بعض كتب الرحلة المترجمة من الأصل الفرنسي إلى العربية، ولا يمكن القول أنها دراسات متخصصة في المجتمع الشامي، حيث تناولت بعض الجوانب المتعلقة به وأهملت جوانب أخرى، وعالجت أمور تتعلق بمناطق محددة من بلاد الشام وأهملت عدة مناطق، ومن بين هذه الدراسات: أطروحة دكتوراه تعالج منطقة لبنان الحالي وهي بعنوان:**"لبنان من خلال الرحالة الفرنسيين 1798-1918م"** للباحثة: **أميرة جبر**، وتحديد الكاتبة لفترة القرن 19م مكنتها من إعطاء تفاصيل أكثر دقة وتفصيلا عن منطقة في لبنان تعرف بموطن الأرز، وهي بالتحديد المناطق الجبلية الغربية في بلاد الشام المطلة على البحر الأبيض المتوسط، إذ عالجت الدراسة العديد من الجوانب المهمة وتتمثل في: الخصائص الطبيعية للمنطقة، الخصائص الاجتماعية التي تضمنت فصل عن السكان، فصل عن طوائف لبنان، وقسمت: للطوائف المسيحية والطوائف الإسلامية، كما تطرقت الباحثة إلى جوانب أخرى: كالاقتصاد، الدين، العمران، والجوانب السياسية والأمنية، وختمت دراستها بفصل يتحدث عن العلاقة التي كانت قائمة بين الفرنسيين والموارنة، وقد شملت هذه الدراسة أيضا إطارا جغرافيا محددا إلى أنها أهملت المناطق الوسطى والشرقية لبلاد الشام، ولكن يمكن القول أن إيجابيات الرسالة عديدة؛ حيث اعتمدت الكاتبة على العديد من المصادر المهمة في إنجازها، وقدمت تفصيلا دقيقا حول عدة ظواهر خاصة الاجتماعية منها، وأفادتنا رسالتها كثيرا في إنجاز هذا العمل، مع العلم أن هذه العمل قد تم تنقيحه وتحويله إلى كتاب بعنوان:**"الرحالة الفرنسيون في موطن الأرز دراسات وانطباعات عبر القرن التاسع عشر 1798-1918م"**،

ولكن للأسف لم نتمكن من الوصول إليه، لكننا اطلعنا على فهرسه ولم نجد اختلافا كبيرا مقارنة مع الأطروحة في شكل الفهرس.

مكننا البحث من العثور أيضا على دراسة أخرى لها علاقة بموضوعنا، وهي عبارة عن كتاب يتحدث عن تاريخ مدينة دمشق بصفة خاصة من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين بعنوان:**"دمشق في نصوص الرحالة الفرنسيين بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر"** من تأليف الباحثة اللبنانية **كارين صادر**، ويعد من المراجع المهمة التي عالجت تاريخ المنطقة من خلال انطباعات وملاحظات الرحالة الفرنسيين الذين زاروا المنطقة، وتطرقت الكاتبة للمحة عامة عن مدينة دمشق، ثم انتقلت إلى الحديث عن خصائص المدينة العامة من خلال كتابات الرحالة الغير فرنسيين الذين زاروها سواء المسلمين أو غير المسلمين، بعدها انتقلت إلى الحديث عن تفاصيل المدينة من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين، وقسمتها لقسمين: أول يتحدث عن الفترة الممتدة ما بين القرنيين 15 و 18 الميلاديين، والثاني: يتحدث عن خصائص المنطقة في القرن 19م تناولت فيه الجوانب الطبيعية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية للمدينة، ومن خلال قراءة في المصادر التي اعتمدتها الكاتبة لاحظنا تركيزها على القرن 19م، حيث وظفت 21 رحلة في دراسة الفترة الممتدة من القرن 15م إلى القرن 19م من بينها 10 مصادر رحلة متعلقة بالقرن 19م، وبالتالي مكنتنا دراستها من أخد تفاصيل أكثر حول تاريخ منطقة دمشق في الفترة التي نعالجها بدراستنا، ويمكننا أن نقول كذلك أن الكاتبة تمكنت من إعطاء صورة مفصلة لمدينة دمشق بأعين الآخر الفرنسي، لكنها تبقى دراسة جزئية في إطارها الجغرافي إذ أهملت الحديث عن بقية المدن الشامية، و عالجت إطار زمني طويل جدا مما لم يسمح لها من الخوض كثيرا في التفاصيل الدقيقة للمنطقة في القرن 19م وعليه اقتصرنا على ما تعلق بهذا القرن، وعملنا على البحث أكثر عن مصادر جديدة لم تعتمدها الدراستان حتى نعالج الموضوع بشكل أدق وبنظرة جديدة ومختلفة عما سبق، ومن هنا تمكنا من الحصول على العديد من كتب الرحلة الجديدة وهي مذكورة في قائمة البيبليوغرافيا.

06- الإشكالية:

تعطي الرحلة أهمية كبيرة للكتابات التاريخية فهي تقدم صورة ونظرة مختلفة للمكان المدروس وتساعد على فهم واقع الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والعمرانية، ومن أهم كتب الرحلة التي عنت بدراسة تاريخ الشام كتب الرحالة الفرنسيين التي ساهمت في رسم صورة للمجتمع الشامي خلال القرن 19م، ومن خلال ما تقدم نطرح الإشكالية الرئيسة للموضوع والتي هي أساسا تبحث عن الصورة التي ساهم الرحالة الفرنسيون في رسمها للمجتمع الشامي خلال القرن19م، فما هي خصائص ومميزات المجتمع الشامي وتفاعلاته المتنوعة في القرن 19م من خلال ما قدمته لنا قراءات وانطباعات الرحالة الفرنسيين القائمة على المشاهدة والمعاينة والمعايشة والملاحظة والإحصاء؟.

انطلاقا من هذا التصور العام للموضوع قمنا بطرح مجموعة من التساؤلات الفرعية والتي بواسطتها نتمكن من الإجابة على الإشكالية الرئيسية وفهم الموضوع بشكل أدق و هي :

- إلى أي مدى ساهمت الرحلات في كتابة تاريخ المنطقة لاسيما الفرنسية منها؟

- ما هي أهم الخصائص الديموغرافية لبلاد الشام خلال القرن 19م من خلال ملاحظات الرحالة الفرنسيين؟

- بماذا تميزت المظاهر الاجتماعية الشامية من خلال الصورة التي رسمها الرحالة الفرنسيون في كتاباتهم؟

- ما مدى تطور الأنشطة الاقتصادية التي مارسها سكان الشام، وما هي العوامل المتحكمة فيها؟ وإلى أي مدى ساهمت في تنوع خصائص ومكونات المجتمع الشامي؟

07- خطة البحث:

انطلاقا من مكونات الإشكالية المطروحة في هذا الموضوع وللإجابة عنها وتحليل الوقائع تشكل هيكل الأطروحة حسب الخطة الآتية: مقدمة وفصل تمهيدي يتحدث عن خصائص بلاد الشام الطبيعية، السياسية والإدارية، الاجتماعية، الاقتصادية، العسكرية، إضافة إلى ذلك قسمنا دراستنا لأربعة فصول أولها الفصل الأول المفاهيمي المتعلق بأدب الرحلة وقسمناه لأربعة أقسام: أولها بعنوان: أدب

الرحلة المفهوم اللغوي والمدلول الاصطلاحي، وفيه تناولنا التعريفات اللغوية والاصطلاحية لأدب الرحلة، أما الثاني: فهو معنون بأنواع الرحلات وفيه فصلنا في كل أنواع الرحلة، إضافة إلى قسم ثالث بعنوان: أهمية الرحلة الذي أعطيناه اهتماما خاصا وذلك نظرا لما للرحلة من أهمية بالغة في حياة الأفراد والأمم وفي الكتابات التاريخية، و ختمنا الفصل بقسم رابع بعنوان: الرحلة الفرنسية للشرق وفيه تحدثنا عن تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوربي عامة ولدى الفرنسيين الذين تميزوا في هذا المجال بصفات خاصة.

أما الفصل الثاني فقد حمل عنوان: ديموغرافية بلاد الشام وقسمناه إلى ثلاثة أقسام: أولها مكونات المجتمع الشامي؛ وفيه ذكر لكل مكونات المجتمع الشامي بالتفصيل حسب كتابات الرحالة الفرنسيين، أما القسم الثاني فعنوناه: التطور الديموغرافي لساكنة بلاد الشام وفيه تحدثنا بالتفصيل عن عدد السكان بالشام حسب المدن وتطوره طوال القرن 19م، واستعملنا فيه بعض الأشكال البيانية التي تسهل مهمة الدارسين والباحثين في ملاحظة تطور الظاهرة السكانية، ثم انتقلنا إلى القسم الثالث الأخير يتحدث عن الصحة والتعليم وهي جوانب ذات علاقة وطيدة بالجانب الديموغرافي أو جزء من ما يعرف بعلم السكان.

أما الفصل الثالث فعنوانه: المجتمع الشامي مظاهر وتفاعلات، وقد قسمناه إلى أربعة عناصر: أولها: الجانب الديني، وتطرقنا فيه إلى الممارسات الدينية الشامية بصفة عامة، أما العنصر الثاني: مميزات وخصائص اللباس الشامي ووضعنا فيه وصفا شاملا ودقيقا لنمط اللباس الخاص بكل بفئات المجتمع، ثم انتقلنا للعنصر الثالث بعنوان: يوميات سكان الشام وهو مبحث يتناول الممارسات اليومية التي يقضي بها السكان نهارهم، أما العنصر الرابع: الاحتفالات فتناولنا فيه طقوس وعادات الاحتفال الخاصة بكل الديانات، وأدرجنا فيه بعض النماذج التي شاهدها الرحالة في يوميات رحلاتهم حتى يتمكن القارئ من خلالها عيش الحادثة التاريخية، وختمنا الدراسة بفصل رابع: الأنشطة الاقتصادية للمجتمع الشامي وهو مجزأ لثلاث أقسام: أولها الأنشطة الزراعية وثانيها: الأنشطة الصناعية وآخرها الأنشطة التجارية، إضافة إلى خاتمة تضمنت مجموعة من الاستنتاجات المتنوعة التي توصلنا إليها بعد إنجازنا لهذه الدراسة، وأرفقناها بمجموعة واسعة من الاقتراحات البحثية حول تاريخ المنطقة من خلال إطلاعنا على كتب الرحلة الفرنسية، والتي يمكن معالجتها مستقبلا من قبل باحثين آخرين، وقائمة من

الملاحق التي لها علاقة مباشرة بمحتوى الموضوع، واعتمدنا عليها من أجل تقديم شرح دقيق لبعض العناصر، وفي الختام أدرجنا قائمة غنية من البيبليوغرافيا المتنوعة التي إعتمدناها في إنجاز الدراسة.

08- المنهج المعتمد في الدراسة:

اعتمدنا في الدراسة على المنهج التاريخي، وقد اقتضت طبيعة البحث استعمال مناهج أخرى مرافقة للمنهج التاريخي استجابة لتنوع مضامين الفصول، وما تتطلبه الأفكار المدروسة وطبيعة الدراسة البحثية التاريخية، ولعل أبرزها التاريخي الوصفي الذي اعتمدنا عليه في إنجاز بعض العناصر، وكمثال على ذلك: وصف عادات وتقاليد المجتمع، طريقة اللباس، صفات السكان، ممارسات السكان اليومية، الاحتفالات وغيرها من المظاهر التي تحتاج إلى الوصف، كما اعتمدنا على المنهج التاريخي الإحصائي في حديثنا عن عدد سكان بلاد الشام وتطوره، ووظفنا في ذلك الجداول الإحصائية والأشكال البيانية: كالمنحنى والدائرة النسبية التي تسهل عملية الملاحظة والاستنتاج للباحثين والدارسين، وتوضح لنا التطورات التي عرفتها الظاهرة المعنية بالدراسة؛ سواء منها التزايد السكاني أو تقسيم الفئات حسب الديانات.

اعتمدنا كذلك على المنهج التاريخي التحليلي في تقصي بعض الحقائق لاسيما ما يخص الممارسات الدينية، والمعاملات اليومية، وكذلك علاقة الظواهر مع بعضها البعض وكمثال على ذلك؛ علاقة الأوبئة والأمراض بالتزايد السكاني، أو علاقة الظروف الداخلية والدولية بتطور الأنشطة الاقتصادية، أو علاقة الأمن والاستقرار بتطور الأنشطة التجارية، كما اقتضى البحث أيضا توظيف المنهج التاريخي المقارن في بعض الأحيان لأن طبيعة الموضوع تتطلب ذلك، فكان علينا الإشارة إلى أهم التحولات التي عرفها المجتمع في فترات متقطعة من القرن19م مع ذكر العوامل المؤثرة في ذلك، وكذلك قمنا بمقارنة مضمون كتابات الرحالة الفرنسيين مع ما كتب في المصادر والمراجع المحلية العربية، وأيضا قمنا بمقارنة خصائص المجتمع الشامي مع خصائص المجتمعات الأوربية، وركزنا هذا العمل كثيرا في الهوامش من أجل الحفاظ على طبيعة الموضوع الذي يعتمد في الأساس على مصادر الرحلة الفرنسية.

09- أهم مصادر الدراسة:

وظفنا في إنجاز بحثنا هذا المجتمع الشامي من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن 19م مادة علمية استقيناها من بيبليوغرافيا متنوعة وغنية، والتي كانت بمثابة الموجه لنا والدليل على معرفة المظاهر والتفاعلات الاجتماعية الشامية خلال القرن 19م، وبذلك تعتبر وسيلة أساسية مكنتنا من ضبط خطة البحث وتنظيمها.

نبدأ أولا **بالمصادر الفرنسية** التي تمثل الأساس الأول لهذه الدراسة، والتي حالفنا الحظ في الحصول على عدد كبير منها لاسيما وأن الرحلات الفرنسية في القرن 19م عرفت تزايدا كبيرا، وعليه وجدنا العديد من الكتب سواء: المكتوبة باللغة الفرنسية إضافة إلى الكتب المترجمة من اللغة الفرنسية للغة العربية إلا أنها قليلة مقارنة بالكتب الفرنسية، وسنذكر في البداية المصادر المكتوبة باللغة الفرنسية التي استعملنا منها أكثر من 50 كتاب، وهي تتفاوت من حيث حجم المعلومات المقدمة في الجانب الاجتماعي، وعليه سنقدم بعض النماذج التي أفاضت كثيرا في هذا المجال وقدمت لنا العديد من المعلومات وهي:

كتاب للويس ماركت Louise Marquette بعنوان:"A traverse la Syrie"، إذ يعتبر هذا الكتاب من بين مصادر الرحلة الفرنسية المهمة خلال القرن 19م، ويعود السبب في ذلك إلى معالجته للعديد من الجوانب الاجتماعية الخاصة بسكان بلاد الشام مع فترة أواخر القرن 19م، وهي مرحلة عرفت تحولات نسبية لاسيما بعد انفتاح المنطقة على العالم، وبالتالي مكننا ذلك من إجراء مقارنات بسيطة حول أنماط التحول، وساعدنا في دراسة خصائص المدن التي زارها وقدم لها وصفا دقيقا وهي: مدينة صور، صيدا، دمشق، وقد ركز كثيرا عن نمط اللباس والعادات والتقاليد.

استخدمنا كذلك رحلة جول قزافي Julex Xavier **والتي هي بعنوان:"** de Damas "a Palmyre fragment inédit d'un voyage en orient وهو من المصادر المتخصصة في موضوع المجتمع الشامي، وقد ركز على مدينة دمشق والمناطق المحيطة بها كتدمر، حمص، والبادية المحيطة بالمدينة، وفصل كثيرا في وصف دمشق، وتطرق إلى إحصاء السكان بالتفصيل حسب المكونات، وهو ما يساعد كثيرا في دراسة التطور السكاني بالمدن خلال القرن 19م، كما قدم لنا مادة ثرية في ما يخص مقاهي دمشق ومميزاتها، وعالج بعض الجوانب الدينية؛ فتحدث عن المساجد، ولم يهمل الحديث عن الجانب التجاري الذي تشتهر به مدينة دمشق والذي يعود السبب

الرئيسي فيه إلى كون المدينة منطلق لقافلة الحج الشامي التي أفاض في الحديث عنها كثيرا مما سهل علينا مهمة وصف ركب الحج الشامي، وتحدث كذلك عن بعض المظاهر الاجتماعية الأخرى: كالزواخ، الأمراض، الأمن، والقضاء وغيرها من الأمور المهمة التي ساعدتنا كثيرا.

وجدنا كتاب آخر هام أفادنا كثيرا وهو:" la Terre Sainte voyage dans l'Arabie pétrée la Judée la Samarie la Galilée la Syrie " لصاحبه القس جين جاك بوراسي l'abbé jean Jacques Bourasse إذ تطرق فيه بالتفصيل إلى العديد من المدن وهي: صفد، دمشق، زحلة، طرابلس، بيروت، صيدا، صور، وبالتالي يمكن القول أنها دراسة شاملة لمعظم المدن الشامية المشهورة والكبرى، وقد ركز هو الآخر على وصف مدينة دمشق التي ذكر بأنها المدينة الأكثر فخامة في آسيا والأكثر جمالا، وتحدث عن تجارتها الكبيرة التي ازدهرت بفعل موقعها وكذلك باعتبارها مركز عبور للقافلة الحجية وقد وظفنا هذه العناصر في الفصل الرابع الذي يتحدث عن التفاعلات الاقتصادية للمجتمع الشامي، كما تطرق بالوصف الدقيق للجانب العمراني لاسيما النمط الذي اعتمده السكان في بناء بيوتهم إلا أننا استغنينا عنه، ولم نوظفه نظرا لأن الجوانب الأخرى طغت على المذكرة ولم نتمكن من إضافة فصل خامس، وقد اقترحنا هذا الجانب في الدراسات التي يمكن استحداثها من قبل طلبة آخرين، كما مكننا الكتاب من معالجة وتقديم مميزات المدن الأخرى التي لم تتطرق لها بقية الرحلات كمدينة صفد التي أعطانا عنها معلومات متنوعة كالتجارة، والفئات المكونة لمجتمعها، والمنتجات المحلية.

استخدمنا إضافة إلى ما سبق كتاب:" Deux ans en Syrie et en Palestine1838-1839" للرحالة إدوارد بلوندال Edouard Blondel إذ يعد من الكتب الشاملة وهو من أكثرها احتواءا على معلومات حول خصائص المجتمع الشامي، فقد نالت فيه مدينة بيروت حصة الأسد إذ أفاض الكاتب في حديثه عنها، وذلك بسبب بقائه فيها فترة طويلة مما وفر لنا كما هائلا من المعلومات التي أفادتنا كثيرا، وباعتبار أن المدينة في نظرهم فرنسية ويقطن بها الموارنة الذين يعتبرون أنفسهم رعايا فرنسيين، قام بالتوسع في الوصف والإحصاء والتفصيل في مختلف الجوانب، والملاحظ في كتاباته تركيزه على المؤسسات المسيحية بالمدينة كالمدارس والكنائس والمستشفيات، ومن أهم الأمور التي عالجها العمران، نمط العيش في المنازل الشامية، إحصائيات وتركيب السكان، اللباس، التجارة، المنتجات

المحلية، العادات والتقاليد والصفات سواء الخاصة بالرجال أو النساء، تربية الحيوانات، الأمراض والأوبئة وطرق العلاج، الأمن، الريف البيروتي، وغيرها من الأمور المهمة، وعليه فقد كان كتابا مرجعيا في مباحث خصائص مدينة بيروت، كما نشير إلى أن الكاتب لم يهمل الحديث عن مدينة دمشق وذلك نظرا لما تكتسيه من أهمية.

من الكتب المهمة التي أفادتنا كثيرا في إنجاز هذه الدراسة كتاب لهنري قيز Henri Guys بعنوان:" Voyage en Syrie "، ويعد هذا الكتاب من أهم المصادر التي أمدتنا بمادة علمية غزيرة، وذلك بتطرقه لأكبر المدن الشامية وهما مدينتا حلب وبيروت، وقد أعطانا وصفا دقيقا للعديد من المميزات والمظاهر الاجتماعية لسكان هاتين المدينتين، فتجده يتكلم عن العادات والتقاليد وذلك حسب الفئات وحسب الجنس، كما تحدث عن الجوانب الدينية، ولم ينسى الحديث عن صفات سكان المنطقة بالتفصيل، كما تحدث عن الجانب الصحي بتطرقه للأمراض والأوبئة وطرق العلاج المتبعة، وتحدث أيضا عن التفاعلات الاقتصادية لسكان المنطقة، ولم ينسى الحديث عن المؤسسات المسيحية وأدوارها الدينية والتعليمية، وقدم وصفا عن طرق الاحتفالات في مختلف المناسبات، ويمكن القول أن الكتاب يعتبر هو الآخر من المصادر الأساسية التي وظفناها بشكل كبير لما فيها من شمولية وتفصيل.

إضافة إلى هذه الكتب توجد العديد من المصادر المكتوبة باللغة الفرنسية ذات الأهمية البالغة والتي لا يمكننا ذكرها كلها، وقد ساعدتنا في ملء الفجوات التي تركتها الكتب السابق ذكرها، ومن بينها؛ كتاب مؤسسة الكتب الدينية لمدينة تولوز الذي هو مليء بالمعلومات حول الشام، وكتاب لمارتين Lamartine ، دونوس Donos، ليوني دو بازولار Lionnes de bazelaire ، بيار بيتيوت Pierre Petiote ، بيار لويس بيشونارد Pierre Louis pichaunard ، إدوارد بلوندال Edouar Blondel ، القس بارود L'abbéParraude، ألفونس كورت Alfonse Courte ، القس باسك L'abbé Becque ، فرمين روزي Fermine Rozi ، جيان ليانJien Liane ، وعناوينها موجودة بالتفصيل في قائمة البيبليوغرافيا.

إلى جانب المصادر الفرنسية استعملنا في إنجاز هذا العمل مجموعة من **المصادر الفرنسية المترجمة** للغة العربية، وعددها قليل مقارنة بالكتب المكتوبة باللغة الفرنسية، ونذكر منها: كتاب لقسطنطين فرانسوا فولني Volney الذي ترجمه

إدوارد البستاني وحبيب السيوفي وهو بعنوان: "ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام Voyage en Syrie et en Egypte Pendant Les Années 1783-1784 et1785 "، وقد ساعدنا كثيرا في بناء تصورات أولية حول العديد من الأمور الاجتماعية، باعتبار فولني Volney زار بلاد الشام في أواخر القرن 18م، وهي الفترة التي تسبق دراستنا؛ أي قاعدتها ومنطلقها وعليه أخذناها كنقطة بداية في تفصيل التطورات المختلفة، لاسيما و أن فولني Volney بقي فترة طويلة وعاشر وخالط السكان المحليين وبالتالي لا يمكن الاستغناء عن آرائه وملاحظاته.

وجدنا أيضا كتاب لغوستاف لوبون Gustave Le Bon بعنوان: حضارة العرب La Civilization Des Arabs، وهو مصدر مهم وكتاباته تتميز بدرجة كبيرة من الموضوعية، والكاتب لوبون أنصف الحضارة العربية الإسلامية كثيرا، ووصفها بما يليق بمقامها ونسب إليها الحقائق التي كثيرا ما نفاها المستشرقون وقدموا عنها مغالطات كبيرة، إضافة إلى كتاب جيراردي نافال Girardi Naval "رحلة إلى الشرق Voyage en Orient "، وكتاب آخر لغوسطاف فلوبير Gustave Flober "رحلة إلى الشرق Voyage en Orient "، والذي عني هو الآخر بدراسات أنتروبولوجية دقيقة حول المجتمع الشرقي.

أما في ما يخص **المصادر العربية** التي تناولت المجتمع الشامي وعنت بدراسته فهي كثيرة جدا، وسنعرض أهم ما اعتمدنا في هذا البحث:

كتاب **"خطط الشام"** لمحمد كرد علي والذي يعتبر من الدراسات الموسوعية العربية التي عنت ببلاد الشام وصفا وتحليلا ومقارنة واستقصاءا للأحداث والوقائع، وقد أفاض الكاتب في دراسته لبلاد الشام حتى أنه كتب مجلدا من ستة أجزاء لم يهمل فيها أي جانب إلا وتحدث عنه، وبذلك يمكن القول أنه مصدر مهم لدراسة تاريخ المنطقة، ولا يمكن لأي باحث الاستغناء عنه، ويمكنه استعماله في أي مجال لأن الباحث صال وجال وكتب الكتاب وكأنه يعيش الوقائع.

وظفنا في الدراسة كذلك كتاب "القول الحق في بيروت و دمشق" لعبد الرحمن بك سامي، وهذا المصدر من الكتب المتخصصة في بلاد الشام، وذلك لأن صاحبه زار بلاد الشام في فترة مهمة وهي أواخر القرن 19م، وتعايش مع سكان مدينتي بيروت ودمشق، وبقائه فيها لفترة معتبرة مكنه من الخروج بمجموعة من الانطباعات، والملاحظات العامة حول مدينتي بيروت ودمشق، وأهم المجالات التي تطرق إليها: الأسواق، العادات، العمران، الأخلاق، الجوانب الاجتماعية.

من المصادر المهمة كذلك كتاب "الروضة الغناء في دمشق الفيحاء" لصاحبه نعمان قساطلي، وهو أيضا مصدر مهم تطرق بالتفصيل لخصائص مدينة دمشق وما جاورها، وعالج الخصائص الجغرافية، السكانية، الجوانب التاريخية للمدينة، عمران دمشق، أسواقها، الجوامع، الكنائس، الحمامات، المقاهي، الخانات، المياه، المنتزهات، التعليم، الحرف، العادات والتقاليد، الوفيات، وعليه يمكن أن نقول: هذا الكتاب كان من أهم المصادر التي أفادتنا في دراسة وتكملة الخصائص الاجتماعية لمجتمع مدينة دمشق، وساعدنا في إجراء مقارنات بناءة توصل في الأخير لحقائق قريبة للواقع.

إضافة إلى هذه المصادر ذات الصلة المباشرة بفكرة البحث اعتمدنا على قائمة طويلة من **المراجع** لتنوير البحث وتكملة بناءه إلا أنه اعتماد جزئي، والسبب في ذلك هو أننا حاولنا الحفاظ على طبيعة الموضوع الذي يبحث في الأساس عن نظرة الرحالة الفرنسيين للمجتمع الشامي، وبالتالي استخدمناها في بعض المواضع التي تحتاج إلى تكملة، وكذلك استعنا بها في نقد وتحليل ومقارنة بعض المعلومات التي قدمها الرحالة الفرنسيون، ونذكر على سبيل المثال كتاب: **"الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز"** لصاحبه عبد الغني بن إسماعيل النابلسي، وكتاب: **"**الرحلة إلى الشرق رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر**"** لبيار جودا Pierre Juda ، وكتاب: **"التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية في القرن التاسع عشر من خلال سجلات المحكمة الشرعية في بيروت"** لحسان حلاق الذي يعتبر مرجعا مهما في دراسة تاريخ بلاد الشام خاصة وأنه اعتمد في دراسته على مادة أرشيفية غزيرة، وكذلك وظفنا كتاب متخصص في تاريخ الدروزيين وهو بعنوان: **"جبل الدروز في العهد العثماني"** للكاتب تركي قاسم الزغبي.

زيادة إلى المصادر والمراجع استعملنا كذلك مجموعة من **الرسائل الجامعية، والمقالات المتنوعة، وكتابات الجرائد**، وكذلك لجئنا إلى بعض **المواقع الإلكترونية** التي تحتوي على معلومات مهمة حول تاريخ المنطقة، واستقينا معلومات من بعض أعمال الملتقيات العلمية لننوع الأفكار ونقارنها وبالتالي الخروج بنتيجة إيجابية.

10- الصعوبات:

ختاما نقول أنه لا يوجد بحث يخلو من الصعوبات سواء المعرفية أو المنهجية، وبطبيعة الحال يأتي في مقدمة هذه الصعوبات طبيعة الموضوع الذي يعتمد في الدرجة الأولى على كتابات الرحالة الفرنسيين، وبالتالي المصادر التي اعتمدنا عليها في إنجاز بحثنا هي مكتوبة باللغة الفرنسية، وقلما نجد بعض الكتب المترجمة إلى اللغة العربية، وعليه كان لزاما علينا خوض غمار الترجمة وهو أمر صعب علينا المهمة وزاد من مشاق البحث، ففي بعض الأحيان قد تبحث في كتاب فيه أكثر من 400 صفحة ولا تجد فيه إلا بضعة أفكار تمس الجانب الاجتماعي، وفي مواضع أخرى تجد مصادر مصورة بشكل سيء مما يصعب عملية الترجمة، والأفكار الواردة في الرحلات متفرقة وغير مشتركة إذ أن كل كاتب يتحدث عن ظاهرة اجتماعية معينة ويهمل ظاهرة أخرى، وقد تجده يعطي وصفا دقيقا لمنطقة ويهمل أخرى لاسيما وأن الطرق والمزارات تختلف من رحال إلى آخر.

إضافة لما سبق ذكره وجدنا أن معظم هذه الكتابات مدونة بشكل رومانسي يغلب عليه أحيانا الجانب الأدبي الذي يتخلله الخيال أحيانا، أضف إلى ذلك التوجه الديني لمعظم الرحالة خاصة الحجاج المسيحيين فتجده يربط كتابته بما ورد في الكتاب المقدس لديهم، فكلما مر بمكان مقدس يسرد قصص كاملة، وبالتالي انتقاء المعلومات المفيدة في البحث كان بشكل صعب ودقيق، أما من الناحية المنهجية فالصعوبات التي واجهتنا هي صعوبة ضبط المادة لاسيما وأن الإطار المكاني واسع جدا، والمدن الشامية التي زارها الرحالة كثيرة، وأحيانا توجد اختلافات كثيرة في بعض العناصر الاجتماعية للمدن، كما توجد إفاضة في عناصر وشح في أخرى خاصة في ما يتعلق بتفاعلات المجتمع الشامي الاقتصادية مما صعب علينا عملية إيجاد توازن في حجم الفصول، ولا يمكننا أيضا حذف عناصر من محتوى الفصول السابقة لإجراء توازن، وذلك نظرا لما لها من قيمة تاريخية لا يمكن تجاوزها، ومن الصعوبات التي لا يمكننا إهمالها هو الأزمة الوبائية التي شهدها العالم، والتي حالت بيننا وبين الدول الأجنبية التي كان في الإمكان زيارتها والاستفادة من مكتباتها.

لا يفوتنا تقديم جزيل الشكر والعرفان لأعضاء لجنة المناقشة الذين قبلوا مناقشة الأطروحة، ونتمنى أن نستفيد من نصائحهم وتوجيهاتهم وتصويباتهم، التي من المؤكد أنها ستثري الموضوع وتزيده قيمة علمية، ونشكر كذلك كل من ساعدنا في إنجاز هذا العمل، ونخص بذلك الأستاذ المشرف الدكتور مولود قرين الذي كان

لنا نعم الموجه والمرشد والناصح، ولم يبخل علينا بأي جهد، ورافقنا خطوة بخطوة في إنجاز هذا العمل من البداية حتى النهاية، فنسأل الله عز وجل أن يكون هذا في ميزان حسناته، كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر إلى أستاذي الفاضل الغالي الغربي الذي كان مفتاحا من مفاتيح النجاح الذي وصلنا إليه، فجزاه الله خير الجزاء على كل ما يبدله في سبيل النهوض بمستوى التعليم العالي، ولا ننسى أن نشكر جميع الأساتذة دون استثناء بجامعتي المدية وسعيدة، وكذلك كل من ساعدنا من قريب أو بعيد في إخراخ هذا العمل إلى النور.

لا يسعنا ختاما إلا أن نشكر الله عز وجل أن وفقنا لإنجاز هذا العمل، وندعو أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه تعالى، ونسأله أن يكون من العلم النافع الذي يبقى في رصيد المكتبة الجزائرية خاصة والمكتبة العربية الإسلامية بصفة عامة، ونتمنى أن نكون قد وفقنا في إيصال المبتغى من وراء هذا العمل وهو إعطاء صورة المجتمع الشامي من خلال نظرة الآخر وهو الرحالة الفرنسي، وندعو الله تعالى أن يكون فيه منفعة عامة سواء للباحثين أو الطلبة وحتى القراء المهتمين بهذه الحقبة والله ولي التوفيق .

الفصل التمهيدي

خصائص بلاد الشام في العهد العثماني

أولاً : خصائص بلاد الشام الطبيعية

ثانيًا : النظم السياسية والإدارية في بلاد الشام

ثالثًا : مميزات المجتمع الشامي

رابعا : الملامح العامة للاقتصاد ببلاد الشام

خامسا :التنظيمات العسكرية العثمانية في بلاد الشام

أولا- خصائص بلاد الشام[1] الطبيعية:

اختلفت المصادر والمراجع في أصل تسمية الشام فمن المؤرخين من يقول:"سميت شاما لأن قوما من بني كنعان نزلوها فتشاءموا"، وقيل:"سميت شاما لتشاءم أصحاب اليمن منها"، وذهب بعضهم إلى تسمية الشام للشامات الموجودة بكثرة فيها وذلك لاختلاف ألوان ترابها[2]، وسميت الشام قديما بسوريا، وهناك من الجغرافيين من قسمها إلى قسمين سوريا وفلسطين، أما الرومانيون فسموا القسمين معا بسوريا، ومن المؤرخين من ينسب أصل تسمية المنطقة بالشام إلى تاريخ دخول العرب المسلمين لهذه البلاد حوالي 634م، ويرجع البعض الآخر سبب تسميتها إلى الأصل السرياني حيث أن معنى الشام بالسريانية الطيب وبالفعل المنطقة معروفة بطيب أهلها وخصوبتها الطبيعية، وقيل كذلك:"سميت شام نسبة إلى سام بن نوح واسمه بالسريانية والعبرانية شام"، وهناك من ذكر أنها سميت شاما لأنها تقع شمال الكعبة.

قسم الجغرافيون بلاد الشام إلى 5 أقسام الأولى: غزة والرملة وعسقلان وبيت المقدس، والثانية: الأردن وطبرية والغور واليرموك وبيسان ومدينتها الكبرى طبرية، أما الثالثة فهي الغوطة ودمشق وسواحلها ومدينتها الكبرى دمشق، وقسم رابع هو حمص وحماة وكفرطاب وقنسرين وحلب، أما القسم الخامس الأخير فيشمل أنطاكية والعواصم ومصيصة وطرطوس[3].

أما في ما يخص الموقع الفلكي تقع بلاد الشام فيما بين خطي عرضي 31° و 27° شمالا، وبين خطي عرض 22° و 40° شرقا وبالتالي نلاحظ أنها تمتد بين العروض المعتدلة شمالا إلى غاية العروض الحارة جنوبا ولكن الأغلبية في المعتدل، أما بالنسبة لموقعها الجغرافي فهو واسع الامتداد من جبال طوروس شمالا حتى شمال سيناء جنوبا، ومن البحر المتوسط غربا حتى البادية وبلاد النهرين شرقا، وتشمل حاليا الدول العربية التالية: المملكة الأردنية الهاشمية، فلسطين، سوريا، لبنان[4]، ويجهل العديد أن بلاد الشام كانت عبارة عن إطار جغرافي واحد لفترة زمنية طويلة، وكانت موحدة تحت إطار حكم واحد وهو الدولة للعثمانية

---

[1] ينظر إلى الملحق رقم 01.

[2] أبي البقاء عبد الله البدري، **نزهة الأنام في محاسن الشام**، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان1980م، ص ص 11-12.

[3] نعمان قساطلي، **الروضة الغناء في دمشق الفيحاء**، دار الرائد العربي، ط1، بيروت ، لبنان1879م، ص 5.

[4] مُحَمَّد بيومي بهران، **بلاد الشام**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر1990م، ص11.

منذ 1516م، ولم يتم تقسيمه سياسيا إلى دول أربع إلا بفعل الاستعمار في أعقاب الحرب العالمية الأولى[1].

تتميز التضاريس في بلاد الشام بالتباين واختلاف نوعية تربتها بين سهول خصبة في الجهات الغربية وهضاب شبه جافة على حافة الصحراء في المناطق الجنوبية، بالإضافة إلى وجود مجموعة من الكتل الجبلية الحصينة، ومن أهم المميزات الطبيعية أيضا لبلاد الشام تباين المناخ وتدرجه من المناخ المتوسطي المعتدل إلى الجبلي القاري وصولا إلى الصحراوي الجاف وهذا راجع لموقعها الفلكي كما ذكرنا سابقا، وعليه يمكن القول أنها منطقة انتقال طبيعي بين العالم المتوسطي المعتدل والبيئة الصحراوية الحارة الجافة، وهذا ما يؤثر على عدة جوانب ويجعلها متباينة خاصة في ما يخص الاقتصاد وهو ما سنراه في قسم لاحق[2].

تعرف بلاد الشام تساقط متباين بين الواجهات الجبلية الغربية الكثيرة التساقط وبين الامتداد السهبي شبه الجاف الواقع شرقا، وهو الأمر الذي أوجد اختلافا في الإنتاخ الزراعي بين الجهات الساحلية الرطبة وبين السهول الجافة على أطراف الصحراء، وطبيعة التساقط والوسط الطبيعي المتنوع جعل الفلاحين يتعايشون معه وعليه مارسوا زراعة الأشجار المثمرة في المناطق الجبلية وفي الجهات الساحلية، ويشتغل البعض الآخر بزراعة الحبوب في السهول الداخلية الممتدة من حلب إلى حوران[3]، وبالنسبة للسكان الذين يعيشون في المناطق السهبية المنفتحة على بادية الشام فنشاطهم الأساسي الرعي الذي يعد مصدر عيشهم الرئيسي[4].

---

[1] أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق فتح بلاد الشام**، دار النفائس، ط1، بيروت، لبنان 1980م، ص 15.

[2] ناصر الدين سعيدوني، **دراسات وترجمات في تاريخ المشرق العربي**، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر2012م، ص 56.

[3] حوران: هي بلاد فسيحة الأرجاء مترامية الأطراف واقعة جنوبي مدينة دمشق بحوالي 100 كلم، وهي منطقة مأهولة بالسكان يحدها شمالا وادي العجم وجنوبا بلاد الجاذور ومن الجنوب الشرقي بادية الشام ومن الجنوب الغربي يحدها لواء الكرك والبلقاء ومن الغرب نهر الأردن، وسكانها مزيج من المسلمين والمسيحيين والدروز والبدو بلغوا أواخر القرن 19م حوالي 200 ألف نسمة. بولس مسعد، **لبنان وسوريا قبل الانتداب وبعده**، المطبعة السورية، شارع دمنهور، مصر الجديدة، مصر 1929م، ص ص 25-26.

[4] مُحَمَّد الخطيب، **بلاد الشام في العهد العثماني**، دار علاء الدين ن ط ت،ط1، دمشق، سوريا2018م، ص 145.

ثانيا- النظم السياسية والإدارية في بلاد الشام:

رغم الحقبة التاريخية الطويلة للتواجد العثماني في البلاد العربية(1516-1916م) إلى أن أهم ما يلاحظ هو ممارسة العثمانيين لمهامهم في إطار الحكم والتسيير خاصة مع القرن 19م كان بشكل سطحي ودون اندماخ كامل مع المجتمع، وهو ما أدى إلى اتساع الهوة بين الطرفين مما جعل بعض القوى الدولية والمحلية تستغل الوضع بداية من القرن 18م للانقضاض على الدولة العثمانية وتحقيق أهدافها[1]، وبصفة عامة يمكن القول أن وظيفة الدولة العثمانية كانت بسيطة واقتصرت على ثلاث جوانب أساسية: تأمين الحماية لممتلكاتها من الأطماع الخارجية والدفاع عن الولايات بواسطة قوتها العسكرية، أما الوظيفة الثانية فهي الحفاظ على الأمن والنظام الداخلي وجمع الضرائب ولذلك وزعت المهام على الجيش وسلطات محلية موالية، والوظيفة الأخيرة هي الفصل في الخصومات بين الناس وهذا ما تطلب منها إنشاء إدارة قضائية، أما ما هو خارخ نطاق هذه الواجبات الحكومية خاصة الأمور العامة فقد تركت فيه حرية لسكان الشام وجعلته من مهام الطوائف والمؤسسات الاجتماعية والدينية المحلية[2].

بقيت البلاد الشامية في خصائصها الإدارية خلال العهد العثماني محافظة على سماتها العامة التي كانت موجودة قبل الإلحاق العثماني لها، فالأطر الإدارية التي كانت سائدة ورائجة في الفترة العثمانية ما هي إلا استمرار لسابقاتها السلجوقية والبيزنطية والفارسية والمملوكية، ويلاحظ أن التأثيرات العثمانية انحصرت في الأواسط الحاكمة والأسر الأرستقراطية النافذة وانعدمت بالمقابل بين الأواسط الشعبية التي حافظت على عاداتها وتقاليدها وأنماط معيشتها.

من خلال ما سبق نلاحظ أن الدولة العثمانية اعتمدت على طريقة التسيير غير المباشر بمعنى أنها اعتمدت لإدارة الشؤون العامة والداخلية لولاياتها ورعاية مصالحها على عدة وسائط بينها وبين رعاياها، ومنها الأسر المحلية والإقطاع والشخصيات الدينية والوجهاء وشيوج القبائل والعشائر، ومنذ أن وطئت أقدام

[1] الغالي غربي، **دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي 1288-1916م**، د م ج، ط2، الجزائر 2011م، ص 66.

[2] مُحَمَّد أنيس، **الدولة العثمانية والشرق العربي 1514-1914**، دار الجيل للطباعة، القاهرة، مصر، د ت، ص 142.

العثمانيين البلاد العربية أبدت هذه الفئات تعاونا واضحا وفي بعض الأحيان كانت تتنافس مع بعضها البعض لتقديم الخدمات للدولة العثمانية[1].

قسمت بلاد الشام خلال القرن 19م إداريا إلى ثلاث أقسام وهي حلب، دمشق[2]، طرابلس[3]، وبالنسبة لولاية بيروت[4] فكانت تابعة لولاية دمشق حتى سنة 1887م حيث صدر فرمان بتحويلها لولاية مستقلة يديرها وال، والشيء الوحيد الذي تغير هو التسمية حيث كانت تعرف الولايات سابقا بالإيالات[5] وتحولت تسميتها إلى ولايات وسمي رئيس الولاية بالوالي، ولم يشترط في هذه الفترة أن يكون الوالي عسكريا عكس ما كان معمولا به سابقا، وقسمت الولايات إلى سناجق والسناجق إلى أقضية والأقضية قسمت لنواحي والنواحي قسمت لقرى[6]، أما في نهاية القرن 19م مع بداية عهد السلطان عبد الحميد الثاني(1876-1909) بقيت بلاد الشام مقسمة

---

[1] الغالي غربي، المرجع السابق، ص67.

[2] ولاية دمشق في القرن 19م هي أوسع الولايات الشامية وكانت تشمل القسم الداخلي من فلسطين وحوران حتى معان جنوبا والبقاع غربا وحماة شمالا حتى حدود ولاية حلب. الشيخ محمد سعيد الأسطواني، **مشاهد وأحداث دمشقية في منتصف القرن التاسع عشر1356هـ – 1277 هـ/ 1840– 1861م**، تح ونشر: أسعد الأسطواني، دار الجمهورية، ط 1، دمشق1994م، ص 33.

[3] طرابلس: تعتبر مدينة طرابلس الشام من أقدم المدن الشامية وتذكر بعض الكتابات أن تاريخ تأسيسها يرجع إلى سنة 700 ق.م، وقد عرفت هذا المدينة تطورا كبيرا بعد الفتح الإسلامي حيث كانت مدينة حصينة جدا ولم يتمكن الصليبيون من دخولها إلا بعد 5 سنوات من احتلالهم لأنطاكيا سنة 1104م، وهي حاضرة ثقافية كان بها أحد أكبر المكتبات بالعالم الإسلامي إلى أن الصليبيين دمروها بعد دخولهم، وقد خضعت بعد الصليبيين لحكم المماليك منذ عهد قلاوون1289م، ثم دخلها العثمانيون وسموها لوباك الشام أو دمشق الصغيرة . شارلز ويلسون، **لوحات من القرن التاسع عشر لبنان فلسطين سيناء 150 لوحة وثيقة مع نص مونوغرافي متميز**، تر: محمد شيا، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان 1995م، ص 17.

[4] بيروت: ولاية بيروت هي من المدن الشامية الكبرى والأكثر كثافة سكانية، وتعتبر من المدن التي تمتلك موقعا هاما ولها مناخ جيد مقارنة مع بقية المناطق، وتمتلك أهمية كبيرة بسبب موقعها الساحلي المهم، وكذلك بسبب تربتها الخصبة التي تساعد السكان على ممارسة الأنشطة الزراعية، وهو الأمر الذي أدى إلى تنوع محاصيلها ونباتاتها

Lamartine, **Souvenirs impressions penses et paysages pendant un voyage en orient 1832 -1833 ou note d'un voyage**, Chez l'auteur rué de la ville l'évêque 43, t 6, Paris, France 1861, p 169.

[5] كانت بلاد الشام مقسمة إلى أربعة إيالات الأولى إيالة حلب والثانية إيالة دمشق وكانت تسيطر على أواسط الشام مما يلي إلى الشرق، والثالثة هي إيالة صيدا أو بيروت وكانت تمتد على طول أواسط الشام مما يلي الغرب، أما الإيالة الرابعة فهي إيالة القدس، وكان لكل إيالة أيضا والي يخضع مباشرة لأوامر الباب العالي. ميخائيل مشاقة، **مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان**، إنشاء: ملحم خليل عبدو وواند راوس حنا شخاشيري، مكتبة الجامعة الأمريكية بمصر، مصر1908م، ص 23.

[6] رامي علي عيزوقي، **الأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في لواء بيروت 1839– 1887م قراءة جديدة**، رسالة ماجستير، جامعة تشرين، سوريا 2017م، ص ص 33-34.

لثلاث ولايات وهي دمشق وحلب وبيروت، وأضيفت لها متصرفيتان[1] مستقلتان عن الولايات مرتبطتان مباشرة بوزارة الداخلية وهما متصرفية القدس ودير الزور، بينما أصبح جبل لبنان مستقلا استقلالا تاما[2].

تجدر الملاحظة إلى أن منطقة الشام لم تعرف استقرارا سياسيا في القرن19م وتعاقب عليها العديد من الولاة خاصة بعد نهاية الحكم المصري سنة 1840م، فلم يستطع أي من هؤلاء الولاة تطوير الولايات الشامية أو إحداث تغيرات إيجابية لسكانها، ورغم الجهود المبذولة من قبل السلاطين العثمانيين لإصلاح الأوضاع العامة إلا أن الوضع تفاقم والديون تضاعفت، وهو ما فتح المجال أمام الدول الأوربية للتدخل في الشؤون الداخلية بعد منحها العديد من الامتيازات[3].

ثالثا- مميزات المجتمع الشامي:

لم تتدخل الدولة العثمانية في التركيب الاجتماعي بل تركته يعيش كما كان سابقا في شكل جماعات شتى غير مغلقة على نفسها، ويمكن تقسيمهم إلى جزأين رئيسيين يتفرع منهما أجزاء أخرى أولها الطبقة الحاكمة متمثلة في الجيش والحكام[4]، وتأتي هذه الطبقة في أول السلم الاجتماعي وهم أصحاب النفوذ والمشتغلون في قطاع القضاء، ونذكر على سبيل المثال: الوالي، القاضي، آغا الإنكشارية، الدفتردار، المفتي، وغيرهم من الإداريين في الولايات أو في الأقضية أو في النواحي، ونفوذ هؤلاء يتميز باستقلالية تامة ومتميزة فهم يمثلون السلطة،

[1] المتصرفية: في عهد التنظيمات فصلت القيادة العسكرية والإمارة الإدارية عن بعضهما البعض وأصبحت كل واحدة منها مستقلة، فألغي منصب أمير سنجق ووضع مكانه موظف سامي معروف بالمتصرف، وجمعت عدة أقضية تحت لواء متصرف واحد ولهذا سميت بالمتصرفية. سهيل صابان، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السلسلة 3، الرياض، السعودية2000م، ص 200.

[2] يوسف الحكيم، **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، دار النهار للنشر، ط4، بيروت، لبنان1991م، ص 50.
ينظر إلى الملحق رقم 08.

[3] كاظم حسن جاسم الأسدي، **مدحت باشا واليا لسوريا (1878-1880)**، مجلة جامعة كربلاء العلمية، المجلد السابع، العدد الثاني، العراق 2009م، ص ص 285- 293.

[4] محمد الخطيب، المرجع السابق، ص 145.

ومعظمهم يملك النفوذ والمال وله تجارة واسعة، والوثائق تثبت نفوذ هؤلاء في المجتمع وتدخلهم الدائم في مختلف القضايا[1].

أما الطبقة الثانية هي طبقة المحكومين وتتكون من الزراع والصناع والتجار، وقد نظم كل منها نفسه داخليا بشكل مستقل عن الآخر والعلاقات بينهما كانت في إطار رسمي وسطحي تتخللها برودة وانكماش وعدم ثقة في بعض الأحيان[2]، كما توجد كذلك طبقة رجال الدين والأعيان الذين أولتهم الدولة العثمانية أهمية كبيرة وشكلوا في ظلها طبقة مستقلة حيث منحت العائلات الدينية النافذة رعاية واهتماما خاصا وعهد لهم عدة مهام من بينها: تولي المدارس الدينية، الحكم الشرعي، الإفتاء، نظارة الوقف، وأظهرت سجلات المحاكم أن الوظائف الراقية كانت في أيدي رجال الدين ويليهم في الأهمية الأعيان وهم رجال العائلات الكبرى غير الدينية[3]، كما تميزت المدن العربية الكبرى في العهد العثماني ومنها مدن بلاد الشام بالتنوع السكاني الكبير وهو الأمر الذي سنتبثه في الفصل الأول من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين، إذ تحتوي هذه المدن على خليط عرقي وديني كبير جدا، وتميز سكانها أيضا بخاصية استقبال العناصر الوافدة والترحيب بالغريب مما جعل عددا كبيرا من الأجانب يستوطنوها[4].

رابعا- الملامح العامة للاقتصاد ببلاد الشام:

أ- الزراعة:

سيطر رجال الدولة المقيمون في المدن على الإقطاع الزراعي في بلاد الشام بقوة منذ القرن 19م، واستمر نفوذهم حتى أواخر الخمسينيات من القرن 20م، ويمكن القول أن الزراعة بصفة عامة قد بقيت على طابعها التقليدي، والملاحظ في هذه الفترة أن الدولة العثمانية أهملت هذا الجانب ولم تأت بالجديد ولم تنتهج سياسة بناءة من أجل تطويرها، واكتفت بالحفاظ على النظم الزراعية التي كانت

[1] رامي علي عيزوقي، **الأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في لواء بيروت 1839– 1887م قراءة جديدة**، رسالة ماجستير، جامعة تشرين، سوريا 2017م، ص 122.

[2] محمد الخطيب، المرجع السابق، ص 145.

[3] رامي علي عيزوقي، المرجع السابق، ص 123.

[4] أندريه ريمون، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، تر: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر 1991م، ص 55.

سائدة خلال العهد المملوكي[1]، ولم تعرف أساليب الزراعة تطورا ملحوظا حتى الربع الأخير من القرن 19م حيث بدأت تدخل بعض التقنيات الحديثة من الغرب، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر منطقة فلسطين التي عرفت توافد المستثمرين الأجانب ومنهم الألمان الذين أنشئوا عدة مستعمرات زراعية استعملت فيها وسائل إنتاج حديثة[2].

تنوع المناج وتباين نسبة التساقط أدى إلى تنوع في نمط المنتجات المزروعة وفي كمية الإنتاج ووسائل الزراعة المستعملة، وهذا التنوع شمل أيضا أسلوب الحياة فهناك جماعات ريفية شبه منطوية على نفسها تعيش في المناطق الجبلية الصعبة كجبال لبنان وجبال النصيرية وجبل العرب وهي تمارس نشاطات اقتصادية ذات طابع اكتفائي، وهناك قرى زراعية يعمل فلاحوها في الأراضي الزراعية تحت نظر الإدارة من أجل توفير الأقوات التي كانت الإدارة العثمانية في حاجة إليها، وهناك جماعات كانت على اتصال دائم بالمدن تمتهن البستنة لاسيما في أطراف دمشق ونابلس والقدس وجهات حلب وضواحي حمص وحماة.

اشتهرت القرى الريفية بزراعة الأشجار المثمرة كالزيتون والتين والكرمة والتوت وغيرها، وكانت تغرس بكثرة في المناطق الجبلية الرطبة أو في السهول المتاخمة لها، فاشتهرت ألوية حلب وإدلب وطرابلس وصيدا ونابلس بالإنتاج الوفير من الزيتون والحمضيات، كما عرفت سفوح الجبال ومناطق أخرى كبعلبك وأنطاكية بزراعة شجر التوت لتربية دودة القز، واشتهرت غوطة دمشق بممارسة الزراعة المسقية ببساتين الأشجار المثمرة مثل الزيتون والمشمش، كما اشتهرت ضواحي القدس ونابلس بما توفره من إنتاج جيد للسمسم والزيتون[3]، أما بالنسبة لوضعية الفلاح في بلاد الشام فلم تكن جيدة إذ كانوا يعملون في الأرض وكأنهم أجراء، واكتفوا بالبساطة في الإنتاج بسبب نقص الحوافز، ونشاط الفلاح خلال العهد العثماني بقي على نفس نمط العهد المملوكي محدودا وفعاليته بسيطة[4].

---

[1] محمد الخطيب، المرجع السابق، ص ص 91- 94.

[2] محمد عبد الله محمد شلح، **التعليم في فلسطين في عهد الدولة العثمانية 1516-1917م**، تق:أحمد صدقي الدجاني، دار الإحياء الثقافي، القاهرة2003م، ص ص 76-77.

[3] ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص ص 57-58.

[4] محمد الخطيب، المرجع السابق، ص 98.

ب- الصناعة:

تعد المدينة في بلاد الشام مركز الحياة الصناعية والتجارية وتمركزت معظم الأنشطة بالتحديد في الأسواق، وبصفة عامة كانت الصناعة حرفية ذات طابع يدوي وقليل منها يستخدم قوى محركة كالماء والهواء، والإنتاخ كان بسيطا ولم يعرف تكدسا وفائضا بسبب قلة الطلب وبالتالي الانتاخ كان حسب نسبة الاحتياخ فقط، فأحيانا كان الإنتاخ على حسب الكمية التي يطلبها التاجر الذي يجلب المادة الخام، ولكن هذا لا يمنع وجود صناع خواص يعملون لأنفسهم ويمارسون دور الصانع والتاجر في نفس الوقت، والصناعة القائمة لم تكن تتطلب رأس مال كبير وإنما كانت تتطلب الدقة والإتقان والسرعة لتلبية طلب العملاء و الزبائن.

عرف نشاط الإنتاخ الصناعي المحلي والتصدير تراجعا ملحوظا في القرن 19م خاصة في نصفه الثاني بسبب المنافسة الكبيرة التي كانت تلقاها من المنتجات الأوربية التي عرفت تطورا كبيرا منذ عهد النهضة، وكانت البندقية وإنجلترا وفرنسا تصدر منتجاتها إلى بلاد الشام وبأثمان أقل ونافست بذلك المنتجات المحلية في الجودة والثمن، ولم تعمل الدولة العثمانية على حماية التجارة المحلية بفرض رسوم جمركية مرتفعة بل بالعكس سهلت للأوربيين سبل التجارة[1].

خ- التجارة:

تمتلك بلاد الشام موقعا استراتيجيا هاما بتوسطها للعالم القديم فهي همزة وصل بين إفريقيا وآسيا وقريبة من أوربا، وهو ما جعلها مركزا تجاريا كبيرا لتبادل السلع وعرفت نشاطا تجاريا كبيرا[2]، أما على المستوى الداخلي اشتهرت بكثرة أسواقها الأسبوعية المقامة في المدن والمراكز الزراعية حيث يتم تبادل السلع بين الأقاليم بشكل تكاملي، وتوجد كذلك أسواق محلية أسبوعية وموسمية تعرض واردات الأقاليم المختلفة زراعية وصناعية، ويكون التجار في هذه الأسواق هم أنفسهم

[1] محمد الخطيب، المرجع نفسه، ص 104- 105.

[2] كاظم حسن جاسم الأسدي، المرجع السابق، ص ص 285 - 293.

الصناع أو المنتجين، وتوجد في المدن الكبرى أسواق رئيسية مزودة بشكل دائم ومستمر بمنتجات الصناعة المختلفة والزراعات المتنوعة[1].

ساعد التدفق الكبير للجاليات الأجنبية إلى بلاد الشام على اتساع نطاق التجارة الأوربية مع الشرق وتجارة الشرق مع أوربا، وكان البنادقة يرسلون قوافل السفن الكبيرة مرتين في السنة في الربيع والخريف إلى سواحل الشام والجنويين مرة والمرسيليين مرتين، وقد عاش التجار الأجانب الأوربيون في المدن السورية في خانات خاصة بهم تحت إشراف قناصلهم، وتزايد نشاطهم بفضل الامتيازات التي اكتسبوها وأصبحوا يصدرون منتجات البلاد الشامية نفسها كالصابون الحلبي والمنسوجات القطنية والحريرية، بالإضافة إلى المنتجات النحاسية والزجاجية وبعض المنتجات الصناعية والزراعية كالفستق الحلبي والجوز والصنوبر والزبيب.

بالنسبة للسلع التي كانت تستورد من أوربا كانت متنوعة مثل المنتجات الصوفية والجوج الملون والأطلس المزين بخيوط الذهب والفضة، والمرجان الذي كان يعاد تصديره إلى بلاد الهند ويأتي به تجار مرسيليا من منطقة شمال إفريقيا، إضافة إلى العنبر الأصفر والقصدير والنحاس وخشب البرازيل والكبريت والحديد والورق والزجاخ والأقداح، وقد نافست هذه البضائع المنتجات المحلية وكانت بذلك من أهم أسباب ضعف الصناعة المحلية[2].

خامسا- التنظيمات العسكرية العثمانية في بلاد الشام:

أدى الجيش العثماني دورا مهما في تاريخ الإمبراطورية العثمانية وفي بلاد الشام خاصة، وتألف الجند الشامي من عدة أنواع منها فرق الإنكشارية وفرسان السبايهية[3]، وإضافة إلى هاتين الفئتين برزت في بلاد الشام وفي غيرها من الولايات قوات مرتزقة استخدمها الثائرون على الدولة منذ مطلع القرن 17م، ثم اعتمدتها الدولة نفسها منذ القرن 18م حين تقاعست القوات النظامية عن دعم سلطتها، وأدت الحاجة إلى القوات المرتزقة لتزايد أعدادها ومصادر تجنيدها وتنوعها،

[1] محمد الخطيب، المرجع السابق، ص 117.

[2] محمد الخطيب، المرجع نفسه، ص ص 122-123.

[3] السبايهية: الخيالة والفرسان في الجيش العثماني، واصطلح في استخدامه للدلالة على الخيالة التي يملكها صاحب الأرض الميري، الذي يشترك في الحرب مع أفراد من الذين كلفوا بإحضارهم للحرب. سهيل صابان، المرجع السابق، ص 132.

واستغل سكان بلاد الشام انهيار أنظمة الجيش العثماني فتسربوا إلى عدد من وحداته وصبغوها بالصبغة المحلية[1].

وجدت أنواع متعددة لقوات المرتزقة في بلاد الشام وهي السكبان وهم خليط من كل البلدان، واشتغلوا في حماية القلاع وشكلوا قوات برية وكان منهم الفرسان أيضا، وينقسمون إلى قسمين الطائفة القديمة والطائفة الجديدة، أما الفئة الثانية من المرتزقة فهم قوات اللاوند وهم فرسان بصفة أساسية وجندوا مثل السكبان، وأصل الأوائل منهم من بلاد الروم ومع بداية من القرن 18م اقترن اسمهم بالأكراد[2]، وهناك فرقة أخرى تسمى فرقة الدلاتية ومفردها دلاتي ومعنى هذه الكلمة في التركية طائش، وسميت كذلك بكونها عرفت باندفاع وطيش أفرادها، وهذه الفرقة مجندة من أتراك الأناضول والكرواتيين والبوسنيين والعرب، واعتمد ولاة الشام عليهم كثيرا خاصة في تأمين قافلة الحج، وتوجد فرقة التفنكجية وهم حاملو التفنك أي البارودة ومعظمهم من المشاة، واشتهروا في بلاد الشام مع القرن 18م، والفرقة الأخيرة هم الجنود المغاربة المشاة وقلة منهم فرسان، وهم على العموم من الجزائر وتونس.

إضافة إلى القوات التي سبق ذكرها توجد فرقة القوات الرديفة وهي بمثابة الجيش الاحتياطي، وتتكون هذه القوات بصورة رئيسية على المجندين من القرى والمدن والقبائل البدوية، وأشير إليهم كذلك باسم العشير بسبب تكون أغلبهم من أبناء العشائر المحلية، وفي بعض الأحيان كانت تسمى باسم المكان الذي خرجت منه مثل الشوانفة نسبة إلى منطقة الشوف، وبصفة عامة كانت تستنفر هذه القوات في الحالات الطارئة[3].

من خلال ما سبق نستنتج أن بلاد الشام كانت تعد من أهم المناطق العربية التابعة للدولة العثمانية، ويعود ذلك لعدة عوامل أهمها موقعها الاستراتيجي وكذلك امتلاكها للعديد من المقومات الطبيعية التي جعلت منها محورا ينبض بالنشاط

---

[1] محمد الخطيب، المرجع السابق، ص 69.

[2] تنتمي طوائف الأكراد إلى القبائل العربية البدوية القديمة، وانفصلت عنها في عهود سابقة جماعة هاجرت بأبنائها وعائلاتها إلى إقليم كردستان، وقد كانت تلك الجماعة قبيلة واحدة تتكلم اللغة العربية. محمود بايزيدي، **رسالة في عادات الأكراد وتقاليدهم**، تر: جان دوست، أبو ظبي للثقافة والتراث، ط1، الإمارات 2010م، ص ص 35-37.

[3] محمد الخطيب، المرجع السابق، ص ص 79-85.

والحيوية، وعليه عملت الدولة العثمانية على فرض النظام والانضباط بها من خلال المحافظة على مجموعة من النظم التي كانت سائدة بها قبل ضمها، وأدخلت بعض التعديلات التي ساهمت في استقرار المنطقة خاصة ما تعلق بالجانب الإداري والعسكري.

الفصل الأوَّل

أدب الرحلة

أولاً: أدب الرحلة المفهوم اللغوي والمدلول الاصطلاحي

ثانيًا: أنواع الرحلات

ثالثًا: أهمية أدب الرحلات

رابعا: الرحلة الفرنسية للشرق

أردنا من خلال إنجاز الفصل الأول إعطاء نوع من التفصيل والشرح لأدب الرحلة وذلك نظرا لما له من قيمة تاريخية كبيرة، فهو يساعد الباحثين كثيرا من خلال توفيره لمادة خصبة تمكنهم من بناء تصورات موازية لما كتب محليا، وتوسع مجال بحثهم من خلال طرحها لبعض القضايا الدقيقة والتفصيلية التي قد يتغافل عنها كتاب التاريخ المحلي أو ربما تكون ذاتية مما يجعل بعض المؤرخين يحرفها عن حقيقتها، وبالفعل التمسنا هذه الأهمية من خلال دراستنا التي اعتمدنا في إنجازها بالدرجة الأولى على كتابات الرحالة الفرنسيين، وعليه سنقدم في هذا الفصل مجموعة من العناصر التي تشمل كل الجوانب المتعلقة بأدب الرحلة والأمور الخاصة به، وذلك من أجل فهم مدى مساهمتها في بناء التصورات التاريخية وإجراء المقارنات التحليلية وإثبات الأحداث التاريخية وتفصيلها للخروج بنتائج منطقية قريبة إلى الحقيقة التاريخية.

أولا- أدب الرحلة المفهوم اللغوي والمدلول الاصطلاحي:

01- المفهوم اللغوي:

وردت عدة تعريفات للرحلة في معاجم اللغة ففي لسان العرب نجدها تحت اسم الارتحال بمعنى المسير وهو التنقل من مكان لآخر، وبالتالي يبين لنا هذا التعريف الدلالة الحركية للمصطلح من خلال قيام صاحبها بفعل التنقل[1]، وهو نفس التعريف الذي وجدناه لدى الفيروز أبادي في معجمه اللغوي القاموس المحيط حيث يقول: "... وارتحل بمعنى سار ومضى وانتقل عن المكان إلى مكان آخر..."[2]، كما وردت بنفس المعنى كذلك في تاخ العروس حيث نجد تعريف الرحلة بكسر الراء بمصطلح موازي وهو المسير الذي هو الانتقال من مكان لآخر، ووردت الرحلة بضم الراء بمعنى المكان المقصود والوجهة في الرحلة بكسر الراء فيقال أنتم رحلتي بضم الراء بمعنى وجهتي، وكمثال على هذا المعنى يقول الرحال:"مكة رحلتي" بضم الراء بمعنى وجهتي أو المكان الذي أريد أن أذهب إليه[3].

---

[1] ابن منظور، **لسان العرب**، دار المعارف، القاهرة، مصر، د ت، ص 1611.

[2] الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، مر إع: أنس مُحَمَّد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر 2008م، ص 626.

[3] مُحَمَّد مرتضى الحسيني الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تح: عبد الفتاح الحلو، مر: أحمد مختار عمر- خالد عبد الكريم جمعة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ج29، الكويت1997م، ص60.

وجدت أيضا عدة معاني أخرى لمصطلح الرحلة لدى الزمخشري في كتابه أساس البلاغة، فيذكر كلمة رحل بفتح الراء بمعنى ترك بلده واتجه لمكان آخر وهذا يعني لنا أن الرحلة لها وجهة محددة نابعة من دوافع شخصية لكن دون رجوع، وأورد معنى آخر بقوله أنتم رحلتي بكسر الراء بمعنى وجهتي في السفر وتقريبا هو نفس ما أورده الزبيدي في تاخ العروس، وهناك معنى آخر كأن يقال:"فلان عالم رحلة" بكسر الراء بمعنى لديه علم غزير ويقصده طلبة العلم للاستزادة والتشبع من علمه[1]، والرحلة في اللغة هي السير والضرب في الأرض، والرحال بفتح الراء اشتق اسمه من مصطلح رحلة وهو من انتقل من مكان لآخر[2]، والحركة خلال الرحلة بقطع مسافات تسمى السفر وجمعها أسفار فنقول مثلا سافر فلان إلى مكة بمعنى قام برحلة إلى مكة[3].

02- المدلول الاصطلاحي:

الرحلة نتاخ لمبادرة فردية وقد تكون جماعية تخترق الحدود ويقطع أصحابها المسافات البعيدة من أجل تحقيق رغبة معينة[4]، وهي فعل إنساني موجود منذ التاريخ القديم ولكنه عرف تطورا ملحوظا على مر العصور، والرحلة مرتبطة بالإنسان أشد الارتباط خاصة وأنه يتمتع بغريزة حب المعرفة والاستكشاف، ولديه كذلك الرغبة في التفكير والتأمل وإشباع حاجات النفس والعقل والروح والبدن والتطلع لآفاق بعيدة[5]، وهذا التعريف ينطبق على فئة كبيرة من الناس لكن هناك من يطبقه وهناك من يبقى حالما، وهناك من عرف الرحلة على أساس أنها فن ملتصق بحياة الأمم والأفراد وبالتالي لا يمكن الاستغناء عنها، وهي أداة تصوير حقيقية للحضارات بما تحتويه من طريف الأخبار ونادر الحكايات وعجائب

[1] الزمخشري، **أساس البلاغة**، كتاب إلكتروني، موقع كتب عربية، ص 346.

[2] أ.محمد قرود، **الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق العربي في القرن 11هـ/17م من خلال ثلاثة نماذج أحمد المقري عيسى الثعالبي يحي الشاوي النائلي**، دار الخيل العلمية، الجزائر2016م، ص 103.

[3] عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، **الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها**، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط1، القاهرة، مصر1996م، ص15.

[4] محمد الغاشي، **الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في بناء الصورة**، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، بيروت، لبنان2015م، ص 142.

[5] سهام سديرة، **أدب الرحلة الماهية البنية والشكل**، مجلة دراسات معاصرة، السنة 02، المجلد02، العدد 02، جامعة تسمسيلت، الجزائر، جويلية2018م، ص ص 333-338.

المخلوقات وعادات الأمم وأخلاقهم، وهو الأمر الذي نستشفه ونتذوقه من خلال مطالعاتنا لكتب الرحلة[1].

تنطوي الرحلة على مجال رحب وعلى علاقات إنسانية تعود لجذور تاريخية قديمة، وهذه العلاقات قد تكون بين البشر أو بين البشر والطبيعة، فقد حاول الإنسان منذ القديم السيطرة على الطبيعة بجهاده ضد قساوتها، فنفض عن نفسه ثياب الجمود وانتقل إلى حياة التجوال والترحال بحثا منه على ما هو أفضل، وهي عبارة عن حركة تمس الجانب الجسدي والنفسي للإنسان في نفس الوقت خاصة وأن الإنسان جبل على خاصية حب الترحال والتنقل من مكان لآخر[2]، وبالفعل هذا ما نجده أثناء السفر حيث تتغير أحوالنا وأفكارنا ونرتاح نفسيا ونوسع الإطار، وورد الارتحال بمعنى التنقل من مكان لمكان آخر مما يؤدي في النهاية إلى التغير من حال لحال آخر، والرحلة حركة والحركة هي روح للحياة وتجديد للطاقة، وكل شيء في الحياة هو عبارة عن رحلة فحركة الشمس رحلة وحركة القمر رحلة والزواخ رحلة...[3].

تتم الرحلة بعد أن نقوم بأول خطوة وهي تحديد الوجهة أو المقصد الذي يدفعنا للسفر، ومن المؤكد أن الغرض منها تحقيق أغراض مادية أو معنوية أو كلاهما، ولقد دعانا الإسلام إلى الترحال وتكررت دعوة الله لعباده بالمشي في مناكب الأرض ليرو عجائب ما خلقه[4]، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في أكثر من موضع نذكر منها قوله تعالى:" لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ"[5].

يتقن الرحالة أسس علم الجغرافيا وهي من الشروط الأساسية التي يجب أن تتوفر فيه خاصة وأن الرحلة جزء لا يتجزأ من علم الجغرافيا، وهي حركة تفاعلية

---

[1] نوال عبد الرحمن الشوابكة، **أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع هجري**، تق:صلاح جرار، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط1، القدس، فلسطين2008م، ص52.

[2] سهام سديرة ،المرجع السابق، ص ص 333-338.

[3] مُحَمَّد بن سعود الحمد، **موسوعة الرحلات العربية والمعربة المخطوطة والمطبوعة**، كتاب إلكتروني، موقع طريق الإسلام، ط1، 2007م، ص 4.

[4] لامعة زكري، **الرحلة العلمية بين الأندلس والدولة المرينية ودورها في تمتين الصلات الثقافية خلال القرنين 7/9هـ-13/15م**، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان2009-2010م، ص 27.

[5] سورة قريش، الآية 1-2.

بين الحضارات والأمم لأنها عامل أساسي للاختلاط والتمازج بين الشعوب[1]، والرحلة هي أحد أنواع الأسفار التي تعلق بها الإنسان منذ القديم، ولذلك يقال في ذلك:" الإنسان ولد رحالا"، وهذا القول ينطبق على المسلمين تماما وذلك بسبب اتساع ملكتهم وتعطشهم للمعرفة والاطلاع وحب الاغتراب خاصة إذا ما تحدثنا عن الجانب الديني وهو أداء فريضة الحج واكتساب العلم الشرعي[2]، والإنسان في رحلات دائمة منذ أن يولد حتى يموت وأول رحلة يبدأها هي من رحم أمه إلى دنيا البشر، وما وفاته إلا رحلة من دنيا البشر إلى آخرة سرمدية[3].

يقال كذلك أن الإنسان ولد رحالا، وبسبب اتساع المسالك سار الناس في الأرض واخترقوا الآفاق وتحدوا الأهوال والأخطار، واهتم الناس بالرحلة وأحبوها ولعل من أجمل ما يلخص شغف الناس بالحل والترحال قول ابن زاكور الفاسي:" فإن الرحلة منة من الله نحلة تكسب الغليظ الطباع غاية الرقة والانطباع وتعقب من كابد لها نصبا علما غزيرا وأدبا.."[4]، والإنسان تواق للمعرفة وارتياد المجهول ومحب للاكتشاف، وبالتالي يمكن القول أن الرحلة هدف يتمناه العقل وتسعى إليه الروح[5] لأن الإنسان مخلوق محب للحركة والتنقل وعقله يدعوه إلى ذلك وجسمه يعينه على الانتقال من مكان لآخر، فالحركة هي روح الحياة الإنسانية وسمة أساسية في التركيب الجسدي والنفسي للإنسان[6].

الرحلة هي ضرب من ضروب النشاط البشري وكما ذكرنا سابقا ليست حديثة العهد بل إنها تعود إلى بدايات الجنس البشري[7]، وبدأت الرحلات في إطار ضيق ذي أهداف قريبة المدى، لكن سرعان ما بدأت في التطور بتطور الأهداف والغايات

---

[1] حيدر جاسم الرويعي، **تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوربي من خلال كتابات الرحالة الأوربيين**، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد 10 العدد(3-4)، 2011م، ص ص 35- 59.

[2] أمحمد قرود، المرجع السابق، ص 104.

[3] فؤاد قنديل، **أدب الرحلة في التراث العربي**، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر 2002م، ص 18.

[4] ابن زاكور الفاسي، نقلا عن:مولاي بلحميسي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، ش و ن ت ، الجزائر1981م، ص 9.

[5] نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص17.

[6] فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص 17.

[7] عبد الغني بن إسماعيل النابلسي،**الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز**، تق: أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر1986م، ص 5.

والوسائل، فتخطى الإنسان بفضل ذلك الصعاب وعبر البحار والأنهار والجبال[1]، وبصفة عامة الرحلة لم توجد من العدم فالانتقال من مكان لآخر يكون من أجل تحقيق غرض معين[2]، وبسبب هذه الحركة يتمكن الرحال من مخالطة الناس والأقوام، ومن هنا اكتسبت قيمتها كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية، وكمرصد لجوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة[3]، فبالتالي تعتبر سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة على مر العصور، فالرحالة وهو يطوي الأرض أثناء رحلته يقوم في نفس الوقت بتغطية جميع مظاهر الحياة التي يراها أو يسمعها وينقلها في رحلته[4].

يفضل الرحالة حياة التجول والسفر ويستأنسون بما تراه أعينهم، وفي هذا الصدد يقول أبو الريحان البيروني:"إنما صدق القائل ليس الخبر كالعيان لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده وفي زمان حصوله"، ونورد مثالا عن ذلك فالمشتاق لمكة والمدينة والشغوف بزيارة الأماكن التي عاش فيها الرسول صلى الله عليه وسلم يتمكن من دمج الصورة العقلية بالصورة المكانية بعد وصوله لأداء مناسك الحج أو العمرة، فيتعلق بذلك قلبه أكثر لزيارة المكان وإعادة إحياء هذا الشعور الفياض وهذا ما يعرف باليقين، فالرحلة هي انتقال الإنسان ضمن الفضاء الجغرافي والزمن التاريخي وتزيد قيمتها بالربط بينهما وذلك يتوقف على مدى اطلاع الرحال على تاريخ المنطقة المراد زيارتها[5]، وهي تجربة إنسانية تكشف أشياء غامضة ومسائل تخص الوجود الإنساني[6]، وهي كذلك

---

[1] أوليا جلبي، **الرحلة الحجازية**، تر تق: الصفصافي أحمد المرسي، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر 1999م، ص9.

[2] فاطمة الزهراء رحماني، مُحَمَّد دراج، **الرحلة أداة تواصل بين العرب والغرب الأوربي خلال القرن 19م الرحلة المصرية والتونسية أنموذجا**، مجلة دراسات و أبحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد10، العدد 4 ديسمبر 2018، ص ص 68-76.

[3] حسين مُحَمَّد فهيم، **أدب الرحلات**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت1978م، ص15.

[4] الحسني محمود حسين، **أدب الرحلة عند العرب**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2 منقحة ومزيدة، بيروت، لبنان1983م، ص 6.

[5] أحمد صانع، **الرحلة بين الأدبية والإثنوغرافية مقاربة في نصوص رحلية**، مجلة دراسات معاصرة، المجلد05، العدد02، جامعة تسمسيلت، الجزائر2021م، ص ص 161-177.

[6] سامية آجقو، **الرحلة بين الواقع وفعل الكتابة**، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد21، العدد02، جامعة باتنة، الجزائر، ديسمبر2020م، ص ص 169-182.

مجموعة من الآثار التي تتناول انطباعات المؤلف المسجلة خلال رحلاته في بلاد مختلفة يتعرض فيها للوصف والتسجيل والسرد[1]، والرحلة تاريخ لما أهمله التاريخ وذلك لاتصالها المباشر بالعلوم الإنسانية الأخرى[2]، ولذلك يمكن الاعتماد عليها كمصدر مهم من مصادر كتابة التاريخ المحلي لأي منطقة.

ورد أيضا في التعريف الاصطلاحي أن الرحلة سلوك إنساني حضاري يؤتي ثماره النافعة على الفرد والجماعة فالشخص يتغير بعد الرحلة وبالتأكيد إلى الأحسن في أغلب الأوقات[3]، وهي مغامرة غير مضمونة العواقب يؤسس الإنسان من خلالها حوارا مع المجهول[4]، وبصفة عامة يمكن القول أن الرحالة يختلفون عن بعضهم من حيث إمكانيات دقة الملاحظة وقوة الذاكرة ودرجة الاهتمام بالتفاصيل، وكذلك يختلفون في درجة صدقهم و أمانتهم في نقل الحقائق التي يلاحظونها، كما يختلفون في مدى فهمهم للأمور تحت الظروف المتغيرة التي يخضعون لها[5].

بالنسبة لتعريف مصطلح أدب الرحلة فقد عرفه البعض بأنه شكل أدبي تتداخل فيه عدة أجناس أدبية، وبالتالي هو فن متشابك يجمع الحوار والوصف والسرد وغيرها من الأساليب الفنية، وكل هذا ساهم في تنوع تعريفاته[6]، ويطلق هذا هذا المصطلح كذلك على مجموعة الانطباعات الخاصة بالرحالة، والتي يرصدها خلال رحلاته للبلدان المختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه ويسجله بشكل دقيق[7]، وأدب الرحلة هو علم شمولي غني بما فيه من علم وأدب وخرافة وأسطورة[8]، وأسطورة[8]، وهو نوع من المعاينة والاختبار والفحص والتقصي يقدم للقارئ

---

[1] نورة رحموني، سعاد شابي، **الرحلة والرحالة في الأدب الجزائري**، مجلة رفوف، المجلد07، العدد02، جوان 2019م، ص ص 114-140.

[2] طاهر بن علي، **دور نصوص الرحلة في الكتابة التاريخية**، مجلة روافد للبحوث والدراسات، العدد07، جامعة غرداية، الجزائر، ديسمبر2019م، ص ص 109-132.

[3] فؤاد قنديل، الرجع نفسه، ص21.

[4] سامية آجقو، المرجع السابق، ص ص 169-182.

[5] حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص 6.

[6] زوليخة مجاهدي ، **ملامح الأنثروبولوجية الاجتماعية والدينية في أدب الرحلة رحلة ابن جبير نموذجا**، مجلة أنثروبولوجية الأديان، المجلد16، العدد02، جامعة تلمسان، 2020/06/15، ص ص 823-840.

[7] سهام سديرة ، المرجع السابق، ص ص 333-338.

[8] حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص 9.

معلومات في شكلها النهائي مستعملا في ذلك أسلوب التشويق والتفصيل السردي الوصفي[1].

ثانيا- أنواع الرحلات:

تتعد أنواع الرحلة أنواع باختلاف أغراضها ومقاصدها، وتتنوع وتختلف الأسباب والدوافع التي تدفع الإنسان إلى الترحال، وهذا التنوع يختلف من شخص إلى آخر ومن شعب لشعب ومن زمن إلى زمن، كما تختلف باختلاف الظروف السياسية والتاريخية والاقتصادية وبالتالي لكل رحلة دافع وهدف خاص، ومن هنا سنحاول في هذا الجزء تسليط الضوء على أنواع الرحلة مع ذكر الأسباب والدوافع الخاصة بكل واحدة منها وهي كالتالي:

الرحلة الدينية[2] وتعد من أهم أنواع الرحلات والتي يسعى لتحقيقها جميع الناس، حيث تتوق روح كل بشر إلى زيارة الأماكن المقدسة سواء الإسلامية أو المسيحية أو حتى زيارة مقدسات الديانات الأخرى التي لها معالم مشهورة، والهدف

---

[1] بيير جودا، **الرحلة إلى الشرق رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر**، تر تق: مي عبد الكريم وعلي بدر، الأهالي للطباعة والنشر و التوزيع، ط1، دمشق، سوريا2000م، ص 8.

[2] يعتبر الدافع الديني من أبرز الدوافع للقيام بالرحلات، وهو أبرز ما ميز الرحلات الفرنسية لبلاد الشام التي يمكن القول أن أغلبها كانت ذات طابع ديني، وهدفها الأساسي هو أداء مناسك الحج المسيحي المقدس الذي تعتبر كنيسة القيامة مركزا له، وسنذكر بعض نماذج الرحلات الدينية التي قام بها الرحالة الفرنسيون إلى بلاد الشام في القرن 19م وهي :

من أشهر الرحلات الفرنسية رحلة لامارتين بعنوان ذكريات انطباعات أفكار ومناظر طبيعية أثناء رحلة إلى الشرق 1832-1833، وهي رحلة ليست ذات طابع ديني فقط إنما قدمت العديد من الملاحظات حول الجوانب الأخرى، وكانت من أهم =الكتابات التي أفادت كثيرا قادة الاستعمار وسهلت لهم المهم مثلها مثل كتابات لامارتين في أواخر القرن 18م، ويعود ذلك لدقة الملاحظة والتفصيل في سرد المعلومات، إلى جانب هذه الرحلة نذكر رحلة بودوت فيكتور بعنوان من مضيق البوسفور إلى الأردن ذكريات رحلة الحج، رحلة القافلة الفرنسية عام 1873 بعنوان سعادة وسهولة الحج إلى القدس وبيت لحم، رحلة دونوس مارتن بعنوان في بلد الانطباعات المنقذة لرحلة الحاج، رحلة فيكتور غيران بعنوان الأرض المقدسة، رحلة القس بيكو بعنوان انطباعات عن حاج من الأرض المقدسة في ربيع عام 1855، رحلة الأب بونوتي بعنوان رحلة حج إلى القدس، رحلة القس إيشمان جوزيف بعنوان ذكريات رحلة إلى الأرض المقدسة عام 1874، رحلة القس لاندريوس بعنوان في بلاد المسيح، رحلة ليان جان بعنوان القدس والأراضي المقدسة، ومن هنا نستنتج أن بلاد الشام كانت لها أهمية كبيرة جدا لدى الأوربيين ولذلك بذلوا كل جهودهم من أجل كسب امتيازات بالمنطقة تمكنهم من ممارسة طقوسهم بكل حرية، وسعوا إلى احتلال المنطقة لكن الأمور في تلك الفترة لم تكن مواتية، ويمكن القول أن الرحلات الدينية بالرغم من طابعها التعبدي إلى أنها ساهمت أيضا في إعطاء معلومات دقيقة عن المنطقة استخدمت فيما بعد لصالح الدول الأوربية.

الأساسي من ذلك ملأ الفراغ الديني وتحقيق التوبة[1]، والإنسان في الرحلة الدينية يقطع العلاقة بينه وبين ما حوله، وبالتالي يدخل في أمر خالص لربه من خلال غربته عن الأهل والأصحاب وغيرهم[2]، ومن أهم أنواع الرحلة الدينية لدى المسلمين قصد الحج الذي يعد ركنا من أركان الإسلام، وبالتالي يذهب الحجاج المسلمون إلى الأماكن المقدسة تلبية لنداء الرحمن وتطهيرا للنفس من الدنس والذنوب، وعهدا للسير وفق الصراط المستقيم الذي يرضاه رب العالمين[3].

أصبحت مدينتا مكة والمدينة المنورة بفضل الحج من أشهر بقاع الأرض التي تشد إليها الرحلات ذات الطابع الديني وذلك نظرا لما لهما من أهمية دينية بالغة، إذ أوصى الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بشد الرحال إليها **وقال صلى الله عليه وسلم:"لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى"**[4]، ومقاصد المسلمين فيها متعددة وليست فقط بغرض أداء فريضة الحج فمنهم من يزيد على ذلك بالبحث عن مشايخ معروفين يأخذون منهم العلم الديني النافع وبالتالي ينال منفعة مزدوجة[5]، وقد لقوا في هذه الأسفار الكثير من الصعاب وتحملوا المشقة في سبيل أداء مناسك الحج والحصول على العلم[6]، وكذلك للرحلة الدينية دوافع أخرى كزيارة بعض الأماكن المقدسة غير مدينتي مكة والمدينة مثل الأضرحة والمقابر خاصة أصحاب الطرق الصوفية[7].

بدأت الرحلات الدينية عند المسيحيين بعد حادثة محاولة صلب عيسى عليه السلام، إذ قام تلاميذه وحواريوه بالسفر إلى مختلف بقاع الأرض بغرض نشر دعوته بناء على أوامره، كما تضاعفت الرحلات الدينية المسيحية في العصور الوسطى التي عرفت بعصور الإيمان، وتضاعف عدد الرحلات خاصة الحجية منها إلى

---

[1] مُحَمَّد بن سعود الحمد، المرجع السابق، ص 11.

[2] مصطفى الصديقي، **الرحلة العراقية عام 1139هـ/1726م كشط الصدأ وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان**، تح تع: ميعاد شرف الدين الكيلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان1971م، ص 3.

[3] فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص19.

[4] أبي عبد الله مُحَمَّد البخاري ،**صحيح البخاري** ، دار الحديث ، القاهرة ، مصر ، 2004م ، ص 303.

[5] عبد الغني بن إسماعيل النابلسي، المرجع السابق، ص 5.

[6] أوليا جلبي، المصدر السابق، ص ص 10-11.

[7] فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص19.

الأراضي المقدسة، وأصبحت كتاباتهم بمثابة مرجعية توجيهية ودليلا سياحيا جغرافيا لكل من يريد الحج إلى الأرض المقدسة[1]، وتعد الحروب الصليبية التي بدأت مع سنة 1096م تاريخ محوري لتزايد هذا الرحلات الحجية المسيحية، وفيها عرف المشرق الإسلامي توافد أعداد كبيرة من الأوربيين، وكانت لهم أهداف روحية واستكشافية وسياحية واستعمارية، ودونوا كل ما رأوه من معلومات حول المنطقة مما وفر مادة علمية كبيرة حول المنطقة لكن بنظرة الآخر[2]، ويعد التبشير الذي تبنته الدول الغربية لنشر الديانة المسيحية أيضا يعد عاملا رئيسيا في تزايد الرحلات نحو الشرق، ومن أشهر هذه الرحلات هو ما قام به الرهبان بنشاطهم في الشرق لنشر الرهبانية[3]، وعرفت الرحلات الحجية الدينية المسيحية لبلاد الشام التي تحتوي على أهم المقدسات المسيحية تزايدا كبيرا جدا مع القرن 19م، خاصة بعدما منحت الدول الأوربية وعلى رأسها فرنسا العديد من الامتيازات التي سمحت بحرية دخول هذه الأراضي.

تشكل الرحلة العلمية[4] سمة بارزة في حياة المجتمعات، وتؤكد على التواصل العلمي والفكري والثقافي والاجتماعي بين الأمم والحضارات[5]، والرحلات العلمية هي تلك الرحلات التي قام بها أصحابها بغرض طلب العلم وزيارة علماء البلدان الأخرى والأخذ عنهم[6]، وقد ارتحل طلبة العلم شرقا وغربا من أجل الارتواء من بحور العلم الموجودة في المناطق المقصودة من الرحلة[7]، وطلب العلم والرغبة في

---

[1] حيدر جاسم الرويعي، المرجع السابق، ص ص 35- 59.

[2] حسين مُحَمَّد فهيم، المرجع السابق، ص 25.

[3] حيدر جاسم الرويعي، المرجع السابق، ص ص 35- 59.

[4] عرفت بلاد الشام توافد العديد من الرحالة الذين كان هدفهم الأساسي علمي، وألفوا كتب مهمة تحتوي على كم هائل من المعلومات الخاصة بالمنطقة في كل المجالات، ونذكر على سبيل المثال:

=رحلة ألكسندر لويس أوليفييه دي كورانسز ، خط سير رحلة لجزء غير معروف من آسيا الصغرى، و رحلة بلوندیل إدوارد بعنوان سنتان في سوريا وفلسطين 1838-1839، إضافة إلى رحلة غوتييه تيوفيل المعنونة بالمشرق وهي رحلة قام بها بمناسبة تدشين قناة السوسيس وسجل فيها العديد من المعلومات حول المشرق الإسلامي، رحلة بيرثوس الصحراء السورية، وأخيرا رحلة بونيل لويس بعنوان القدس.

[5] نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص40.

[6] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي1500-1830**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان1998م، ج2، ص382.

[7] مُحَمَّد بن سعود الحمد، المرجع السابق، ص 11.

الاستزادة فيه يدفع طلبته إلى التنقل من مكان لآخر، ويكون هذا المكان المقصود يملك شهرة علمية كبيرة من خلال تواجد عدد من العلماء والمشايخ به والذين يتقنون العلوم المختلفة، ولنا من الأمثلة في هذا المجال الكثير حيث وردت قصص طلاب علم الحديث مثلا، ويذكر أن بعضهم كان يقطع الوديان والجبال ويتحدى الظروف الطبيعية من أجل الحصول على حديث واحد سمع به[1].

عني المسلمون في رحلة طلب العلم منذ صدر الإسلام، خاصة وأن رحلة طلب العلم تعد من أحسن طرق التربية الإسلامية، وحث القرآن على ذلك في الكثير من المواضع كقوله تعالى:" يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكم والَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ"[2]، وقال تعالى:" قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ "[3]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تبين فضل العلم والعلماء على غيرهم من الناس[4]، الناس[4]، والملاحظ أن طلب العلم عند المسلمين أمر مرغوب فيه بكثرة خاصة وأن دين الإسلام يشجع هذا الأمر ويحث عليه، وسمي طلاب العلم بورثة الأنبياء ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم الناس لطلب العلم فأقبلوا عليه ثقة منهم أن الله سبحانه إذا أراد بهم خيرا يفقههم في الدين[5].

رحلات طلب العلم لم تقتصر فقط على المدن الإسلامية الكبرى بالحجاز كمكة والمدينة، بل كانت هناك العديد من المدن التي ذاع صيتها في مشارق ومغارب البلاد الإسلامية، فهذا البغدادي مثلا يشد الرحال إلى دمشق والدمشقي يقصد مدينة بخارى وتونسي يقصد القاهرة[6]، ويحرص طلبة العلم خلال رحلاتهم على تدوين أسماء مشايخهم والإجازات التي أخذوها منهم[7]، كما يصفون المكتبات ودور العلم التي زاروها[8]، والمعروف لدينا أن طلبة العلم أثناء عودتهم يستفيدون كثيرا

[1] فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص19.
[2] سورة المجادلة، الآية 11، رواية ورش.
[3] سورة الزمر، الآية 09، رواية ورش.
[4] وسيلة بلعيد بن حمده، **الرحلة في طلب العلم**، مجلة سيرتا التاريخية الاجتماعية، العدد3، جامعة قسنطينة، ماي 1980م، ص ص 84-89.
[5] فؤاد قنديل، المرجع نفسه، ص31.
[6] أوليا جلبي، المصدر السابق، ص ص 10-11.
[7] لامعة زكري، المرجع السابق، ص 35.
[8] أمحمد قرود، المرجع السابق، ص 107.

مما اكتسبوه بل تصبح لهم مكانة مرموقة وقيمة عالية لدى مجتمعهم، ومنهم من يتمكن بفضل إجازته من الحصول على فرصة عمل في منصب عالي كالقاضي مثلا أو المفتي أو مدرس في إحدى المؤسسات التعليمية الكبرى.

الرحلات العلمية ليست حكرا على المسلمين فقط بل كانت أيضا نشطة لدى دول الغرب المسيحي، وهذا النشاط كانت له أهداف بعيدة المدى يأتي على رأسها التحضير لمرحلة الاستعمار، ولهذا الغرض جندت بعثات كاملة ذات طابع علمي خاصة بالدول الغربية بهدف تقديم دراسات علمية حول الآثار، النباتات، المعادن، المناج، التربة، وتطورت بمرور الزمن أهدافها إلى البحث عن الموارد الطاقوية الجديدة كالنفط مع نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م، ومن أمثلة ذلك رحلة الرحالة وعالم الآثار الألماني ماكس فون أوبنهايم Max Von Oppenhiem والذي ألف كتابين عن مكتشفاته بالألمانية، واستفاد منها مخططو السياسة الاستعمارية بإرسال بعثة للعراق لدراسة المعلومات المتعلقة بوجود النفط بالمنطقة، ولكن ليست كل الرحلات العلمية مسيسة وذات أهداف استعمارية فهناك رحلات هدفها الرئيسي الاستكشاف مثل رحلة الضابط البريطاني ريتشارد بيرتون Richard F. Burton الاستكشافية إلى مصر لمعرفة منابع نهر النيل، والتي مكنته من معرفة الصدر وهو بحيرة تنجنيقا وبالتالي أول أوربي اكتشفها[1]، ولكن بالرغم من أنها لم تكن ذات بعد استعماري إلى أنها أفادت كثيرا قادة الاستعمار وسهلت لهم المهمة بوصفها الدقيق للمسالك والتضاريس وطبيعة المناج وغيرها.

يوجد نوع آخر من الرحلات دافعه التجارة[2] التي تجعل صاحبها يتحرك ويقوم ويقوم بعدة أسفار إلى أراض جديدة[3]، والرحلة التجارية تكون لتحقيق أهداف ربحية ربحية ومن بينها تبادل السلع، فتح أسواق جديدة لبيع المنتجات المحلية، جلب سلع تتوفر ببلاد أخرى وغير موجودة محليا، البحث عن سلع رخيصة مقارنة

[1] حيدر جاسم الرويعي، المرجع السابق، ص ص 35- 59.

[2] نذكر على سبيل المثال الرحلة التي استخدمناها في دراسة الأنشطة التجارية الخاصة ببلاد الشام خلال القرن 19م، وهي رحلة بورومي تشارلز بعنوان سوريا من خلال التقرير التجاري، وهي دراسة مهمة تناولت خصائص الأنشطة التجارية ومكوناتها ببلاد الشام بالتفصيل.

[3] سيد حامد النساج، **مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا**، مكتبة غريب، الإسكندرية، مصر1984م، ص11.

بالمحلية[1]، ومن الطبيعي أن نشاط التجارة يوجب على صاحبه السفر والترحال إلى أماكن بعيدة سعيا للكسب وتوسيع الأفق، وقد تكون هذه الرحلات برية أو بحرية ويتوقف ذلك على حسب موقع الدولة التجاري.

اشتهر العرب منذ القديم كغيرهم من الأمم بالرحلة التجارية خاصة رحلة الشتاء والصيف، وأبحرت سفنهم في مياه المحيطات الكبيرة امتثالا لأوامر ربهم إذ يقول تعالى[2]: " رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه"[3]، وكان لمكة مكانة مهمة فقد كانت مركزا للعالم العربي بل حتى للعالم القديم[4]، وتذكر كتابات المؤرخين أن العرب منذ فترة طويلة تعود إلى ما قبل الإسلام كانت لهم تجارة نشطة، وأغلب الظن أن هذه التجارة لم تقتصر على البر بل كانت لهم أنشطة تجارية بحرية، واشتهروا أيضا بالتجارة مع عدة شعوب كالإفريقية وشعوب جنوب شرق آسيا[5].

كانت الأسواق الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها مفتوحة الأبواب ومرتبطة ببعضها البعض كل الارتباط، ولم يكن التجار يحملون معهم في رحلاتهم بضائعهم فقط بل يحملون ديانتهم أحلامهم، ثقافتهم، معتقداتهم،..[6]، والتجارة من أهم الأسباب التي تدفع صاحبها إلى تدوين رحلته وذلك من أجل تذكر الطرق والأسواق والمراكز التجارية[7]، وبالتالي تكون بمثابة دليل تجاري لبقية التجار الذين الذين يمكنهم الاعتماد عليها مستقبلا في رحلاتهم التجارية.

الدافع السياسي هو عامل آخر يعد من أهم أسباب الرحلات الدبلوماسية، وذلك لأن الظروف التي تميز الدول تجعلها مضطرة لربط علاقات سياسية ودبلوماسية مع الدول الأخرى[8]، والسفارة هي نوع من الرحلات الرسمية الدبلوماسية

[1] فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص20.
[2] سورة الإسراء، الآية 66، رواية ورش.
[3] نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص46.
[4] عبد الغني بن إسماعيل النابلسي، المرجع السابق، ص 5.
[5] فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص25.
[6] أوليا جلبي، المصدر السابق، ص10.
[7] نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص47.
[8] مُحَمَّد الغاشي، المرجع السابق، ص 144.

الدبلوماسية التي تتم بين دولتين، ويوكل فيها الرحالة من قبل حاكم المنطقة، وقد عرفت البلدان العربية كغيرها من بلدان العالم كثرة الرحالات السفيرية وكانت مقاصدها متنوعة كالصلح أو فك الأسرى وتصفية الأجواء السياسية[1].

بصفة عامة هي رحلات ترسل من قبل دولة إلى أخرى لتحقيق أهداف معينة، ويوكلون سفيرا على رأس وفد ينقل الانشغالات المطلوبة، وقد تكون هذه الرحلات في بعض الأحيان سرية خاصة إذا كانت الظروف غير مستقرة[2]، والوفود والسفارات التي يبعثها حكام الدول إلى دول أخرى قد تهدف أيضا لتبادل الرأي وتوطيد العلاقات، أو قد تكون لمناقشة أمور الحرب والغزو أو أمر آخر[3]، أو ربما تهدف إلى توطيد العلاقات السياسية[4]، والرحلة الدبلوماسية هي بمثابة همزة وصل تنقل وجهات نظر الدولة المرسلة للسفارة إلى الدولة المستقبلة، وتكون وجهات النظر هذه حول مختلف القضايا الحياتية كالسياسة، الاقتصاد، التعليم...، ونظام السفارة معروف منذ القدم[5].

كلف مجموعة من الناس بمهمات سفيرية بين الملوك والحكام[6]، وكان الحكام يرسلون أشخاصا مقربين يثقون فيهم لأداء مهمات في البلدان الأجنبية، ونذكر من أمثلة ذلك سفارة التمقروتي[7] سنة 1580م عندما كلفه أحمد المنصور[8]

---

[1] نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص40.

[2] حيدر جاسم الرويعي، المرجع السابق، ص ص 35- 59.

[3] فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص20.

[4] أمحمد قرود، المرجع السابق، ص 109.

[5] عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، المرجع السابق، ص26.

[6] أوليا جلبي، المصدر السابق ، ص10.

[7] التمقروتي: هو علي بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن يحي الجزولي قبيلة و بكري نسبا، الدرعي التمكروتي دارا ومنشأ، ولد سنة 1534م بقرية تمكروت، وهي مركز عمراني صغير يقع بمنطقة واد درعة، وقد كلف بالسفارة إلى عاصمة الخلافة العثمانية اسطنبول في عام 1589م، ووافته المنية في سنة 1594م. قادة دين، **رحلة التمقروتي النفحة المسكية وقيمتها التاريخية والعلمية**، مجلة دراسات تاريخية، المجلد العاشر، العدد الأول، 2022م، ص ص 310-326.

[8] أحمد المنصور: هو أبو العباس أحمد المنصور السعدي بن محمد الشيخ المهدي بن محمد القائم بأمر الله الزيداني الحسني، ولد بفاس سنة 1549م في أسرة الكة لعرش المغرب. جلول بن قومار، **هدايا وعطايا المبعوثين الدبلوماسيين وأهدافها السياسية في البلاط المغربي في عهدي السلطانين أحمد المنصور السعدي والمولى إسماعيل العلوي 1578-1603/1672-1727م**، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 13، العدد 01، 2022، ص ص 275-284.

بالذهاب إلى إسطنبول، وبعد عودته من المهمة الموكلة إليه كتب كل ما رآه وما حدث له في الطريق[1]، وفي هذا الصدد لا يشترط أن السفير الرئيسي يكون هو كاتب الرحلة، فقد يكون الكاتب مشاركا في الرحلة بصفته كاتب أو مترجم للسفير أو أحد أعضاء الوفد المرافق للسفير[2].

يصنف العديد من المؤرخين الرحلة العسكرية[3] على أنها أهم أنواع الرحلة وأخطرها، إذ كان يتم جلب أشخاص خبراء خلال الحملات العسكرية مهمتهم الأساسية تدوين انطباعات وملاحظات في كتب أو على شكل تقارير حول سير الحملة عندما يعودون إلى بلدانهم، كما كانوا يأخذون معهم مهندسين وجغرافيين ومساحين لتجسيد أغراض علمية متنوعة، إضافة إلى ذلك وجدت رحلات عسكرية مخصصة للتجسس يتنكر فيها المكلف بالمهمة بزي معين حتى لا يكشف أمره ويدون المعلومات والتفاصيل دون أي صعوبة[4]، ونذكر في هذا الإطار رحلة التجسس الخطيرة والهامة بالنسبة لفرنسا التي قام بها الجاسوس الفرنسي بوتان في الجزائر عام 1808م، والتي كانت بأمر من نابليون بونابرت[5] Napoléon Bonabert سعيا لاحتلال الجزائر، وسمى بوتان Butane هذا المشروع باستطلاع كامل للمدن والحصون ومدافع الجزائر، وقدم فيه تفاصيل دقيقة عن جغرافية مدينة الجزائر لتحديد مكان إنزال الحملة العسكرية، بل تجاوز الخصائص الجغرافية إلى الخصائص السكانية التي رأى فيها سبيلا لتسهيل مهمة دخول الفرنسيين وذلك عن طريق كسبهم في صفهم،كما لم يهمل أيضا الجوانب الاقتصادية التي يمكن استغلالها لصالح فرنسا، وبالتالي قدم تقريرا مفصلا دقيقا كان نواة لاحتلال

[1] مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 11.

[2] خير الدين يوسف شترة، عصام مصطفى عقلة، **أدب الرحلة والترحال عند التيلانيين خلال القرنين 12-13هـ/18-19م**، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، المجلد07، العدد02، ديسمبر2021م، ص ص 52-89.

[3] نذكر على سبيل المثال رحلة الكبتن دوفيل الذي زار الجزائر أيضا، وهي بعنوان تاريخ ذكريات السفر إلى تدمر.

[4] حيدر جاسم الرويعي، المرجع السابق، ص ص 35- 59.

[5] نابليون بونابرت(1769-1821): قائد عسكري وإمبراطور فرنسي، ولد في جزيرة كورسيكا، وكان نابليون قائدا بارعا للمدفعية واكتسب احترام الجميع وأصبح قائدا للجيش الفرنسي في إيطاليا، حقق العديد من الانتصارات وحكم أوربا تقريبا، ثم أعلن نفسه مستشارا لمدة 10 سنوات ثم لقب بالإمبراطور، ثم دخل الحرب عام 1805م ضد بريطانيا والنمسا وروسيا، وهزم في 1815م، بعدها نفي إلى جزيرة سانت هيلينا التي مات فيها بسرطان المعدة. أحمد مسعودي، **الحملة الفرنسية على الجزائر والمواقف الدولية منها 1792-1830**، دار الخليل، ط خ، الجلفة، الجزائر 2013م، ص 18.

مستقبلي تجسد في 1830م[1]، ومن هنا نستنتج خطورة وأهمية الرحلة العسكرية خاصة في جانبها التجسسي.

قام بعض من الرحالة برحلتهم بدافع شخصي[2] وهو ركوب أمجاد القومية أو لإرضاء حاجته الشخصية وتحقيق أحلامه[3]، ومنهم من ارتحل لرغبة في لذة السفر بالرحلة في حد ذاتها، أو ربما تكون بدافع البحث عن الرزق بعدما يضيق الحال في المكان الذي يعيش فيه[4]، ومن الناس من يسافر بسبب حب تغيير الجو والمناظر وإعطاء نفس جديد للنفس، ولمعرفة الأمور المستجدة الطبيعية والبشرية وللتعرف على المعالم الشهيرة بالعالم وغيرها من الأمور التي تحز في نفس الرحالة[5].

يخوض الشخص المحب للتجول والمغامرة أحيانا رحلات طويلة تمتد لشهور أو سنوات، ويدون خلالها ما يعجبه ويجذب انتباهه أو يخالف ما تعوده[6]، وهؤلاء الرحالة طوافون وهوايتهم وحبهم للسفر كبير، ومنهم من دفعه حبه للمغامرة وتحدي الصعاب بغرض اكتشاف أشياء جديدة تعلو به بكسب مجد قومي[7] كاكتشاف مناطق جديدة أو آثار دفينة أو مصادر معدنية وطاقوية غنية، ومنهم من استهو المغامرة والمخاطرة من أجل كشف نقاب المجهول من الأرض والبشر[8]، وقد يتعرض الإنسان في حياته لعارض لم يكن في الحسبان يدفعه لمغادرة وطنه والهجرة لمكان آخر، كبحثه عن أسباب للرزق أو هربا من ظلم وجور حاكم أو يأسا من

---

[1] بوعزة بوضرساية، **سياسة فرنسا البربرية في الجزائر 1830–1930 وانعكاساتها على المغرب العربي**، دار الحكمة للنشر، الجزائر2010م، ص ص 39–41.

[2] من أمثلة الرحلات ذات الطابع الشخصي التي استعملناها في إنجاز بحثنا هذا رحلة ماركيت لويز بعنوان تذكار سفر سوريا، رحلة بيتيجني كلارا غودسون بعنوان مسافرون شباب في فلسطين، رحلة روجيرون غابرييل بعنوان ذكريات رحلة إلى الشرق، رحلة سيجوسك جان بعنوان رحلة إلى أرض الشك أنجزها الأثرياء رامبال، وبالرغم من أن دافعها كان شخصي إلى أن قيمتها العلمية كبيرة جدا.

[3] حيدر جاسم الرويعي، المرجع السابق، ص ص 35– 59.

[4] أوليا جلبي، المصدر السابق، ص10.

[5] فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص20.

[6] مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 11.

[7] مصطفى بن كمال الدين بن علي البكري الصديقي، **الخطرة الثانية الأنسية للروضة الدانية القدسية**، تح در: عبد الرحمن مُحَمَّد مغربي وعبد الرؤوف خريوش، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، فلسطين 2015م، ص3.

[8] حسين مُحَمَّد فهيم، المرجع السابق، ص 11.

المجتمع الذي يعيش فيه، أو هربا من ظروف اجتماعية قاسية ناتجة عن نكبات وويلات[1].

البحث عن الحرية والتطلع إلى ما وراء الحيز المكاني يعد من أهم أهداف الرحلات الذاتية، حيث يهم صاحب الرحلة السفر في حد ذاته فقط لا الحيز المكاني المتوجه إليه، ويدفعه حب الاطلاع والرغبة في الاكتشاف ومتعة الانطلاق نحو الآفاق لاكتشاف المجهول من الأصقاع وتوسيع الأفق، والسعي لارتياد البعيد وامتطاء أجنحة الرياح والترويح عن النفس[2]، وقد يكون من دوافع الرحلة الذاتية تحقيق أحلام ذاتية ناتجة عن مكبوتات مكتسبة منذ الصغر، وسببها كثرة الحديث عن سحر الشرق، وفي هذا الصدد يذكر الرحالة الفرنسي تاقرينييه Tagrini أنه اكتسب حب الشرق من الحوارات اليومية التي كانت تدور بين والده وبعض العلماء، وهي حوارات حول الشرق وجماله مما ولد لديه رغبة كبيرة لزيارة هذه المناطق[3].

تعتبر الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، وهي ليست وسيلة استكشاف فقط بل هي جزء أصيل من حركة الحياة على الأرض[4]، و الرحلة مرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم بعلم الجغرافيا[5] فإن كان علم الجغرافيا يدرس الظواهر الطبيعية والبشرية لسطح الأرض، ويقوم منهجه في ذلك على تسجيل الظواهر وتفسيرها وتوزيعها على سطح الأرض، فإن الرحالة وهو يدون مشاهداته الجغرافية حول سطح الأرض فهو يعمل في خدمة العلم الجغرافي بوصفه للمسالك والبلدان والأقاليم والمدن والمناج والطبيعة، ويتحدث عن ظواهر توزيع السكان أيضا والتي تعتبر كلها من صميم الدراسات التي يتناولها علم الجغرافيا الطبيعية والبشرية، وبالتالي تعتبر مرجع أساسي ومعين كبير للباحث الجغرافي الذي يدرس هذه الموضوعات[6]، وقد دون الكثير من الرحالة الملاحظات والمواصفات الجغرافية للبلاد التي زاروها بشكل

---

[1] نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص21.

[2] نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع نفسه، ص50.

[3] جان بابتيست تاقرينييه، **رحلة الفرنسي تاقرينييه إلى العراق في القرن السابع عشر سنة 1676**، تر: كوركيس عواد وبشير فرنسيس، الدار العربية للموسوعات، ط1، بيروت، لبنان2006م، ص 9.

[4] حسين مُحَمَّد فهيم، المرجع السابق، ص 18.

[5] لامعة زكري، المرجع السابق، ص 28.

[6] حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص 7.

دقيق وكتبوا كل ما رأوه و ما واجهوه[1]، وبالتالي قدمت الرحلة الكثير لعلم الجغرافيا فقد كان الرحالة في وصفه للمسالك والممرات معينا ومسهلا لعمل الجغرافي، وذلك لأنه يكتب بقلم اتصل مباشرة بالظواهر الطبيعية[2].

اشتهر الرحالة الجغرافيون العرب المسلمون الذين أسسوا لعلم جغرافيا جديد مكمل لما سبقه، ودفعهم لذلك عدة عوامل على رأسها رحلة الحج وضرورة معرفة الطرق والمنازل لأدائها، ورحلة طلب العلم التي تستلزم أيضا معرفة الأمصار، وهناك عامل آخر وهو تحقيق أسباب الفتح لضرب الخراخ والجزية، ولذلك لا بد من معرفة طرق الأمصار الجديدة المفتوحة، كما ترجم العرب الكتب الجغرافية للعربية وأخذوا في تأليف الكتب، ولم يكتفوا بالنقل والدراسة فقط بل ركبوا البحار وجابوا الأقطار شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، وكتبوا ما شاهدوه وصححوا كثيرا من أخطاء من سبقهم ككتابات بطليموس، وعرف القرن 4 للهجرة نضج الكتابات الجغرافية وتهافت الناس في هذه الفترة على التأليف في هذا المجال[3].

سجل المسلمون دورهم في حركة الرحلات لاسيما في علم الجغرافيا ونذكر في هذا المقام مثال بلاد الأندلس التي قدمت الكثير من العلماء الذين سعوا إلى تطوير التراث الإسلامي الجغرافي، وكانت لهم مشاركة فعالة في تطوير هذا العلم والمدرسة الجغرافية الإسلامية[4]، وقد قدم الرحالة والجغرافيون الأندلسيون الكثير من المادة العلمية في المجال الجغرافي، وهي مادة جديرة بالدراسة والتحقيق لما لها من أهمية بالغة، ورغم الدراسات العديدة التي قدمت حولها إلا أنها لا تزال ناقصة ولا تغطي الزخم الهائل من المعلومات التي تحتويها، وعليه لا بد علينا كباحثين الاهتمام بهذا الزخم الهائل من الموروث الثقافي الحضاري[5].

[1] أوليا جلبي، المصدر السابق، ص11.

[2] فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص23.

[3] جرجي زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة**، بيروت، لبنان، د ت، ج2، ص 510.

[4] مُحَمَّد الأمين بلغيث، **دولة المرابطين بالأندلس من مدينة السياسة إلى مدينة العلم**، دار الوعي، ط1، الجزائر2009م، ص 197.

[5] نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص11.

يمكننا القول أن كتب الرحلات الحجازية تعتبر مصدرا مهما من مصادر الجغرافية الإقليمية، وذلك لما تحتويه من وصف دقيق ومشاهدات للمعالم الجغرافية والبشرية التي يمر بها ركب الحج أثناء رحلتهم، فتجد فيها مسالك وأوصاف الأقاليم والشعوب وأنماط عيشها وعاداتها، وما يفصل بينها من أنهر وبحار وجبال، وغير ذلك مما يحسن وصفه ويستغرب للناظر و القارئ[1].

ساهم الرحالة الأوربيون كذلك مساهمة فعالة في تنشيط علم الجغرافيا من خلال رحلاتهم الغزيرة التي قادتهم للعديد من الأرجاء، ومن أمثلة ذلك الرحالة ماركو بولو Marko Polo الذي يعد من أبرز الرحالة الذين حفزوا على حركة الكشوف الجغرافية، وهو الذي حاول كشف المغاليق والأراضي البشرية المجهولة التي كانت تحيط بأوربا مثل الظلام المطبق، وبالتالي قدمت للقارئ حضارة جديدة مختلفة عن سابقتها تفتح له بابا واسعا من الخيال، ثم توالت بعده رحلات فاسكو ديجاما Fasko Digamma وكريستوف كولومبس Christoff Colombos وغيرها من الرحلات التي اقتحمت الأسوار الجغرافية لمناطق جديدة[2].

ثالثا- أهمية أدب الرحلات:

الحديث عن أمر أهمية أدب الرحلات أمر يطول فيه الحديث وذلك نظرا لما لها من فوائد شاملة تغطي العديد من المجالات، وقد تفنن الكتاب في تقديم أهمية الرحلة في شكل جمالي يجذب القارئ ويطرب سمعه، وسنحاول في هذا الجزء تقديم بعض هذه الروائع والمقتطفات الجميلة التي كتبت في هذا الإطار.

تستعمل الرحلات وكتابات الرحالة هي تدوين التاريخ وذلك لما لها من قدرة على سد العديد من الثغرات التاريخية التي تسبب فراغا وتنتج عنها إشكاليات معقدة وبالتالي تسعدنا على بناء تسلسل تاريخي كامل، ومن الضروري أيضا في الدراسات التاريخية توظيف ملاحظات وشهادات وانطباعات الرحالة، وذلك نظرا لما تتضمنه من فوائد ومعلومات تاريخية واجتماعية وتراثية، خاصة وأن المعلومات التي قدموها تتميز بالدقة في الملاحظة والتدوين وإتقانها للوصف والتقصي،

[1] أبي عبد الله مُحَمَّد بن الطيب الشرقي الفاسي، **الرحلة الحجازية**، تق تح: نور الدين شوبد وحسناء بوتوادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية2018م، ج1، ص 46.

[2] بيير جودا، المرجع السابق، ص 10.

وكذلك نقلها للمشاهدات الواقعية المباشرة وغير المباشرة المأخوذة من السكان المحليين والمتواترة بالرواية الشفوية، ومن هنا نقول أن الرحلة تعد مصدرا مهما من مصادر كتابة التاريخ ولا يمكن أبدا للمؤرج الاستغناء عنها.

تصف الرحلة الثقافات الإنسانية ومن المعروف أنها من أهم المصادر في هذا المجال، فهي تسلط الضوء على أوضاع المناطق التي تمت زيارتها في جميع المجالات السياسية، الاجتماعية، الدينية، المذهبية، الاقتصادية[1]، وتمدنا الرحلات بالصورة المأخوذة بطريقة حقيقية من عند شهود عيان للبلدان التي يزورونها، ونجد فيها العديد من الأمور التي لا توجد في الكتب المتخصصة والمحلية المصدرية في أحد هذه الموضوعات إن وجدت، كما أنها تمثل زادا كبيرا ووفيرا لتراجم العديد من العلماء الذين أهملت معاجم الشخصيات تراجمهم أو لم توفهم حقهم[2].

تساعد الرحلة كثيرا الباحثين والدارسين في المجال الجغرافي على اكتشاف مناطق وطرق جديدة إذ أحدثت الرحلات الاستكشافية الجغرافية اتساعا في المنظور المكاني للإنسان ووسعت إطاره الفكري، ولا تقتصر أهمية الرحلة على هذا المجال فقط بل تتنوع بتنوع مجالات الرحلة مما يجعلها مصدرا للعديد من الباحثين في مختلف المجالات والاختصاصات[3]، كما تمكننا الرحلة من معرفة الحقائق والأماكن والاكتشافات الجديدة يوما بعد يوم خاصة وأن الإنسان له رغبة في المعرفة غير المتناهية، وتساعده أيضا في الإجابة عن العديد من التساؤلات التي يطرحها دائما على نفسه كيف؟ لماذا؟.....

تتغير أحوال الإنسان المسافر النفسية إذ يرجع بطاقة وعقلية جديدة، والسفر جامعة مليئة بالدروس والعبر والعلم والمعرفة، وهي وسيلة لحشد العقل والوجدان، وتزيد في الفهم والإدراك، وتكون الشخصية القوية بفضل تمرس صاحبها على تحمل المشقة ومواجهة الصعوبات، وتجعل الفرد ملما بمختلف العادات والتقاليد مما يجعله مؤهلا لمعرفة كيفية التعامل مع مختلف الطبائع،

[1] حيدر جاسم الرويعي، المرجع السابق، ص ص 35- 59.
[2] عبد الغني بن إسماعيل النابلسي، المرجع السابق، ص 7.
[3] حيدر جاسم الرويعي، المرجع السابق، ص ص 35- 59.

ويتعلم الإنسان من الرحلة أيضا لغات ولهجات جديدة، وتجود الرحلة على صاحبها بمكاسب علمية وأدبية لا يمكن حصرها، خاصة إذا كان الرحالة يملك قوة الملاحظة والذاكرة وحب الحوار.

تقدم الرحلة للباحث والقارئ تميزا كبيرا من حيث تنوع أسلوب السرد القصصي المشوق والحوار والوصف[1]، وتشكل ثروة معرفية كبيرة ومخزنا للقصص والظواهر والأفكار وتضع بين أيدينا مادة سردية مشوقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش، وهذه الأمور مستقاة من ما التقطته عيون تتجول وأنفس تنفعل بما ترى[2] وبالتالي هي مادة حية مليئة بالتشويق تجعلنا نعيش اللحظة التي عاشها الرحال، كما تحتوي كتب الرحلة على ما يشرب العقول والأذهان من عجائب التفاسير، مسائل الدين والعقيدة، الفقه، الأصول، البلاغة، النقد، النحو، التصوف، الزهد، الشعر والنثر، التراجم، الأنساب، التاريخ..[3].

الاحتكاك وخلق جو من التبادل الثقافي خاصة في ظل كثرة المناظرات وتبادل الأفكار بين طلبة العلم القادمين من بلاد مختلفة مما يؤدي لتوسع الآفاق[4]، وعليه نقول أن الرحلة هي أداة لتلاقح مختلف المعارف والخبرات بين الأمم والشعوب، ومما سبق هنا نخلص إلى القول أن اتساع أفق الرحالة بصفة عامة يكون بسبب كثرة رحلاتهم وزياراتهم واختلاطهم بالعلماء وأصحاب المعرفة[5]، والسر في هذا التطور العقلي هو ذلك الاحتكاك المباشر.

أولى الإسلام أهمية كبرى للرحلة فهي أداة للموعظة والتبصر ومعرفة الحقائق ومصير الأمم البائدة للاعتبار منها، ولهذا شجع على الترحال ووردت العديد من الآيات في القرآن الكريم تحث على التجوال والسفر، ونذكر منها **قوله**

[1] فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص ص 18-23.
[2] مُحَمَّد علي باشا، **الرحلة الشامية**، تح تق: علي أحمد كنعان، دار فارس للنشر والتوزيع، ط1، الأردن2002م، ص 7.
[3] لامعة زكري، المرجع السابق، ص 27.
[4] لامعة زكري، المرجع نفسه، ص 33.
[5] لامعة زكري، نفسه، ص 37.

تعالى:"فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"[1]، وقوله تعالى:"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"[2]، وقال تعالى أيضا:" قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ "[3]، والآيات التي تبين المواعظ والعبر في القرآن عديدة وموجودة في عدة مواضع نظرا لما للرحلة من أهمية، وهناك أهمية وأغراض أخرى للرحلة لدى المسلمين ونذكر على سبيل المثال معرفة عادات وتقاليد الشعوب الأخرى مما يسهل عملية الفتح بالنسبة للمسلمين، والرحالة يمد قادة الجيوش بانطباعات هامة حول أنماط معيشة هذه الشعوب الجديدة عليهم وميولاتهم، وبالتالي رسم صورة مسبقة عن ماهية هذا المكان الذي يقصدونه، وهذه الفوائد ليست خاصة بالمسلمين فقط بل تشمل كل الشعوب والأمم[4].

تفنن الكتاب في مدح الرحلة ونذكر من أمثلة ذلك ما قاله محمد بن سعود الحمد في حديثه عن أهمية الرحلة:"الرحلة هي ذلك الهوى الرائع، والفعل المؤثر، والفيض الغامر، والوعد الجميل، وسحر المعرفة، والبحر الذي لا يمل الإنسان من السباحة فيه، ويخرج منه في حلة جديدة مقبلا على الحياة، مشحون العقل والقلب، محملا بالفكر والمشاعر، معانقا للطبيعة وقد ألقي في روعه الكثير من عنفوانها، وامتلأ وجدانه بما فيها من جمال ومحبة وسلام، وتصبح لديه رغبة في العطاء والإبداع"[5]، ونذكر أيضا أبرز ما ورد في الحث على الرحلة من أبيات شعرية والتي تنسب إلى الإمام الشافعي رضي الله عنه حيث يقول فيها:

سافر تجد عوضا عمن تفـــــــــــــــــــــــــــارقه وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

[1] سورة آل عمران، رواية ورش، الآية 137.
[2] سورة الأنعام، رواية ورش، الآية11.
[3] سورة النمل، رواية ورش، الآية 69.
[4] مُحَمَّد بن سعود الحمد، المرجع السابق، ص ص6- 7.
[5] مُحَمَّد بن سعود الحمد، المرجع نفسه، ص 15.

إني رأيت وقوف الماء يفســـــــــــــــــــــــــــــــــده إن ساح طـــــــــــاب وإن لم يجر لم يطب

والأسد لولا فراق الغاب ما افترست والسهم لولا فراق القوس لم يصـــــــب

التبر كالترب ملقى في أماكنـــــــــــــــه والعود في أرضه نوع من الحطـــــــــــــب[1]

نلتمس بالفعل في هذه الأبيات الجميلة تحريض للسفر والحث عليه من قبل الإمام الشافعي كيف لا وهو الخبير في هذا المجال والمدرك لقيمته، ويعود تركيزه عليها لما فيها من خير وفضل وتعلم لتحدي الصعاب والمشقة ومعرفة الآفاق والرجال[2].

تساهم الرحلات في تثقيف القارئ وتثري فكره وتأملاته عن الآخرين وهذا ما يدخل في إطار الأهمية التعليمية، ويعود السبب في ذلك إلى أن الرحالة يصورون في كتاباتهم إلى حد كبير ملامح العصر الذي قاموا برحلتهم فيه، وكذلك ثقافة البلدان التي زاروها وأحوال شعوبها الذين اختلطوا بهم، وبالتالي هي مصدر مهم لوصف الثقافات الإنسانية وأخلاقها وطباعها وديانتها، وكذلك تضع الفرد في كفة المقارنة مع الواقع الذي يعيشه ويكتشف الفروق القائمة بين الشعوب[3]، وتعتبر الرحلات أيضا عنصرا مهما من عناصر الاكتشافات التاريخية والأدبية والاجتماعية، وتسهل معرفة نمط معيشة المجتمعات على كافة الأصعدة، فهي مرآة تعكس انطباعات الرحالة وملاحظاته وتجاربه بحيث تمنح القارئ رؤية جديدة، وهو ما يمكنه من بناء تصورات جديدة مأخوذة من نمط حضاري جديد[4].

نقل لنا الرحالة من خلال جولاتهم جوانب مضيئة جديدة عن شرق وغرب العالم، وتتسم كتاباتهم بالدقة أحيانا بسبب قوة الملاحظة التي يتمتعون بها ونقلهم للصور الحية عن الأماكن والمجتمعات التي زاروها مما ساهم في تكوين تراث

[1] أبي عبد الله مُحَمَّد ابن إدريس الشافعي، **ديوان الإمام الشافعي**، جمعه وشرحه: نعيم زرزور، تق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان1984م، ص 36.

[2] عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، المرجع السابق، ص22.

[3] سيد حامد النساج، المرجع السابق، ص8.

[4] مصطفى بن كمال الدين بن علي البكري الصديقي، المصدر السابق، ص3.

علمي وثقافي كبير، كما توفر الرحلة معلومات للباحث باعتبارها منبع غني لمختلف مظاهر حياة المجتمعات البشرية بما فيها من صور وأخبار ومغامرات، ومعارف وعلوم وخزائن تحفل بالمادة الثرية لا في مجال الجغرافيا والتاريخ فحسب بل تلم بكل جوانب الحضارة فهي تجربة تعكس صورة الإنسان وتطورها عبر العصور[1].

تكشف الرحلات ما لا يكشفه التاريخ، فالتاريخ هو علم عام وشامل يصور للقارئ حياة البلدان الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، أو يبين نظم الحكم لشعب من الشعوب، وكل هذا تمكنت الرحلات من تحقيقه غير أنها تعطي لكل شيء حقه وبعده المناسب، وتحلل جوانب لم يحللها التاريخ، وبالتالي تضع كل ذلك في دائرة الإشعاع الفكري الشامل، وتساهم كذلك في إخراج التاريخ من حدوده الضيقة إلى نطاق أشمل وأكثر حيوية، وإلى جانب ذلك للرحلات أيضا قيمة فنية وعلمية وتكمن قيمتها العلمية في تزويد أهل التاريخ والجغرافيا والآثار والأدب وغيرهم بمعلومات قيمة، بل إن الرحالة أنفسهم يحصلون على علم وافر وتجارب كثيرة في مختلف الميادين، أما القيمة الفنية فتتمثل في تزويد القراء بمعلومات وصور ممتعة وأخبار تستعرض الأحداث بصورة أدبية تتسق مع النفس البشرية، وبالتالي تشكل رافدا مهما من روافد الفن والمتعة الأدبية[2]، فالرحلة تعطي للقارئ متعة خاصة وترفيه لاسيما عندما يبدع الرحالة في وصف جمال الطبيعة الزاخرة بالألوان، وتنوع صور الطبيعة من سماء زرقاء وبحر جميل وصحراء ساحرة وشمس ساطعة، وتنوعت أساليب وطرق تعبير الرحالة عن ملاحظاتهم مما يعطي للقارئ مجالا رحبا وأفقا واسعة في المطالعة[3]، وهو ما يساهم في زيادة نسبة القراءة لفن التاريخ حيث تخرخ المادة العلمية من السرد الممل إلى الوصف الجمالي الرائع.

تساهم في إصلاح بعض الجوانب الفاسدة أو الناقصة من خلال ملاحظات الرحالة الدقيقة الشاملة، وقد يقدم الرحالة في حد ذاته نقدا لواقع رآه بأم عينه وبالتالي يمكن القول أن الرحلات تعد دائرة من التكامل الثقافي المعرفي[4]، كما تقدم صورة الآخر لقرائها وترسخ عن الغير مجموعة من الانطباعات العامة، وتقدم

[1] نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص ص 11 -17.
[2] نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع السابق، ص53.
[3] عبد الله ركيبي، المرجع السابق، ص12.
[4] نوال عبد الرحمن الشوابكة، المرجع نفسه، ص77.

تصورات عن الشعوب سواء صادقة أم خاطئة، وساعدت الرحلة الإنسان في اكتشاف عالمه المحيط به[1]، وللرحلات قيمة كبيرة فهي تعد من أكثر المدارس تثقيفا للإنسان وإثراء لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين، فالسفر تعليم للصغير، وخبرة للكبير[2].

تمكن الرحلة الفرد من الوصول إلى مرتبة المقارنة والتقييم بين أنماط المعيشة[3]، وتلعب الرحلة دور الناقل لمختلف المظاهر لتضعها بين أيدي المتخصصين الذين يحتاجون إليها كل حسب اختصاصه ويستخدمونها حسب احتياجاتهم ومجالات تخصصهم[4]، كما تحتوي الرحلات على معلومات غزيرة تخص جميع المناطق خاصة المناطق النائية والصعبة التي لم تعرف توافدا بشريا كبيرا، فهي تساعد الباحثين والأدباء والمؤرخين على معرفة أنماط جديدة ومتنوعة عن حياة المجتمعات، وأيضا من المعروف أن ملامح الرحلات قديمة قدم تدوين الرحلة التي تكون مفصلة أحيانا، وبالتالي تمكن عالم الاجتماع من أن يجد ما يلائمه في إطار تخصصه، ويتمكن من خلالها من إجراء مقارنات بين الأمس واليوم، ويعرف اهتمامات الناس في الماضي وكيف كانت نظرتهم إلى واقعهم وإلى الأحداث التي تجري من حولهم، ونظرتهم إلى الدين والأخلاق والاجتماع، وما إلى ذلك من الأمور التي تعطينا صورة حية عن حياة الناس[5]، وهي مصدر هام من مصادر كتابة تاريخ أي شعب في فترة من فترات تاريخه، وكلما تضاعفت وتنوعت أدبيات الرحلة كلما قرب تاريخ المنطقة للحقيقة، حيث تعرف الجزئيات وتطورات الأحداث[6].

تشكل الرحلة في أطوار مدها وجزرها جسورا من العلاقات العلمية والثقافية بين الأمم والشعوب، وترسم سبلا جديدة للعلم كما تساهم في إعادة تشكيل الخريطة الجغرافية العلمية بين المدن والقرى، وتبعث روح التنافس بينها لفرض

[1] حسين محمد فهيم، المرجع السابق، ص 8.
[2] حسين محمد فهيم، المرجع نفسه، ص 15.
[3] حسين محمد فهيم، نفسه، ص 17.
[4] حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص 7.
[5] عبد الله ركيبي، **الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز**، دار الحكمة، الجزائر1998م، ج1، ص ص 10-11.
[6] محمد الهادي الحسني، المرجع السابق، ص 5.

سمعتها وسيطرتها واكتساب صيت علمي[1]، فبقدر ما تعد الرحلة فحصا للأغوار ووصفا للأمصار وتقصيا للحقائق والأحوال والأوضاع الجغرافية والاقتصادية والبشرية والثقافية فهي تعد في نفس الوقت عامل للتزود بالعلوم والمعارف، والأخذ من عند مشايخ وعلماء والتتلمذ على أيديهم[2]، ويتحدث في هذا الصدد ابن خلدون في مقدمته عن أهمية الرحلة لطالب العلم وضرورتها لتلقي العلوم إذ يقول:"... فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"[3]، ومن المعروف أن الحصول على العلم من أفواه العلماء مباشرة أحسن بكثير من السماع والنقل، والتقابل مع الشيخ يعد من أسمى فوائد الرحلة العلمية حيث يحصد صاحبها خيرا كثيرا وعلما واسعا.

تشكل الرحلة بكل أنواعها جسرا للتواصل الفكري والثقافي والروحي بين مختلف الأقطار والأجيال[4]، ولعب الرحالة دورا بارزا في توطيد هذه الصلات، وجسدوا مظاهر للتأثير والتأثر على جميع الأصعدة، وأسهم هذا الفضاء في إنتاخ رصيد تراثي كبير وفريد من نوعه[5]، وتوفر الرحلات العديد من المعلومات ولذلك تصنف في المصادر من الدرجة الأولى، وذلك نظرا لتنوع وجهات النظر التي تعبر عنها الظروف التي كتبت فيها، فهي لا تقل أهمية عن الكتابات المحلية وحتى السجلات الرسمية، بل وتصبح في حال غياب الوثائق والمصادر المحلية مصدرا أساسيا لا يمكن الاستغناء عنه[6].

---

[1] مُحَمَّد صالح الجابري، **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962**، ش و ن ت، الجزائر1983م، ص 19.

[2] عبد العزيز فيلالي، **بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط**، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر2014م، ص 66.

[3] عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة إبن خلدون**، إع در: أحمد الزعبي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر2009م، ص 618.

[4] أمُحَمَّد قرود، المرجع السابق، ص 111.

[5] ليلى غويني، **التواصل الثقافي للرحالة الجزائريين مع العلماء المغاربة في العصر الحديث**، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 14، جامعة الجزائر2، الجزائر2012م، ص ص 213-233.

[6] هابنسترايت، **رحلة العالم الألماني ج أو هابنسترايت**، تق تع تر:ناصر الدين سعيدوني، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر2013م، ص 9.

تتعدد نقول الرحلة ويعود السبب في ذلك كثرة مصادرها وتنوعها[1]، كما تعتبر الرحلة شهادة حية عن أحوال منطقة معينة[2]، والرحلة هي مصدر لشاهد عيان يدفع أسلوبها البحث إلى التشوق لمزيد من الدراسة[3]، كما تزخر الرحلات بالملاحظات التي يستغربها ويتعجب منها الرحالة خاصة تلك التي تتعلق بالآثار القديمة والعادات والتقاليد التي تشكل جزءا من هويته.

الرحلة وسيلة نافذة نلج بها لعالم الآخر وتعرفنا على صفاته مما يتيح فرصة الاستفادة منها، كما يعد أدب الرحلات إحصاءات أثنوجرافية عامة الفائدة لدراسة الثقافة والحضارة الإنسانية ودراسة طبيعة المجتمع الإنساني وخصائصه، وذلك من منطلق أنثروبولوجي خاصة وأن مؤلفات الرحالة تزخر بنصوص بها مضامين أنثروبولوجية، كوصف الأقاليم وعادات وطبائع السكان والأعراف المتوارثة وأساليب الحياة والممارسات اليومية[4]، وبالفعل التمسنا من خلال دراستنا للموضوع جميع هذه الجوانب الاجتماعية في كتابات الرحالة الفرنسيين.

تجعل الرحلة وحدة الإنسان أمرا واقعا محتوما وذلك لما لها من قيمة إنسانية، ويتجسد هذا بالاختلاط والتعارف بين مختلف الأجناس، وبالتالي تشكل الرحلة عاملا مهما للوحدة بين الشعوب وبدونها ينفرط عقد الصلة وتتضرر حركة الحياة ومصيرها المشترك، والرحلة تمنح لصاحبها وعيا بذاته وذلك من خلال معرفة الآخر وخصوصياته، فالرحالة يتعرض لشتى التجارب والمغامرات بعيدا عن موطنه ومن خلالها يميز ذاته ويعرفها، كما أن الرحلة هي واقع ضمن الدراسات الإثنوجرافية التي تساعدنا على فهم مسار الحضارة الإنسانية، وذلك لأن التنوع الثقافي يساهم لا محال في التغير والتطور الإنساني[5].

---

[1] عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، **رحلة إبن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبا عن النسب والحسب والحال**، تق تح تع: أبو القاسم سعد الله، ش و ن ت، الجزائر 1983م، ص 23.

[2] عبد القادر صحراوي، **الأولياء والتصوف في الجزائر خلال العهد العثماني1520-1830**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2016م، ص 246.

[3] أحميدة عميراوي، **الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني(مذكرات تيدنا أنموذجا)**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر2003م، ص7.

[4] سهام سديرة ، المرجع السابق، ص ص 333-338.

[5] أحمد صانع، المرجع السابق، ص ص 161-177.

تقدم كتب الرحلات الجغرافية معلومات كثيرة للجغرافيين والباحثين والمغامرين، وكذلك تقدم الإضافات لعلم الجغرافيا عن طريق كشف النقاب عن العديد من المظاهر الطبيعية التي كانت مخفية ومجهولة، وفي هذا الصدد نذكر قول المسعودي في بداية مؤلفه مروخ الذهب ومعادن الجوهر حيث قال:"...وقدمنا القول في هيئة الأرض، ومدنها، وعجائبها، وبحارها، وأغوارها، وجبالها، وأنهارها، وبدائع معادنها، وأصناف مناهلها، وأخبار غياضها، وجزائر البحار، والبحيرات الصغار...، وما كان نهرا فصار بحرا، وما كان بحرا فصار برا، ...وسببه الفلكي والطبيعي..."[1].

لا يمكن كتابة التاريخ إلا بالاعتماد على سندات تثبت الوقائع والحقائق التي حملها الماضي، وتعد النصوص من أهم وأحسن ما يعتمد عليه كاتب التاريخ لإثبات الحقيقة، ومن أهم أنواع النصوص كتابات الرحلة التي تحمل نصوصها كل الصور التي استطاعت القرائح التقاطها رؤية أو سماعا[2]، ويذكر رفاعة رافع الطهطاوي صاحب كتاب الرحلة الشهير "تلخيص الإبريز في تلخيص باريس" أن الشاهد يرى بحواسه أمورا لا يراها الغائب الذي يسمع ويقرأ فقط، وقال في هذا الصدد الأبيات الشعرية التالية:

و إذا كنت بالمدارك غـــــرا ثم أبصرت مدركا لا تمار

و إذا لم تر الهلال فســـــلم لأناس رأوه بالأبصـــــــــــــــــــــار[3]

رابعا- الرحلة الفرنسية للشرق:

01- العالم الأوربي وصلته بعالم الشرق:

يكتسي الشرق أهمية حضارية وإنسانية كبيرة كما أنه يتميز بأنه مركز لتنوع ديني وقومي، كلها عوامل جعلته يشكل مركز جذب وصار الوجهة الرئيسة للرحالة

[1] أبو الحسين بن علي المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تق: محمد السويدي، موفم للنشر، الجزائر1989م، ج1، ص 3.

[2] طاهر بن علي، المرجع السابق، ص ص 109-132.

[3] رفاعة رافع الطهطاوي، **تخليص الإبريز في تلخيص باريز أو الديوان النفيس بإيوان باريس**، تق: الصغير بن عمار، موفم للنشر، الجزائر2007م، ص 4.

والمستكشفين خاصة الأوربيين[1]، والشرق يعد مكان غير محدود وواسع في نظر الأوربيين، ومن المعروف أنه أكبر سنا بالنسبة لأوربا وأقدم منها[2]، وقد اهتم الرحالة الغربيون به وأغوتهم الحكايات المتعلقة بجماله، وآثاره القديمة وبحره والمساحات الخضراء والأسواق والمنازل وغيرها من الأمور التي تعطي المكان سحره[3]، ولا شك أن من العوامل المساعدة في كتابة التاريخ الصورة المتبادلة بين الشعوب والحضارات، ولقد استقطب الشرق بشكل خاص اهتمامات الرحالة الفرنسيين الذين استوحوا موضوعات كتاباتهم من ملحوظات أسفارهم[4]، ولم تكن الرحلة الفرنسية إلى الشرق الإسلامي هي الوحيدة من نوعها في التاريخ، بل كان هناك رحلات قادمة من مختلف الأقاليم الأوربية تجوب مختلف المناطق الإسلامية، وكلها رحلات نابعة من دافع معرفة الآخر وفهمه وكذلك طرح فكرة التنوع الثقافي واللغوي والسلالي والديني بين مختلف الحضارات[5].

توافد الرحالة الأوربيين على الشرق يعود إلى عصور قديمة، وذهب الباحث حيدر جاسم الرويعي إلى تقسيم تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوربي لثلاث مراحل أساسية أولها: محاولة الرحالة الأوائل اكتشاف الشرق لاسيما أنه حيز جغرافي كان مجهولا بالنسبة لهم ومما زاد شغفهم وشوقهم هو أن هؤلاء الرحالة كان لهم اهتمام كبير بمعرفة الكون وفلسفته، ثم انتقل هذا المفهوم إلى مرحلة ثانية وهي: مرحلة شهدت صراع بين الإسلام والمسيحية خاصة بعد التوسع الكبير الذي عرفته الحضارة العربية الإسلامية، وبالتالي أصبح الشرق بمثابة العدو والمنافس وقد اكتسى مصطلحا الشرق والغرب معنى إيديولوجيا مرتبطا بالأنا والآخر، أما المرحلة الثالثة فتحول فيها الشرق إلى ساحة للتنافس السياسي والاقتصادي

[1] حيدر جاسم الرويعي، المرجع السابق، ص ص 35- 59.

[2] إدوارد سعيد، **الإستشراق المفاهيم الغربية للشرق**، تر: مُحَمَّد عناني، رؤية للنشر و التوزيع، ط1، القاهرة،مصر2006م، ص 272.

[3] Mohamed adel majed hasanat , Mohammed al katib, **Poétique de la ville orientale dans les récits de voyageurs francais en orient au xixéme siécle**,Tishreen University Journal of Scientific Studies and Research, Series of Arts and Humanities Volume (26) Issue 2, 2004, p p 163-179.

[4] ليلى جباري، **تمثلات الشرق في أدب الرحلة الفرنسي**، مجلة العلوم الإنسانية، العدد48، قسنطينة، ديسمبر 2017م، ص ص 39-46.

[5] بيير جودا، المرجع السابق، ص 7.

والديني بين الدول الأوربية لتحقيق أهداف مختلفة، ومن أبرز الدوافع التي جعلت الأوربيين يقومون بالرحلات اتجاه الشرق هو الرغبة في فك شفرات وطلاسم وأسرار هذا العالم لتحقيق أهداف بعيدة وقريبة المدى[1].

يمكن القول أن رحلة ماركو بولو Marco polo إلى الشرق تعتبر القنطرة التي ربطت أوربا بالمنطقة، وهي التي فتحت مجالا واسعا لاستكشاف المنطقة والارتباط بها، لاسيما أهل البحر الذين كان يغريهم سحر الشرق وغناه، ومن هنا بدأ عصر الكشوف الجغرافية الكبرى[2]، ويمكن القول أيضا أنه مع بداية عصر النهضة الأوربية ازداد الاهتمام بالشرق، وقد ساهم في نمو ذلك الفكر الإستشراقي مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية، وأصبحت عبارة عن منظومة معرفية تسعى لخدمة أغراض الغرب الاستعمارية، وهي نابعة من تصور الغرب الذي يتعامل مع الشعوب الأخرى بنظرة مركزية، وهو الأمر الذي عكسته حملة نابليون بونابرت على مصر[3]، وقد ألف المستشرقون الكثير عن الشرق وعرف النشاط الإستشراقي اتساعا كبيرا وتطورا ملأ دروب الشرق، وقدموا صورا غزيرة عن الشرق ملأت مجلدات لا تحصى ونذكر منها بوجه الخصوص الكتابات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية، ونشاطهم هذا قائم على أساس مبدأ الاستئثار بالأشياء والتهيؤ التام لترويج صور عن الشرق كألف ليلة وليلة وذلك لتغذية أذهان الغربيين ومخيلاتهم[4]، وبالتالي يمكن القول أن هذه الإستراتيجية الخطيرة كان هدفها الرئيسي بعيد المدى وهو تهيئة الرأي العام للغزو الفكري والعسكري للشرق.

حظي الشرق بأهمية كبيرة لدى الأوربيين منذ القرن 17م واشتهر في هذا القرن رحالة القساوسة الكبوشين[5]، وأخذت ملاحظات الرحالة حيزا كبيرا من الكتابات التاريخية الأوربية حول الشرق، وساهمت بنسبة كبيرة في رسم نظرة الآخر للشرق، وتأسست في الغرب معاهد ومراكز مخصصة للدراسات الشرقية ممولة من قبل السلطات الحاكمة، ومن أمثلة ذلك معهد دراسات الشرق الحديث في برلين

[1] حيدر جاسم الرويعي، المرجع السابق، ص ص 35- 59.
[2] حسين مُحَمَّد فهيم، المرجع السابق، ص 26.
[3] يوسف بكار، خليل الشيخ، **الأدب المقارن**، منشورات جامعة القدس المفتوحة، ط1، عمان، الأردن1996م، ص 215.
[4] مُحَمَّد علي باشا، المصدر السابق، ص 7.
[5] بيير جودا، المرجع السابق، ص 10.

بألمانيا والذي يعود له الأثر البارز في إرساء معالم الإستشراق الألماني، كما كان له دور كبير في تأسيس معهد اللغات الشرقية ببرلين سنة 1887م[1]، وسعى المستشرقون من خلال كتاباتهم حول الشرق إلى تكوين رصيد معرفي غزير يكون ذلك من خلال وصفه وإعادة توزيعه وتشكيله ضمن فروع الدراسة العلمية[2].

02- طبيعة العلاقات العثمانية الفرنسية:

قبل الحديث عن اهتمامات وأطماع فرنسا نحو الشرق لا بد علينا الحديث عن طبيعة العلاقات العثمانية الفرنسية وتطوراتها، فالدارس لتاريخ العلاقات العثمانية الفرنسية يخلص إلى أن الاهتمامات الفرنسية بربط علاقات مع الدولة العثمانية يعود إلى فترات متقدمة، وقد سعت فرنسا منذ بداية القرن 16م إلى ربط علاقات متينة مع الدولة العثمانية في وقت كانت فيه معظم الدول الأوربية معادية لسياسة الدولة العثمانية وتوسعاتها الواسعة التي أصبحت تهدد أوربا بأسرها، وعليه سنحاول في هذا الجزء معرفة التطورات التي عرفتها العلاقات العثمانية الفرنسية في المرحلة الممتدة من القرن 16م حتى بداية القرن 19م.

تنافس كل من شارل الخامس(1519-1556م)[3] من آل هابسبورغ وفرانسوا الأول(1515-1547م)[4] من آل البروبون وهو ملك فرنسا على تولي تاخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة بداية من القرن 16م، وتمكن في الأخير شارل الخامس من انتزاع الملك ليبقى فرانسوا الأول حبيس بين أراضي إسبانيا والنمسا، وعليه عمل فرانسوا الأول على تقوية علاقته مع الدولة العثمانية لضمان حليف قوي يمكنه من

---

[1] حيدر جاسم الرويعي، المرجع السابق، ص ص 35- 59.

[2] بيير جودا، المرجع السابق، ص 6.

[3] شارل الخامس: يلقب أيضا بشارلكان، وهو ينحدر من سلالة أرشيدوغ هابسبورغ وهي أكبر وأقدم أسرة حاكمة في أوربا، وأسست إمبراطورية روما المقدسة ما بين 1273-1438م، ثم حكمت إسبانيا ومعظم ممالك أوربا ما بين 1516-1700م، وشارل الخامس هو من أعظم أباطرة هذه السلالة، وهو ابن فيليب الجميل،وسيطر في عهده على معظم الأراضي الأوربية. مُحَمَّد دراج، **الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس(1512-1543)**، تصدير: ناصر الدين سعيدوني، شركة الأصالة للنشر،ط3، الجزائر2015م، ص 28.

[4] فرانسوا الأول: هو ملك فرنسا في الفترة الممتدة من 1515م إلى سنة 1547م، عقد مع السلطان العثماني سليمان القانوني معاهدتين الأولى سنة 1528م، وفيها حددت مجموعة من الامتيازات لصالح فرنسا، والثانية كانت سنة 1535م والتي كانت أكثر شمولا من الأولى

www.djelfa.info/vb/showthread.php?t=791129

خلق توازن في أوربا فلجأ إلى الدولة العثمانية[1]، وبالفعل تمكنت فرنسا بداية من القرن 16م من تحسين علاقاتها مع الدولة العثمانية، وحصلت على العديد من الامتيازات خاصة في الجانب التجاري، ففي سنة 1508م أصدر السلطان العثماني بايزيد الثاني (1481-1512م)[2] فرمانا منح بموجبه بعض الامتيازات للتجار الفرنسيين لممارسة الأنشطة التجارية في المناطق التابعة للدولة العثمانية، وفي سنة 1532م أمضيت معاهدة بين الدولة العثمانية وفرنسا وكانت الأساس لجميع المعاهدات التي ستأتي لاحقا، وبفضلها منحت فرنسا عدة امتيازات من بينها امتياز حماية الرعايا الكاثوليك المتواجدين بالشام، مما أكسبها صفت تنفرد بها عن بقية الدول الأوربية[3]، وفي سنة 1535م عقد السلطان العثماني سليمان القانوني(1520-1566م)[4] معاهدة جديدة مع فرنسا منحها بموجبها العديد من الامتيازات، ويمكن القول أنها هي التي عبدت الطريق لفرنسا أكثر من أجل التدخل في شؤون المسيحيين المقيمين في أراضي الدولة العثمانية مستغلة الصراع الطائفي القائم في المنطقة[5]، وتعتبر هذه المعاهدة أول اتفاق رسمي عثماني أوربي وبتوقيعها بلغت العلاقات ذروتها بين الدولة العثمانية وفرنسا[6].

توطدت العلاقات العثمانية الفرنسية بعدها في عهد الملك الفرنسي هنري الثاني (1547- 1559م) ، وتوجت بعقد معاهدة مشتركة في 1553م تضمنت

---

[1] إدريس الناصر رائسي، **العلاقات العثمانية الأوربية في القرن السادس عشر**، دار الهادي، ط1، بيروت، لبنان2007م، ص 91.

[2] بايزيد الثاني: هو من أشهر سلاطين الدولة العثمانية حكم في الفترة الممتدة من 1481م إلى غاية 1512م، وعرف بتأييده للانكشارية وبحبه للعلم، وفي سنة 1512م ترك الحكم لابنه سليم الأول . عدنان العطار، الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط، دار الأصالة، الجزائر 2010م، ص 53.

[3] معد صاب رجب، **قراءة جديدة في الأسباب الحقيقية لضعف الدولة العثمانية من خلال الامتيازات الفرنسية والتوجه للمشرق العربي1520– 1798م**، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد20، العدد 03، 2013م، ص ص 170-199.

[4] سليمان القانوني: هو السلطان سليمان الأول بن سليم الأول، ولد سنة 1495م واستلم الحكم سنة 1520م، وفي عهده عرفت الدولة العثمانية توسعا كبيرا، وسن العديد من القوانين التي سمي عليها. عدنان العطار، المرجع السابق، ص 61.

[5] فاطمة سليم حماد الطراونة، **الدولة العثمانية وسياستها الدينية تجاه الطوائف النصرانية في القدس وموقف فرنسا منها بخاصة من واقع سجلات محكمة القدس الشرعية(1153–1246هـ/1740–1830م)**، اصدار كلية الآداب، جامعة البترا، عمان 2009م، ص 24.

[6] كمال حسنة، **العلاقات العثمانية الفرنسية في عهد السلطان سليم الثالث 1789–1807م**، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر2، الجزائر 2005-2006، ص ص 18-19.

العديد من الامتيازات الاقتصادية والدينية إضافة إلى بنود عسكرية تنص على التعاون المشترك، وكانت هي الأخيرة في الجانب العسكري حتى نشوب حرب القرم(1853-1856م) [1]، وفي سنة 1569م تمكنت فرنسا من الحصول على عدة امتيازات تشبه إلى حد كبير بنود معاهدة سنة 1535م، لتعرف العلاقات بعدها تدهورا كبيرا بسبب عدة خلافات لعل من أهمها مشكلة عرش مملكة بولونيا التي اختلفت فيها مصالح فرنسا مع الدولة العثمانية وعليه تراخت روابط التحالف بين الطرفين[2].

اعتلى هنري الرابع(1593-1610م)[3] العرش الفرنسي في 23 جويلية 1593م، وأول ما قام به في جانب العلاقات مع الدولة العثمانية هو تغيير السفير الفرنسي باسطنبول، والذي اتهم بالعمالة لصالح إسبانيا وعين مكانه سفيرا آخر أكثر ذكاء وحنكة وتمكن بفضل ذلك من الحصول على امتيازات جديدة سنة 1597م في عهد السلطان العثماني محمد الثالث(1595-1603م)[4]، وبعد تولي السلطان أحمد الأول (1603-1617م)[5] الحكم قام بتجديد الامتيازات لكل من فرنسا وانجلترا، ويعود سبب إقدامه على ذلك الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، وعليه أراد أن يحافظ على مصالحة الدول الكبرى حتى يتمكن من التفرغ لإعادة ترتيب شؤون الدولة الداخلية[6]، وفي الفترة الممتدة من عشرينيات

---

[1] معد صاب رجب، المرجع السابق، ص ص 170-199.

[2] إدريس الناصر رائسي، المرجع السابق، ص 104.

[3] هنري الرابع: ملك فرنسا وهو نفسه حاكم مملكة نافارا ولهذا لقب هنري الثالث ملك نافارا، وكان أول ملك من آل البربون العائلة الملكية الأوربية المشهورة. www.marefa.org/هنري_الرابع_من_فرنسا

[4] كمال حسنة، المرجع السابق، ص ص 28-29.

مُحَمَّد الثالث: ولد سنة 1566م وتولى الحكم سنة 1595م، وعرف بإهماله للجيوش وأمور الدولة ومنح السلطة لوزرائه. عدنان العطار، المرجع السابق، ص 77.

[5] أحمد الأول: ولد سنة 1590م واستلم الحكم في سنة 1603م خلفا لوالده السلطان مُحَمَّد الثالث، وتولى الحكم في سن صغير لا يتجاوز 14 سنة، وعرف عهده العديد من الاضطرابات، وفي عهده توطدت العلاقات مع أوربا وجددت المعاهدات مع فرنسا وبولونيا، وتوفي وعمره 28 سنة. عدنان العطار، المرجع السابق، ص ص 79- 80.

[6] علي مُحَمَّد الصلابي، **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط**، دار ابن الجوزي، ط1، القاهرة، مصر2007م، ص 271.

القرن 17م إلى أربعينيات القرن 17م شهدت الامتيازات الفرنسية تراجعا كبيرا وهي فترة فتور واضح في العلاقات بين الطرفين[1].

بقي الأمر على حاله الطرفين حتى عهد الملك الفرنسي لويس الرابع عشر(1643- 1715م) حيث انتقلت العلاقات من الفتور إلى التوتر، ويعود السبب في ذلك إقدامه على دعم النمسا في هجومها ضد المجر عام 1664م، وكذلك مهاجمة أسطوله لمدينة جيجل الجزائرية ومساعدته للبنادقة في الدفاع عن جزيرت كريت من الهجومات العثمانية سنة 1668م، ولكن سرعان ما عادت فرنسا لطلب الصلح من الباب العالي لاسترجاع امتيازاتها، وتوخ ذلك بعقد معاهدة سنة 1673م[2].

عند منتصف القرن 18م شعرت فرنسا بالخطر الذي يداهمها بسبب عدم سلامة تجارتها بالشرق نتيجة الاندفاع الروسي في المنطقة، فضلا عن حرب الوراثة النمساوية(1740-1748م)، كل ذلك دفعها مجددا إلى التحالف مع الدولة العثمانية ليدعموا موقفهم العسكري أمام النمسا مقابل دعم فرنسا للدولة العثمانية من أجل استعادة المجر، وهو ما سيسهل مهمة السلطان العثماني في التصدي للخطر الروسي الذي كان محدقا ببعض الأراضي العثمانية الشرقية[3]، وبالفعل تمكنت فرنسا من الحصول على العديد من الامتيازات بعد إمضائها لمعاهدة 1740م خاصة في ما يخص الجانب الديني الذي اتخذته كقاعدة لكسب تأييد داخلي يمكنها في ما بعد من تجسيد أهدافها الاستعمارية[4].

لم يطرأ بعد ذلك أي تغيير يذكر على العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية حتى بعد قيام الثورة الفرنسية 1789م، إذ اعترف السلطان العثماني سليم

---

[1] كمال حسنة، المرجع السابق، ص31.

[2] لعب الوزراء دورا كبيرا في تحقيق سياسة التقارب بين فرنسا والدولة العثمانية خلال هذه الفترة، ففي عام 1626م أصبح الوزير ريشيليو رئيسا أعلى للبحرية والتجارة، وأسس عام 1638م شركة فرنسا الجديدة، لكن الاهتمام الأكبر بالشرق برز في عهد الوزير كولبير الذي بدأ في إصلاحات اقتصادية في الستينيات من القرن 17م، وشجعه الملك لويس 14 على هذه السياسة، ودعمه =بأمواله من أجل تأسيس هذه الشركات، كما شجع النبلاء أيضا على المساهمة في هذه الإصلاحات، وهذا ما يفسر لنا ما ذكرناه في المتن حول عودة العلاقات الودية بين الطرفين العثماني والفرنسي. كارين صادر، المرجع السابق، ص 30.

[3] معد صاب رجب، المرجع السابق، ص ص 170-199.

[4] فاطمة سليم حماد الطراونة، المرجع السابق، ص 26.

الثالث(1789-1807م)[1] بالجمهورية الفرنسية عام 1794م، ولكن عقد فرنسا لمعاهدة كومبوفورميو مع النمسا في سنة 1797م التي حصلت بفضلها على الجزر الأيونية قد أزمت العلاقات بين الطرفين، ومما زاد الأمور تعقيدا قيام الحملة الفرنسية ضد مصر سنة 1798م[2]، وبالرغم من ذلك فرنسا كانت تلعب على الحبلين فبمجرد خروج نابليون من مصر أرسل إلى الباب العالي وفدا لتجديد وتأكيد الاتحاد والود مع الدولة العثمانية، وكان ذلك بمثابة خطوة فعالة لبسط النفوذ الفرنسي مرة أخرى في الشرق خلال القرن 19م[3].

نستنتج في نهاية هذا الجزء أن فرنسا كانت تسعى للحفاظ على العلاقات الجيدة مع الدولة العثمانية لعدة أسباب، ونذكر منها رغبتها في فرض توازن في أوربا بكسب حليف قوي وهو الدولة العثمانية، وأيضا الحصول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات حتى تطور اقتصادها، وحتى تتمكن من كسب سبل للنفوذ في العالم الإسلامي عامة والشرق العربي خاصة، وذلك عن طريق الامتيازات الدينية المتمثلة في حق حماية الكاثوليك ومقدساتهم، وكل ما ذكرناه سابقا يجتمع في قالب واحد وهو الطمع الاستعماري الخالص في النية الفرنسية، وقد اغتنمت فرنسا أول فرصة للانقضاض على الدولة العثمانية في الحملة الفرنسية سنة 1798م، وواصلت نفس سياستها طوال القرن 19م لتتوخ ذلك في مطلع القرن 20م باحتلالها لسوريا ولبنان.

03- اهتمامات وأطماع فرنسا بالشرق:

توجد في الحواضر الشامية وقائع وأحداث تحتاخ إلى من يكشف النقاب عنها، وينقّب في أرجائها الواسعة باحثاً ومدققاً وكاشفاً لأسرارها، فهذه البلاد العريقة وعبر العصور المختلفة كانت محط أنظار البحاثة والرحالة، فقصدوها دارسين ومنقبين في آثارها الباقية ومحللين لعادات شعوبها الماضية، إذ طالما كان الشرق حلم كثيرٍ من الرحالة وجواب الآفاق، شدّتهم إليه طبيعة أرضه وأهمية موقعه

[1] سليم الثالث: هو ابن السلطان العثماني مصطفى الثالث، وقد تولى الحكم في ظروف صعبة جدا، وهي اتحاد الروس والنمساويين ضد العثمانيين، وقد قام في عهده بالعديد من الاصلاحات، ولكنه عزل سنة 1807م وتوفي في السنة الموالية وعمره 48. عدنان العطار، المرجع السابق، ص ص 125- 132.

[2] معد صاب رجب، المرجع السابق، ص ص 170-199.

[3] الصاوي مُحَمَّد الصاوي، **الدولة العثمانية**، دار طيبة للطباعة، الجيزة، مصر2012م، ص 232.

وحرّكت فيهم رغبة البحث والتنقيب للوقوف على الماضي الغابر ودراسة الواقع الحاضر، وإضافة إلى ذلك رغبة كثير من الدول التي رأت في هذه الحواضر مجالاً رحباً لتحقيق أحلامها في السيطرة عليها والتوسع فيها وتعتبر فرنسا من أبرز هذه الدول[1].

حرصت فرنسا على التقرب أكثر من الدولة العثمانية في منتصف القرن 18م، ويعود ذلك لعدة أسباب من أهمها: رغبتها في تجديد امتيازاتها التجارية والحصول على المزيد منها، خاصة وأن هذه الفترة شهدت تنافس شديد على السيطرة على ممتلكات الدولة العثمانية لاسيما من قبل روسيا والنمسا، هذا في ما يخص المجال السياسي أما على مستوى الرحلة فقد شجعت فرنسا الرحالة كثيرا، وزاد الاهتمام بالشرق في هذه الحقبة نظرا لرغبة فرنسا الكبيرة في التوسع الاستعماري ونشر المذهب الكاثوليكي، وعليه بات الشرق مصدر اهتمام وجذب لفرنسا[2]، وفي نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م عرف أدب الرحلات الفرنسي تزايدا وازدهارا كبيرا، ولقي اهتماما واسعا من طرف القراء واتخذ الاهتمام بالشرق منحا آخر بسبب التوسع الاستعماري والتجاري الناتج عن الثورة الصناعية، وكذلك بسبب اتساع نطاق التنافس الفرنسي البريطاني الرامي إلى كسب مناطق نفوذ واسعة[3]، وظهور الرومانسية الفرنسية خلال القرن 19م الذي كان بالتوازي مع تطور علم الإستشراق الفرنسي، وارتبطا ببعضهما البعض ارتباطا وثيقا لأن كل منهما يكمل الآخر.

شهد الشرق في هذه الفترة كذلك توجه العديد من الرومانسيين الباحثين عن الجانب الجمالي في المسلمات الشرقية، وساهموا بشكل كبير في تصوير البنية المادية والروحية للشرق[4]، وبالتالي يمكن القول أن رحلات الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية خلال القرن 19م هي عبارة عن نتاخ لما قام به رحالة رومنتيكيون، ونذكر

[1] أنيس الأبيض، **المشهد الثقافي والعمراني الذي رسمه الرحالة لمدن لبنان والشام**، جريدة الحياة، يومية سياسية عربية دولية مستقلة، بيروت، لبنان، 25 أكتوبر2014م.

[2] كارين صادر، المرجع السابق، ص ص 31-32.

[3] حيدر جاسم الرويعي، المرجع السابق، ص ص 35- 59.

[4] زينات بيطار، **الإستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي**، عالم المعرفة، الكويت 1992م، ص 7.

من أمثلة ذلك كتابات: لامارتين [1] Lamartine، نرفال[2] Nerval، غوتيه[3] Gouti، فلوبير[4] Fluber، والملاحظ أن الطابع التخيلي البلاغي قد أثر في كتاباتهم تأثيرا مباشرا وهو ما التمسناه في معالجتنا للنصوص الفرنسية الواردة في المصادر[5]، وقد رأت فرنسا في الشرق مخرجا لأزمتها بعد تفاقم الظروف الداخلية الفرنسية وقيام الثورة الفرنسية 1789م، وظروف الحصار العسكري والاقتصادي المضروب عليها من قبل الدول الأوربية وعلى رأسها إنجلترا والنمسا، فجندت لأجل ذلك كل ما لديها من مخزون معرفي إستشراقي، وهي محاولة لتطبيق كامل ما تكدس لديها من نظريات حول إمكانية وضرورة إخضاع الشرق والاستفادة من خيراته[6]، ومما زاد تركيز فرنسا على الشرق هو شغف نابليون بونابرت(1769-1821م) Napoléon Bonaparte به وبأسراره لاسيما الحضارة المصرية العريقة، ولهذا جند في جيش الحملة العديد من العلماء والفنانين والباحثين الأثريين، الكيميائيين،

[1] ألفونس دو لامارتين: هو شاعر وسياسي فرنسي وأحد أبرز مؤسسي الحركة الرومانتيكية في الأدب الفرنسي، وهو من أبرز وأشهر الرموز الفكرية في فرنسا خلال القرن 19م، ولد سنة 1790م في أسرة ثرية، وتوفي سنة 1869م. /www.hindawi.org/contributors/82085960

عرف لامارتين بشغفه الكبير بالشرق حيث استغرقت رحلته سنتين، ومن مؤلفاته "التأملات" " جوسلين" وكتاب"رحلة إلى الشرق، وتميز أسلوبه بغلبة الطابع الأدبي الرومانسي المفعم بالعاطفة اتجاه الشرق وأهله، وتعتبر رحلته من أهم رحلات القرن 19م. كارين صادر، المرجع السابق، ص 97.

[2] جيراردي نرفال: هو كاتب ومترجم فرنسي ينتمي إلى الحركة الرومنتيكية، أنتج عملا متنوع ومتعدد الأشكال، وسافر إلى الشرق في الفترة الممتدة من 1842م إلى سنة 1843م بدافع روحاني جمالي، وتوفي سنة 1855م، وخلف عدة مؤلفات أهمها كتاب رحلة إلى الشرق. heritage.bnf.fr/bibliothequesorient/ar/nerval-art-ara

[3] تيوفيه غوتيه: شاعر وروائي وناقد فرنسي ولد في مدينة تارب، ثم انتقل للعمل في باريس سنة 1814م، ثم درس بها الأدب الفرنسي القديم مما أهله للكتابة، وله العديد من الأعمال الأدبية مثل: رواية المومياء، الكابتن فراكاس، تاريخ الرومانسية....، وتوفي سنة 1872م. www.marefa.org/تيوفيل_گوتييه#أعماله

[4] غوسطاف فلوبير: هو كاتب فرنسي ولد سنة 1821م بروان، يعد من أهم روائي القرن 19م ومن مؤسسي المدرسة الواقعية في الأدب، وقد بدأ حياته الأدبية باكرا، وأمضى وقتا كبيرا في السفر والدراسة، وتعد رواية مدام بوفاري من أهم أعماله، توفي في سنة 1880م. www.arageek.com/bio/gustave-flaubert

[5] بيير جودا، المرجع السابق، ص 8.

[6] زينات بيطار، المرجع السابق، ص 47.

المهندسين، الرياضيين، وكل هذا لهدف واحد وهو استكشاف الشرق ودراسة فنون وعادات وديانات أهل الشرق تمهيدا لما هو قادم[1].

شكلت كتب الرحلات الفرنسية وسيلة عملية ورأيا عاما جديدا ذا ثقافة جديدة، ووجهت الرأي العام الفرنسي إلى تكوين إشكالية جديدة أساسها ماهية الشرق، وقد أولى الرحالة الفرنسيون إلى الشرق منذ القرن 17م اهتماما بالغا بالجوانب الاجتماعية للعالم العثماني الإسلامي[2]، وكان التنوع الطائفي الذي ميز المشرق العربي مساحة خصبة للعب استغلتها كل من فرنسا وبريطانيا اللتين ركزتا على عامل الأقليات الدينية وحمايتها، واستطاعتا من أن تجدا لنفسيهما موقعا ضمن منطقة معينة تسكنها طائفة مسيحية معينة، وعملت كل ما في وسعهما أن تسخرها لمد نفوذهما وبسط سيطرتهما[3].

تضاعفت الرحلات الفرنسية مع مطلع القرن 19م بسبب ما ذكرنا سابقا من أهداف إلى بلاد الشام وبالتحديد إلى بيت المقدس الذي أصبح بمثابة مكان ديني مركزي، وذلك بتوجه الحجاج المسيحيين إليه لوجود كنيسة القيامة فيه، والتي أصبحت المعبد الوحيد بدون منازع الذي تقام فيه أكبر الاحتفالات والطقوس الدينية المسيحية[4]، ويعود السبب في تضاعف الرحلات انفتاح بلاد الشام على الغرب الأوربي في عهد محمد علي، ومنح الأوربيين الكثير من الامتيازات بحيث ساوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق والواجبات، كما أصدر الباب العالي في نفس فترته العديد من الفرمانات[5] التي تضمن حقوق المسيحيين ببلاد الشام وتسمح بحرية المعتقد، وتدعو إلى التسامح الديني وحسن المعاملة وتمنحهم امتيازات واسعة، كما فتحت بلاد الشام على الرحلات التبشيرية الكاثوليكية

---

[1] أيمن أبو الروس، **نابليون بونابرت إمبراطور فرنسا الذي اكتسح أوروبا ثم وقع في الفخ الروسي**، دار الهدى ط ن ت، عين مليلة، الجزائر2015، ص 38.

[2] محمد الغاشي، المرجع السابق، ص 607.

[3] قطوش وهيبة، **الصراع الفرنسي البريطاني في المشرق العربي1798-1899 مصر وسوريا**، دار الخلدونية، الجزائر2013م، ص 18.

[4] جانيت رزق، **الحج الروحي والرحمة المنشودة في السنة البوبيلية**، مجلة المشرق الرقمية، مجلة إلكترونية تصدر مرتين في السنة عن دار المشرق، العدد08، جوان 2016م، ص 2.

[5] الفرمان: هو أمر سلطاني رسمي مكتوب صادر في قضية من القضايا، كان يدون بالخط الديواني في الديوان الهمايوني ويسجل ملخصه في سجل الديوان. سهيل صابان، المصدر السابق، ص 164.

والأرثوذوكسية والبروتستانتية[1]، ونذكر أيضا أن السلطان العثماني عبد المجيد الأول[2] في هذه الفترة أعلن عن نوايا إصلاحية بمجرد اعتلائه للعرش، ولعل أهمها مشروع كلخانة 1839م، والذي تضمن في طياته العديد من الامتيازات والحقوق للمسيحيين[3].

رغبت الدول الأوربية في المزيد من الإصلاحات والامتيازات لضمان مصالحها وكل هذه لم تكن كافية لإشباع مطامعها، وواصلت ضغوطها حتى تمكنت من الحصول على امتيازات أخرى بعد أن أصدرت الدولة العثمانية خط همايون أو ما يعرف بالتنظيمات الخيرية 1856م، والذي جاء في بنده الثاني حق السماح للطوائف غير الإسلامية في أداء شعائرها وبناء معابدها، وجاء في البند السابع وعد من السلطان بالسماح للأجانب في التملك بالدولة العثمانية[4]، وأدت هذه الامتيازات إلى تزايد الرحلات وحملات الاستكشاف التي قام بها الرحالة الغربيون، وساهمت هذه الحملات في استكشاف المسالك والتعرف على المناطق، مما سهل نشاط الحركة الاستعمارية فيما بعد للدول الأوربية، وقد نشط هذا العمل الاستكشافي مع بداية القرن 19م إلى حد أن بلغ الأمر بتكليف هيئات علمية ومؤسسات للقيام بحملات متعددة الأهداف والمجالات[5]، وعليه كان القرن 19م قرن الرحلات وقد خلف الرحالة فيه إنتاخ ثقافي وأدبي وافر يرتكز على يوميات الرحلة ومخاطرها[6].

---

[1] تمارا جورج إبراهيم مراجدة، **سيكولوجية بعض المسيحيين في بيت لحم**، رسالة ماجستير، جامعة بير زيت، فلسطين2012م، ص 40.

[2] عبد المجيد الأول:(1839-1861) هو بن محمود الثاني تولى الخلافة وعمره 17 سنة وكان الحكم في مرحلة الاضطراب وهي تمرد مُحَمَّد علي والمسألة المارونية وحرب القرم. عدنان العطار، **الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط**، دار الأصالة، الجزائر2010م، ص ص 147- 149.

[3] جوستين ماكرثي، **سياسات الإصلاح العثماني**، تر: عبد اللطيف الحارس، مجلة الاجتهاد، العدد45-46، بيروت، لبنان2000م، ص ص 85-105.

[4] غانية بعيو، **التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية الشام والعراق نموذجا 1839-1876م**، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر2، الجزائر2008-2009م، ص ص 110-115.

[5] المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، أعمال المؤتمر الثاني عشر للآثار في الوطن العربي، عنوان المؤتمر: **المسح الأثري في الوطن العربي**، المنامة، البحرين، ماي 1993م، ص8.

[6] عبد الرحمن بغداد، **الجزائر في أدبيات الرحالة الفرنسي ألفونس دوديه**، مجلة دراسات إستشراقية، العدد25، 2021م، ص ص 141-170.

قام بعض الرحالة الفرنسيون إلى الشرق خلال القرن 18م بدور بارز في تعبئة وتجهيز السياسة الفرنسية اتجاه المنطقة، ومثلت كتاباتهم نواة العمل المستقبلي الكبير بالمنطقة خلال القرن 19م، ونذكر على سبيل المثال الرحالة فولني[1](1757-1820م) Volney **الذي مكث فترة طويلة في مصر وبلاد الشام، ودون كل ما لاحظه حول الشرق العثماني في أعمال أدبية وهي:** Voyage en Egypte et en Syrie **ونشر سنة 1780م كتاب بعنوان** Les considérations sur la guerre des turcs et la russe، **إضافة إلى عدة كتب أخرى لم تذهب سدى واستغلت خاصة مع الحملة الفرنسية على مصر[2]، ولذلك يمكن القول أن الإستشراق أول مرحلة قبل الاستعمار من خلال عمله على توفير الأرضية الخصبة للاحتلال، ولذلك كانت طلائع الاستعمار تتكون من المستشرقين ومن بينهم الرحالة، إذ قدموا تفصيلا ووصفا دقيقا للمناطق قبل احتلالها، ولعبوا دورا كبيرا في تقديم صورة مشوهة لاستمالة شعبهم وحكومتهم وجعلهم يدا واحدة يدفعها التعصب الديني والحقد الدفين[3]، واختص الفرنسيون دون غيرهم بالدراسة الشاملة الدقيقة التي مست**

---

[1] فولني: هو قسطنطين فرانسوا فولني ولد في كروان بفرنسا في سنة 1757م، واسم أسرته شاسبوف كان أبوه محاميا ولكن ابنه لم يأخذ مساره، وفي سن مبكرة انكب فولني على المطالعة خاصة الكتب التاريخية والفلسفية واختار مهنة الطب، وبعد 3 سنوات ورث مبلغا ماليا هاما قرر أن يخوض به غمار تجربة رحلة إلى الشرق وغير اسمه من بواجيره إلى فولني، ثم أقلع في سنة 1784م من مدينة مرسيليا إلى مصر بينتقل بعدها للبنان ثم توجه للصحراء وعاشر قبائلها، وبعدها انتقل لسوريا واستغرقت رحلته بصفة عامة 3 سنوات، وأول عمل قام به حين عودته توثيق رحلته في كتاب أصبح من أكثر الكتب رواجا، وتوفي في سنة 1820م وعمره يناهز 63 سنة. حبيب السيوفي، **سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر كما وصفها أحد المشاهير الغربيين**، المطبعة المخلصية، لبنان1941م، ص ص 9-16.

=يعتبر الرحالة الفرنسي فولني رائد الرحالة الفرنسيين إلى بلاد الشام، وبالرغم من أنه لم يكن أول زائر لهذه المنطقة إلى أنه تمكن من توجيه أذهان الأوربيين إلى العناية بكنوز العرب الأدبية، وقد ترجم كتاب ألف ليلة وليلة، وتميزت دراساته كذلك أنها فتحت باب الدراسات الإجتماعية والحضارية على مصراعيها للأجيال اللاحقة، وعليه راحت آفاق البحث تنكشف وتتوالى. أميرة جبر، **لبنان من خلال الرحالة الفرنسيين 1798-1918**، أطروحة دكتوراه، جامعة القديس يوسف، بيروت، لبنان1981-1982م، ص ص 3-5.

[2] مُحَمَّد العواد، **دبلوماسيون فرنسيون في الدولة العثمانية خلال القرنين 18 و 19م**، مجلة جيل للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العام08، العدد 72، فبراير2021م، ص ص 63-76.

[3] أمُحَمَّد شايب الدور، **الإستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر**، رسالة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر2009-2010م، ص 27.

مختلف الجوانب الحياتية الشرقية بحثا ونقدا وتمحيصا، ويمكن القول أن المدرسة الفرنسية حاولت معرفة كل شيء عن الشرق من خلال التقصي والبحث الدقيق[1].

تعددت أسباب ودوافع الرحلة الفرنسية نحو الشرق، فمنهم من كان مكلفا بمهمة علمية ونذكر على سبيل المثال العالم الفرنسي سولسي Saulcy، وكذلك الطبيبين داموازو Damoiseau وألارد Allard، وهناك العديد ممن زاروا الشرق لدوافع دينية معظمهم من رجال الدين الراغبين في رحلة الحج إلى الأراضي المقدسة، أو من الذين آلمتهم آثار الحرب الأهلية سنة 1860م وجاءوا ليخففوا وطأت الألم عن إخوانهم في الدين، وعلى رأسهم نذكر الأب أزايس Azaizs صاحب كتاب Journal dun Voyage en Orient، وأيضا بوجولا Poujoulat الذي قام برحلته سنة 1860م، وهناك رحالة من الطبقة الأرستقراطية مثل الكونت دي باري De Paris ، والكونت دو فوغ De Vogue، وفي الأخير هناك من جاؤوا متحررين من كل قيد بهدف التعرف على عادات الشرق وتقاليده ورؤية ما هو جديد، وكان من بينهم رجال الدين والعلم والفلسفة والأدب وهواة السفر[2]، وسنورد في الجدول التالي نماذج عن الرحالة الفرنسيين إلى بلاد الشام في القرن 19م ، وسنبين دوافع رحلاتهم المتنوعة:

الرحالة	سنة القيام بالرحلة	الدوافع
ديدوه Dido	1816م	استكشافية
لويس داموازو Louis d'Amoiseau	1818م	علمية
دي مارسيليوس de Marcellus	1820م	أنتروبولوجية
م ميشو misho	1830-1831م	أدبية
ماري جوزيف Marie Joseph	1831-1833م	دينية

[1] شنوفي بارودي، **الإستشراق الفرنسي والأدب العربي القديم رجيس بلاشير أنموذجا**، أطروحة دكتوراه، جامعة بلعباس، الجزائر2017-2018م، ص45.

[2] كارين صادر، المرجع السابق ، ص ص 35-36.

دولارواير dolarwayer	1832م	استكشافية
إدوارد بلوندال Edouard Blondel	1837-1839م	استكشافية
جيراردي نرفال Gérardi Nerval	1842-1843م	أدبية
كميل آلارد Camille Allard	1845م	علمية(طبية)
الأب آزي Père Azié	1850م	دينية
غوسطاف فلوبير Gustave Flaubert	1850م	أدبية
بيك Beck	1855م	دينية
هنري قيز henri gyus	1855م	سياسية
روجيه دي ستيفو Roger Di Stevo	1859م	استكشافية
ريتشارد كورتامبر Richard Courtember	1860م	فنية(رسام)
خ. بوراسيه bourassee	1860م	دينية
باتيستات بوجولا batistat poudjoula	1860م	دينية
ب. بوركوتو ورفيقه دوتو Borkuto et son compagnon Dotto	1860م	استكشاف
أرنسترينان arnstrenan	1860م	علمية
لافيجري lavigrée	1860م	دينية
الأب دي فوجيريه Père de Vaugerier	1866م	سياحية دينية
أ. ماسينو Massino	1869-1870م	أثرية
لويس لورته Louis Lorette	1875-1880م	استكشافية

غابريال شارم Gabriel Sharm	1883م	فنية(رسم)
جوزيف غوادر Joseph Goader	1892م	دينية
خ. مارشان Marchand	1899م	دينية

1

من خلال تحليل معطيات الجدول نستنتج أولا بأن الرحلة الفرنسية إلى بلاد الشام كانت نابعة من عدة دوافع، ومنها ما كان بمبادرة فردية ومنها ما كان بتحفيز وتكليف من دولتهم، ونلاحظ كذلك غلبة الدوافع الدينية للرحلة خاصة وأن أغلب الأماكن المسيحية المقدسة موجودة في بلاد الشام، والرحلات التي ذكرناها في الجدول هي عبارة عن أمثلة متفرقة من القرن 19م، وقد حاولنا قدر المستطاع الإلمام بكل رحلات القرن 19م، وتمكنا من الحصول على أكثر من 55 رحلة، ومن خلال اطلاعنا عليها وجدنا أن معظمها كانت ذات توجه ديني، حيث نجد أغلب روادها حجاج مسيحيين، ونجد مصطلحات تدل على الدافع الديني مثلا: رحلة حاج مسيحي، رحلة حجية، حج، نحو الأراضي المقدسة، أراضي مخلصنا...وغيرها، ولكن بالرغم من هذا الدافع إلى أنهم عملوا على تدوين العديد من التفاصيل المتعلقة بمشاهداتهم خدمة لحكوماتهم، وذلك لأنهم يعرفون مدى أهمية هذه الدراسات في التمهيد لمراحل متقدمة يأتي على رأسها الاستعمار.

من خلال ما سبق ذكره نستنتج أن لأدب الرحلة أهمية كبيرة في الدراسات التاريخية، وعليه لا يمكن لأي باحث في التاريخ إهمال هذا المصدر الخصب الذي يقدم له الجديد، ويوضح له صورة قد يغفل عنها المؤرخون المحليون وهي صورة المنطقة لدى الآخر، وبالتالي يتمكن من خلالها من إضافة الجديد وتنقيح القديم وتأكيد المعلومة مما يوصلها لدرجة كبيرة من المصداقية ويقربها من الحقيقة التاريخية، والملاحظ كذلك من خلال هذا الفصل الدور الكبير الذي لعبته الرحلات في بناء آفاق جديدة للشعوب الطامحة، سواء أكانت آفاق دينية أو علمية أو جغرافية أو غيرها من الجوانب التي قد يستفيد منها الرحال أو من يقرؤون كتاباته أو من

[1] أميرة جبر، المرجع السابق، ص ص 7-33.

يحتاجونها، وهذا الأمر تجلى بوضوح لدى الفرنسيين الذين عرفوا كيف يستفيدون من هذا الأدب.

يمكن القول كذلك بل الجزم أن كتابات الرحالة كانت الوسيلة الأساسية التي مهدت الطريق لتحقيق الأطماع الاستعمارية الفرنسية في المنطقة من خلال تقديم ملاحظات وإحصائيات دقيقة لكل خصائص البلاد الشامية، ونستحضر في هذا المقام كمقارنة بسيطة ما تطرقنا إليه سابقا وهو الدور الكبير الذي لعبته الرحلة التجسسية للضابط الفرنسي بوتان سنة 1808م، والتي اعتمدتها فرنسا سنة 1830م في احتلال الجزائر نظرا لقيمتها الطبوغرافية والأنتروبولوجية وبالتالي سهلت عليهم المهمة واختصرت لهم الطريق، وهو نفس الأمر الذي لعبته الرحلات الفرنسية نحو بلاد الشام حيث أتاحت لقادة الاحتلال إمكانية معرفة خصائص المجتمع ومختلف الميزات الأخرى.

الفصل الثاني

ديموغرافية بلاد الشام في عيون الرحالة الفرنسيين

أولاً: التركيبات السكانية المكونة للمجتمع الشامي

ثانيًا: تطور عدد سكان بلاد الشام خلال القرن 19م

ثالثًا: واقع التعليم والصحة بالشام

يمكن القول أن المجتمع الشامي في القرن 19م هو من أكثر المجتمعات تعقيدا، فهو يضم خليطا فسيفسائيا متنوع يضم مختلف الأعراق والديانات والمذاهب، بل حتى هذه التنوع ينقسم إلى عدة أقسام ويتفرع لفروع، وكل ما ذكرناه يعيش في إطار جغرافي واحد، وتجمع بينهم عدة روابط مكنتهم من العيش في سلام وأمان، وقد أثار هذا التنوع إعجاب الرحالة الفرنسيين الذين أطنبوا في حديثهم عن ذلك، وقدموا لنا مادة غنية عن ساكنة بلاد الشام سواء من حيث فئات المجتمع، أو من حيث عدد السكان والعوامل المتحكمة في التزايد والنقصان لاسيما ما يتعلق بالجانب الصحي.

سنتحدث في هذا الفصل عن أهم جوانب الديموغرافيا، أو ما يعرف بعلم السكان الذي يعنى بدراسة الخصائص السكانية لمنطقة ما، وهذه الجوانب متعددة منها: حجم السكان، توزيعهم، الكثافة، التركيب، الأعراق، الجانب الصحي... وغيرها، ومن خلال تدقيقنا وتمحيصنا لكتابات الرحالة تمكنا من الوصول إلى كل هذه الجوانب الديموغرافية تقريبا بدءا بتقسيمات المجتمع الشامي العرقية والدينية والمذهبية انتقالا إلى دراسة تفصيلية لتطور عدد السكان على مدار القرن 19م، إنتهاءا بدراسة مميزات الجانب التعليمي والصحي للمنطقة والتي لها علاقة مباشرة بتزايد وتناقص عدد السكان، فتطور التعليم يؤدي لتطور الصحة وتطور الصحة ينتج عنه تزايد سكاني بسبب تناقص الوفيات وتزايد الولادات.

أولا.التركيبات السكانية المكونة للمجتمع الشامي:

أ- الفئات السكانية للمجتمع الشامي:

يضم المجتمع الشامي العديد من الفئات ذات الأصل المختلف والدين الواحد أو المذهب الواحد الذي يجمعها في إطار منظم، وبالتالي يمكن القول أنه عبارة عن خليط فسيفسائي معقد، وتشترك كل فئة منها في مجموعة من الخصائص وهذه الخصائص هي التي تجعلها فئة مستقلة ومتميزة عن البقية، وكمثال على ذلك نجد تشابها في ديانتها وعاداتها وتقاليدها وممارساتها وطقوسها وحتى في تجمعاتها الجغرافية في بعض الأحيان، والشيء الملاحظ بصفة عامة من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين هو أن هذا الخليط بالرغم من أنه كان متنوعا

لدرجة كبيرة وفي كل التفاصيل إلى أنه كان يعيش في سلام وتربطه علاقات اجتماعية واقتصادية متينة وقلما تحدث مشاكل أو فتن طائفية[1].

قدم لنا الرحالة الفرنسي فولني(1757-1820م) Volney من خلال رحلته المعنونة بسوريا ولبنان وفلسطين في القرن 18م تقسيما مفصلا وواضحا حول مكونات المجتمع الشامي مع أواخر القرن 18م وهي تقريبا نفس التقسيمات التي وجدناها في كتابات الرحالة الفرنسيين الذين زاروا بلاد الشام خلال القرن19م، ودقة ملاحظات فولني تعود إلى تعايشه مع السكان المحليين وبقائه لفترة طويلة في بلاد الشام قاربت 3 سنوات من1783م إلى 1785م، وهي فترة معتبرة سهلت مهمته ومكنته من الحصول على معلومات تفصيلية عن تركيب مجتمع ولايات بلاد الشام مع نهاية القرن 18م، وقسم فولني المجتمع الشامي إلى 3 تقسيمات كبرى تتخللها تقسيمات فرعية وقدمها كالتالي:

تحدث في البداية بصفة عامة عن المجتمع الشامي وقال في ذلك:"... المجتمع الشامي يتكون من مجموعة من الرواسب السكانية المختلفة العناصر، ولا يمكن النظر إليها على أنها واحدة بل مزيج من أمم مختلفة..."، ثم انتقل بعدها إلى تقسيم المجتمع إلى فئات وذكرها كالتالي:

01- الفئة الأولى التي ذكرها هم أبناء الشعب الذي كان استقراره سابقا لمرحلة الفتح الإسلامي لبلاد الشام، وقال أن هذه الفئة هي فئة الروم الذين كان يستوطنون هذه المنطقة منذ وقت طويل وقسم هذه الفئة إلى 3 أقسام هي:

أ- روم منشقين أي منفصلين عن شراكة روما.

ب- روم لاتين متحدين بروما.

[1] تعد الجهة الغربية الشمالية لبلاد الشام أو ما يعرف حاليا بلبنان من المناطق الأكثر تنوعا في الجانب الطائفي مقارنة ببقية المناطق، والطائفية بها هي مظهر تاريخي نشأ بفعل ظروف معينة مر بها تاريخ المنطقة، والسبب الرئيسي لهذه التحولات هو التفاعلات الاجتماعية والاقتصادية للمنطقة مع المحيط الإقليمي والدولي، والطائفية نشأت في مراحل معينة ثم تطورت وتشعبت وتجذرت حتى امتدت إلى عصرنا هذا. فؤاد شاهين، **الطائفية في لبنان حاضرها وجذورها التاريخية والاجتماعية**، دار الحداثة، ط2، بيروت، لبنان1986م، ص 16.

خ- موارنة من أتباع الراهب مارون[1]، كانوا فيما سبق مستقلين عن الفئتين السابقتين وهم الآن منضمون إلى الفئة الثانية.

02- الفئة الثانية هي أبناء العرب الفاتحين وقسمهم إلى 4 أقسام هي كالتالي:

أ- أبناء الفاتحين الذين يشكلون القسم الأكبر.

ب- المتاولة الذين يختلفون عنهم بمذهبهم الديني.

خ- الدروز[2] وهم متميزون عن القسمين السابقين كثيرا و لهم مذهب ديني خاص ومعقد.

د- النصيرين[3] وهم يتفرعون أيضا من العرب.

---

[1] الموارنة: طائفة من النصارى الكاثوليكيين الشرقيين، وهم ينتسبون إلى القديس مارون القورسي، الذي كان معتزلا في جبل قرب أنطاكية، وتمكن من جذب جماعات كبيرة اقتدت بتعاليمه وسيرته، وألفوا طائفة المارونية. مُحَمَّد كرد علي، **خطط الشام**، مكتبة ابن تيمية، ط1، القاهرة، مصر2007م، ج6، ص230.

[2] الدروز: هم فرقة انشقت عن الإسماعيلية، وكان ذلك على عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله عندما قام كبير الدعاة مُحَمَّد بن إسماعيل بالإعلان عن ألوهيته، وانتشرت دعوته بسرعة في بلاد الشام، خاصة بعد أن استجاب لهم الأمراء التنوخيين في لبنان بفرقتيهما القيسية واليمنية. ينظر إلى أميرة الشيخ رضا فرحات، **الفاطميون تاريخهم وآثارهم في مصر**، كتاب ناشرون، ط1، بيروت، لبنان2013م، ص 488.

تؤكد ديانة الدروز بشكل صارم على وحدانية الله وهم يسمون أنفسهم موحدين ولا يحبون تسميتهم دروز، وديانتهم حسب رأيهم تشكل الصيغة العليا للفلسفة، وأسس الديانة الدرزية مسجلة في كتب الحكمة عندهم وعددها ستة، ولا يعرف أسرار الدين إلا العقال وهم وحدهم الدين يشاركون في اجتماعات المؤمنين التي تنعقد كل خميس، أما الجهال فهم محرومون من ممارسة الطقوس الدينية وبالرغم من ذلك لديهم شعور قوي بانتمائهم للديانة الدرزية. ماكس أوبنهايم، **الدروز**، تر: محمود لبيبو، الفرات للنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان2009م، ص ص 54-59.

استوطن الدروز حوران ولبنان ووادي التيم وإقليم البلان وناذرا ما تخلوا منهم ولاية أو مدينة في الشام، وعدد الدروز بصفة عامة يقدر بحوالي 90 ألف نسمة. شاهين مكاريوس، **حسر اللثام عن نكبات الشام**، مكتبة فلسطين الرقمية للكتب الملونة، ط1، مصر1895م، ص8.

[3] هم أتباع نصير غلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، وهم يدعون ألوهية علي ﷺ مغالاة فيه، ويزعمون أن مسكنه في السحاب وإذا مر بهم السحاب قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن، كما يقولون إن الرعد صوته والبرق ضحكه، ولذلك تجدهم يعظمون السحاب، ويزعمون أن الصديق وعمر وعثمان تعدوا على حق علي وحرموه من الخلافة. مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ص260.

03- الفئة الثالثة التي تحدث عنها فولني Volney في رحلته هي فئة الأتراك العثمانيين وذكر أنهم الشعب المسيطر الذي يتحكم في زمام الأمور بالمنطقة، وقال أنه يوجد كذلك شعوب من الرعاة الرحل وهم التركمان والأكراد وعرب البادية[1]، وهذه هي كل الفئات التي ذكرها فولني في كتاباته ولكنه أهمل الحديث عن بعض الفئات الأخرى التي وجدناها في مصادر الرحلة الفرنسية الخاصة بالقرن 19م، ونذكر منها اليهود وكذلك الدراويش الذين يشكلون في المجتمع الشامي فئة مستقلة، و هي فئة لها عاداتها وتقاليدها وخصائصها وممارساتها التي تميزها، ولها قدسية خاصة لدى بعض عناصر المجتمع الشامي، وقد أشار الرحالة كذلك إلى شخصية مهمة جدا وهي شخصية الأمير عبد القادر الجزائري[2]، ولاحظنا أنها نالت الكثير من المدح والثناء وذلك نظيرا لما قدمه من خدمات إنسانية للمسيحيين في حوادث فتنة الشام سنة 1860م، وعليه قمنا بإدراجها مع فئات المجتمع في قسم خاص معنون بفئة الأجانب نظرا لما لها من أهمية كبيرة، وفئات المجتمع الشامي وكل ما يتعلق بها كما قدمها الرحالة الفرنسيون في كتاباتهم هي كالتالي:

01- سكان الحضر:

أ- الدروز:

قدر الرحالة الفرنسيون أن عدد السكان الدروز في بلاد الشام كبير جدا ونذكر على سبيل المثال الإحصاء الذي قدمه الرحالة ميشال جوليان Michel Jullien الذي ذكر أن عدد السكان الدروز في لبنان يبلغ حوالي 133 ألف نسمة وهي كثافة نسبة معتبرة إذا ما قارناها ببقية السكان[3]، أما بالنسبة لمناطق تمركزهم فالدروز

---

[1] قسطنطين فرانسوا فولني، **ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام**، نقلها إلى العربية: إدوار البستاني، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، ط1، بيروت، لبنان1949م، ج2، ص223.

نفس التقسيم تقريبا نجده عند شاهين مكاريوس الذي عاصر منتصف القرن 19م في الشام حيث يذكر التقسيم التالي: "...أما الطوائف الحالية فأشهرها المسلمون وأشهرهم السنة ويليهم الشيعة ويعرفون في بلاد الشام بالمتاولة، ثم النصارى وهم فرق عديدة منها الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك واللاتين والسريان والموارنة والبروتستانت... ومن هذه الطوائف اليهود وهم طائفة قوية في متصرفية القدس الشريف ومنهم عائلات كثيرة في كل أنحاء البلاد... ومنها الدروز ... ومن الطوائف الشامية طائفة النصيرية والإسماعيلية وأهلها من أصحاب الديانة السرية...". شاهين مكاريوس، المصدر السابق، ص ص 5-6.

[2] ينظر إلى الملحق رقم 04.

[3] Michel Jullien, **Sinaï et Syrie souvenirs biblique et chrétiens**, Société de saint augustin, Lille, France1893, p16.

يقيمون في مناطق مختلفة ومن أشهر الأراضي التي يقيمون عليها أراضي حوران[1]، وتذكر مؤسسة الكتب الدينية الفرنسية التي زارت المنطقة في منتصف القرن 19م ومحصتها أنهم تمكنوا من تأسيس تجمعات سكانية كبيرة في هذه المنطقة وهو ما يؤكد لنا متانة الروابط الاجتماعية الدرزية[2]، وتتركز كثافة درزية عالية جدا في المناطق الشمالية الشرقية لبلاد الشام، بل هناك من الرحالة من ذكر أن عددهم أكثر مقارنة مع بقية الفئات السكانية التي تعيش في المنطقة ونذكر على سبيل المثال ملاحظات هنري قيز Henri Guys، وقد أشار إلى أنهم يحتلون سبع مقاطعات هي: الشوف، العرقوب، الغرب ، المناصف حيث دير القمر، الشحار، المتن، الجرد، وقدر عدد سكان هذه المقاطعات فقط حوالي 22970 درزيا[3]، وعليه يمكن القول أن هذه الفئة عرفت استقرارا في المنطقة ما عدا بعض الهجرات البسيطة من مكان تمركزهم وهو منطقة جبل لبنان إلى الشرق، وهو الأمر الذي مكنهم من المحافظة على الكثافة السكانية العالية[4].

لاحظنا من خلال كتابات الرحالة أن الجانب الديني للدروز معقد نوعا ما، وفي هذا الصدد تذكر الرحالة كلارا فيلول دو بيتيجني Clara Filleul de Pétigny في كتابها أن الدروز يتميزون بمعتقدات دينية مخالفة لبقية الفئات، ولاحظت أن ديانتهم هي عبارة عن مزيج يضم العديد من الطقوس، وأشارت أنهم يقدسون أنبياء الله موسى وعيسى ومحمد (عليهم أفضل الصلاة والسلام)، وبالتالي يمكن القول أن ديانتهم خليط مكون من عدة معتقدات[5]، وهذا الاختلاف الذي يتميز به الدروز ليس

---

[1] Richard Cortambert, **Aventures d'un artiste dans le Liban anecdotes mœurs paysages**, Librairie française, Paris, France1864, p38.

[2] La société des livres religieux de Toulouse, **Le jeune voyageurs dans la Syrie l'Arabie et la presse**, Société des livres religieuse, France1854, p162.

[3] هنري غيز، **بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن**، تع:مارون عبود، منشورات دار المكشوف، ط2، بيروت، لبنان1949م، ج2، ص50.

[4] عبد الكريم محمود غرايبه، **تاريخ العرب الحديث**، الأهلية للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان1984م، ص 52.

[5] Clara filleul de pétigny, **Les jeunes voyageurs en Palestine**, Mégarde et Cie imprimeurs libraires, Rouen, France 1852,p208.

نفس الطرح ذهب إليه الرحالة الروسي بازيلي الذي قال عن دين الدروز:"...و هو خليط من العقائد التي صاغتها مخيلة الخليفة المصري، دين بدون فكرة أساسية وبدون عواطف، وهو في نفس الوقت غريب عن الطقوس النيرة الوثنية والأسفار الخيرة لليهودية، والابتهاجات النقية للمسيحية، والدوافع الجبارة للإسلام...ولم ينقذه السر الممتنع الذي أحاط نفسه به ولا غموضه...". بازيلي

في الجانب الديني فقط إنما هو أمر ظاهر حتى في عاداتهم وتقاليدهم وطباعهم، ولاحظ بعض الرحالة الفرنسيون أنهم يتميزون بالعصبية الزائدة والمزاخ الحاد مقارنة ببقية السكان[1]، والملاحظ أيضا أنهم منطوون على أنفسهم كثيرا حتى أنه لا يمكن لأحد أجنبي أن يعرف الكثير عنهم وأمورهم كلها تقريبا تقضى في الكتمان[2]، كما أنهم مختلفون حتى في طريقة أكلهم عن الآخرين، وكمثال بسيط على ذلك نذكر ما أوردته الرحالة فليل بيتيجني كلارا Filleul Pétigny Clara التي لاحظت حب الدروز لأكل لحم العجل أكثر من لحم الغنم المفضل لدى بقية الفئات[3].

ينقسم الدروز إلى طبقتين العقال والجهال، وسمي القسم الأول بالعقال لأنهم يتميزون بمجموعة من الصفات كالرصانة والمحافظة على السمت والحشمة حتى ملابسهم بسيطة جدا، والتواضع مع الناس من أبرز شيمهم، ويعرفون بعمامتهم البيضاء التي تلف حول طربوش، ومعها عباءة من الصوف ذات خطوط عريضة سوداء وبيضاء وأجفانهم مزينة بالكحل، وهؤلاء العقال هم طبقات منها طبقة مميزة وزاهدة في الجانب الديني تصوم كثيرا وتحب الخلوات حتى أنه يوجد منهم من يصوم كامل حياته، وإذا أكلوا شيئا ما فلا يأكلون إلا خبز الشعير، والعقال يأبون أن يأكلوا في أي مكان كان، خاصة إذا كانوا لا يعرفون مصدر الطعام إذا كان اشتري بحلال أو بحرام، وهم يتحاشون الاحتكاك بالسلطات وربط العلاقة بها، لأن جميع الموظفين ظالمون في نظرهم ولا يستحقون ما يملكونه وما يتقاضونه، وتسمى نسوة العقال العاقلات والملاحظ أنهن كذلك يقمن بواجباتهن الدينية بنفس التفاني الذي يظهره الرجال.

يفقد العقال صفتهم إذا تزوجوا مرة ثانية أو إذا لبسوا ثيابا فاخرة أو حملوا سلاحا، وشيخ العقال عند الدروز هو زعيمهم حيث يعيش من الصدقات التي يدرها

مخاتيلوفيتش، **سوريا ولبنان تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية**، تر:يسير جابر، مر:منذر جابر، دار الحداثة، بيروت، لبنان1988م، ص 118.

[1] L'abbé jean jacques bourrasse, **La terre sainte voyage dans l'Arabie pétrée la Judée la Samarie la Galilée et la Syrie**, Ad mam et Cie imprimeurs libraires, Tours, France1860, p452.

[2] أميرة الشيخ رضا فرحات، المرجع السابق، ص 491.

[3] Filleul pétigny clara, **La Palestine ou une visite ausc lieus saintes**, Mégarde et ce libraires éditeurs, Rouen, France1866, p162.

عليه المحسنون، ونمط حياته هو التقشف والزهد والانزواء ولا يقوم إلا بالأعمال الروحية، وجميع الدروز مضطرون إلى إعطاء هؤلاء المشايخ شيئا من صدقاتهم ليتمكنوا من نيل الرضا منهم، لأنهم يثقون في كلامهم ويتقيدون بنصائحهم ويسعدون بالحصول على توجيهاتهم.

الطبقة الثانية يسمون الجهال وهم أكثر عددا مقارنة بطبقة العقال لكنهم أحرار لا يخضعون لأي قانون، ولا يشاركون في الحفلات الدينية ويعيشون في لامبالاة كاملة، ويمكن للجهال أن يصبحوا عقالا إذا ما قاموا بتأدية القسم ومن تم يبدؤون في المشاركة بالحفلات الدينية ويقرءون الكتب الدينية المقدسة للدروز، وهي الكتب المحفوظة في الخلوات، والدروز يقولون أنهم يملكون عدة كتب منها لكن يبقى الاطلاع عليها أمرا غير ممكن نظرا للتقية التي ذكرناها سابقا[1]، وهناك من الدروز عائلات مشهورة في بلاد الشام نذكر منها آل جنبلاط[2] وهم في الأصل من حلب يقطنون بعدران والمختارة، آل عماد[3] في الباروك، إضافة إلى آل نكد[4] في دير القمر، خلفاء الأمير مراد في المتن وفالوغا، وخلفاء الأمير قايد بيه في صليما، وأمراء آل أرسلان[5] في الشويفات وعين عنوب، آل هرموش في السقانية، بيت عبد

---

[1] هنري غيز، بيروت و لبنان.....، ج2، ص ص52-55.

[2] آل جنبلاط: هي أسرة تنتسب للأمراء الأيوبيين الأكراد الذين تربطهم صلة قرابة بصلاح الدين الأيوبي، وأسلافهم كانوا يحكمون بلدة كلس الواقعة على مفترق طرق القوافل شمال سورية، واسم جنبلاط هو تسمية لرتبة عسكرية تمنح لأشجع أمي في العساكر وأصلها فارسي وتعني الروح الفولاذية، و الجنبلاطيون في لبنان من الأسر الإقطاعية الدرزية التي كان لها شأن كبير في لبنان منذ القرن 17م، وتلقب أفرادها بالمشيخة. تركي قاسم الزغبي، **جبل الدروز في العهد العثماني**، دار البلد للنشر والطباعة و التوزيع، ط1، سوريا2009م، ص 151.

[3] آل عماد: قدموا إلى جبل لبنان في أوائل القرن17م في زمن حكم آل معن، فانضموا إليهم ونالوا مكانة جيدة، وكان استقرارهم بالجبل الأعلى جهة حلب ومن هناك انتقلوا إلى منطقة العرقوب بلبنان، ثم انتقلوا إلى الباروك عقب خلافهم مع آل جنبلاط، وهم أيضا تلقبوا بالمشيخة ولعبوا دورا هاما في تاريخ المنطقة. تركي قاسم الزغبي، المرجع السابق، ص 159.

[4] آل نكد: أسرة إقطاعية ذات نشاط واضح على مسرح الأحداث ولقبو أيضا بالمشيخة، وتفيد المصادر التي عنيت بتاريخ تلك الفترة أن المشايخ النكديين كانوا ذوي نشاط وقوة لدرجة أنهم انفردوا عن المشايخ الدروز الآخرين. تركي قاسم الزغبي، المرجع السابق، ص 162.

[5] آل أرسلان: ينتسبون للأمير أرسلان بن مالك المنذري اللخمي، وقد شاركوا في فتح دمشق وبيت المقدس، ولعبوا دورا كبيرا في تاريخ المنطقة، واستقروا في لبنان. تركي قاسم الزغبي، المرجع نفسه، ص ص 145-149.

في عين زحلتا، بيت أبو علوان في الباروك، بيت حمدان[1] في عين قنا، التلاحقة في عيات وعالية، بيت عبد الملك في بتاتر[2].

يذكر قاسم تركي الزغبي الذي قدم دراسة خاصة حول الدروز في كتابه المعنون بجبل الدروز في العهد العثماني أن الدروز تمكنوا من المحافظة على عروبتهم وعلى أصالتهم التي ينحدرون منها ،ولم ينسلخوا عن تاريخ أنسابهم وعاداتهم العربية[3]، ومن بين العادات العربية الأصيلة التي حافظوا عليها إكرام الضيف وفي هذا الصدد تحدث الرحالة فولني Volney عن ذلك من خلال ملاحظاته بقوله:"...كغيرهم من العرب تميزوا بفضيلة إكرام الضيف، فهم يستقبلون الضيف أيا كان ويؤوونه دون منة أو تصنع..."، وقد رأى فولني الذي عاشرهم قمة العطاء لديهم حيث أن أحدهم يعطي رغيف خبز لسائل وهو أشد حاجة إليه منه، فسألهم لماذا لا تحتفظون بها لأنفسكم وأنتم في حاجة لها؟، فقالوا الله كريم ألسنا جميعا إخوة، ويقول كذلك أنه لا يوجد أحد عندهم يحتاج إلى الذهاب لفندق في حال السفر[4]، وإذا دخل ضيف منزل أحدهم يهب صاحب المنزل إلى خدمة ضيفه، ويقف بين يديه مبتسما إشعارا له بالاحترام، ثم يقدم له كل ما يمكن تقديمه في سبيل راحة الضيف، ويقوم صاحب البيت بخدمته بنفسه دون أن ينوب عنه أحد لأن ذلك يعد لديه شرفا كبيرا[5].

يكبر الدروز كالبدو بالأسر وأصلها وفصلها، لكن الأصل والنسب لا يعفي المشايخ ولا غيرهم من الضرائب، ولا يمنحهم أي حق استثنائي كما أنه لا يجعلهم طامعين في الحصول على إتاوة أو ضريبة إقطاعية، كما ينفر الدروز من مصاهرة أسرة غير أسرتهم وهم يفضلون القريب ولو كان فقيرا ويرفضون البعيد ولو كان غنيا، ويختم فولني Volney حديثه عن الدروز بقوله:"... خلاصة يمكن القول أن

[1] الحمدانيين: هم أمراء حلب الذين ضعف شأنهم بعد موت سيف الدولة الحمداني، وبعد أن استولى الفاطميون على إمارتهم في القرن11م تحالفوا معهم بعد ذلك، وعملوا على توطيد زعامتهم بالمنطقة وفرضوا الجزية على جزء كبير من الفلاحين المقيمين بسهل حوران، وتأكدت قوتهم و زعامتهم في الجبل الحوراني مع مرور الزمن. تركي قاسم الزغبي، نفسه، ص ص 256- 258.

[2] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص56.

[3] تركي قاسم الزغبي، المرجع السابق، ص 298.

[4] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص59.

[5] تركي قاسم الزغبي، المرجع السابق،ص 299.

الدروز يتميزون بالنشاط الذي قلما تجده عند العرب الآخرين، ولديهم تسامح لا مثيل له ويختلفون عن بقية الشرقيين في العادات والتقاليد..."[1]، وفي الأخير نشير إلى أن الدروز في القرن 19م وضعوا أنفسهم عدة مرات تحت الحماية البريطانية لأن نظرائهم من الشيعة والمارونيين وضعوا أنفسهم تحت حماية فرنسا وبالتالي كان عليهم إيجاد حليف استراتيجي لمواجهة أخطار محتملة[2].

ب- المارونيون:

ركز الرحالة الفرنسيون خلال رحلاتهم على الفئة المارونية وأعطوها الكثير من ملاحظاتهم وجعلوها تبدو للقارئ فئة أكثر تحضرا وأكثر تدينا وأدبا مقارنة مع بقية الفئات، ويعود السبب في ذلك إلى النزعة الدينية التي هي أهم دوافع الرحلة الفرنسية، لاسيما وأن الموارنة يعتنقون الديانة المسيحية ويعتبرون أنفسهم رعايا فرنسيين ويضعون أنفسهم تحت حمايتها، ولذلك تجدهم يتوسعون في شرحهم لعادات وتقاليد هذه الفئة ويدققون في كل التفاصيل الخاصة بها[3].

تعد الطائفة المارونية من أبرز الطوائف المسيحية في بلاد الشام لاسيما في المناطق الشمالية الشرقية للمنطقة حيث شكلت كثافة سكانية مهمة[4]، بل ذهب بعض الرحالة مثل دولارواير Delaroiere **إلى القول أن المارونيين يشكلون الأغلبية من السكان، وحصر مناطق تركزهم الأساسية في مدينة بيروت وضواحيها[5]، ولا توجد إحصائيات عن كثافتهم العامة في كتابات الرحالة الفرنسيين إلا ما قدمه لنا الرحالة فولني** Volney **عن عددهم أواخر القرن 18م، إذ قدر عددهم الإجمالي بحوالي 105 آلاف بما فيهم الكهنة والرهبان[6] الموزعون على حوالي 200 دير، وإذا**

---

[1] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص60.

[2] L'abbé jean Jacques Bourrasse, op cit, p453.

[3] جوزف بدوي، **موارنة القرن19 أفراحهم وأتراحهم بعين رحالة فرنسي**، جريدة المدن الإلكترونية، 2020/09/03 www.almodon.com

[4] أميرة جبر، المرجع السابق، ص 169.

[5] M delaroiere, Voyage en orient, Dobécourt libraire éditeur, Paris, France1836, p47.

[6] يذكر الرحالة الفرنسي أف بارت if Bart في رحلته أن الرهبان موجودون في كل قرية بكثرة، وأنه لا يكاد المرء يمشي ساعة من الزمن إلا ويجد دير للرهبان أو الراهبات، وكان لهم دور تعليمي كبير للسكان المارونيين المقيمين بالمناطق الجبلية، فهم الذين يعلمونهم الكتابة والقراءة ويقدمون لهم الدروس الدينية. ينظر إلى جوزف بدوي، المرجع السابق، د ص.

ما أضيف لهذا العدد سكان الثغور البحرية يصير العدد 115 ألف ماروني، ثم قدر الكثافة السكانية بناء على مناطق تركزهم بحوالي 760 نفس في الفرسخ الواحد باعتبار أن مساحة بلادهم تبلغ 150 فرسخ مربع[1]، وقال أنهم يقيمون بالتحديد في الأماكن الواقعة بين المنطقة الممتدة من قمم الجبال شرقا إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط غربا[2] ، ومن بلاد النصيرية شمالا إلى بلاد الدروز جنوبا، ثم يذكر في الأخير أنهم عرفوا باسم الموارنة منذ زمن طويل وذلك نسبة إلى القديس مارون الذي عاش على ضفاف نهر العاصي[3].

يتمتع الموارنة المقيمون في المناطق الجبلية باستقلال نسبي حتى أن لهم الحق في الحفاظ على قوة مسلحة مستقلة يحمون بها أنفسهم من الاعتداءات المحتملة[4]، واستطاعوا أن يفرضوا الأمن في الجبل إلى درجة أنه في المناطق الجبلية التي يقيمون فيها يستطيع الشخص أن يتجول بكل حرية وأمان دون أن يحدث له أي شيء، و لاحظ فولني Volney الذي بقي معهم فترة طويلة أن من عاداتهم امتلاك بندقية وحملها حين الخروج من البيت وعليه تمكنوا من المحافظة على استقرار المنطقة، والموارنة الجبليون ليس لهم جيش نظامي لكنهم يتحولون إلى جنود في حال نشوب الحرب، وقدر في إحصاءاته حوالي 35 ألف رجل يستطيعون حمل السلاح[5]، ومن الامتيازات التي منحت للموارنة بعد الحرب الأهلية سنة 1860م إعفاءهم من أداء الخدمة العسكرية بالجيش العثماني، وتم إعطائهم نوع من الاستقلالية في الجانب القضائي إذ أنه في حال نشوب أي مشكل كانوا يحتكمون لدى مطرانهم بمقر المطرانية المارونية[6].

ذهب مُحَمَّد علي كرد في خطط الشام إلى تقدير عدد الموارنة في بلاد الشام بحوالي 300 ألف نسمة مع أواخر القرن 19م وبداية القرن 20م، و بالتالي نلاحظ أن هذه الفئة عرفت تزايدا سكانيا كبيرا خلال القرن 19م تقدر بحوالي 200 ألف نسمة. مُحَمَّد علي كرد، المصدر السابق، ج6، ص 229.

[1] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص ص 40-41.

[2] حبيب السيوفي، المصدر نفسه، ص12.

[3] حبيب لسيوفي ، نفسه، ص36.

[4] G de lombay, **Au Sinaï Palestine et Syrie**, Emest lerousc éditeur, Paris, France1892, p181.

[5] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص40.

[6] جوزف بدوي، المرجع السابق، د ص.

يعتنق الموارنة الديانة المسيحية ويتبعون المذهب الكاثوليكي[1]، ويقول الرحالة تيوفيل قوتيه Théophile Gautier أنهم يعترفون بالسلطة الروحية للبابا[2]، كل هذه العوامل الدينية ساهمت في توطيد علاقتهم مع مسيحيي أوربا لاسيما فرنسا، ووصل بهم الأمر لدرجة أنهم يحسون أنفسهم فرنسيين و هذا ما ذكره الرحالة ألارد كاميل Allard Camille [3]، ويؤيد قوله ما ذكره أوجان ميلشيور Eugène Melchior الذي لاحظ تأثر الشباب الموارنة بفرنسا كثيرا لدرجة أنهم يتحدثون باللغة الفرنسية في شوارع بيروت[4]، وذكرت الباحثة اللبنانية أميرة جبر أن بعض العائلات المارونية ما زالت تحمل ألقابا فرنسية كعائلات: سيكون Second، وبرنس Prince، وتاياللیران Talleyrand[5]، ويذكر عبد الوهاب الكيالي أنه بسبب ميلهم لفرنسا اختارتهم ضمن رعاياها وفرضت حمايتها على الكاثوليك بصفة عامة، وفرضت روسيا حمايتها على الأرثوذكس وبريطانيا على الدروز والبروتستانت[6] واليهود، ويضاف إلى ذلك ما كسبته الدول الغربية على جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية من امتيازات[7].

تحدث القنصل الفرنسي في بيروت أوائل القرن 19م هنري قيز Henri Guys عن أخلاق الموارنة الحسنة فيقول فيهم:"...رغم بساطة المارونيين وجهالتهم وفقرهم فهم من أحسن الشعوب التي تقيم في لبنان، فالموارنة حسنوا الخلق

---

[1] L'abbé jean jacques bourrasse,Op cit, , p452.

[2] Théophile Gautier, **L'orient**, G charpentier éditeurs, Paris, France1882, p 177.

[3] Allard Camille, **Souvenirs d'orient les échelles du lèvent**, Adrien le clere etc i.e, g dillet éditeur, Paris, France1864, p68.

[4] Eugène melchior de vogue**, Surie Palestine mont Athos voyage ausc pays du passé**, Eplon et cie imprimeurs éditeurs, France1876, p 28.

[5] أميرة جبر، المرجع السابق، ص 180.

[6] البروتستانت: تمثل أكبر الانشقاقات الدينية الكبرى في تاريخ المسيحية وهي عبارة عن فئة انشقت في أوربا خلال القرن 16م وارتبطت بما يعرف بحركة الإصلاح الديني التي تزعمها مارتن لوثر(1483-1546) أو ما يعرف بزعيم الإصلاح الديني البروتستانتي، ولقد تسربت مبادئها إلى الشرق العربي ابتداء من القرن 19م على يد المبشرين الأمريكان والبريطانيين، وبدأ نشاطهم على نطاق واسع منذ سنة 1820م بتأسيس الأمريكان لأول مركز في مدينة بيروت، وبعدها مدوا نشاطهم إلى دمشق وحلب وحمص وحماة وجبال العلويين، وقد لقي أنصار هذا المذهب دعما كبيرا وحماية من قبل قناصل بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. =سهام مُحَمَّد هنداوي، **تاريخ دمشق في عهد السلطان العثماني عبد الحميد**، دار و مؤسسة رسلان، ط1، دمشق، سوريا2012م، ص 150.

[7] عبد الوهاب الكيالي، **الموجز في تاريخ فلسطين الحديث**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان1971م، ص 16.

وتصرفاتهم على جانب كبير من اللين..."[1]، وهو نفس الطرح الذي قدمه الرحالة فلوري مون جاك Florimon Jacques الذي زار لبنان في النصف الثاني من القرن 19م، وذكر في رحلته أن الموارنة رعايا ممتازون ومجتهدون ومرحون، وقال:"...وهم شعب نشيط لا يعرف الكلل والملل..."[2]، وبالغ بعض الرحالة الآخرين أمثال الرحالة فليل كلارا Filleul Pétigny Clara التي جعلت منهم أمة متميزة في الشرق بعاداتها وطبائعها الفاضلة، وذكرت في كتابها كذلك أن موارنة المناطق الجبلية على وجه التخصيص متعمقون في الجانب الديني ويتميزون بالشجاعة والإقدام مثل كل سكان المناطق الجبلية[3]، وأكيد إذا تحدثوا عن الفئات الإسلامية تلاحظ تغيرا نسبيا في المواقف، وهذا راجع كما ذكرنا سابقا إلى النزعة الدينية التي كانت الدافع الأساسي لأغلب الرحلات.

خ- الشيعة:

اشتهروا في القرن 19م باسم المتاولة وهم من سكان جبل عامل ، وتكتب في المصادر الفرنسية Mitoulis، وكانوا منتشرين في الضواحي الشمالية الشرقية والبقاع، وتمكنوا من تأسيس إمارة في بعلبك حكمتها عائلة حرفوش من 1282 إلى 1866م، وبصفة عامة اتصفت أحوالهم بعدم الاستقرار والاضطراب وخلقوا متاعب أمنية بالمنطقة[4]، ويتميز شيعة لبنان بتشددهم وبعاداتهم الغريبة وهو ما ذكره لنا القنصل الفرنسي هنري قيز Henri Guys والذي لاحظ تمسكهم الشديد بها، وقال أنهم لا يتفقون لا مع المسلمين ولا مع المسيحيين إلا في بعض المعتقدات[5]، والشيعة يقدسون الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بل إن بعضهم يجعله

---

[1] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص58.

[2] Florimon jacques de Basterot, **Le Liban la Galilée et Rome journal d'un voyage en orient et en etalie septembre 1867 mai 1868**, Charles douniol libraire éditeur, Paris, France1869, p62.

[3] Filleul Pétigny Clara, op cit, p162.

[4] عبد الكريم محمود غرايبه، المرجع السابق، ص 52.

التركز الشيعي في بلاد الشام كان في ثلاث مناطق رئيسية وهي:

=جبل لبنان الملحق بولاية طرابلس – جبل عامل الملحق بولاية صيدا – بلاد بعلبك والبقاع الملحقة إداريا بولاية دمشق. حمادة سعدون، **تاريخ الشيعة في لبنان**، دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان 2008م، ص 97.

[5] Henri Guys, **voyage en Syrie**, Just Rouvier libraire, France, 1855, p22.

إلها يعبده، وهو ما ذكره القس جين جاكس Jean Jacques Bourassé في رحلته، ولاحظ أيضا بأنهم يتميزون بأخلاقهم الفضة وشخصيتهم الشرسة مقارنة مع بقية الفئات الشامية[1]، ومن هنا يمكن القول أن هذه الملاحظات تنطبق تماما على غلاة الشيعة لأن التشيع هو عبارة عن مراتب أشدها تشددا ما ذكره الرحالة، ولهذا أطلقوا عليهم هذه الأحكام العامة.

حسب ملاحظات هنري قيز الشيعة قدموا إلى بلاد الشام بعدما طردوا من وطنهم الواقع في إحدى مقاطعات بلاد فارس فقاموا باللجوء إلى المنطقة فرارا من الخطر المحدق بهم، فانتشروا في ضواحي حماة وحمص وبعلبك وصيدا وعكا، وبعدها انتهزوا فرصة انهزام الموارنة فتسللوا إلى المناطق الشمالية الشرقية لبلاد الشام، واحتلوا القسم الواقع بين بيروت وطرابلس من الجبل إلى الساحل، وحدث بعد ذلك تمرد مشايخ جبة بشرى الموارنة على عهد الأمير يوسف، فطرد الشيعة وتراجع بعضهم إلى ضواحي مدينة بعلبك، والبعض الآخر احتفظوا ببعض القرى في محافظتي جبيل وبشرى وكانت لهم فيها قوة وبأس[2]، وبلاد الشيعة في وقت سابق كانت تشمل المنطقة الممتدة من وادي البقاع حتى مدينة صور، وكاد هذا الشعب أن يكون من الشعوب البائدة بسبب المشاكل التي أحدثوها في المنطقة التي ألبت عليهم سكان المنطقة والسلطة الحاكمة[3]، وهناك إضافة لما سبق مناطق أخرى يستقر فيها بعض الشيعة نذكر منها ما قاله لويس ماركت Louise Marquette في

[1] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p452.

[2] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص50.

[3] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص13.

احتمى المتاولة المقيمون في المناطق الجبلية من الجزار بدفع الجزية بانتظام، ولكن الجزار كان يحمل لهم ثأرا قديما لاتحادهم سابقا مع عدوه ظاهر، وفي سنة 1785م جهز جيشا قويا يتكون من 15 ألف جندي وأرسل حملة كبيرة إلى بلادهم، واندفعت جحافل الجيوش إلى الجبال قتلا ونهبا لمدة عامين، واضطر المتاولة إلى التحالف مع عدوه الأمير يوسف الذي ما إن تصالح مع الجزار حتى قام =بتسليم مشايخ المتاولة المتمردين له، وبالتالي تعتبر هذه من أهم العوامل التي ساهمت في تراجع عدد المتاولة المقيمين بهذه المنطقة واضطر بعضهم للهجرة بسبب =انعدام الأمن و دخولهم كطرف في صراع الزعامة بالمنطقة. بازيلي مخاتيلوفيتش، المصدر السابق، ص 93.

كتابه نحو سوريا أن عددا مهما من السكان الشيعة يقيم في مدينة الجديدات شرق بيروت[1].

يشكل الشيعة كثافة سكانية معتبرة وقد قدرت الرحالة فيليل كلارا Clara Filleul de Pétigny عددهم بحوالي ثلث سكان المنطقة الشمالية الشرقية لبلاد الشام[2]، أما بوجولا Poujoulat فقدر عددهم في المناطق الشمالية الغربية بحوالي 40 ألف من مجموع عام يقدر بحوالي 400 ألف، أي حوالي عشر سكان المنطقة وهي كثافة مهمة جدا[3]، وينقسمون لعدة فرق منها النصيرية التي يقول فيها الرحالة ميشال جوليان Michel Jullien أن من أهم الفرق المتوالية المقيمة في بلاد الشام النصيريون[4] الذين يسكنون المناطق الجبلية وعددهم في الإجمال حوالي 14 ألف نسمة[5]، ويقيم النصيرية عموما في الجبال الواقعة ما بين نهر عكار وأنطاكية، ويتألفون من عدة عشائر كالكلبية والقدموسية والشمية[6]، وقد بقي النصيريون مقارنة مع مختلف الفئات معزولين عن الآخرين ومجهولين، ويعود السبب الرئيسي لذلك أنهم كانوا منشغلين بفتنهم الداخلية[7]، والنصيرية ليست هي الفرقة الوحيدة المشهورة في بلاد الشام حيث يقول ميشال جوليان Michel Jullien في ملاحظاته أنه في لبنان توجد كذلك فرقة من الشيعة وهم الإسماعيلية[8] ويشكلون كثافة سكانية معتبرة تصل إلى حوالي 13 ألف نسمة[1].

---

[1] Louise Marquette, **A travers la Syrie souvenir de voyage**, Illustrations par m louis de Goncourt, Société de ainte augustin, Lille, France1892, p198.

[2] Clara filleul de Pétigny, op cit, p233.

[3] رحلة بوجولا، نقلا عن: أميرة جبر، المرجع السابق، ص 154.

[4] النصيريون: هم أحد الفروع 11 لفريق غلاة الشيعة و يطلقون صفة الإلهية على الأئمة من أهل البيت، ويقولون أن علي بن أبي طالب ﷺ هو أفضل خلق الله بعد الرسول ﷺ وذريته كذلك، وذلك لأنه كان مخصوصا بتأييد إلهي فيما يتعلق بباطن الأسرار، وقالوا أن الله ظهر بصورته وخلق بيده وأمر بلسانه، وأنه كان موجودا قبل خلق السماوات والأرض، وبالتالي يمكن القول أن النصيرية تميل إلى تقرير الجزء الإلهي. أبي الفتح مُحَمَّد بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل**، إع تع: أبو عبد الله السعيد الندوه، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، بيروت، لبنان1994م، ج1، ص ص 138-139.

[5] Michel Jullien, op cit, p16.

[6] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص13.

[7] عبد الكريم محمود غرايبه، المرجع السابق، ص52.

[8] الإسماعيلية: الإسماعيلية والباطنية والقرامطة وغيرهم من الفرق يظهرون التشيع لآل البيت وحقيقتها الإباحية والكيد للدين، وهم الذين ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده إبنه إسماعيل، وانقسم هؤلاء إلى فرقتين: فرقة منتظرة لإسماعيل بن جعفر،

يتميز الشيعة كما سبق وأن أشرنا إليه سابقا بمجموعة من العادات المختلفة والغريبة نوعا ما وهو ما أشارت إليه ملاحظات الرحالة الفرنسيين، ومن أمثلة العادات الغريبة التي ذكروها هي أن الشيعة لا يشربون ولا يأكلون من عند أشخاص لا يعتنقون دينهم ومذهبهم، بل يقومون بتكسير الأواني الزجاجية كالأطباق التي تم استخدامها خارج المنزل وقت إرجاعها وهذه الملاحظات وردت في كتاب الرحالة الفرنسية فليل كلارا Filleul Pétigny Clara **التي زارت مناطق تواجدهم وبقيت عندهم لفترة زمنية[2].**

د- اليهود[3]:

تواجد اليهود في الشام منذ زمن بعيد لكن عددهم كان قليلا جدا، والملاحظ في كتب الرحالة الفرنسيين أن هذه الفئة تمكنت من تشكيل كثافة سكانية معتبرة في بلاد الشام خلال القرن 19م[4]، وقد لاحظ معظم الرحالة تزايد عددهم وفي هذا الصدد يشير القس بارود L'abbe a. Parraud **في كتاباته إلى تدفق عدد كبير من اليهود إلى المدن الشامية لاسيما إلى مدينة القدس، وذكر أنهم يأتون من كل أنحاء العالم وأشار أنهم أصبحوا يشكلون كثافة مهمة بالمنطقة[5]، ولعل من أهم أسباب تزايد عددهم الرئيسة في مدينة القدس حسب تقدير الرحالة م م ب ف**

وفرقة قالت أن الإمام بعد جعفر سبطه مُحَمَّد بن إسماعيل بن جعفر، حيث أن جعفر نصب ابنه إسماعيل للإمامة بعده فلما مات إسماعيل في حياة أبيه علمنا أنه إنما نصب ابنه إسماعيل للدلالة على إمامة ابنه مُحَمَّد بن إسماعيل، والإسماعيلية من فرق الغلاة 11. عبد القاهر بن الطاهر بن مُحَمَّد البغدادي، **الفرق بين الفرق**، در تح:مجدي فتحي السيد، إش: توفيق شعلان، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، د ت، ص 48.

[1] Michel Jullien, op cit, p16.

[2] Filleul pétigny Clara, op cit, p162.

[3] عرفت بلاد الشام توافد عدد كبير من اليهود خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني، وقد تركز أغلبيتهم في المدن الفلسطينية حيث بلغ عددهم فيها حوالي 10آلاف نسمة وحوالي 30 ألف في بلاد الشام كلها، والملاحظ أن عددهم عرف تزايدا كبيرا في أواخر القرن 19م حيث تذكر بعض المصادر أنهم بلغوا حوالي 100 ألف نسمة. سهام مُحَمَّد هنداوي، المرجع السابق، ص 153.

نفس المعلومة تأكدها كتابات الرحالة الفرنسيين لبلاد الشام خلال القرن19م، والمتتبع للإحصائيات يلاحظ تزايد وتيرة الهجرة اليهودية لبلاد الشام عامة و فلسطين خاصة. لمزيد من المعلومات ينظر إلى المبحث الثاني الذي يتحدث عن عدد السكان.

[4] ينظر إلى الملحق رقم 02.

[5] L'abbé a. parraud, **Egypte et Palestine souvenir de pèlerinage**, Aubanel frères imprimeurs de n s p le pape et de m l'archevêque, Avignon, France1891, p222.

M M P V عمليات الطرد الكبرى لليهود من روسيا [1]، وهو نفس الطرح الذي ذكره مارتين دونوس Martin Donos حين يقول:"... العديد من اليهود فروا من روسيا لما لاقوه من اضطهاد هاربين لفلسطين..."[2]، لاسيما بعد الحرب الأهلية سنة 1881م في روسيا عقب اغتيال القيصر الروسي ألكسندر الثاني، وتأسست على إثرها حركة البيلو التي عملت على تهجير اليهود إلى فلسطين بقصد الاستيطان بداية من 1882م[3].

يذكر الرحالة بيار لويس بيشونارد Pierre Louis Péchenard أن روسيا دعمت ترحيلهم إلى فلسطين للتخلص منهم، وفي المقابل يقول أن الدولة العثمانية رفضت دخولهم في الموانئ إلا أنهم حسب رأيه كانوا يأتون في الغالب سيرا على الأقدام من منطقة شبه الجزيرة العربية ويتسللون دون أن تشعر بهم السلطات، ولاحظ هو الآخر أيضا أنهم يتكاثرون في مدينة القدس حيث أصبحوا يشكلون مصدر قلق، ولم يتمكن من إحصائهم ويقول في هذا الصدد:"...من المستحيل إحصائهم بالتحديد لأنهم يختبئون مثل الفئران في جحورهم ويتهربون من دفع الضرائب..."، ويقول أيضا:"...اليهود يعتقدون أنهم في بيتهم بالقدس وأنها وطنهم..."، ويختم حديثه بذكره أنهم أناس محتقرون ومكروهون في كل مكان يتواجدون فيه وذلك بسبب صفاتهم السيئة[4].

تشتت اليهود في مختلف أنحاء العالم ولم تقتصر هجرتهم فلسطين فقط، ولكنهم حسب رأي القس باسك L'abbé Becq يتجمعون بكثرة في وادي قدرون بضواحي القدس، واستقرارهم في هذا المكان بالتحديد مبني على عدة أسس فهم يقولون أن المنطقة توجد بها مقبرتهم المفضلة، ويعقب القس باسك L'abbé Becq على ذلك بقوله:"... لكن الغريب في الأمر أن شواهد القبور بها خالية من

[1] M m p v, **Impressions et souvenirs deux sœur jumelles en voyage**, Société de saint augustin, Paris, France1895, p150.

[2] Martin Donos, **Au pays du sauveur impressions de voyage d'un pèlerine**, imprimerie l p gourand, France1893, p244.

[3] عبد الوهاب الكيالي، المرجع السابق، ص 18.

[4] Pierre Louis Péchenard, **De Reims a Jérusalem en 1893**, Dubois poplimont imprimeur-éditeur, Reims, France1893, p291.

الأرقام ولا يوجد ما يثبت صحة كلامهم..."[1]، ويؤيد مارتن دونوس Martin Donos قول سابقه حول مكان استقرار اليهود فيذكر أن اليهود مزدحمون في الجهة السفلية للبلدة على سفوح جبل سيون بالقدس، وأشار إلى أنهم أصبحوا يمتلكون العديد من المعابد والمستشفيات والمدارس بالمنطقة، ولاحظ أن عددهم يتزايد يوما بعد يوم وأنهم يبنون حول المدينة المقدسة بيوتا أصبحت عبارة عن قرى حقيقية، وذكر في رحلته أن عائلة روتشيلد[2] اليهودية هي التي تبني هذه القرى الصغيرة على نفقتها[3]، وفي أواخر القرن 19م تمكن اليهود من بسط سيطرتهم على الجهة الجنوبية من مدينة القدس وشكلوا ما يعرف بالحي اليهودي الذي يقع بالتحديد في الجنوب الشرقي للمدينة والكثافة السكانية به كانت معتبرة حسب تقدير الرحالة فيكتور قرين Victor Guerin الذي لاحظ أن شوارعهم مكتظة بالسكان[4].

تركز اليهود في عدة مناطق وليس في القدس فقط، ونذكر على سبيل المثال منطقة طبرية التي تذكر القافلة الفرنسية الحجية التي زارت المكان في 1873م أن اليهود يعيشون بأعداد كبيرة بالقرب من طبرية[5]، وهو نفس ما لاحظه الرحالة ليوني دو بزولار Léonie de Bazelaire إذ يقول:"...هذه القرية تعتبر بمثابة ملجأ لليهود المنفيين..."، ولاحظ أن عددهم كبير جدا هناك حيث قال:"...إن المدينة مبنية على طراز يهودي خالص..."[6]، ويذكر فرمين روزي Firmin Rauzy أن عدد اليهود في طبرية كبير جدا فيقول:"... اليهود يشكلون في بحيرة طبرية الأغلبية

[1] L'abbé Becq, **Impressions d'un pèlerin de terre sainte au printemps de 1855**, A d môme et cie imprimeurs libraires, Paris, France1859, p53.

[2] روتشيلد: يعتبر ماير أمشيل (1743-1812) مؤسس سلالة آل روتشيلد، و قد تلقى تكوينا أهله ليصبح حاخام، وبعد أن اشتغل بإحدى البنوك بمدينة هانوفر جمع ثروة معتبر وفتح مصرف صغير للعملات ونجح فيه وبدأ يوسع دائرة أعماله، وفي فترة 1804 و 1812 منح قروضا لحكومة الدنمارك ليدخل عالم السياسة، وأنجب 5 أبناء لقنهم أسرار المهن التجارية والمالية وأصبحوا خلال القرن 19م يتحكمون في دواليب التجارة، واحتفظوا بجنسيتهم الألمانية . محرز عفرون، **آل روتشيلد وآل بكري وآل تليران**، تر: مسعود حاج مسعود، دار هومة ط ن ت، الجزائر 2013م، ص ص 54-56.

[3] Martin donos, op cit, pp 251- 252.

[4] Victor Guerin, **La terre sainte son histoire ses souvenirs ses sites ses monuments**, 2ed, libraire plon, Paris , France 1884,p420.

[5] **Caravane française de 1873 bonheur et facilité du pèlerinage de Jérusalem et Bethléem**, G t équi libraire éditeur, Paris, France1875, p214.

[6] Léonie de Bazelaire, **Chevauchée en Palestine**, Louis carré éditeur, Paris, France1889, p72.

الساحقة وعددهم حوالي 5200 من أصل 6000 نسمة..."[1]، وأشار كذلك أنه يوجد في طريقها شيد كنيس يهودي لأحفاد السامري القدامى[2]، وتركزهم بهذه المنطقة يعود للقدسية الكبيرة التي تمتلكها المنطقة لديهم على غرار القدس وواد قدرون.

ختاما يمكن القول على العموم أن اليهود في البلاد الإسلامية بصفة عامة قد شملتهم رعاية المسلمين، وحظوا بالتقدير في دينهم ودنياهم، ومارسوا طقوسهم الدينية بكل حرية، كما مارسوا التجارة والحرف المختلفة كصناعة الحلي والجلود والنجارة والحدادة والتجارة والطب في جو من الأمن والحرية[3]، وهو ما فتح المجال أمامهم من أجل تحقيق أهدافهم الاستيطانية بالمنطقة.

ه- دراويش الصوفية[4]:

الدراويش حسب ملاحظات القس لسبيناس L'abbé jh Lespinasse فئة من المجتمع مميزة عن بقية الفئات بأنها وهبت نفسها ونذرت الفقر والعفة، وذكر أنهم ينقسمون إلى عدة أصناف منهم المحتالون، الماهرون، المشعوذون، الوقحون، وأن لديهم تمثيل إيمائي يصل بهم إلى ما يعرف بالنشوة القصوى، ويقول أنهم يصدرون أصوات كالعواء المسعور، أما رقصاتهم فهي أكثر خشونة وتهورا، ورأى لسبيناس أن الأمر الذي يقومون به تافه وقال:"...ما يقومون به ينال إعجاب الشعب الساذج فقط..."، ثم ذهب إلى تقسيمهم حسب الطقوس التي يمارسونها وذكر أنه يوجد 32 نوع من الدراويش والأكثر شيوعا هم دراويش العواء، والدراويش الدواميون الذين يرقصون ويتحولون بسرعة لا تصدق إلى حالة من الغيبوبة الجسدية والعقلية بعد

[1] Firmin Rauzy, **Jérusalem Constantinople Athènes**, Libraire francal, Foix, France1897, p45.

[2] Firmin Rauzy, ibid, p62.

[3] يحي بوعزيز، **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر2013م، ج3، ص 453.

[4] عرفت بلاد الشام انتشار العديد من الطرق الصوفية منها: الرشيدية، الرفاعية، القادرية، الشادلية، الدندراوية، البدوية، المولوية، النقشبندية، البكتاشية، وقد كان لكل طريقة زواياها وتكاياها الخاصة يديرها و يشرف عليها شيخ الطريقة. وجيه كوثراني، **السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان1988م، ص 49.

جولة[1]، وكغيرهم من الطرق والفئات يمارس هؤلاء الدراويش عادات يومية من العبادات كالتوبة، الخضوع، مجاهدة النفس في العبادة، وتكون اجتماعاتهم عادة مساء يوم الخميس أي في ليلة الجمعة، أما ملابسهم فيغلب عليها اللون الأبيض ويضعون فوق رؤوسهم قبعة طويلة تشبه شكل رغيف سكر، ويمتلك كل درويش سلسلة مكونة من 99 حبة نسبة إلى عدد أسماء الله، وهناك بعض الأذكار التي تتكرر 33 مرة و هي بذلك تتوافق مع السبحة، ومن أهم ما يهتفون به في ممارساتهم التعبدية لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يا إلهي، هو، حي، يا موجود، يا منتقم، يا عادل..[2].

مقارنة مع بقية المناطق الشامية الملاحظ أن الدراويش كثيرون جدا في مدينة دمشق حسب ملاحظات الرحالة م م ب ف M M P V، و يذكر أن لديهم قدسية كبيرة في المدينة حيث أسسوا لهم مقر مخصص يقع في مدخلها وهو عبارة عن بناية ضخمة ذات طابع معماري إسلامي، وبها العديد من الغرف المقببة التي تأوي الدراويش[3]، ويسمى هذا المقر التكية والتي هي نوع من أنواع البيوت، وبنيت خصيصا لإيواء الدراويش والفقراء، وتتميز بمجموعة من الخصائص العمرانية فبداخلها تجد فناء رائع يقع في وسط البناية محاط برواق مغطى مدعوم بأعمدة قديمة[4]، وتعلوها قبة مغطاة بالرصاص يحدها من كلا الجانبين باحة وعادة ما تحتوي التكية على مسجد، والأموال التي تنفق عليها تأتى بها من مؤسسة مختصة في جمع المال للفقراء والمساكين و يقصد هنا جول قزافي Jules Xavier مؤسسات الوقف، كما توفر التكية مجموعة من الخدمات الأخرى حيث يتم بها طهي الطعام كل يوم من أجل إطعام الفقراء والدراويش[5]، وقد لاحظ الرحالة م م ب ف M M P V بعد دخوله للتكية تجد وجود أوعية عملاقة مع مجارف طويلة وذلك من أجل سد الحاجيات الغذائية لجميع الدراويش المقيمين بها[6]، والتكية الكبرى التي تحدثنا

[1] L'abbé jh Lespinasse, **D'Agen a Jérusalem journal et lettres d'un pèlerin**, Michel et Medan libraires éditeurs, Agôn, France1885, p366.
[2] Henri Guys, op cit, p224.
[3] M m p v, op cit, p65.
[4] Louise Marquette, op cit, p249.
[5] Jules Xavier saguez de freuvry, **De damas a Palmyre fragment inédit d'un voyage en orient**, L'imprimerie de Bean, saint germain, France1848, p29.
[6] M m p v, op cit, p65.

عنها ليس هي التكية الوحيدة الموجودة بدمشق حسب تقدير أوجان ملشيور Eugène Melchior الذي يقول:"...بصفة عامة توجد بدمشق مجموعة معتبرة من التكايا مخصصة لإيواء الدراويش..."[1].

أشار الرحالة غوسطاف فلوبير Gustav Fluber في كتابه إلى أن الدراويش مقدسون جدا في بلاد الشام وأن لا أحد يمكنه التعدي عليهم، وحسب ملاحظاته نستنتج أن الدراويش قد بلغوا مرتبة عالية جدا لدى عامة الشعب إلى درجة أنه ذكر بأنه يوجد بعض الدراويش الذين يمشون عراة في مدينة دمشق دون أن يتعرضوا لأدنى مضايقة، وذكر لنا قصص عجيبة وغريبة سمعها من السكان المحليين عن بعض الدراويش فيقول:"... من العجائب أن بينهم رجل مجنون لا يكف عن الصراج وتعابير وجهه غريبة، وتأتيه النساء اللواتي لا يلدن ويرغبن في الإنجاب، فيقومون بلثم عضوه الذكري بل قيل في زمن مضى ليس ببعيد كان هذا الرجل يجامع النسوة في وسط السوق، فإذا شرع في ذلك أحاط به الأتراك هو والمرأة وستروهما بأرديتهم عن أعين المارة..."![2]، ولكن لا يمكننا الجزم بصحة هذه الرواية التي نقلها من عند السكان المحليين أو ربما قد تكون من نسج خياله، لأننا لا نظن أن درجة التقديس لهؤلاء الصوفية قد تصل إلى حد تجاوز الأخلاق العامة التي تضبط أفراد المجتمع الشامي الإسلامي.

و ـــ الأجانب:

تتعد الفئات الأجنبية في بلاد الشام المضيافة التي ترحب بكل من يلجأ إلى أرضها، ومن أبرز الأجانب الذين سكنوا واستوطنوا بلاد الشام الجزائريون، وتبدأ قصة هجرة الجالية الجزائرية إلى دمشق إلى ما بعد بداية الاستعمار الفرنسي في 05 جويلية 1830م بسنوات قليلة، حيث بايع الجزائريون الأمير عبد القادر على قيادة الجهاد في سبيل الله ضد المستعمر الغاشم، وقد تمكن الأمير من تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة القائمة بمختلف مؤسساتها وواجه الاستعمار الفرنسي وكبده العديد من الخسائر، واستمر جهاده لأكثر من 15 سنة ولكن نظرا لعدة

[1] Eugène Melchior de vogue, op cit, p 73.

[2] غوسطاف فلوبير، **رحلة إلى الشرق فلسطين ولبنان وقرطاج**، ترجمة: فريد الزاهي، دار الكتب الوطنية ، أبو ظبي2013، ص61.

ظروف انحصرت مقاومته تدريجيا، وبدأت الهجرات الأولى للجزائريين في 1847م بعد الفتاوى التي أصدرها بعض علماء الجزائر بإمكانية الهجرة لمن لا يمكنه أداء الشعائر الدينية بحرية، وعليه اجتمعت حوالي 500 أسرة وهاجروا إلى دمشق وتعرف بهجرة العلماء لأن أكثر من كان فيها هم من العلماء، وبعد وصولهم لدمشق استقبلوا استقبالا شعبيا حافلا وذلك لأن من صفات أهل الشام الترحيب بالغريب لاسيما إن كان من أهل العلم، ونزلوا في خان يعرف بخان المغاربة، وعاش الجزائريون حياة عادية وكأنهم بين أهلهم[1].

بعد ذلك تكتل الجزائريون فور وصولهم واستقرار أحوالهم في حي يدعى باب سويقة، ونقلوا فيه نفس عاداتهم في العيش و مارسوا فرائضهم الدينية[2]، بينما وصل الأمير عبد القادر إلى مدينة دمشق سنة 1855م وعاش بها 28 عاما كانت بمثابة ذروة نشاطه الفكري والعلمي، وعاش فيها معلما وسياسيا مدافعا عن قضايا أمته ونشر الخير وله العديد من الفضائل على مدينة دمشق وأهلها[3].

- الأمير عبد القادر الجزائري[4] من خلال كتابات الرحالة:

---

[1] مُحَمَّد شريف عدنان الصواف، **حدثيني يا شام قصص وشخصيات وحوادث تاريخية متجذرة في الذاكرة الدمشقية**، دار العصماء، ط1، دمشق، سوريا2022م، ص ص 131-135.

[2] عمار هلال، **الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام 1847-1918**، دار هومة ط ن ت ، الجزائر2007م، ص 313.

[3] مُحَمَّد شريف عدنان الصواف، المرجع السابق، ص 143.

[4] ولد الأمير عبد القادر بن محي الدين يوم الجمعة 23 رجب 1222هـ/25 سبتمبر 1807م ببلدية القيطنة الواقعة غربي مدينة معسكر من مقاطعة وهران عاصمة الإقليم الغربي للجزائر، ويتصل نسبه بالحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وأصل أسرة الأمير عبد القادر من المغرب الأقصى وأجداده هم الأدارسة، وولد الأمير عبد القادر في بيت علم وتقوى اختص بمشيخة الطريقة القادرية، وكان محي الدين والده شيخا للزاوية القادرية بالقيطنة، وفيها تلقى تعليمه المبكر وحفظ القرآن، وأخذ من والده وغيرهم الكثير من علوم الدين واللغة والفقه والتفسير والحديث والنحو وأصول الدين، وتلقى التعليم المكمل في أرزيو ووهران، واشتهر بالفروسية واستخدام السلاح، وفي 1825م سافر مع والده لأداء فريضة الحج وزار في طريقه عدة مناطق، و لم يعد حتى سنة 1828م. إسمى مهييل، **الأمير عبد القادر الجزائري في دمشق نشاطه السياسي والفكري1855-1883**، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر2017م، ص ص 17-21.

=في منتصف ليلة السبت التاسع عشر من شهر رجب سنة 1300هـ/1883م انتقل الأمير الجليل إلى رحمة الله تعالى في قصره الكائن قرب قرية تدمر البعيدة عن دمشق مسافة ساعة، وكان موته بعد مرض لمدة 25 يوم، و دفن بمقبرة دمشق جوار حجرة الشيخ الأكبر والأمير عبد الرزاق. أبو القاسم مُحَمَّد الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، موفم للنشر، الجزائر، 1991م، ج2، ص 143.

بدا الفرنسيون في كتاباتهم حول الأمير عبد القادر منصفين ومقدرين لشخصيته وإنجازاته، ولا يكاد يمضي وقت قصير إلا وتصدر عنه كتابات جديدة تستعيد ذكراه و مواقفه، خاصة وقفته البطولية مع المسيحيين في بلاد الشام أثناء الحرب الأهلية سنة 1860م[1] وهو الأمر الذي أدى إلى تطور علاقته معهم بعدها[2]، وكانت حياة الأمير في الشام محل تقدير الجميع من معاصريه والتف حوله سكان بلاد الشام وأخذوا عنه في كل الميادين لما له من حكمة ونصيحة سياسية، وبالتالي أصبح مصدر إشعاع ونقطة التقاء للمفكرين والعلماء، وهي أمور جعلته يملك القوة التي مكنته من الوقوف الرائع أثناء الفتنة الطائفية[3].

مدينة دمشق هي من أهم المحطات التي استقطبت الحجاج المسيحيين لاسيما الفرنسيين، وهي تدخل ضمن اهتماماتهم نظرا لما فيها من مقدسات مسيحية إضافة إلى أهميتها التجارية والتاريخية، وبصفة عامة كان القادمون لبلاد الشام يغتنمون فرصة تواجدهم بها لزيارة واحد من أعظم شخصيات القرن المقيمة بدمشق وهو الأمير عبد القادر الجزائري، وأصبحت زيارته من أبرز المحطات التي يمر بها الحجاج المسيحيون الفرنسيون الزائرون لدمشق، ولا يمكنهم أن يغادروا مدينة دمشق حتى يزوروه ويذهبوا إلي منزله ويقدموا له فروض الطاعة والولاء والتقدير والاحترام، والسبب الرئيسي لكل هذا الاحترام والتقدير لشخصه يعود إلى

---

[1] عندما تناهى لمسامع الأمير عبد القادر ذات صباح أن الجموع الهائجة تتجه نحو حي القصاع استدعى فرسانه الأشداء، وخرج مع كافة أبنائه، وقاد بنفسه حملة إطفاء الفتنة الطائفية، ووزع المهمات على رجاله، وتمكن رجاله من الوصول إلى الأسلحة التي كانت موجودة في قلعة الوالي أحمد باشا، وهو الأمر الذي ساعدهم كثيرا في حماية السفارات الأجنبية في دمشق، ونقل البعثات والدبلوماسيين إلى دور الأمير في حي العمارة، وأشرف بنفسه على عملية الإنقاذ و إخماد الحرائق المشتعلة في المنازل، وكان الفرسان الجزائريون يقتحمون النيران وينقذون الأمهات والأطفال، وكان الأمير يتجول بين الشوارع غير مبال بالرصاص والطلقات الطائشة وهو على ظهر حصانه يصدر الأوامر، وبلغ عدد ما نقلوه 15000 بين رجل وامرأة، و نقل البعض إلى القلعة، و في اليوم 3 هجمت الجموع على حي العمارة فخرج لهم الأمير، وما أن رأوه حتى ألقى الله الرعب في قلوبهم، وعادوا من حيث أتوا، وتمكن من أسر بعضهم، وكان بعضهم مسيحيين مما أدهش الأمير واستجوب أحدهم فقال له: كيف السبيل للقضاء على الدولة العثمانية سوى جعل الحكم غير مستقر في البلاد، وإن فرنسا تريد الأخذ بيدنا إلى الحضارة وما جنودها في ميناء بيروت إلا رسل لهذه الحضارة. بديعة الحسني الجزائري، **أصحاب الميمنة إن شاء الله**، دار سلام للترجمة والنشر، دمشق، سوريا1993م، ص 214.

[2] مُحَّد بكري، **الأمير عبد القادر الجزائري في كتب فرنسية يوم كان للعرب سلطان**، جريدة الحياة، يومية سياسية عربية دولية مستقلة، بيروت، لبنان، السبت 13 جويلية 2013م.

[3] أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ش و ن ت، الجزائر1981م، ج1، ص 132.

الدور الإنساني الكبير الذي قام به أثناء الحرب الأهلية الكبرى التي كانت بين الدروز والمسيحيين[1].

ذكر الرحالة فلوريمون جاك Florimon Jacques الذي زار مدينة دمشق بعد مدة قصيرة من حدوث الحرب الأهلية أن الأوضاع في دمشق كانت غير مستقرة بين المسلمين والمسيحيين، وقال نقلا عن مصادر محلية:"...سكان دمشق المسلمين كانوا معبئين وعلى استعداد تام للانضمام لأي حركة معادية ضد المسيحيين..."[2]، وبالتالي كانت الحرب الأهلية التي اندلعت سنة 1860 في المنطقة أكثر فظاعة وأكثر همجية من أي مكان آخر إذ كان المسيحيون بها ضعافا عاجزين معزولين غير

---

[1] G téqui, **Caravane française de 1873 boneur et facilité du pèlerinage de Jérusalem et de Bethléem**, Libraire éditeur de léoeuvre de saint Michel, Paris, France 1875, p267.

[2] لعب الصراع الإستراتيجي بين كل من فرنسا وبريطانيا حول منطقة المشرق التي كانوا يسعون للسيطرة عليها دورا هاما في تأجيج نار الحرب بين الموارنة والدروز، وعملت على زرع الفتنة و الشقاق إيقاد النزاع الروحي بين الطرفين، وبالتالي كانت هناك أيادي خفية لتحرك الفتنة بين الطائفتين، وأن ما وقع مدبر له من الخارج وليس نتيجة الأوضاع الداخلية المتردية، وعملت كل من بريطانيا وفرنسا على إحراج الدولة العثمانية والتضييق عليها لمناصرة طرف ضد الآخر، وتفاقمت الأمور حتى أن الدولة العثمانية لم تتمكن من الإنفراد بالحلول بعيدا عن فرنسا التي ساندت الموارنة وإنجلترا التي ساندت الدروز. ينظر إلى قطوش وهيبة، المرجع السابق، ص 76.

اتهم الكثير من الرحالة الأجانب الذين زارو المنطقة في تلك الفترة إرساليات اليسوعيين التي كانت تبعث للتبشير، وأنها تجاوزت دورها الدين وأصبحت تتدخل في الشؤون العامة، وملاحظاتهم تدل على الحركات المريبة التي كانوا يقومون بها في قرى جبل لبنان ودخولهم من بيت لآخر، وكان ذلك يتم في جماعات كبيرة، وذكروا أنهم كانوا يتكلمون في كل شيء إلا الجانب الديني الذي هو مهمتهم الأساسية. ينظر إلى إميل خوري وعادل إسماعيل، **السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة 1789 إلى سنة 1957**، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، لبنان1961م، ص 256.

نفس الطرح ذهب إليه الرحالة الروسي بازيلي الذي ذكر أن المبشرين الأوربيين خاصة الفرنسيين لعبوا دورا كبيرا في زرع الفتن والدسائس، وقال أنهم بدل أن يبشروا بالمسيحية قاموا بتأليب السكان على بعضهم البعض. بازيلي مخاتيلوفيتش، المصدر السابق، ص 362.

يذكر الباحث فؤاد شاهين في كتاب الطائفية في لبنان أن فرنسا لعبت دورا كبيرا في تأجيج نار الفتنة الطائفية، ويذكر أنها قامت بتوزيع السلاح والأموال على الموارنة والدروز على السواء، كما أن بوارجها كانت تحط في سواحل بيروت وهي محملة بالأسلحة. فؤاد شاهين، المرجع السابق، ص 120.

منح الأمير الوسام المجيدي من السلطان العثماني وهو من الدرجة الأولى، وأعطته فرنسا الوسام الكبير لجوقة الشرف الذي لم يكن يمنح إلا لرؤساء الدول الأجنبية، كما منح عدة أوسمة من قبل الدول الأوربية. ينظر إلى عبد القادر بوطالب، **الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير**، تقديم: روبير أجيرون، منشورات دحلب، الجزائر2009م، ص 259.

مؤيدين مقارنة مع بقية المناطق، وقد لجأت العديد من العائلات المقيمة في المناطق الجبلية إلى هناك على أمل أن يجدوا حماية من قبل باشا المدينة رفقة القوات العثمانية المرابطة بها لكنهم عجزوا عن توفير الحماية لهم[1]، وعليه قتل عدد كبير من المسيحيين الذين كانوا معزولين في أطراف المدينة، ثم اجتاح الثائرون الحي المسيحي وبقوا يذبحون وينهبون لعدة أيام ولم يسلم حتى الأطفال والنساء، ولا يعرف عدد الضحايا بالضبط ولكنهم يقدرون بالآلاف[2].

برز الأمير عبد القادر الجزائري في هذا الوقت الحرخ والصعب ووقف وقفة إنسانية بجنب المسيحيين الهاربين، ودخل التاريخ من بابه الواسع وأصبح من الشخصيات الأكثر تميزا في دمشق، ومما ساعده على القيام بهذا الموقف أنه كان يسكن في حي من أحياء دمشق مليء بالمسلمين الجزائريين[3]وتحيط منازلهم بمنزله من كل جهة وبالتالي يشكلون حراسة جيدة لشخصه، وهم يقدمون للأمير عبد القادر ولاء مطلقا وتاما وهو الأمر الذي ظهر جليا وقت الحرب الأهلية التي عرفتها المنطقة بين الدروز والمارونيين إذ وقفوا تحت إشارته وامتثلوا لأوامره[4] .

تلقى الأمير الكثير من المدح والثناء من خلال كتابات الرحالة فمثلا قال عنه الرحالة م م ب ف: "...الأمير عبد القادر الزعيم الجزائري رجل شجاع وحياته مجيدة، وتوجها بعمله الإنساني الذي قام به في الحرب الأهلية سنة 1860م إذ دافع

---

[1] Florimon jacques de basterot, op cit, p116.

[2] Florimon jacques de basterot, ibid, p117.

[3] اتخذت الهجرة الجزائرية إلى بلاد المشرق العربي صبغة خاصة بعد استقرار الأمير عبد القادر في دمشق، وقد تمكن من جلب أنظار الجزائريين إليها، وأغلبهم ممن شاركوه في حركته النضالية ضد الاستعمار الفرنسي عن قرب أو عن بعد، وجلب الأمير معه 110 من بروسا التركية وقدمت 100 في نفس وقت رحيله إلى دمشق، ووجدوا الكثير من الجزائريين قبلهم بدمشق، كما استقر بعض الجزائريين في حوران وحمص وضواحيها، وأشار القنصل الفرنسي بدمشق سنة 1835م إلى وجود أعداد هائلة من المغاربة، وأشار إلى أن قافلة الحج الشامية المنطلقة من دمشق كان يحرسها 1000 فارس مغربي، وهو ما يؤكد وجود عدد مهم من الجزائريين، واختار المنفيون معه مدينة دمشق، وحتى من لم يحاكموا فضلوا اللحاق به، ولعب أتباعه أيضا دورا كبيرا في جلب عدد كبير من الجزائريين لدمشق ونذكر منهم أحمد بن سالم والذي وجه نداء لسكان دلس ونواحيها ليلتحقوا به في منفاه، والأمير لم يكن في حاجة للدعاية من أجل هجرة الجزائريين ولو أنه فعل ذلك لهاجرة فئة كبيرة من الشعب الجزائري، وأخيرا نقول أن هذه الجموع من الجزائريين لعبت دورا كبيرا في دعم موقف الأمير الإنساني. عمار هلال، **الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام 1847–1918**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر2007م، ص ص 19–23.

[4] G téqui, op cit, p267.

عن المسيحيين وحشدهم عنده وحماهم من الغضب الأعمى..."[1]، والمميز في هذا العمل الإنساني أنه كان شاملا، فالمسيحيون الذين أنقذهم الأمير مكونون من مدنيين ورهبان وقناصل مختلف الدول[2]، وقد تلقى اللوم من الدروز باعتبارهم مسلمين و الذين اتهموه بالدفاع عن المسيحيين بعدما كان يحاربهم في الجزائر، فرد عليهم قائلا:"...إنني عندها كنت أحارب جنودا مسلحين للدفاع عن بلادي، ولا أريد أن أكون اليوم مجرما يقتل بدون سبب رجالا ونساء عزلا..."[3].

يصف لنا لويس ماركت Louis Marquet الأمير عبد القادر وصفا جميلا يليق بمقامه فيقول فيه:"... البطل الهاشمي الذي سحر مآثر الفرنسيين ونال إعجاب الشباب نظرا للخدمات الجليلة التي قدمها لمسيحيي سوريا في 1860م وهو العام المشئوم الذي حدثت فيه الحرب الأهلية الدامية، وفتح قصره للمسيحيين وأنقد حياة 12 ألف شخصا، وكان بنفسه واقفا عند الباب لمنع الدروز من الدخول، وكان هذا السلوك من طرف الأمير نابعا من دينه، وهو حاليا يفتح بيته للجميع ويستقبل المسيحيين الزائرين له بشكل رائع..."[4].

ملاحظات الرحالة الفرنسيين كما ذكرنا سابقا تفصيلية وشاملة، ولم يهملوا في كتاباتهم الحديث عن الصفات الخلقية والخلقية للأمير ونمط لباسه الذي أجمع أغلبهم على بساطته وأصالته، فهذا القس دولابلانش L'abbé Deleplanche يصف الأمير عبد القادر بأنه شخص شديد التواضع وقد وجده عكس ما كان يتصوره يرتدي ملابس بسيطة جدا[5]، وهي ملابس ذات نمط دمشقي مكونة من عمامة بيضاء تغطي رأسه[6]، وقد خصص الأمير منزلا للزوار وصفه لنا الرحالة سافيجني

[1] M m p v, op cit, p59.

[2] إسمى مهيبل، المرجع السابق، ص 78.

[3] عبد القادر بوطالب، المرجع السابق، ص 257.

[4] Louise Marquette, op cit, p241.

[5] عاش الأمير حياة البساطة وهي نفس الصفات التي ذكرها الرحالة الفرنسيون لدمشق خلال القرن 19م ونفسها ذكرها المؤرخ شارل أندري جوليان في نص نقله روبير أجيرون يقول فيه: ".. كان يزدري الترف في الملبس فكانت كسوته بسيطة ولكنها نظيفة وكان غاية في التدين ويحمل معه دائما مسبحة لا يقف عن التسبيح ذاكرا اسم الله...وكان زاهدا مثاليا...لم يكن يقبل الطعام إلا لقوته وليس للذته...و =كان يحتقر الأموال، ويمتنع عن اقتطاع أي شيء من الخزينة لأغراضه الشخصية، وكان يبدل قصار جهده للحد من إسراف موظفيه...". عبد القادر بوطالب، المرجع السابق، ص 53.

[6] L'abbé Deleplanche, **Le pèlerin voyage en Egypte en Palestine en Syrie a Smyrne et Constantinople**, 2ed, Chez m lever libraire, France1876, p229.

دو مونكوربس Savigny de Mon Corps إذ يذكر أن الأمير يستقبلهم فيه بنفسه بأعلى درجات الأدب، وقال أنه كان يرتدي ملابس على العموم بسيطة ذات لون داكن، أما المواصفات الجسدية التي ذكرها فذكر أن لحيته سوداء وله عينان ذات نظرة ناعمة وهو متوسط الارتفاع نحيف الجسم[1]، وقدم لنا خ تيكي G Téqui مواصفات أخرى فيذكر أن وجهه جميل وملامحه تظهر كثيرا من البراعة والطاقة، وقال:"...بيت الأمير عبد القادر متواضع للغاية وتجده دائما ممتلئ بالضيوف ويستقبل دائما الزائرين له لاسيما الأوربيين الذين يأتونه بكثرة..."[2]، ومن خلال ملاحظاته نستنتج أن كرم الضيافة هو من أبرز مميزات الأمير فعند دخول المنزل توجد غرفة كبيرة جدا مخصصة لاستقبال الزوار، وذكر إنها مفروشة بأثاث على الطراز الأوربي لاستقبال الأجانب[3].

قدم لنا أحد الرحالة الفرنسيين وصفا بشكل جيد لملامح الأمير عبد القادر بعد زيارته له في دمشق و هو جورخ توماس Jorge tomas حيث قال فيه مادحا:"... الأمير عبد القادر شخصية مشهورة وهو رائع الفراسة، كريم وجميل، له حلاوة في العين وابتسامة نبيلة وقوية، وهو متوسط القامة، ملامحه جميلة وجديدة، لحيته سوداء، بشرته رقيقة، يداه أنيقتان، ملابسه ذات طابع جزائري، وهي مصنوعة من

[1] Savigny de mon corps, **Journal d'un voyage en orient 1869-1870 Egypte Syrie Constantinople**, Illustré par riou et alpha de Neuville, Librairie hachette et cie, France 1873, pp167- 168.

[2] لم تقتصر الزيارات على الأوربيين فقط بل إن بيت الأمير كان مفتوحا لجميع الزائرين من المغرب والمشرق، وكان المغاربة الذين يزورون الشام يعتبرون بيته محطة عبور وراحة، حتى أنهم كانوا يأخذون منه الإذن لزيارة بعض الأماكن القريبة من دمشق كالمناطق الأثرية في تدمر وبعلبك، ولعله كان يزودهم بحماية من رجاله ويدعمهم بالمال، وهذا الأمر مذكور في رحلة لمجهول وهي عبارة عن مخطوط موجود بمكتبة بريل بالولايات المتحدة الأمريكية، وذكره بروكلمان في حديثه عن الأمير عبد القادر، وتمكن أبو القاسم سعد الله من الحصول على نسخة، وورد فيها ذكر قصة استقبال الأمير لجماعة من المغاربة، ووردت في المخطوط فقرة تدل على حسن الضيافة فيقول الكاتب:".. إذ كان عندئذ في تلك الروضة العطرة... بلذيذ خطابه ويفكهنا بأطائب وطابه حتى أحيي الأرواح...ولما حان وقت الزوال قام بنفسه وأذن...قبلنا يده الشريفة وإستسمحناه، فخطى لوداعنا...وأمدنا بجميل الدعوات...". أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص ص 170-172.

[3] G téqui ,op cit, p267.

الصوف الأبيض الناعم، وهو حاليا في 60 من عمره، ويمتاز بكرمه الشديد مع ضيوفه..."[1].

2— سكان البادية[2]:

أ- عرب البادية:

يعيش في المناطق البدوية عدد كبير من السكان بلغ 630 ألف نسمة مع نهاية القرن 18م حسب تقدير الرحالة فولني Volney الذي بقى عندهم فترة زمنية طويلة مكنته من إعطاء إحصائيات وملاحظات كثيرة حولهم[3]، وعند الحديث عن عرب البادية يجب التفريق بين النمطين الموجودين فيها وهم الفلاحون والرعاة، والفرق بين معيشة كل طرف قائمة على أساس العادات والتقاليد والطبائع والنزعات، مما يجعل كل طرف مميز عن الآخر، فالعرب غير الرحل مستقرون في مكان واحد وتشبه حياتهم معيشة سكان المدن إلى حد ما[4]، أما الفئة الثانية هم عبارة عن قبائل رحل متنقلة وهم منتشرون بنسبة كبيرة في الصحاري الشاسعة الممتدة من دمشق إلى حدود بلاد فارس[5]، ولا يربطهم بالأرض سوى مصلحة زمنية ولذلك تجدهم دائما ينتقلون بخيامهم من مكان لآخر، ويقول فولني volney كذلك فيهم:"... ليسوا من الشعوب المتحضرة ولا من الأقوام المتوحشة، ويؤلفون قبائل وجماعات مستقلة وفي غالب الأحيان تكون في حالة عداء، لكن يمكن القول أنهم شعب واحد بدليل اللغة..."[6].

---

[1] J t missionnaire, **Une excursion en orient**, Eugène ardant et cie éditeur , Limoges, france1879, p470.

[2] البدو: فئة اجتماعية متميزة تميزت طبيعة حياتهم بالترحال بعيدا عن متناول سلطة الحكام، كما كانت لهم تنظيمات اجتماعية خاصة، وتمتعوا بحرية كبيرة إذا ما قيسوا وقورنوا ببقية فئات المجتمع، وكانت لهم أدوار إيجابية مثل حماية القافلة الحجية والقوافل التجارية وتوفير اللحوم والألبان والسمن والأجبان والأصواف وغيرها من المواد التي يحتجها سكان المدن الشامية. مُحَمَّد الخطيب، المرجع السابق، ص 149.

[3] Michel Jullien ,op cit, p 16.

[4] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص15.

[5] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p143.

[6] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص15.

عرب البادية حسب ليوني دو بازولار Léonie de bazelaire عبارة عن فلاحين بسطاء ولديهم عادات بسيطة ويتميزون برصانتهم المفرطة، ويكتفون بالقليل من العيش ويعتمدون في حياتهم على منتجات أرضهم من أعشاب وفاكهة، وكذلك على ما تجود به عليهم حيواناتهم من حليب كالماعز والجمال[1]، وبساطتهم شملت كل مجالات حياتهم حيث يذكر لنا بيار لويس بيشونارد Pierre louis péchenard من خلال ملاحظاته أن من العائلات البدوية من لا تزال تسكن في خيام مصنوعة من شعر الماعز، ولعل سبب اكتفاء هؤلاء السكان بالبساطة في حياتهم حسب بيشونارد هو تنقلهم الدائم من مكان لآخر وبالتالي لا يمكن بناء بيوت فاخرة أو امتلاك الكثير من الضروريات التي تعرقل تنقلهم الدائم، ويذكر بيار لويس أيضا أن هذه البساطة موجودة عند نسائهم أيضا اللاتي رآهم يظهرن في حلة بسيطة و يلتزمن بعادات قديمة منها عادة الوشم على الوجه[2]، وتتحمل النساء البدويات الأعمال الشاقة المتزامنة فهن يحملن أطفالهن الصغار على أكتافهم[3] وفي نفس الوقت تجدهن يشتغلن في طحن الحبوب بين صخرتين[4].

يتميز عرب البادية وكغيرهم من سكان الشام بصفة كرم الضيافة وهو ما ذكرته تقارير اللجنة العلمية لمؤسسة الكتب الدينية الفرنسية التي تقول:"...ضيافة الغرباء هي سمة من سمات سكان البدو..."، وذكرت أنه في كل قرية يوجد نوع من الخان يتم فيه استقبال جميع الأجانب وكذلك تتوفر خدمة العلاج المجاني بها، ومن أجل توفير حاجيات هذه الخانات التي هي بمثابة الفنادق في المدن شيوج هذه المناطق يتلقون مساهمة عامة من نفقات تجمع من طرف سكان سهل حوران القريبة من دمشق، وبمجرد نزول الضيف في القرية يرحب به وتفرش له حصيرة وتقدم له القهوة، ويدعى لتناول الغذاء أو العشاء حسب الوقت الذي يصل فيه[5].

يذكر ليوني دو بازولار Léonie de bazelaire أن من خصائص عرب البدو التسلح ولاحظ أنهم يحملون معهم دائما أدوات حربية موضوعة في أحزمتهم

[1] Léonie de bazelaire, op cit, p104.
[2] Pierre louis péchenard, op cit, p122.
[3] L' abbe a. parraud, op cit, p99.
[4] L'abbé jh Lespinasse, op cit, p323.
[5] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p165.

المصنوعة من الجلد الأحمر، ومن أمثلة الأسلحة التي يحملونها مسدسات ذات المقابض العاجية المحفورة و تسمى فلينتلوك[1].

قدم القس بارود L'abbe a. parraud في ملاحظاته أنموذجا حيا عن عرب البادية وهم بدو مدينة الناصرة الذين يعيشون حياة بدوية خالصة، ويتميزون بتمردهم واستقلالهم عن أي سلطة سياسية، ومن العادات السيئة التي تميزوا بها في هذه الفترة هي قطع الطريق والسرقة والإغارة حيث قال فيهم:"...يغيرون على البلد مرة على مرة باستعمال القوة المسلحة التي يملكونها، ثم يسافرون ويأخذون معهم على جمالهم وثيرانهم السوداء وحيوانات الماعز ذات الآذان الطويلة التي حصلوا العديد منها وقد حصلوا عليها عن طريق السطو والإغارة..."[2]، والعائلات البدوية الكبيرة بصفة عامة تربي قطعانا من الغنم والثيران التي تحرسها الكلاب[3]، وبسبب طبيعة عيشهم التي تعتمد على العشب والماء ينتقلون دائما مع قطعانهم الكبيرة المكونة من الغنم والماعز والخيول والجمال ويبحثون لها عن المراعي الغنية كي تكلأ ذلك أنها مصدر رزقهم الأساسي[4].

يشكل بعض عرب البدو تجمعات قبلية كل منها لها اسمها الخاص، وتعقد بينها تحالفات دفاع عن المصالح المشتركة، وفي بعض الأحيان تجد صراعا كبيرا قائما بين بعض القبائل بسبب تعارض المصالح[5]، والقبيلة هي عبارة عن تكتل من العائلات التي تعيش حياة رعوية، ويحكمها شيخ كبير لديه مقومات ومؤهلات تميزه عن الآخرين، وتتكون القبيلة عادة من 3 طبقات و هي:

- الطبقة العليا مكونة من أقدم وأغنى العائلات التي تمتلك عددا مهما من قطعان الغنم، وكذلك تمتلك مجموعة معتبرة من الخيول الأصيلة.

[1] Léonie de bazelaire, op cit, p205.
[2] L'abbe a. parraud, op cit , p 98-99.
[3] Alphonse couret, **en terre promise notes de mon voyage en Egypte et en Palestine 16 avril – 04 juin 1890**, rue francois1 er, paris, france1891, p133.
[4] Charles Borromée houri, **de la Syrie considérée sous le rapport commercial**, Arthus Bertrand libraire éditeur, paris, France 1842, p 18.
[5] Le compte de pertuis, **le désert de Syrie l'Euphrate et la Mésopotamie**, librairie hachette et cie, paris, France 1896, p14.

- الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا اللتان تشكلان الفئة الكبيرة من القبيلة، وأغلب أفرادها يشتغلون في أمور بسيطة كالرعي أو سياقة القوافل، وأفراد هاتين الطبقتين متواضعون وأغلبهم يمتلك جملا واحدا أو اثنين للنقل وتتميز خيامهم مقارنة مع خيام الطبقة العليا بأنها متواضعة[1].

يمكن القول أن القبيلة البدوية هي إطار منظم حيث ذكر الرحالة القس لسبيناس L'abbé jh Lespinasse في ملاحظاته مايؤكد ذلك إذ يقول:"...إن للقبيلة في البادية قوانين تسيرها، وهي تخضع لتسيير زعيمها الذي يسمى شيخ القبيلة وهو المكلف بتدبير الشؤون وحل المشاكل التي تقع بها..."[2]، والملاحظ أن شيخ القبيلة لا يجبر أحدا على طاعته ومن أراد أن يترك القبيلة فهو حر في قراره، لكن شيخ القبيلة يقوم بفرض العقوبات على المخالفين للقوانين حتى يضمن استقرار القبيلة، كما أن من أدواره الحفاظ على قوة وأمن القبيلة التي هي عرضة للأخطار الخارجية، ولشيخ القبيلة هيبة كبيرة لدى أفرادها ولا يمكن أن تبقى القبيلة دون شيخ فعند وفاته مباشرة يتم اختيار خليفة ينتخب من قبل أعيان القبيلة، وتعطى الأولوية إلى الكبار ويختار منهم الأقدر بذكائه وفضائله وقيمته، وعادة ما يكون الخليفة من أقارب الشيخ المتوفى، وللقبيلة قوة مسلحة مكونة من الفرسان الذين يركبون الخيول ويحملون رماحا طويلة وبعض الشيوخ يمتلك مسدسا، كما توجد فرقة مشاة التي تشكل الأغلبية، وتتكون هذه الفرقة عادة من كل رجل قادر على حمل السلاح ودورها الأساسي الحفاظ على أمن القبيلة[3].

توجد في الصحراء أيضا قبائل بدوية منها ما يخضع للسلطة وأخرى غير خاضعة، وتقوم السلطات العسكرية بمطاردة القبائل البدوية غير الخاضعة وتسلط عليهم عقوبات قاسية في حال ألقت القبض عليهم وتستعمل معهم القوة[4]، وحوران هي الأراضي المفضلة لبدو العرب الذين يتراوح عددهم فيها ما بين 50 إلى 60 ألف نسمة، ومن شهر ماي يكون السهل مغطى بالكامل بجحافلهم المتجولة التي تأتي من هنا ومن هناك في فصل الصيف للبحث عن المياه والمراعي، وتقوم بتخزين الحبوب إلى فصل الشتاء ويبقون هناك إلى نهاية شهر سبتمبر خاصة إذا كانوا في

[1] Le compte de pertuis, op cit, pp-19- 20.
[2] L'abbé jh Lespinasse, op cit, p324.
[3] Le compte de pertuis, op cit, pp 21- 22.
[4] Le compte de pertuis, ibid, p240.

حالة سلام مع الباشا فينصبون خيامهم في محيط القرى والآبار[1]، وموارد المنطقة الجنوبية فقيرة جدا، ولذلك تجدهم يتجهون إلى الشمال والشمال الشرقي، ويعد هذا من الأسباب الرئيسة التي تدفعهم إلى الهجرة[2].

ب- الأكراد:

تنتشر قبائل الأكراد بكثرة في آسيا السفلى، ووطنهم الأصلي هو الجبال التي تنقسم فيها فروع الدجلة العديدة، من الشطر الأعلى لنهر الزاب الكبير شمالا إلى تخوم العراق الفارسي جنوبا، وتدعى حاليا كردستان في التقاويم الجديدة، غير أنه على إثر النزاعات والصراعات التي حدثت بينهم نزحت الكثير من أسرهم وعشائرهم وتفرقت في نواحي ديار بكر وأرض روم وأريقان وسيواس وحلب ودمشق[3]، وقدر عددهم في أواخر القرن 18م بحوالي 140 ألف خيمة، فيها 140 ألف حامل للسيف، وهم كالتركمان رعاة رحل ولكن يختلفون عنهم في بعض الطبائع والعادات، وهم ميالون أكثر للغزو ولذلك يخاف منهم سكان منطقة حلب وأنطاكية، ويسيطرون كذلك على الجبال الواقعة شرقي بيلان، ويعرفون هناك باسم بغدشلية، وأما لغتهم فتتعدد لهجاتها غير أن منشأها واحد وهو الفارسية التي تتخللها بعض الكلمات العربية والكلدانية[4].

يذكر الرحالة الفرنسي بارتيس Le compte de perthuis أن الأكراد يحبذون العيش في المناطق الصحراوية خاصة في فصل الشتاء حيث تكون المناطق الشمالية باردة، ويمضون الصيف في المناطق الشمالية لأن درجة الحرارة في الصحراء تكون مرتفعة، ولا يرجعون إليها حتى فصل الخريف، ويرتحلون دائما إلى المناطق التي تكون بها مراعي كبرى التي تعتبر قليلة في نطاقهم الجغرافي[5]،

[1] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p164.

[2] Le compte de pertuis, op cit, p15.

[3] جاء أغلب الأكراد من كردستان أولا تجار غنم، وتوسع رزق بعضهم واستقروا في دمشق خاصة وأن سكان دمشق معروفون بترحيبهم بالغريب وإيوائه، وهو ما أدى إلى تزايد عدد الأكراد بها واستوطنوها وأصبحوا أصحاب نفوذ فيها، واتخذوا لأنفسهم محلة في صالحيتها بسفح جبل قاسيون تسمى بحارة الأكراد، وتحولت هذه المحلة إلى مدينة صغيرة. عبد الرحمن بك سامي، **القول الحق في بيروت ودمشق**، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان1981م، ص 64.

[4] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص ص 32- 33.

[5] Le compte de pertuis, op cit , pp11- 13.

ويقول أيضا ميشال جوليان Michel Jullien :"...إن بعضهم يعيش مستقلا في الخيام وينتقلون من مكان لآخر بحثا عن الكلأ..."، ويذكر في ملاحظاته أن النشاط الأساسي للقبائل الكردية التي استوطنت بلاد الشام الزراعة، ولاحظ أن عددهم بدأ في التزايد نسبيا في السنوات الأخيرة للقرن 19م، ومن أشهر وأهم القبائل الكردية المقيمة في الشام اليزيديون وعددهم يتراوح ما بين 10 إلى 15 ألف نسمة، وهم يسكنون على العموم في المناطق التي تحيط بمدينة حلب[1].

خ- التركمان:

قدرت إحصائيات البعثة العلمية لمؤسسة الكتب الدينية الفرنسية بتولوز عدد السكان التركمان بحوالي 30000 نسمة وهي بالتالي تشكل كثافة معتبرة[2]، ويذكر الرحالة فولني volnay أن التركمان والأكراد والبدو ليسوا مستقرين وسكنهم غير ثابت، وبالتالي هي الخاصية المشتركة بينهم، فهم رحل يتنقلون من مكان إلى آخر بخيامهم وقطعانهم، وقال:"...مكان النزول المفضل لدى القبائل التركمانية سهل أنطاكية، بينما يفضل الأكراد الجبال الواقعة ما بين إسكندرونة والفرات، ويتنقل البدو العرب في الأماكن الواقعة في الحدود التي تفصل صحرائهم عن سوريا، ويتغلغلون في السهول الداخلية كسهول فلسطين والبقاع والجليل..."[3]، ونسبت البعثة العلمية لمؤسسة الكتب الفرنسية في تقاريرها أصل قبائل التركمان في سوريا إلى قبائل التتار وذكرت في ملاحظاتها أنهم يتحدثون اللغة التركية وعاداتهم بدوية[4]، وهو نفس ما ذهب له فولني الذي يقول:"... نزحوا من بلادهم بسبب الاضطرابات وانتشروا في سهول أرمينيا وآسيا الصغرى، ويتكلمون التركية ويرتحلون من مكان لآخر، ويقطعون مسافات طويلة لرعي قطعانهم الكثيرة ويبحثون عن الأماكن ذات الكلأ الوافر..."[5].

تشكل الإبل والغنم والماعز ثروتهم الأساسية التي تقوم عليها حياتهم فهم يتغذون على الحليب والزبدة واللحوم لتوفر أعداد كبيرة من القطعان لديهم، ومما

[1] Michel Jullien, op cit, p16.
[2] La Société des livres religieux de Toulouse, op cit , p146.
[3] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص13.
[4] La Société des livres religieux de Toulouse, op cit, p143.
[5] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص13.

يلاحظ عليهم أن نسائهن يشتغلن في بعض الحرف إضافة لأعمالهن المنزلية أما الرجال فمهمتهم الوحيدة هي الرعي والتدخين، ودائما تراهم يرعون الغنم وهم يركبون فوق حصان والرمح على الكتف والمسدسات في الحزام، وعدد هام من هذه القبائل يقضون فصل الصيف في أرمينيا لاعتدال الحرارة وتوفر المراعي، ثم يعودون في فصل الشتاء إلى أماكنهم، وانتشروا كذلك في ديار بكر وفي سهول عريفان ببلاد فارس، وكذلك قرب مدين حلب ودمشق بسوريا، وتذكر كتابات الرحلة العلمية الفرنسية أن من صفات التركمان العقلية الرعوية وأنهم متمردون على السلطة ومدمنون على الحرب وقطع الطريق[1]، وقد اعتاد الناس على اعتداءات قبائل التركمان وعرب البدو على المناطق الزراعية وعلى القوافل، وكانوا ينشطون بكثرة في المنطقة الرابطة بين حلب وإسكندرون لكثرة القوافل التجارية المارة بها[2].

د- الجبليون:

يذكر القنصل الفرنسي هنري قيز Henri Guys أن السكان الجبليين يقصد بهم السكان الذين يعيشون في المناطق الجبلية بالمنطقة الشمالية الغربية للشام، وقدر عدد سكان الجبل بحوالي 300000 نسمة وذكر لنا أن ثلثا سكانه مسيحيون والبقية من المسلمين والدروز والشيعة، ولاحظ أن عدد سكان الجبل أخذ في التزايد وأرجع ذلك لتحسن النظام الصحي وتطبيق عملية التلقيح ضد الوباء بالمنطقة، وقال:"...الطاعون الذي كان يظهر في العديد من المناطق كان يتوقف بسرعة فائقة..."، وأرجع الفضل في ذلك للأمير الذي كان يطبق في بلاده أنظمة صحية دقيقة وذلك قبل إنشاء المحاجر الصحية من قبل السلطان العثماني ونائب ملك مصر بالمنطقة[3].

تميز الجبليون بعادات كنظرائهم في المدن منها إبدال اسمهم بكلمة أبو فلان حتى أنهم تعودوا أن يتكنوا بهذه الصفة حتى قبل أن يتزوجوا، وهم يرون في الزواج أمرا مشرفا يرفع من قيمة الرجل وقدره، ويبتهجون كثيرا إذا ما كان أول مولود لهم ذكرا، وهكذا تطلق عليهم مباشرة بعد الولادة الكنية الجديدة التي سبق لبعضهم أن تكنوا بها مثل: أبو يوسف، أبو جرجس...، والأمر الذي يدفعهم إلى التكني قبل

[1] La Société des livres religieux de Toulouse, op cit, pp 146-147.

[2] عبد الكريم محمود غرايبه، المرجع السابق، ص 51.

[3] هنري قيز ، المصدر السابق، ج1، ص ص 217- 218.

الزواخ هو نظرهم إلى أن المناداة بالاسم هو من قلة الآداب[1]، وتذكر كلارا فيلال بيتيجني Clara filleul de pétigny أن سكان الجبل يتميزون بالشجاعة الزائدة مقارنة مع سكان بقية المناطق، وهو أمر طبيعي أن تربي البيئة الجبلية الفرد على الشجاعة لأنه يعيش حياة مليئة بالصعاب والمخاطر وهو مضطر لتجاوزها[2].

ب- نماذج من الفسيفساء السكانية المشكلة للمدن الشامية الكبرى:

ضرب المسلمون عبر تاريخهم الطويل عدة أمثلة تجسد أسمى معاني التسامح والحوار والتعايش الديني، واحترام الآخر في ظل التعاون الهادف إلى الرقي بالمجتمع والحفاظ على النظام والأمن داخل البلدان التي كانوا يحكمونها، وقد أسس لهذا الفكر الإنساني النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي أوصى بالوفاء بالعهود ومنها المبرمة مع أهل الذمة[3]، وأوصى بعدم التمييز والتفرقة بين العرب والعجم والأبيض والأسود والغني والفقير، والحكام المسلمون عبر العصور التزموا بمنهجه التزاما تاما وحافظوا على وصيته، ومن بين أبرز المناطق الإسلامية التي تجسدت فيها هذه القيم بلاد الشام، إذ تمكن المسيحيون بكل مذاهبهم واليهود وغيرهم من العيش بكل حرية وسلام ومارسوا طقوسهم ومعتقداتهم وحصلوا على الحماية التامة داخل الأراضي الإسلامية، ومارسوا كذلك جميع الأنشطة الاقتصادية بل إن الكثير منهم أصبح غنيا، وعليه سنقدم نماذج من الخليط الاجتماعي الذي كان يعيش متجانسا في المدن الشامية الكبرى دون حدوث أي مشاكل أو تجاوزات وهي كالتالي:

نبدأ أولا بمدينة دمشق وذلك نظرا لاحتوائها على عدد كبير من الجماعات الإثنية (قومية، لغوية، دينية) وتنوعها مما يجعل المدينة تظهر للزائر كأنها لوحة فسيفسائية[4]، وتعتبر من أبرز المدن الشامية التي تحتضن مزيجا متنوعا ومختلفا

---

[1] هنري غيز، المصدر نفسه، ج2، ص74.

[2] Clara filleul de pétigny, op cit, p233.

[3] أهل الذمة: يقصد بأهل الذمة العناصر الغير مسلمة في بلاد الشام وهم اليهود والمسيحيون، ويعرفون أيضا بتسمية الكتابيين والتسميتان تكمل إحداهما الأخرى فهم أهل ذمة بمعنى أنهم دخلوا في ذمة المسلمين أي في حمايتهم. محمد الخطيب، المرجع السابق، ص 167.

[4] ليندا شيلشر، **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، تر: عمرو الملاح ودينا الملاح، مر: عطاف مارديني، مطبعة دار الجمهورية، ط 1، دمشق، سوريا 1998م، ص 37.

مكون من عدة فئات ذات عدة أديان، فالداخل إلى المدينة يلاحظ خليط من الأجناس وتنوع حتى في ألوان البشرة وفي هذا قدم لنا غوستاف لوبون Gustav Le Bon **وصفا دقيقا لهذا المشهد حيث يقول:"...سكان مدينة دمشق كشكل قوس قزح ففيهم أصحاب البشرة البيضاء الناصعة وأصحاب البشرة السوداء الحالكة إضافة إلى ألوان أخرى بين اللونين، كما نجد في المجتمع الدمشقي الأكراد[1] والأرمن والموارنة وروم الأرخبيل واليهود..."[2]، ولم يذكر غوستاف لوبون كامل العناصر المكونة لهذا الخليط ولذلك سنذكر بعض ملاحظات فولني** volney **التي كانت أكثر دقة وشمولية إذ يقول:"...يوجد في المدينة عدد معتبر من الأتراك الذين يسكنون في المدن فقط ويتقلدون المناصب العسكرية والمدنية..."، وتحدث كذلك عن العرب المتواجدين في المدينة وقسمهم لقسمين: القسم الأول مستقر في المدينة، والقسم الثاني مستقر في البادية المجاورة وقل أنهم يأتون إلى المدينة لقضاء حوائجهم فقط ثم يرجعون مساءا للبادية القريبة من المدينة[3]، وكما ذكرنا سابقا فإن السكان وبالرغم من تنوعهم كانوا يعيشون بسلام وهذا القول ندعمه بملاحظات القس دولابلانش** L'abbé delaplanche **الذي قال:"...بالرغم من هذا الخليط المتنوع الذي يعيش في المدينة إلى أنهم متجانسون كثيرا..."[4].**

مدينة بيروت[5] هي الأخرى مثل دمشق تتكون من خليط يضم سكان المدينة والريف وأغلبهم يتحدثون اللغة العربية ولذلك يصعب أحيانا التمييز بينهم[1]، وذكر

---

[1] يسمى المكان الذي يستقرون فيه في مدينة دمشق بحي الأكراد وهو واقع في الجهة الشرقية من جبل قاسيون، ويمتد هذا الحي من قبة ركن الدين في ساحة شمدين حتى جامع سعيد باشا، وقد أنشأ للأبطال الأوائل الذين كان لهم شرف الجهاد ضد الصليبيين رفقة نور الدين وصلاح الدين الأيوبي، فبعد انتهاء دورهم العسكري وهم من بلاد الأكراد أنشأت لهم مدينة صغيرة وهي عبارة عن أحياء متقابلة متراصة =تشكل منها فيما بعد حي الأكراد. محمد شريف عدنان الصواف، المرجع السابق، ص 14.

[2] غوستاف لوبون ، **حضارة العرب**، تر: عادل زعيتر، عصير الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر2017م ، ص 160.

انقسم يهود مدينة دمشق خلال القرن19م إلى فئتين متعاديتين هما طائفة اليهود القرائين وطائفة اليهود الربانيين، وكان لكل منهما كنيس خاص ومقبرة خاصة، فكانت مقبرة القرائين في الباب الشرقي ومقبرة الربانيين إلى الجنوب منها، وتركز اليهود في محلة الخراب في حارة اليهود، وهم متوافدون من عدة مناطق كالأندلس، روسيا والمغرب ويهود اسطنبول. محمد الخطيب، المرجع السابق، ص 171.

[3] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص32.

[4] L'abbé delaplanche, op cit, p223.

[5] تقع بيروت على الشاطئ الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، يحدها غربا البحر، وجنوبا منطقة خلدة امتدادا إلى صيدا وجوارها، وشرقا جبال لبنان، وشمالا البحر وبعض المناطق الشمالية، وتقع بيروت في إقليم يتميز باعتدال مناخه وجمال الطقس والمنظر. حسان

لنا الرحالة أهم مكونات الخليط السكاني الذي يعيش بالمدينة بالتفصيل ومنهم ريتشارد كرتمبارت Richard cortambert الذي يقول:"...سكان مدينة بيروت بصفة عامة مكونون من أتراك، دروز، موارنة، يهود، متواليس، أرمن، يونانيون، وبعض الأوربيين..."[2]، ويضيف القس باسك L'abbé becq إضافة لما ذكره ريتشارد فئة أخرى تقيم في بيروت وهم المغاربة الذين كان عددهم معتبرا، ولم يهمل من خلال ملاحظاته ذكر طائفة المسيحيين البروتستانت المقيمين في المدينة[3]، وفي وسط هذا الخليط كله يوجد عدد من السكان الأوربيين وكذلك عمال السلك الدبلوماسي الأجنبي لاسيما وأنه كان لكل دولة قناصلها وسفاراتها[4]، وفي هذا المقام يذكر الرحالة ألارد كاميل Allard Camille في ملاحظاته أن مدينة بيروت فيها الكثير من الملامح الأوربية ويعيش فيها الأوربيون بكل هدوء و سلام[5]، ووصلوا لدرجة كبيرة من الحرية إذ أصبحوا يفعلون ما يحلو لهم حتى أن زوجاتهم يمشين في الشوارع بوجوه مكشوفة ولا يبدي لهم المسلمون أي مضايقة كلامية أو جسدية[6].

تتميز مدينة بيروت بتنوع التركيب السكاني والملاحظ في هذا الخليط أن المسلمين هم الذين يشكلون الأغلبية الساحقة وهو القول الذي أيده الرحالة جين باتيست Jean baptiste morot من خلال ملاحظاته[7]، ويذكر لنا إدوارد بلوندال Eduard blondel أنه بالرغم من الاختلاط الكبير في المدينة وبالرغم من التفاعلات إلى أن كل من هؤلاء الفئات حافظ على دينه وعاداته وتقاليده الخاصة[8].

حلاق، **التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية في القرن التاسع عشر سجلات المحكمة الشرعية في بيروت**، الدار الجامعية، بيروت، لبنان 1987م، ص 13.

[1] Henri Guys, op cit, p21.

[2] Richard cortambert, op cit, p 22.

[3] L'abbé becq, op cit, p p 228-229.

[4] M delaroiere, op cit, p47.

[5] يتحدث الشيخ مُحَّد عبد الجواد القاياتي القادم من مصر إلى بيروت بعد حركة أحمد عرابي سنة 1882م عن الكثير من الملامح الاجتماعية التي شاهدها بنفسه في مدينة بيروت ويصف الطابع الغالب عليها فيقول:"...بيروت مدينة إسلامية دينا وغيرة وحمية، أوربوية نظاما وبناءا وحربية...". حسان حلاق، المرجع السابق، ص 19.

[6] Allard Camille, op cit, p78.

[7] Jean baptiste morot, **journal de voyage Paris a Jérusalem 1839-1840**, imprimerie de j clave, paris, france1869, p354.

[8] Eduard blondel, op cit, p20.

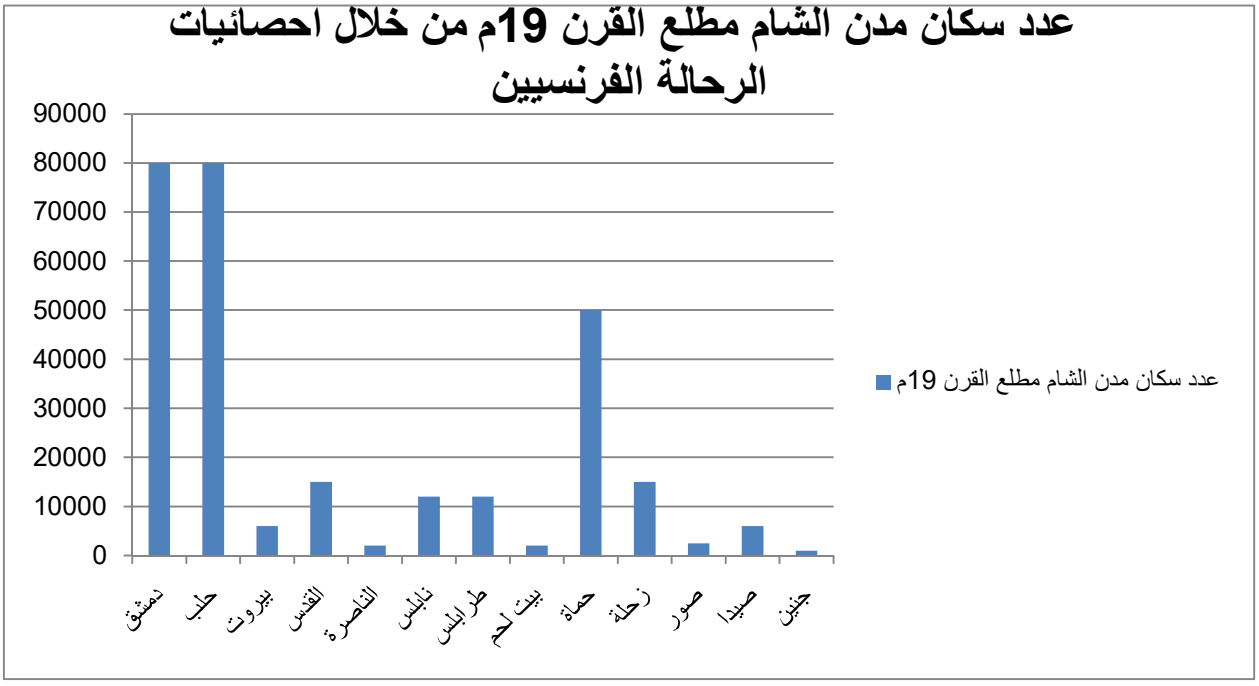
النموذخ الأخير الذي سنذكره هو مدينة القدس والتي تتكون كبقية المدن الكبرى في الشام من خليط سكاني حيث يوجد في المدينة اليونانيون والأرمن[1]، إضافة إلى ذلك توجد الطوائف المسيحية المنشقة أو غير الموحدة[2]، ويوجد بالمدينة كذلك بعض الأقباط، الأحباش، وبعض السكان القادمين من المدن الشامية الشرقية الذين استقروا بها[3]، ويذكر القس باسك L'abbe becq أن المسلمين يشكلون الأغلبية الساحقة من سكان المدينة وهم الأكثر عددا[4]، ويعيش في المدينة كذلك الكاثوليك ولديهم عدة امتيازات لاسيما وأنهم مدعومون من قبل فرنسا[5]، كما يعيش في المدينة بعض المسيحيين الذين يعتنقون المذهب البروتستانتي ويعود تواجدهم بالمدينة إلى نصف قرن حسب ما ذكره القس بارود L'abbe a. parraud [6]، ويقول فرمين روزي Firmin rauzy :"...البروتستانتيين بالمدينة يلقون دعما كبيرا من قبل إنجلترا وهو ما ساهم في ثرائهم وتزايد أعدادهم..."، وتحدث أيضا عن اليهود الذين بدؤوا في التزايد حيث قال عنهم:"... هم يحتلون عدة مناطق ويشكلون كثافة سكانية هامة بالمدينة..."[7]، وهي الملاحظة التي سنتطرق إليها بالتفصيل في القسم الخاص بتفصيل عدد سكان المدن الشامية.

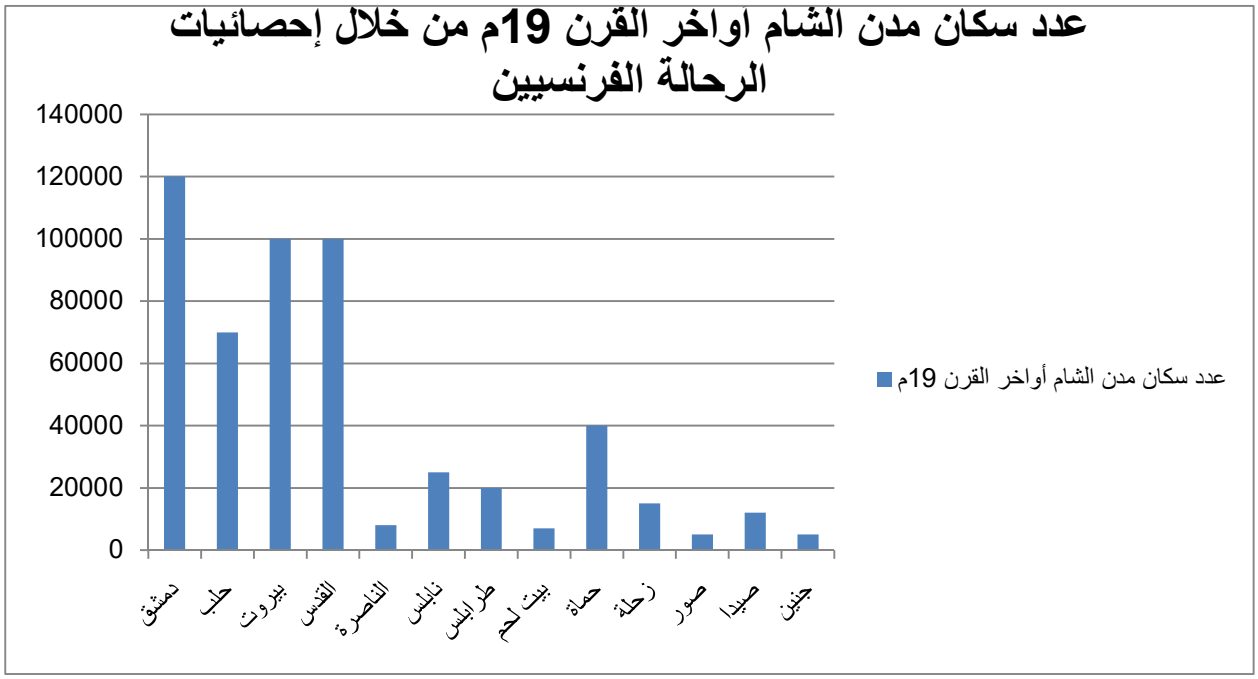
ب. تطور عدد سكان بلاد الشام خلال القرن 19م:

قدم الرحالة الفرنسيون إحصائيات متعلقة بعدد سكان مدن الشام الكبرى خلال القرن 19م، ومن خلالها يمكن معرفة التطور السكاني للمنطقة على امتداد القرن 19م باعتبار الرحلات كانت على فترات متقطعة ومنتظمة، وكذلك هناك من الرحالة من قدم تفصيلا عن عدد السكان حسب الديانات (مسلمون، مسيحيون، يهود)، وبالتالي أعطونا صورة توضيحية عن تركيب المجتمع الشامي والنمط الاجتماعي والديني الغالب عليه، وسوف نعرض في هذا الجزء دراسة إحصائية

[1] L'abbe a. parraud, op cit, p223.
[2] Léonie de bazelaire, op cit, p116.
[3] Léonie de bazelaire, ibid, p118.
[4] L'abbe becq, op cit, p172.
[5] Martin donos, op cit, p252.
[6] L'abbe a. parraud, op cit, p224.
[7] Firmin rauzy, op cit, p90.

بيانية تحليلية تتمثل في جداول تتضمن الإحصائيات السكانية بداية بالمدن الكبرى إلى المدن الأقل اكتظاظا بالسكان، ثم نفصلها في أشكال بيانية حتى تتضح الصورة أكثر، وتتخلل هذه الجداول والأشكال البيانية تحليلات توضيحية، وسنقدم في البداية أعمدة بيانية توضح لنا عدد سكان المدن الكبرى خلال مطلع القرن 19م وأواخر القرن 19م، وبالتالي يمكن أخذ صورة عامة عن التطور السكاني ببلاد الشام خلال هذا القرن، وهنا نشير إلى ملاحظة هي أننا لم نتمكن من تقديم إحصائيات حول عدد سكان الشام مع مطلع القرن 19م، ويعود السبب في ذلك إلى عدم ورود معلومات وإحصائيات في كتابات الرحالة الفرنسيين الذي زاروا المنطقة خلال هذه الفترة، واقتصرت كتاباتهم على جوانب أخرى ولم ينل الإحصاء نصيبا منها، وكذلك أغلب الرحلات التي تمكنا من الحصول عليها كانت في النصف الثاني من القرن 19م.





من خلال إجراء مقارنة بسيطة بين الشكلين البيانيين نستنتج أن سكان مدن بلاد الشام عرف تزايدا ملحوظا خلال القرن 19م، والفرق واضح بين عدد سكان المدن الشامية خلال مطلع القرن 19م وأواخره، ونلاحظ أن بعض المدن عرفت زيادة كبيرة في عدد السكان ونذكر على سبيل المثال مدينة حلب وبيروت والقدس، ولعل السبب الرئيسي في ذلك هو الاستقرار الأمني و الصحي الذي عرفته المنطقة في النصف الثاني من القرن 19م، وهناك عامل آخر أساسي لا يمكن إهماله لاسيما في مدن الشام الجنوبية ويتمثل في الهجرات التي أدت إلى توافد سكاني كبير للمنطقة، كما أن المنطقة عرفت تحسنا نسبيا في الأنشطة التجارية التي ساعدت على تحسن المستوى المعيشي مما أدى إلى تزايد السكان.

تعرف بلاد الشام بكثافتها السكانية الكبيرة وتذكر بعض إحصائيات الرحالة الفرنسيين أن عدد السكان كان كبيرا جدا، وفي هذا الصدد يقول الرحالة شارل بورومي Charles borromée أن الكثافة العامة لسوريا وحدها تجاوزت عتبة 6 مليون نسمة في أوائل القرن 19م، ويذكر بعدها أن هذا العدد عرف تراجعا كبيرا مع الأربعينيات من القرن 19م حيث أصبحوا 3 ملايين نسمة[1]، ويذكر هنري قيز Henri

[1] Charles borromée houry, op cit, p80.

Guys أن عدد السكان عرف تراجعا كذلك في الخمسينيات من نفس القرن إذ أصبح حوالي 1600000 نسمة[1]، وهذه الإحصائيات نفسها التي قدمها بقية الرحالة حيث حيث نلاحظ من خلال الجداول الإحصائية والمنحنيات البيانية المقدمة في هذا المبحث تراجعا نسبيا في عدد السكان خلال فترة الأربعينيات والخمسينيات من القرن 19م، وذلك على وجه التحديد في مدينتي دمشق وبيروت، والسبب في ذلك يعود إلى الحروب الطائفية التي حدثت في المنطقة وإلى مخلفات الاجتياح المصري لبلاد الشام.

01- إحصائيات التطور بالمدن الشامية الشمالية الشرقية:

نبدأ هذا الجزء بالحديث عن أكبر المدن الشامية من حيث عدد السكان وهي مدينة دمشق[2]، وذلك استنادا إلى أغلب الإحصائيات المقدمة من قبل الرحالة الفرنسيين في القرن 19م حيث اعتبروها من أكبر المدن السورية وأكثرها اكتظاظا بالسكان، ويذكر الرحالة أن المدينة كانت تمتلك العديد من الإمكانيات التي جعلتها عامل جذب للسكان حتى أنهم شبهوها بالقسطنطينية، وهذه المدينة أصبحت في

---

[1] Henri Guys, op cit, p69.

من خلال إجراء مقارنة لهذه الإحصائيات المقدمة من طرف الرحالين مع الإحصائيات المصرية التي تستند على سجلات الضرائب نلاحظ أن هنري قيز هو الأقرب للصحة، حيث قدرت السجلات عدد السكان بالشام ما بين1379446 نسمة و1791076 نسمة في فترة الحكم المصري والتي تنتهي سنة 1840م. عبد الكريم رافق، **مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني**، مجلة كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، د ت، ص ص 5 -28.

[2] دمشق أكبر مدن الشام، وتلقب أيضا بالشام وجيرون وفيحاء، وتقع هذه المدينة في موقع ممتاز، وهي مدينة كثيرة المياه والبساتين والبساتين تقع في سهل خصب جدا يعد من أفضل جنان الدنيا، يحدها شمالا جبل قاسيون الذي يزيدها بهاءا ونظارة، فيها كل الأنواع من الفواكه والبقول وكل ما تشتهيه نفس الإنسان من مأكول ومشروب ومشموم ونزهة و انشراح، وفضلت بأشياء كثيرة عن غيرها من البقاع، وهو شأنه من عصور قديمة إلى الآن، وبطبيعة الحال نستنتج من خلال المميزات الطبيعية التي تمتلكها المدينة أنه لديها عوامل جذب لتمركز سكاني كبير، وأصبحت من أكبر مدن الشام من حيث عدد السكان، حيث يفضل السكان بصفة عامة العيش في المناطق ذات المناخ والتربة المعتدلة الملائمة لممارسة الأنشطة الاقتصادية، والملائمة للعيش الكريم خاصة مع توفر دمشق على مناظر طبيعية خلابة وصفها الرحالة الذين زاروها أحسن وصف. عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص58.

سميت مدينة دمشق بالعديد من الأسماء على مر التاريخ نذكر منها: "جلق، الفيحاء، الشام، إرم ذات العماد، جيرون، العذراء، بيت رامون، عين الشرق، باب الكعبة، ويبقي اسم دمشق أو دامسكوس الإسم الأكثر شهرة، ومعناه الزهرة المثمرة . كارين صادر: **دمشق في نصوص الرحالة الفرنسيين بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر**، دار الانتشار العربي، ط1، بيروت، لبنان2010م، ص 17.

هذا القرن مركزا هاما نجد فيه خليطا من كل أعراق الشرق والبحر الأبيض المتوسط والملاحظ أن العنصر العربي هو السائد بها[1]، وقد ذكر ليون بول Léon Paul في رحلته التنوع والتراكب الاجتماعي والديني للمدينة فيقول: "...تجد في مدينة دمشق خليطا متنوعا من مختلف الأديان كالمسلمين، المسيحيين، اليهود والرهبان الأوربيين..."[2].

عرفت مدينة دمشق عرفت العديد من المصائب والكوارث الطبيعية خلال القرن 19م وبالرغم من ذلك كانت تحافظ على قوتها البشرية وسرعان ما تعود الكثافة إلى نصابها بل وتزيد أحيانا[3]، وعرف عدد السكان بها خلال النصف الأول من القرن 19م استقرارا ملحوظا مقارنة مع أواخر القرن 18م وذلك حسب الإحصاء الذي قدمه الرحالة فولني volney إذ يقول:"...عددهم كان يصل إلى 80000 نسمة منهم 15000 نصارى ثلثهم أرثوذوكسيون..."[4]، وفي سنة 1799م قدرت قوات الحملة الفرنسية عدد سكان دمشق بحوالي 90000 نسمة وبالتالي زيادة 10000 نسمة في الفترة الممتدة ما بين رحلة فولني 1783م والحملة في الفرنسية 1799م أي بزيادة طبيعية سنوية مقدرة بحوالي 625 نسمة[5]، ومع النصف الثاني من القرن 19م نلاحظ من خلال كتب الرحالة الفرنسيين وإحصاءاتهم زيادة ملحوظة وهي موضحة في الجدول التالي:

الرحالة	السنة	الملاحظات حول عدد السكان
إدوارد	1838-	قدر بلوندال عدد سكان مدينة دمشق بحوالي 80 ألف نسمة[6] وبالتالي هي أكثر المدن الشامية من حيث عدد

[1] Florimon jacques de basterot, op cit, p113.
[2] Léon Paul, **journal de voyage Italie Egypte Judée Samarie Galilée Syrie Taurus citicien archipel grec**, librairie française et étranger, paris, france1865, p139.
[3] Victor Guérin, op cit, p 387.
[4] حبيب السيوفي، المصدر السابق،ج2، ص57.
[5] ليندا شيلشر، المرجع السابق، ص 19.
[6] عدد سكان مدينة دمشق كان مع بدايات النصف الثاني من القرن 18م كبيرا جدا لكنه عرف تراجعا كبيرا، ويعود السبب في ذلك انتشار وباء الطاعون على فترات متقطعة، ولعل أخطر الأوبئة التي أصابت المدينة وباء سنة 1795م الذي وصفه أحمد البديري الحلاق بقوله:"...مبادئ الطاعون كانت خفيفة من شهر جمادى الثانية، ولم يزل يكثر في شهر شعبان، ...ثم دخل شهر

بلوندال	1839	السكان مع مطلع القرن 19م، ومن خلال ملاحظاته يذكر أن عدد المسلمين في المدينة كبير جدا مقارنة مع المسيحيين الذين يشكلون بها أقلية[1].
جول قزافي ديفروفي	1848	ذكر قزافي الذي زار مدينة دمشق أن عدد سكان المدينة يقدر بحوالي 130 ألف نسمة، وبالتالي نلاحظ زيادة كبيرة في عدد السكان تقدر بحوالي 50000 نسمة في فترة تقدر بعشرة سنوات، وفصل قزافي في عدد السكان حسب الديانات وذكر أنه يوجد بدمشق 17 ألف مسيحي و2500 يهودي[2]، والمسلمون بها يشكلون الأغلبية من السكان ويصل عددهم إلى 110 آلاف نسمة، وذكر أن المسيحيين أغلبهم من الكاثوليك اليونانيون والموارنة يشكلون أكثر من 10/9 من سكان دمشق المسيحيين وهم يعترفون بسلطة روما ويمثلهم اللازاريين الفرنسيون، كما أن السكان بالمدينة يعيشون في أحياء منفصلة دينيا

رمضان المبارك يوم الخميس، وصار العيد يوم الجمعة، فصار عيدا للأموات والأحياء لكنه للأموات أكثر، فقبل عيد الفطر بيوم وبعده بيومين يخرج من كل باب من أبواب دمشق ممن مات مطعونا في كل يوم نحوا من ألف جنازة والعياذ بالله، وهذا شيء ما سمع في طاعون عمواس... ". أحمد البديري الحلاق، **حوادث دمشق اليومية1154–1175هـ/1741–1762م**، نق:مُحَمَّد سعيد القاسمي، تح نش:أحمد عزت عبد الكريم، مطبعة البيان العربي، ط1، القاهرة، مصر1959م، ص290.

[1] Edouard blondel, Edouard blondel, **deusc ans en Syrie et en Palestine 1838-1839**, chez p du fart libraire, paris, france1840, p162.

من خلال مقارنة هذه الإحصائيات مع الإحصائيات المحلية نلاحظ أن الرحالة إدوارد بلوندال لم يقدر جيدا عدد السكان وأعطى نسبة أقل، حيث تذكر الكتابات المحلية أن عدد سكان مدينة دمشق في سنة 1816م بلغ حوالي 130000 نسمة، وبالتالي نلاحظ فارق 50000 نسمة وإذا ما قارناها بالإحصائيات المقدمة بعدها في منتصف القرن 19م نجزم بأن عدد سكان مدينة دمشق مع مطلع القرن 19م كان يتجاوز عتبة 110000 نسمة. الشيخ مُحَمَّد سعيد الأسطواني، المصدر السابق، ص 33.

[2] نفس الرقم الذي قدمه الرحالة الفرنسي إدوارد بلوندال عن عدد اليهود في مدينة دمشق في منتصف القرن 19م موجود في سجلات المحاكم الشرعية التي قدرت هي الأخرى عددهم مع منتصف القرن 19م ب 2500 نسمة. سجلات المحاكم الشرعية، نقلا عن أكرم حسن العلبي، **يهود الشام في العصر العثماني من خلال سجلات المحاكم الشرعية في مركز الوثائق التاريخية بدمشق 991هـ– 1336هـ/ 1583م– 1909م**، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا2011م، ص 11.

		فتجد حي خاص بالمسلمين، الحي المسيحي، الحي اليهودي[1].
رحلة منظمة من طرف مؤسسة الكتب الدينية الفرنسية	1854	قدرت البعثة العلمية المرسلة من طرف مؤسسة الكتب الدينية الفرنسية عدد سكان دمشق بنسبة تتراوح ما بين 100 و 150 ألف نسمة[2]، ومقارنة مع الإحصاء الذي ذكرته الرحلة السابقة وهي رحلة جول قزافي التي قدرت السكان بدمشق بحوالي130000 نسمة نلاحظ أن المدينة عرفت استقرارا سكانيا نسبيا.
القس جين جاكيس بوراسي	1860	عرف سكان مدينة دمشق في هذه السنة تراجعا ملحوظا في عدد السكان، وقد قدر القس جين عدد سكان دمشق بحوالي 110 آلاف نسمة، وبالتالي نلاحظ تراجع في عدد السكان بنسبة 20000 نسمة خاصة وأن المدينة في هذه الفترة عرفت حرب أهلية رهيبة، وذكر بأن السكان

[1] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, p11.

للمزيد من المعلومات حول التقسيم الديني للمدينة ينظر إلى الملحق رقم 14.

الحي اليهودي في مدينة دمشق كانت تعيش به أربع طوائف يهودية وهي: الربانيين، القرائين، السامرة، المستعرب، وخصص لكل طائفة منهم حارات خاصة وأعرفت باسم الثلاج، وكان لكل من هذه الطوائف الكنيس الخاص بها، وكان عددها في الحي معتبرا جدا أشهرها كنيس سوق الجمعة كنيس جوبرو هو أقدمها، وكان هناك كنيس لليهود السامرة في حارة تعرف بالعنابة، كما كان لليهود عدة أوقاف لكنها قليلة مقانة مع أوقاف المسيحيين والمسلمين، وتخضع كل حارة لسلطة شيخ كبير يعتبر همزة وصل مع السلطة الحاكمة. سهام مُحَّد هنداوي، المرجع السابق، ص 154.

[2] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p151.

بالفعل عرفت مدينة دمشق تزايدا سكانيا ملحوظا في بداية النصف الثاني من القرن 19م، وهو الأمر الذي ذكره أيضا الرحالة الإيرلندي بورتر في كتابه خمس سنوات في دمشق والذي أصدره سنة 1855م، وقدم في هذا الكتاب ملاحظاته حول عدد سكان المدينة وقدرهم بحوالي 150000 نسمة، وقد بقي في المدينة لمدة 5 سنوات وهي فترة كافية لأخذ معلومات قريبة جدا من =الصحة، وكذلك إذا ما قورنت بإحصائيات الرحالة الفرنسيين الذين زاروا دمشق قبله وبعده نلاحظ تقارب واضح وهو الأمر الذي يعطي إحصائيات الفرنسيين نوعا من الصحة. بورتر، كتاب خمس سنوات في دمشق، نقلا عن الشيخ مُحَّد سعيد الأسطواني، المصدر السابق، ص 33.

		المسلمون يشكلون بها الأغلبية من السكان بعدد 94 ألف مسلم، والكثافة السكانية المسيحية تصل إلى 12 ألف مسيحي، وقال أن عدد اليهود بالمدينة عرف تزايدا أيضا حيث وصل عددهم إلى 4 آلاف يهودي[1].
ليون بول	1865	قدر الرحالة الفرنسي ليون بول عدد سكان دمشق بحوالي 170 ألف نسمة وهنا نلاحظ زيادة تقدر بحوالي 60000 نسمة مقارنة مع إحصائيات سنة 1860م التي قدمها القس جين وذكرنا سابقا أن المدينة شهدت حرب أهلية كبيرة أدت إلى تراجع عدد السكان، ومن غير الممكن أنه في فترة 5 سنوات يكون هذا الانفجار الديموغرافي وعليه نقول أن هذا الإحصاء غير دقيق، وفي المقابل في حديثة عن عدد السكان حسب الديانات ذكر ليون بول أن عدد السكان المسيحيين بالمدينة 7500 نسمة وهو تقدير منطقي مقارنة بالسابق إذ أن العدد تراجع من 12000 إلى 7500 مسيحي خاصة بعد الحرب الأهلية التي راح ضحيتها مسيحيو المدينة، وذكر أن البقية الغالبة من السكان مسلمون[2].
فرانسوا لاكوست	1875	قدر هذا الرحالة عدد سكان دمشق بحوالي 200 ألف نسمة أي بزيادة حوالي 30000 نسمة في فترة تقدر بعشرة سنوات بعد رحلة ليون بول[3]، وهو نفس الإحصاء الذي قدمه الرحالة جون تيكي الذي زار هو الآخر مدينة

[1] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p426.
[2] Léon Paul, op cit, p145.
[3] François Lacoste, **le glaneur sur le chemin de Jerusalem ou mon pèlerinage en Terre Sainte**, j marchand imprimeur, Dijon, France 1875, p497.

		دمشق في نفس السنة، والذي ذكر أيضا تفصيلا دينيا للسكان وذكر أن أغلب سكان المدينة هم من المسلمين إضافة إلى كثافة مميزة من فئة الدروز والمتواليس التي تصل إلى أكثر من 22 ألف نسمة، وتحدث أيضا عن فئة اليهود التي تعيش بالمدينة وقدر عددهم بحوالي 4000 نسمة، والملاحظ هنا أن عدد اليهود عرف استقرارا نسبيا ولم يتزايد مقارنة مع سنة 1860م التي أحصى فيها القس جين جاكيس عددهم أيضا بحوالي 4000 يهودي[1]، ومن هذه الإحصائيات ومن خلال الإحصائيات السابقة لسنة 1865م التي قدمها الرحالة ليون بول نقول أن التقديرات لعدد السكان غير منطقية ومبالغ فيها فمن المستحيل أن يتزايد عدد السكان من 110000 نسمة خلال سنة 1860م و هي السنة التي عرفت الحرب الأهلية إلى 200000 نسمة في سنة 1875م، والزيادة هنا تقدر بحوالي 90000 نسمة في 15 سنة بمعدل زيادة 6000 نسمة سنويا، وما يؤكد على كلامنا هو الإحصائيات التي قدمها الرحالة دولابلانش الذي زار مدينة دمشق بعد سنة من زيارة كل من فرانسوا لاكوست وجون تيكي أي في 1876م، وذكر أن عدد سكان المدينة يقدر بحوالي 120000 نسمة أي بزيادة تقدر بحوالي 10000 نسمة في مدة 16 سنة بزيادة طبيعية تبلغ 625 نسمة في السنة وهو تقدير منطقي، ولم ينس القس دولابلانش تقدير عدد المسيحيين الموجودين بالمدينة وذكر أن عددهم 15000 مسيحي وهو تقدير

[1] G téqui, op cit, p272.

		مقبول مقارنة مع عددهم سنة 1860م الذي قدر بحوالي 12000 مسيحي وبالتالي زيادة 3000 نسمة في 16 سنة بمعدل زيادة 187 نسمة في السنة[1].
جين سيجوكس	1882	لم يعط الرحالة جين سيجوكس تقديرا محددا لعدد سكان دمشق، وذكر أنهم يتراوحون من 150 إلى 300 ألف نسمة ونرجح هنا التقدير الأول وهو 15000 نسمة مقارنة بتقدير دولابلانش في 1876م وهو 12000 نسمة وبالتالي الزيادة تقدر بحوالي 30000 نسمة في 6 سنوات وهو أمر مقبول لحد ما، وذكر جين جوكس أن بالمدينة بضعة آلاف من المسيحيين الأرمن والقليل من الموارنة، ومن 5 إلى 6 آلاف يهودي وذلك بزيادة تقدر بحوالي أكثر من 1000 نسمة في فترة مقدرة بسبع سنوات، ومن هنا نلاحظ أن زيادة عدد اليهود كانت منتظمة، ثم يختم حديثه بالقول أن الباقي الغالب هم من المسلمين[2].
فيكتور قرين	1884	قدر فيكتور عدد السكان بإحصاء عدد المنازل، وذكر أن مجموع منازل دمشق حوالي 2000 منزل، وبالتالي استنتج أن عدد سكان دمشق يبلغ حوالي 30 ألف نسمة أغلبهم من المسلمين، وقال:"...عدد المسيحيين منخفض جدا..."، وأرجع ذلك للحرب الأهلية التي قتل وذبح بها حوالي 8000[3] وقدر عددهم بخوالي 10000

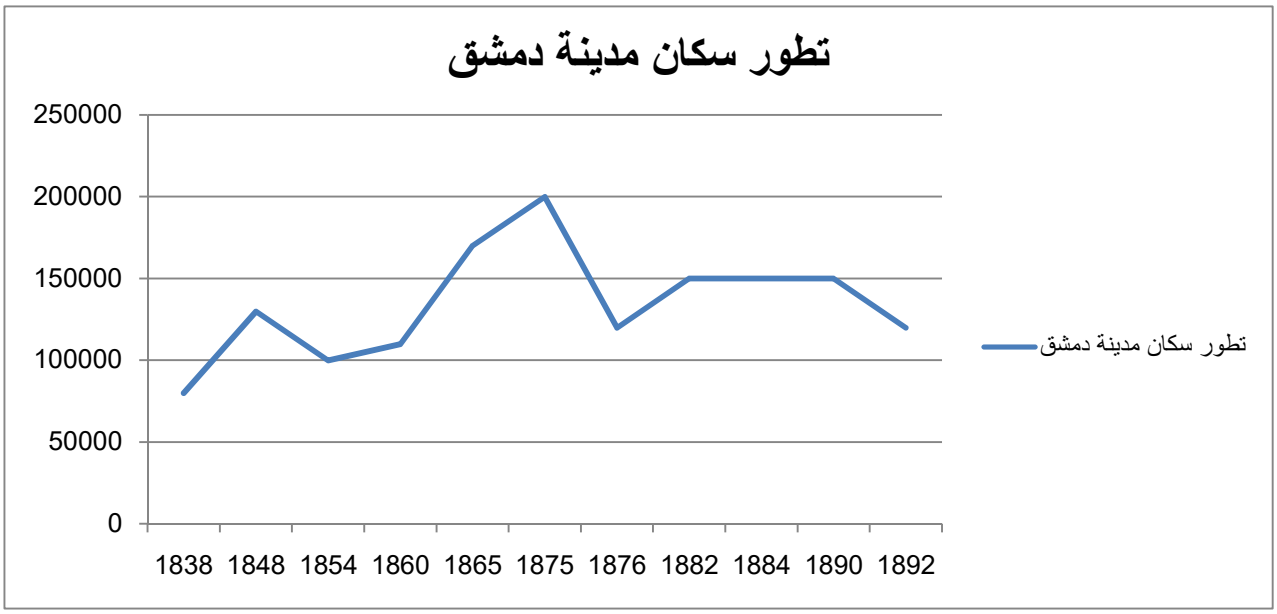
[1] L'abbé delaplanche, op cit, p222.
[2] Jean sigausc , **voyage au pays du doute accompli par fortuné Rampal**, libraire de la société des gens de lettres, paris, France 1882, p110.
[3] Victor Guérin, op cit,p 402.

		نسمة يتكونون من اليونانيين المنشقين واليونانيين المتحدين والموارنة والأرمن واللاتين[1]. من خلال التقديرات التي قدمها لنا فيكتور قرين ومقارنة بسابقتها ولاحقتها نقول أن هذا الإحصاء غير دقيق لأنه إذا قسمنا عدد السكان على عدد المنازل نجد 15 فردا في المنزل الواحد وهو عدد مبالغ فيه، وكذلك الكثافة العامة التي قدمها لا تقترب من الكثافة السكانية التي قدمها الرحالة جين سيجوكس سنة 1882، والذي قدر العدد بأكثر من 150 ألف نسمة وذلك بسنتين قبل قدوم فيكتور قرين، وقدر لويس ماركت الذي زار دمشق بعده عدد السكان بحوالي 120 ألف نسمة، والمدينة في هذه السنوات عرفت استقرارا صحيا وأمنيا وبالتالي لا يوجد عامل يذكر قد ساهم في تراجع السكان إلى هذه الدرجة، وعليه نقول إن الإحصائيات المقدمة غير دقيقة.
لويس ماركت	1892	ذكر ماركت أن عدد سكان مدينة دمشق حوالي 120 ألف نسمة، وقال إن المسلمين بها يشكلون الأغلبية بكثافة أكثر من نصف السكان[2]، وقد قدر الرحالة عبد الرحمن بك سامي عدد سكان دمشق في سنة 1890م بحوالي 150 ألف نسمة، منهم 120 ألف مسلما و 4500 شيعي و 2500 دروزي وعلويين و 16 ألف من النصارى من كل الطوائف و 5 آلاف يهودي والأجانب قلائل لا يتجاوز عددهم 400 نسمة، والإحصاء المقدم قريب من الرقم

[1] Victor Guérin, ibid,p420.
[2] Louise Marquette, op cit, p230.

		الذي قدمه الرحالة الفرنسي لويس ماركت بعد عامين، لكن يبقى تقدير عبد الرحمن بك سامي الأرجح مقارنة مع الإحصاء الذي ذكره الرحالة جين سيجوكس وهو 150000 نسمة في سنة 1882م وهو ما يدل على استقرار عدد السكان خلال الفترة الممتدة من 1882م إلى 1892م ولا توجد زيادة ملحوظة[1].

- منحنى بياني يوضح تطور عدد سكان مدينة دمشق خلال القرن 19م:



نلاحظ من خلال المنحنى أن وتيرة التزايد السكانية السريعة التي عرفتها مدينة دمشق في النصف الأول من القرن 19م بدأت في التناقص في العقد الثاني من النصف الثاني للقرن 19م، ويمكن أن يكون سببها الرئيسي الهجرات التي

[1] عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص61.

ذكر عبد العزيز العظمة إحصاءا لعدد سكان دمشق في سنة 1897م أخذه من سجل الحكومة الرسمي، وقد قدر هذا الإحصاء عدد سكان المدينة ب201 ألف نسمة، وقال أن تسع أعشارهم من العرب والباقون خليط من شراكسة وأرمن وإفرنج وغيرهم. عبد العزيز العظمة، **مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها**، تح: نجدة فتحي صفوة، رياض الرايس للكتب والنشر، دمشق، سوريا1947م، ص 23.

عرفتها بعض المدن الشامية بسبب تردي الأوضاع العامة وننقل في هذا الصدد ما ذكره شاهين مكاريوس المعاصر لهذه الفترة عن هجرة السكان فيقول:"...وقد تقلل عددهم بما يأتيه الحكام من سوء التدبير والظلم مما يضطر الناس إلى الرحيل والمهاجرة ويقدرون أن عدد الذين هاجروا إلى أمريكا وسواها من أهل لبنان في مدة 15 سنة من هذا التاريخ (مقارنة مع الفترة التي كتب فيها الكاتب حوالي سنة 1875م) لا يقل عن 200 ألف نسمة وهو أكبر دلالة على حاجة البلاد إلى الإصلاح"[1].

نستنتج من خلال الجدول كذلك أن غالبية سكان مدينة دمشق والمسيطرون عليها هم المسلمون مقارنة مع عدد المسيحيين واليهود القلة بالمدينة، ولكن الملاحظ بصفة عامة من خلال هذه الدراسة هو التزايد المستمر لعدد اليهود في مدينة دمشق وبشكل منتظم لاسيما وأن هذا القرن عرف هجرة العديد منهم من عدة مناطق إلى بلاد الشام، ونذكر على سبيل المثال اليهود الروس الذين اضطهدوا في بلادهم وتعرضوا لترحيل قسري واختاروا بلاد الشام كملجأ، وقد وجدنا بعض الأرقام والإحصائيات في مدن شامية أخرى سنذكرها حول عدد اليهود والتي يمكن القول أنها كبيرة جدا وعرفت تطورا مستمرا طوال القرن19م.

من المدن الشامية الأخرى الأكثر اكتظاظا بالسكان مدينة حلب حيث تحتوي على كثافة سكانية عالية، وهذا الأمر أكده لنا الرحالة فولني volney الذي زار بلاد الشام مع أواخر القرن 18م ويقول في كتاباته:"...المدينة تحتل المرتبة الثالثة بعد الأستانة وأزمير من حيث عدد السكان..."، وبالتالي جعلها في المرتبة الأولى قبل مدينة دمشق من حيث عدد السكان ببلاد الشام[2]، ويمكن القول أن سبب امتلاء مدينة حلب بالسكان يعود لعدة عوامل منها طبيعية واقتصادية جعلت منها مدينة غنية بالسكان، أو ما يسمى في المصطلح الجغرافي بعامل الجذب[3]، وسنعمل من خلال عرض الجدول الإحصائي دراسة التطور السكاني للمدينة خلال القرن 19م من خلال كتابات الرحالة وهي كالتالي:

[1] شاهين مكاريوس، المصدر السابق، ص 13.

[2] حبيب السيوفي، المصدر السابق،ج2، ص11.

[3] Henri guys, op cit, p36.

الرحالة	السنة	عدد السكان
إدوارد بلوندال	1840	الرحالة الفرنسي بلوندال ذكر أن عدد سكان مدينة حلب يقدر بحوالي 80 ألف نسمة، وأشار في رحلته إلى أنها ثاني أكبر مدينة سورية بعد مدينة دمشق خاصة وأنه قد زار مدينة دمشق بسنة قبلها، وقدر عدد سكانها كذلك بحوالي 80000 نسمة ولعله كان يقصد الكبر العمراني للمدينة مقارنة بحلب لأن عدد السكان متقارب جدا[1].
رحلة مؤسسة الكتب الدينية الفرنسية	1854	قدرت البعثة العلمية المرسلة من قبل مؤسسة الكتب الدينية الفرنسية عدد سكان مدينة حلب بحوالي 30 ألف نسمة، وهو تقدير غير منطقي فمن المستحيل أن يتراجع عدد السكان بحوالي 50000 نسمة في فترة 14 سنة، ثم يتصاعد مقارنة مع تقدير ليون بول الذي جاء بعدهم بحوالي 50000 نسمة في فترة 11 سنة مع العلم أن حلب تعرف استقرارا صحيا كبيرا مقارنة مع بقية المدن الشامية، وهو الأمر الذي سنشير إليه في قسم الصحة والتعليم[2].
ليون بول	1865	ذكر ليون بول أن عدد سكان مدينة حلب أكثر من 70 ألف نسمة وهو تقدير قريب جدا من تقدير إدوارد بلوندال، وبالتالي يمكننا القول أن عدد

[1] Edouard blondel, op cit, pp 277-278.
[2] La société des livres religieux de Toulouse ,op cit, p 174.

		سكان المدينة عرف استقرارا نسبيا، وذهب ليون بول بعد إحصاء سكان المدينة إلى تقدير عددهم حسب الديانات، وذكر أن منهم 15 ألف مسيحيا و 4 آلاف يهودي، ولاحظ أن العنصر الأوربي موجود بها بكثرة وأشار كذلك أن السكان المسلمين هم الذين يشكلون بها الأغلبية[1].

يمكن القول من خلال هذا دراسة الجدول الإحصائي أن مدينة حلب عرفت استقرارا نسبيا في عدد السكان في أواخر النصف الأول من القرن 19م وبداية النصف الثاني من القرن 19م، في ما عدا ذلك لا يمكن الأخذ بإحصائيات البعثة الدينية الفرنسية لسنة 1854م لأن العدد المقدم غير منطقي جدا و لعله كان رقما قدم دون أي أسس تدقيقية وتمحيصية، وعليه لا يمكن الاعتماد عليه، كما أنه لا يمكننا أبدا إعطاء صورة واضحة حول التزايد السكاني بحلب في القرن 19م بالاعتماد على 3 إحصائيات وهي الوحيدة التي وجدناها في كتب الرحلة الفرنسية، ومن المعروف أن مدينة حلب قد عرفت تطورا سكانيا ملحوظا في العقود الأخيرة من القرن 19م.

ليست مدينة دمشق وحلب هما المدينتين الوحيدتين اللتان تحتويان على كثافة سكانية عالية، فمن خلال كتابات الرحالة الفرنسيين وجدنا إحصائيات أخرى عن إحدى المدن التي تقع في المنطقة الشمالية الشرقية للشام وهي مدينة حماة، والتي تحتوي هي الأخرى على كثافة سكانية معتبرة سنوضحها في الجدول التالي:

الرحالة	السنة	عدد السكان
ليون بول	1865	تعد مدينة حماة من المدن الشامية التي تعرف تواجد كثافة سكانية مهمة، وهو ما نستشفه من خلال ملاحظات الرحالة الفرنسيين، وفي هذا الصدد يقول ليون بول:"...عدد سكان

[1] Léon Paul, op cit, p200.

للمزيد من المعلومات حول التقسيمات الدينية للمدينة ينظر إلى الملحق رقم 15.

		مدينة حماة كبير جدا حيث يبلغ حوالي 50 ألف نسمة..."، وذكر أيضا في ملاحظاته أن عدد المسيحيين فيها قليل جدا مقارنة بالمسلمين أصحاب الكثافة العالية، وبالتالي فالمدينة تأخذ طابعا إسلاميا محظا[1].
ميشال جوليان	1893	عرفت مدينة حماة استقرارا سكانيا على مدار القرن 19م فبعد حوالي 28 سنة من زيارة ليون بول قدر الرحالة الفرنسي ميشال جوليان عدد سكان المدينة بعدد يقارب سابقه، وهو أكثر من 40 ألف نسمة، ولكن ما يلاحظ من خلال إحصائياته أن عدد المسيحيين بها قد تزايد وبلغ في هذه الفترة حوالي 5100 منهم 100 كاثوليك أما البقية الغالبة فهي من المسلمين[2].

02- إحصائيات التطور بالمدن الشامية الشمالية الغربية:

مدينة بيروت تعد أكبر مدينة في المنطقة خلال القرن 19م من حيث عدد السكان، بالرغم من أنها كانت في أواخر القرن 18 تتميز بكثافة سكانية قليلة مقارنة مع المدن الأخرى الكبرى، وهو ما ذكره الرحالة الفرنسي فرانسوا فولني Volney في كتاباته حول المدينة، وقد قدر عدد سكان مدينة بيروت بحوالي 6000 نسمة[3]، والأمر الذي يميز مدينة بيروت مقارنة مع بقية المدن أنها تتشكل من خليط سكاني يضم مختلف الفئات والديانات التي تعيش في مجتمع فسيفسائي، ولا شك أن المسلمين في هذه المدينة هم الذين يمثلون أكبر نسبة من السكان، وتعيش في المدينة أسر إسلامية كبيرة مشهورة ومن أمثلة الأسر المشهورة في المدينة على سبيل المثال: أسرة الأزهري، الأسطة، الأسير، الأحذب، الأنسي،

[1] Léon Paul, op cit, p182.
[2] Michel Jullien, op cit, p191.

للمزيد من المعلومات حول التقسيمات العرقية ينظر للملحق رقم 16.

[3] حبيب السيوفي، المصدر السابق،ج2، ص24.

إدريس، إياس، بالوظة، قليلات، بدران، البراخ، البريبر، بكداش، بكار، بنداق، بلوز، بليق، بواب، بولاد الحوت، بيضون، بيهم[1].

عرفت مدينة بيروت تزايدا سكانيا ملحوظا خلال القرن 19م، ويذكر القنصل الفرنسي هنري قيز Henri Guys في مذكراته أن عدد سكانها ازداد بسبب الهجرة التي كانت نحوها، والتي يعود سببها إلى الحروب الأهلية التي دارت بين سكان بعض المناطق، ثم ذكر أن توجههم لبيروت هو بسبب توفر الأمن والطمأنينة وتعدد المنافع فيها، وكذلك نظرا لتطور الأنشطة الاقتصادية ضواحي المدينة مما أدى لتكاثر سكانها، ولم ير في جميع المناطق الجبلية الخاضعة لسيطرة أمير الجبل بلدا مأهولا صالحا للعيش مثل ضواحي مدينة بيروت والمنطقة التي تحدث عنها تمتد من نهر المعاملتين حتى الشويفات[2]، وحافظت مدينة بيروت على كثافتها السكانية بالرغم من معاناتها من الحرب الأهلية كغيرها من المدن السورية الأخرى[3]، وسنوضح من خلال هذا الجدول الإحصائي نسب التطور السكاني ونحللها:

الرحالة	السنة	عدد السكان
م . دولارواير	1836	قدم الرحالة دولاواير تقديرا ناقصا عن عدد سكان مدينة بيروت إذ قال في رحلته:"... تضم مدينة بيروت كثافة سكانية تتراوح ما بين 5 إلى 6 آلاف نسمة..."[4]، وإذا ما قارناها بإحصائيات فولني التي

[1] حسان حلاق، المرجع السابق، ص15.

[2] هنري قيز ، المصدر السابق ، ص 23.

[3] M m p v, op cit, p44.

[4] M delaroiere, op cit, p 45.

قدم هنري قيز تفصيلا لسكان مدينة بيروت في مطلع القرن 19م وذكر أن المجتمع البيروتي مجتمع فسيفسائي حيث يقول في كتابه :" ... وتعد هذه المدينة الرابعة في سوريا من حيث عدد سكانها ومن المؤكد أن عدد سكانها لا يتجاوز 15500شخص ، منهم 7 آلاف مسلم، و 4 آلاف من الروم الآرثذوكس، 1500 ماروني، و 1200 من الروم الكاثوليك، و 800 درزي، و 400 أرميني وسرياني كاثوليكي، و 200 يهودي، وأربع مائة أوربي..."، وتقديره لعدد السكن أقرب إلى الواقع مقارنة مع تقدير دلارواير خاصة وأنه كان قنصل لفرنسا في المدينة وولد وترعرع فيها، وكذلك إذا ما قارناها بإحصاء لويس بينال في 1853م الذي قدر عدد

		قدمها مع أواخر القرن18م نلاحظ تقاربا واضحا في إحصاء عدد السكان، ولكن من المستحيل أن لا يتغير العدد ويبقى كما هو في مدة تزيد عن 40 سنة، وقد قدم لنا الباحث رامي علي عيزوقي إحصاء لعدد سكان مدينة بيروت سنة 1830م إذ يذكر أنهم كانوا حوالي 10000 نسمة، وبالتالي الزيادة مقدرة بحوالي 4000 نسمة في مدة تتراوح ما بين 30 و 40 سنة وهو رقم مقبول مقارنة مع إحصائيات فولني ودولاروايز[1].
لويس بينال	1853	يذكر لويس بينال أن عدد سكان مدينة بيروت عرف تزايدا ملحوظا مع منتصف القرن 19م، وقدر عدد سكانها بحوالي 40 ألف نسمة[2]، وبالتالي إذا ما قارناها بالإحصائيات السابقة سواء الفرنسية أو المحلية نلاحظ زيادة معتبرة فاقت 30 ألف نسمة في عقدين من الزمن تقريبا.
ليون بول	1856	قدر ليون بول من خلال زيارته لمدينة بيروت عدد السكان بحوالي 50 ألف نسمة وبالتالي زيادة 10000 نسمة في مدة 3 سنوات وهي زيادة ملحوظة، ويقول كذلك:"...ثلاثة أرباع سكان المدينة مسيحيون..."[3]، ولا شك أن عدد المسيحيين في هذه المدينة كان كبيرا

سكان المدينة بحوالي 40000 نسمة فإنها أقرب مقارنة مع الفرق الزمني بين الإحصاءين وهو حوالي 50 سنة بزيادة تقدر بحوالي 25000 نسمة. هنري قيز، المصدر السابق ، ص 20.

[1] رامي علي عيزوقي، المرجع السابق، ص 107.

[2] Louis Bunel, **Jérusalem la cote de Syrie et Constantinople en 1853**, sagnier et Bray libraires éditeurs, paris, france1854, p289.

[3] Léon Paul, op cit, p 153.

		لكن الرقم الذي قدمه ليون بول حول عدد السكان المسيحيين مبالغ فيه لاسيما وأن الفرنسيين كانوا يؤسسون لفكر يمهد لأطماعهم الاستعمارية في المنطقة، وبالتالي يضخمون الوقائع، وعليه لا بد من أخذ الحذر من المعلومات الواردة في كتاباتهم، وعكس ذلك سنلاحظه عند تقدير الرحالة الفرنسي الموالي لمدينة بيروت وهو جون تيكي الذي عكس الرقم، ويقول أن 20000 نسمة مسيحيون من الكثافة العامة المقدرة بحوالي 80000 نسمة، و بالتالي ثلاث أرباع سكان المدينة هم من المسلمين وهو إحصاء منطقي.
خ. تيكي	1875	نلاحظ من خلال إحصاء تيكي تزايدا كبيرا في عدد سكان المدينة في فترة 19 سنة، والذي وصل إلى 70 ألف نسمة، وذلك بزيادة مقدرة بحوالي 20000 نسمة وهو أمر مقبول مقارنة مع إحصاء ليون بول في سنة 1856م والذي قدرهم بحوالي 50000 نسمة[1]، وذكر أن 20 ألف من المسيحيين هم من الكاثوليك[2]، وذهب الرحالة فرانسوا لاكوست الذي زار المدينة في نفس السنة إلى القول بأن عدد سكان المدينة يقدر بحوالي 80000 نسمة، وذكر أنها مدينة مكتظة بالسكان مقارنة مع بقية مدن الشام[3].
القس	1876	يذكر الرحالة دولابلانش في رحلته أن مدينة بيروت

[1] نفس الإحصاء قدمه الباحث والذي ذكر أن سكان مدينة بيروت بعد سنة 1860م بلغ 50000 نسمة. رامي علي عيزوقي، المرجع السابق، ص 107.

[2] G téqui, op cit, p254.

[3] François Lacoste, op cit, p493.

دولابلانش		مدينة مكتظة بالسكان وقدر عدد سكانها بأكثر من 60 ألف نسمة[1]، وهو تقدير مقبول جدا مقارنة مع سابقيه فتقديره يبقى نسبيا جدا عندما يقول أكثر من 60ألف، وبالتالي قد يكون عدد السكان حوالي 70000 نسمة أو أقل بقليل.
القس جوزيف ايشمان	1879	عرفت مدينة بيروت وتيرة تزايد كبيرة كما ذكرنا سابقا في عدد السكان لاسيما مع النصف الثاني من القرن 19م، ونسبة الزيادة كانت كبيرة جدا في فترات زمنية قصيرة، وحسب إحصاء القس جوزيف نلاحظ تزايد عدد سكان المدينة بحوالي 20000 نسمة مقارنة مع سنة 1876م، ويذكر أن الكثافة العامة بالمدينة بلغت حوالي 100 ألف نسمة[2].
جين سيجوكس	1882	قدر سيجوكس عدد سكان بيروت بحوالي 80 ألف نسمة[3]، وهي تقريبا نفس الإحصائيات التي يذكرها الرحالة الفرنسي أف بارت الذي زار المدينة سنة 1883م والذي يذكر أن عدد السكان ببيروت أكثر من 60 ألف نسمة[4]، ونلاحظ من خلال إحصائيات الرحالين سيجوكس وإف بارت أن عدد سكان المدينة تراجع بحوالي 20000 نسمة وهي نسبة كبيرة، ويعود السبب في ذلك إلى الهجرة الكبيرة التي عرفتها لبنان

[1] L'abbé delaplanche, op cit, p 216.
[2] L'abbé joseph eschemann, **souvenirs d'un voyage en terre sainte en 1874**, imprimerie catholique suisse, fribourg, suisse 1879, p251.
[3] Jean sigausc , op cit, p 80.
[4] جوزف بدوي، المرجع السابق، د ص.

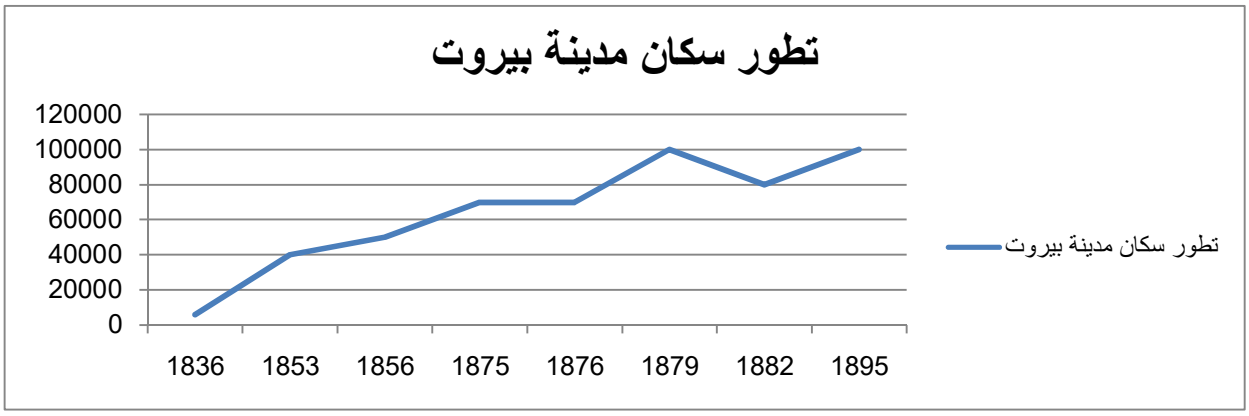
		في أواخر السبعينات من القرن 19م خاصة فئة الشباب، ولعل عدد المهاجرين أكثر مما نستنبطه من ملاحظات الرحالة وقد يصل إلى 40000 حسب ما ذكره أوغست أديب باشا في الموضوع الذي كتبه في هذا المجال وهو بعنوان أسباب الهجرة، ومن أسباب الهجرة المذكورة القوانين المجحفة كقانون 1862-1864م الذي كانت له تداعيات سيئة في السنوات اللاحقة، وظلم أصحاب الإقطاعيات الكبرى للفلاحين الصغار، وكذلك فقر لبنان[1].
م م ب ف	1895	قدر هذا الرحالة عدد سكان مدينة بيروت بحوالي 100 ألف نسمة منهم 2000 أوربيون، وقال أنها تحتل المرتبة الثانية من بعد دمشق من حيث عدد السكان[2]، وبالتالي زاد عدد السكان بحوالي 20000 نسمة في فترة 13 سنة وهي زيادة ملحوظة ولعل سبب عودة استقرار التزايد السكاني راجع إلى استقرار الأوضاع في بيروت أواخر القرن 19م.

- منحنى بياني يبين تطور سكان مدينة بيروت خلال القرن 19م:

[1] إيليا أبو ماضي، **ديوان إيليا أبو ماضي**، تق: جبران خليل جبران، تص: سامي الدهان، در: زهير ميرزا، دار العودة، بيروت، لبنان، د ت، ص ص 17- 18.

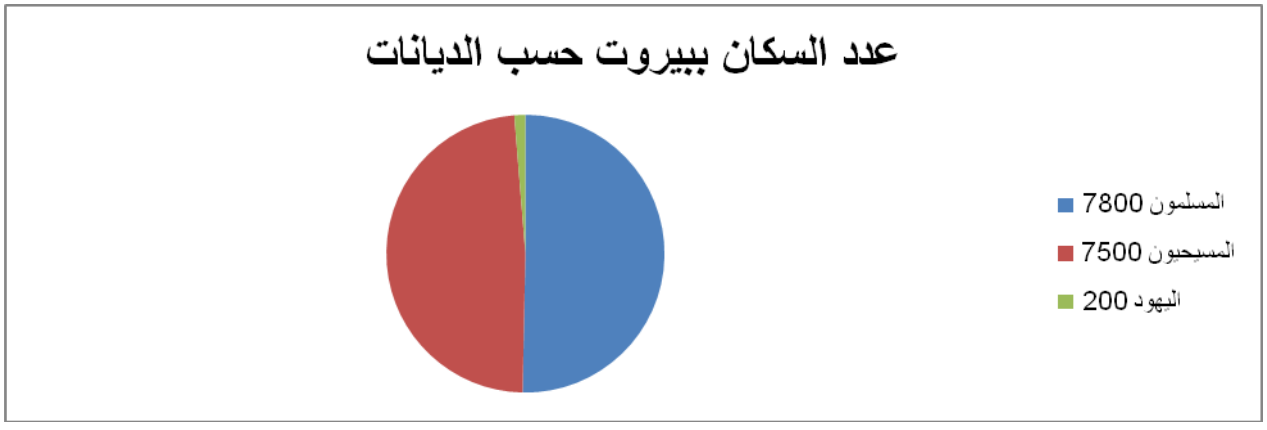
الهجرة لم تقتصر على مدينة بيروت وحدها وإنما كانت ظاهرة تشمل تقريبا كل منطقة جبل لبنان، وقد قدر الكاتب بولس مسعد عدد المهاجرين نحو أمريكا و أستراليا مع أواخر القرن19م وبداية القرن 20 م بحوالي 250 ألف نسمة من عدد سكان المنطقة الإجمالي الذي قدره بحوالي 550 ألف نسمة، وبالتالي نصف السكان قد هاجر وهو رقم كبير جدا أثر على الكثافة السكانية العامة في المناطق الشرقية لبلاد الشام . بولس مسعد، **لبنان والدستور العثماني بحث سياسي قانوني تاريخي في موقف لبنان الحاضر إزاء الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده**، المطبعة السورية، شارع دمنهور، مصر الجديدة، مصر، د ت، ص 3.

[2] M m p v, op cit, p44.



من خلال هذا المنحنى البياني نلاحظ التطور والزيادة المنتظمة لعدد السكان في مدينة بيروت طوال القرن 19م، والزيادة كانت بنسبة كبيرة حيث انتقلت من حوالي 20 ألف نسمة مع مطلع القرن 19م إلى حوالي 100 ألف نسمة مع نهاية القرن 19م أي بزيادة مقدرة بحوالي 80 ألف نسمة بمعدل زيادة سنوية مقدرة بحوالي 800 نسمة، وهي زيادة طبيعة مرتفعة يعود السبب الرئيسي فيها إلى استقرار الأوضاع الصحية بالمدينة خاصة المناطق الجبلية المحيطة بها، والتي تعرف جوا صحيا ممتازا، وكذلك الاستقرار السياسي للمنطقة وقدوم العديد من الأجانب إليها، كلها عوامل ساهمت في تطور عدد سكان المدينة.

- دائرة نسبية تبين عدد سكان مدينة بيروت حسب الديانة بتقدير القنصل الفرنسي ببيروت هنري قيز مع مطلع القرن 19م:



الملاحظ من خلال هذه الدائرة النسبية أن عدد المسيحيين في مدينة بيروت كبير جدا، وهو يقارب عدد المسلمين في المدينة، بل إن من الرحالة من بالغ في ذلك وقال:"...عدد المسيحيين في المدينة يبلغ ثلاثة أرباع..."، والسبب في ذلك يعود إلى وجود فئة كبيرة من الموارنة ذوي الأصول الشامية ويعتنقون الديانة المسيحية، إضافة إلى ذلك من الأسباب الرئيسية لوجود عدد كبير من المسيحيين هو انفتاح المدينة على أوربا خاصة فرنسا؛ حتى أن بعضهم يعتبرون أنفسهم فرنسيين ويتحدثون الفرنسية ومتأثرون بالنمط الحضاري الفرنسي كما يحصلون على حمايتها، وفرنسا تعتبرهم رعاياها خاصة بعدما تمكنت من الحصول على امتيازات مكنتها من حمايتهم رسميا، كذلك الطابع التجاري للمدينة جعلها تستقطب عدد كبيرا من العائلات التجارية الكبرى التي استقرت بها، وبالتالي كل هذه العوامل أدت إلى تزايد عدد السكان المسيحيين بالمدينة.

مدينة طرابلس[1] هي الأخرى نالت نصيبها من كتابات وملاحظات الرحالة الفرنسيين خلال القرن 19م، ويمكن القول أن إحصائيات عدد السكان التي قدمها الرحالة الفرنسيون عن مدينة طرابلس الشام الوحيدة تقريبا في ظل غياب الإحصائيات الرسمية من قبل الإدارة المحلية، وهو ما ذكرته لنا الباحثة إيمان عبد الله التهامي التي نفت وجود أي نشاط حثيث لعد سكان طرابلس خلال القرنين 18 و19م، وعليه تعتمد الدراسات السكانية لهذه المنطقة على الأعداد التقريبية التي قدمها لنا الرحالة والقناصل[2]، والتي من خلالها نلاحظ أن مدينة طرابلس شهدت هي الأخرى تزايدا سكانيا ملحوظا مع النصف الأول للقرن 19م، والملاحظ من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين أن الغالبية من سكانها مسلمون، والإحصائيات المقدمة هي كالتالي:

[1] طرابلس: مدينة قديمة المنشأ تعود إلى العهد الفينيقي حكمها الإغريق والفرس والروم ثم العرب ثم الصليبيون ثم صلاح الدين الأيوبي فقلاوون ملك مصر وأخيرا العثمانيون منذ عهد سليم الأول، وتسمى المدينة أيضا بعروس الشام وسميت بحماة الشام، وهي مدينة محصنة طبيعيا بشكل جيد وموقعها ممتاز وتربتها خصبة وهوائها نقي (ينظر إلى يوسف الحكيم، المصدر السابق، ص 227.).

[2] إيمان عبد الله التهامي، **المجتمع المسيحي في طرابلس الشام خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين**، مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد47، أكتوبر 2018م، ص ص 121-156.

الرحالة	السنة	عدد السكان
إدوارد بلوندال	1838-1839	قدر إدوارد بلوندال عدد سكان مدينة طرابلس في رحلته بحوالي 12 ألف نسمة، ويقول أن غالبية سكانها هم من المسلمين إضافة إلى وجود حوالي 1500 إلى 2000 مسيحي[1].
لويس بينال	1853	من خلال كتابات الرحالة لويس بينال نلاحظ تزايدا ملحوظا في عدد سكان المدينة إذ يقول:"...عدد سكان مدينة طرابلس يتراوح ما بين 15 إلى 16 ألف نسمة..."، وبالتالي نلاحظ زيادة طبيعية مقدرة بحوالي أكثر من 3000 نسمة في مدة 14 سنة، وأيد رأي سابقه وذكر أن أغلب سكان المدينة مسلمون وأضاف إلى ذلك وجود نسبة معتبرة من اليهود مقارنة بالمسيحيين الذين كان عددهم قليلا بها أغلبهم من الكاثوليك[2].
القس جين جاكس بوراسي	1860	أكد الرحالة القس جين جاكس على أن المدينة تعرف تطورا منتظما في عدد السكان ويقول:"...يوجد بمدينة طرابلس حوالي 20 ألف

[1] Eduard blondel, op cit, p263.

من خلال مقارنة إحصائيات الرحالة إدوارد بلوندال مع الإحصائيات المقدمة من طرف القنصل الفرنسي في طرابلس الشام سنة 1812م وهو ألفونس قيز نلاحظ أن هناك تقارب في النسب، وهو ما يثبت لنا أن الإحصائيات المقدمة من قبل هذا الرحالة كانت منطقية ومعقولة إلى حد ما، وقد قدر ألفونس قيز عدد سكان مدينة طرابلس ب14900 نسمة، ولم يقف تقديره عند =عدد السكان فقط بل قدم تقسيما جزئيا حول مختلف التركيبات الطبقية والعرقية، فيذكر أن عدد مسلمي طرابلس هو 12100 نسمة وهو ما يؤكد ما سبق ذكره عن ارتفاع الكثافة السكانية الإسلامية بالمدينة وسيطرتها عليها بنسبة 81°/°. القنصل الفرنسي بطرابلس ألفونس قيز، نقلا عن إيمان عبد الله التهامي، المرجع السابق، ص ص 121-156.

[2] Louis Bunel, op cit, p295.

		نسمة..."، وبالتالي الزيادة السكانية في فترة 7 سنوات تقدر بحوالي أكثر من 5000 نسمة وهي تشكل تطورا ملحوظا في نسبة الزيادة الطبيعية بالمدينة، وذكر أيضا أن حوالي 6000 نسمة من سكان المدينة مسيحيون من مختلف الطوائف[1].

من المدن الشامية الأخرى التي تحتوي على كثافة معتبرة مدينة زحلة[2]، والملاحظ على عدد سكانها هو الاستقرار النسبي طوال القرن 19م، إذ لم تكن هناك زيادة ملحوظة في عددهم مقارنة مع بقية المدن الشامية الأخرى، وإحصائيات السكان في هذه المدينة هي على الشكل التالي:

الرحالة	السنة	عدد السكان
القس جين جاكس بوراسي	1860	تعيش في مدينة زحلة كثافة سكانية معتبرة قدرها القس جين جاكس بحوالي حوالي 15 ألف نسمة[3]، وإذا ما قارنا هذه الإحصائيات مع العدد الذي قدمه الرحالة الإنجليزي تشارلز تشرشل الذي زار المدينة في سنة 1852م نجد هناك تقاربا منطقيا، فالعدد الذي قدمه

[1] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p469.

قدم لنا يوسف الحكيم إحصائيات عدد سكان مدينة طرابلس في مطلع القرن 20م وبالتحديد في سنة 1911م، وقدرهم بحوالي 50000 نسمة، وإذا ما قارناها بإحصائيات القس جين جاكس في 1860م نلاحظ أن هناك زيادة مقدرة بحوالي 30000 نسمة في فترة 50 سنة وإذا ما قارناه بالمعدل التقريبي الذي حددناه سابقا والمقدر بزيادة 5000 نسمة كل خمس سنوات نلاحظ =تقارب نسبي بين الطرفين الفرنسي والمحلي، وهو ما يقرب الإحصائيات الفرنسية إلى الصواب إلى حد ما. ينظر إلى يوسف الحكيم، المصدر السابق، ص 229.

[2] زحلة: هي بلدة جيدة الهواء والماء قائمة على جانبي واد بهج ونهر البردوني يمر في وسطها، وموقعها في سهل البقاع قرب جبل لبنان، وأهلها جميعهم مسيحيون وموصوفون بالشجاعة والإقدام، وهي مركز تجاري هام، وفيها الكثير من الكنائس والمدارس الخاصة بالذكور والإناث، ويقصدها الكثير لقضاء فصل الصيف من مختلف المناطق، وماؤها عذب جدا وبها الكثير من أشجار الكروم، ومن مميزات أهلها أنهم مرحون ويحبون الضيف ويكرمونه. عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص112.

[3] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p440-441.

		هو 12ألف نسمة قبل 8 سنوات من قدوم جاكس بوراسي أي بزيادة 3000 نسمة حوالي 375 نسمة في السنة، وهي زيادة طبيعية مقبولة خاصة وأن تشارلز قد قال فيها إنها مدينة تترقى بسرعة[1].
لويس ماركت	1892	قدر لويس ماركت عدد سكان زحلة التي قال:"...هي مدينة صغيرة بكثافة تتراوح ما بين 15 إلى 20 ألف نسمة..."، وبالتالي المدينة عرفت استقرارا نسبيا في الزيادة السكانية في فترة تزيد عن 30 سنة[2].
ميشال جوليان	1893	توجه ميشال جوليان إلى تدعيم إحصائيات سابقيه، وذكر في رحلته أن عدد السكان في المدينة يبلغ حوالي 15 ألف نسمة[3].

مدينة صور هي من المدن الأقل كثافة سكانية في المنطقة، وقد عرفت هي الأخرى خلال القرن 19م استقرارا نسبيا في عدد السكان، ولم تكن هناك زيادة سكانية ملحوظة بها، وذلك استنادا إلى كتابات الرحالة الفرنسيين والتي جاءت كالتالي:

الرحالة	السنة	عدد السكان
لويس بينال	1853	مدينة صور هي مدينة صغيرة مقارنة ببقية المدن الشامية، وعدد سكانها قليل قدره لويس بينال بحوالي 2500 نسمة[4].
القس باسك	1855	يذكر القس باسك بأن عدد سكانها يقدر بحوالي 3000 نسمة

[1] تشارلز تشرشل، **بين الدروز والموارنة في ظل الحكم التركي من 1840 إلى 1860م**، تر: فندي الشعار، دار المروج، 1984م، ص 62.

[2] Louise marquette, op cit, p253.
[3] Michel Jullien, op cit, p166.
[4] Louis Bunel, op cit, p 277.

		أي بزيادة تقدر بحوالي 500 نسمة في سنتين، وهو إحصاء مقبول إلى حد ما[1]، والملاحظ من خلال الكتابات التاريخية المحلية أن عدد سكان المدينة بدأ يعرف وتيرة زيادة ملحوظة منذ منتصف القرن 19م، وقد وصل إلى حوالي 6000 نسمة[2].
فرانسوا لاكوست	1875	أصبح عدد سكان هذه المدينة في سنة 1875م حوالي أكثر من 5 آلاف نسمة حسب تقدير فرانسوا لاكوست أي بزيادة سكانية تقدر بحوالي 2000 نسمة في 20 سنة بمعدل زيادة 100 نسمة كل سنة، وهو رقم قريب لسابقه ويدعم واقع الزيادة السنوية القليلة المنتظمة[3].
لويس ماركت	1892	قدر الرحالة لويس ماركت عدد سكان مدينة صور بحوالي أكثر من 5000 نسمة، ويمكن أن تكون تقديرات الرحالة ناقصة ولهذا يقول أكثر بالتقريب، ومن هنا ندعم الإحصائيات السابقة التي تدل على استقرار نسبة النمو السكاني في المدينة، ومن الملاحظات التفصيلية التي ذكرها كذلك لويس ماركت في رحلته أن المسلمين يشكلون الغالبية في المدينة، وقدر عددهم بأكثر من نصف سكان المدينة أي حوالي 3000 نسمة[4].

[1] L'abbe becq, op cit, p225.

[2] رامي علي عيزوقي، المرجع السابق، ص 118.

[3] François Lacoste, op cit, p488.

[4] Louise marquette, op cit, p191.

للمزيد من المعلومات حول تطور عدد سكان مدينة صور خلال القرن 19م ينظر إلى الملحق رقم 17.

نختم هذا الجزء بالحديث عن مدينة صيدا التي شهدت تطورا سكانيا ملحوظا في القرن 19م، ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى أهمية موقعها التجاري مما أدى إلى تزايد عدد السكان بها، وإحصائيات الرحالة الفرنسيين جاءت كالتالي:

الرحالة	السنة	عدد السكان
لويس بينال	1853	الملاحظ من خلال كتابات الرحالة أن عدد السكان في صيدا خلال القرن 19م عرف تطورا ملحوظا ابتداءا من النصف الثاني من القرن، حيث يذكر لويس بينال أن عدد سكانها يبلغ حوالي 6000 نسمة[1] لكننا سنلاحظ بعدها زيادة ملحوظة في السنوات اللاحقة.
القس بينوت	1882	قدر القس بينوت عدد سكان المدينة بكثافة تتراوح ما بين 10 إلى 11 ألف نسمة، والزيادة هنا هي حوالي 5000 نسمة في 29 سنة نسمة، ويذكر أيضا أن المدينة تحتوي على عدد كبير من المسيحيين الذين قدرهم ما بين 4 إلى 5 آلاف نسمة[2]، ولكن من خلال مقارنة هذه الإحصائيات مع الإحصائيات الموجودة في سجل الإحصاء الرسمي العثماني نلاحظ تباينا كبيرا، إذ قدر عدد سكان المدينة فيها بحوالي 54384 نسمة منهم 27555 ذكور و 26829 إناث، وقسم الفئات على النحو التالي المسلمون 47058 والمسيحيون عددهم 6272 نسمة مقسمين إلى كاثوليك وموارنة وروم وبروتستانت، أما اليهود فعددهم 888 والأجانب 47، الشيء الوحيد المتطابق بين الكتابات الفرنسية والمحلية هو غالبية السكان المسلمين مقارنة مع بقية الفئات[3].

[1] Louis Bunel, op cit, p280.
[2] L'abbé bunote, op cit, p 284.
[3] رامي علي عيزوقي، المرجع السابق، ص 119.

لويس ماركت	1892	تزايد عدد سكان المدينة بعد 10 سنوات من زيارة القس بينوت بحوالي 1000 نسمة، وهو ما يثبته قول الرحالة لويس ماركت الذي يذكر في مذكراته أن عدد سكان مدينة صيدا بلغ في ذلك الوقت حوالي 12 ألف نسمة وذكر أيضا أن أغلبهم من المسلمين[1].

03- إحصائيات التطور بالمدن الشامية الجنوبية:

نبدأ دراسة هذه المنطقة بمدينة القدس وذلك لأنها أكبر مدينة في المنطقة من حيث عدد السكان، والملاحظ أنها عرفت تزايدا سكانيا كبيرا ومنتظما عبر عقود القرن 19م، والملاحظ كذلك من خلال كتابات الرحالة أن السبب الرئيسي لهذه الزيادة في الكثافة السكانية يعود لعدة عوامل منها: الهجرات المتنوعة نحوها لاسيما اليهودية[2]، وكذلك تطور الحياة الاقتصادية بسبب انفتاحها على الأجانب الذين أصبحوا يأتونها بكثرة خاصة في إطار الحج المسيحي، وذلك بعد التسهيلات

حتى إحصائيات السجلات الرسمية التابعة للدولة لا يمكن أن تكون صحيحة بنسبة كبيرة خاصة في القرن 19م، ويمكن إرجاع السبب الرئيسي لوجود هذه النسبية في التقدير هو أن الأهالي كانوا يتهربون من تسجيل أنفسهم من أجل تجنب أخذهم إلى الجندية وهربا من ضبط الضرائب. كاظم حسن جاسم الأسدي، المرجع السابق، ص ص 285 - 293.

[1] Louise marquette, op cit, p192.

[2] حاولت الدول الأوربية استقطاب اليهود من أجل استخدامهم في مشاريعها الاستعمارية، وكانت البداية في عهد نابليون بونابرت أثناء حملته على مصر وتوسعه في بلاد الشام 1799م، وقدم لهم عرضا يمكنهم من العودة إلى القدس ويكفل لهم بناء هيكل سليمان المزعوم مقابل مساعدتهم له وتأييد دولته في الشرق، وسلكت بريطانيا بعده نفس التوجه منذ أن أنشأت قنصليتها في القدس سنة 1838م، وعلى إثرها أصبح اليهود أحد الثوابت الأساسية في السياسة الاستعمارية البريطانية مما ساعد على تبلور النشاط الصهيوني ببريطانيا. هاينز أوفيشر، **الاستيطان اليهودي في فلسطين مراحله ومصاعبه**، تر تق: ناصر الدين سعيدوني ومعاوية سعيدوني، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر2013م، ص 16.

عرف العقدان الأخيران من القرن 19م هجرة كبيرة جدا لليهود نحو فلسطين قادمين من روسيا وأوربا الشرقية، وبدأت الوتيرة في التزايد حيث هاجر في سنة 1900م حوالي 5000 يهودي لفلسطين واستوطنوا 19 مستعمرة تقدر مساحتها بحوالي 275000 دونم . باميلا آن سميت، **فلسطين و الفلسطينيون 1876– 1983**، تر: الهام بشارة الخوري، دار الحصاد للنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سوريا 1991م، ص 24.).

إن تزايد عدد سكان فلسطين لا يرجع فقط لهجرة اليهود وإنما عرفت المنطقة توافد سكاني من مختلف المناطق مثل لبنان وشرقي الأردن والجزيرة العربية والبلقان والقوقاز و من الجزائر أيضا. مُحَّد رفيق التميمي، **فلسطين في نهاية العصر العثماني من خلال الرحلة التي قام بها مُحَّد رفيق التميمي ومُحَّد بهجت الكاتب**، در و تح: زهير عبد اللطيف غدايم ومُحَّد عبد الكريم محافظة، الشركة الجديدة للطباعة والتجليد، عمان 2000م، ص 15.

والامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية للدول الأوربية، وبالتالي استقطبت المدينة عناصر سكانية جديدة وافدة تبحث عن ظروف حياة أفضل، وتطور عدد السكان في القرن 19م حسب كتابات الرحالة هو كالتالي:

الرحالة	السنة	عدد السكان
إدوارد بلوندال	1838-1839	أشار إدوارد بلوندال في ملاحظاته إلى أن القدس مدينة ممتلئة بالسكان، وقدر عدد سكانها بحوالي15 ألف نسمة[1].
القس باسك	1855	عرف سكان مدينة القدس مع منتصف القرن 19م تزايدا نسبيا ملحوظا؛ إذ قدر الرحالة باسك عدد سكان مدينة القدس بحوالي 18 ألف نسمة أي بزيادة سكانية تقدر بحوالي 3000 نسمة في 16 سنة[2]، وقدم لنا الرحالة الفرنسي لاورتي الذي زار القدس في سنة 1854م تقديرا لعدد اليهود المقيمين بها حيث يقول:"...يقدر عدد السكان اليهود بالقدس ما بين 6000 و 8000 نسمة..."، وهو ما يبين لنا أن توافد اليهود للقدس بلغ مراحل متقدمة منذ النصف الثاني للقرن 19م، ويعود ذلك لعدة عوامل منها الدعم البريطاني[3].

[1] Eduard blondel, op cit, p215.
[2] L'abbe becq, op cit, p172.
[3] لورتي حجي. نقلا عن هاينز أوفيشر، المرجع السابق، ص 59.
يذكر شاهين مكاريوس في كتابه حسر اللثام عن نكبات الشام أن عدد اليهود في القدس والشريف ونواحيها بدءوا في التزايد بشكل ملفت مع منتصف القرن 19م، وقدر عددهم في بلاد الشام بصفة عامة بحوالي 100 ألف نسمة ويقول أيضا:"...هم يزيدون عدادا يوما بعد يوم لكثرة الذين يهاجرون لهذه البلاد منهم ولاعتقادهم أن هذه البلاد ستعود إليهم بعد حين، ويساعدهم أكابرهم

قافلة فرنسية للحج	1873	قدرت إحصائيات هذه القافلة الفرنسية عدد سكان القدس بحوالي 21 ألف نسمة[1] أي بزيادة مقدرة بحوالي 3000 نسمة في مدة 18 سنة وهو تطور منطقي مقارنة مع الإحصائيات السابقة، وذكرت هذه الرحلة أن سكان المدينة عبارة عن مزيج يتشكل من غالبية يهودية تقدر بحوالي8000 يهودي، وهو ما يدعم الإحصاء السابق الذي قدمه لاورتي حاجي عن عدد اليهود في سنة 1854م[2]، إضافة إلى ذلك

على شراء الأراضي وتعمير القرى والمدن، وقد صارت القدس ونواحي جبل الكرمل والناصرة جلها من أملاكهم وصاروا هم أصحاب النفوذ فيها... وينتظر أن يزيد عددهم زيادة كبرى في الأعوام القادمة...". شاهين مكاريوس، المصدر السابق، ص8.

من خلال هذه الملاحظات نلاحظ المكر الكبير لدى أكابر اليهود باعتمادهم على سياسة استيطانية خطيرة قائمة في الأساس على شراء الأراضي الزراعية، ثم يقومون بتمليكها للمستوطنين الجدد وبالتالي تمكنوا من وضع أسس متينة لمشروعهم المستقبلي وهو الاحتلال.

[1] قدر عدد سكان القدس حسب سالنامة في سنة 1872م 12620 نسمة وهو عدد أقل بكثير من تقديرات قافلة الحج الفرنسية التي زارت المدينة بسنة واحدة بعدها، ولكننا نرجح الكفة لإحصائيات القافلة الفرنسية وذلك إذا ما قمنا بمقارنتها بالإحصائيات التي قبلها وبعدها فهي أكثر منطقية، وكذلك نذكر إحصائيات الرحالة فوغيه في سنة 1872م الذي قدر عدد سكان المدينة بحوالي 26000 نسمة، وسبب عدم ميلنا أيضا لإحصائيات سالنامة هو أن هذه الإحصائيات لم تكن دقيقة لدرجة كبيرة فعدد كبير من السكان كان يتهرب من الإحصاء الذي تجريه الدولة خوفا من الضرائب ومن الخدمة العسكرية. سالنامة دولة عليت عثمانية لعام 1872م، نقلا عن عبد الكريم رافق، **فلسطين في عهد العثمانيين من مطلع القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر ميلادي إلى العام 1326هـ/1918م**، مستل من الموسوعة الفلسطينية، القسم الخاص، المجلد 02، 2016م، ص 907.

[2] تلقى اليهود بفلسطين دعما كبيرا من قبل بريطانيا منذ أوائل القرن 19م، وقد تمكن اليهودي البريطاني موسى مونتفيوري عام 1838م من تأسيس أول مستعمرة يهودية في فلسطين، وتمكن من استقطاب عدد مهم من اليهود وكان أغلبهم يعيشون في القدس، وتحولت حركة الهجرة اليهودية ظاهرة تثير الانتباه، وبدأت تتدفق جحافل يهودية من العديد من المناطق كأقاليم روسيا وبولندا ولتوانيا الخاضعة للقيصر والتي كانت تشكل احتياطيا إستراتيجيا للهجرة اليهودية عرف بالحظيرة الروسية. هاينز أوفيشر، المرجع السابق، ص ص12-13.

لعل القارئ لهذه النسب يرى شيئا كبيرا من المبالغة في عدد اليهود، ولكن يذكر عبد الكريم رافق استنادا إلى مجموعة من المعلومات التي استقاها من سجلات سالنامة ومصادر أخرى أن الزيادة بالنسبة لأعداد اليهود فاقت ما عداها بأشواط وتضاعفت بين عامي 1858م و 1872م بنسبة تقرب 64 بالمائة وهي زيادة كبيرة، ويذكر كذلك أن مدينة القدس عرفت في سبتمبر 1865م وباء الكوليرا وأخذ في الانتشار بسرعة، وهو ما دفع نصف سكان القدس للهرب وبالتالي فرغت المدينة من سكانها، ولعل اليهود قد بقوا

		يوجد 7000 مسلم، 1500 لاتيني، وكذلك الإغريق والأرمن وغيرهم، وهي أرقام في الحقيقة تبين لنا حقيقة التدفق اليهودي للمدينة منذ عهود متقدمة[1].
فيكتور بودوت	1882	قدر فيكتور عدد سكان القدس من 25 إلى 30 ألف نسمة بزيادة مقدرة بحوالي 6000 نسمة في 9 سنوات، وهو تزايد ملحوظ، ويقول في ملاحظاته: "... ويبلغ عدد سكان القدس من 25 إلى 30 ألف نسمة منهم 13000 مسلما و7000 مسيحيا و5000 يهوديا..."[2].
ليوني دو بازولار	1889	يقول ليوني في كتابه المعنون بركوب إلى فلسطين حول عدد السكان بالقدس: "...يبلغ عدد سكان القدس 120 ألف نسمة عندما زارها الإسكندر

في ديارهم خوفا من الخروج وعدم الرجوع ولذلك نقول ربما تكون زيارة قافلة الحج الفرنسية قد تزامنت مع فترة فراغ المدينة من أغلبية أهلها المسلمين ولذلك التقدير كان كذلك. عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص909.

[1] Caravane française de 1873 bonheur et facilité du pèlerinage de Jérusalem et Bethléem, op cit, p 172.

حسب تقرير الذي قدمه نائب قنصل بريطانيا بالقدس أنداك في أواخر النصف الثاني من القرن 19م كان عدد اليهود الذين يقطنون بالقدس حوالي 9700نسمة، وبالتالي من خلال هذه الإحصائيات نلاحظ أن عدد اليهود كان كبير بالمدينة بمعدل حوالي 8000 نسمة من مجموع 21000 نسمة حوالي الثلث، والسبب الرئيسي في ذلك هو الهجرات الضخمة لفلسطين. عبد الوهاب الكيالي، المرجع السابق، ص 17.

[2] Victor baudot, op cit, p71.

عرفت سنة 1881م ترحيل عدد مهم من اليهود الروس إلى بلاد الشام عامة وإلى فلسطين خاصة، وكان ذلك في عهد الإسكندر الثالث الذي اتهم اليهود بالتورط في قتل أبيه الإسكندر الثاني خاصة وأن عدد كبير من المثقفين اليهود كانوا ينشطون في التنظيمات الثورية الروسية المعادية للقيصرية، وقد ولدت هذه الظروف رد فعل من قبل اليهود وتولد لديهم إحساس بالعزلة و رغبة في التكتل القومي، فأصدر على إثرها ليون بنسكر كتاب التحرير الذاتي في 1882م الذي نادى فيه بوطن قومي لليهود وتأسست في نفس السنة جمعية عشاق صهيون والتي دعت لهجرة اليهود إلى فلسطين، ولعبت دورا كبيرا في تشكيل النواة الأولى للمهاجرين اليهود إلى فلسطين. هاينز أوفيشر، المرجع السابق، ص ص 11-12.

		الأكبر، أما اليوم فعدد سكانها حوالي 43 ألف نسمة وهي مزيج من الطوائف المختلفة، اليهود 28 ألف نسمة!، والمسلمون 21000 نسمة، والطوائف المسيحية المنشقة أو غير الموحدة 7500 نسمة، و 5000 مسيحي منشق..."[1]، ونلاحظ من خلال تقديراته تزايد عدد سكان القدس بحوالي 16000 نسمة في مدة 7 سنوات وهو تطور ملحوظ، ولكن نقول أن هذه الإحصائيات تقدم مغالطات تاريخية حول عدد اليهود، فمن غير المعقول أن يتجاوز عدد اليهود عدد السكان المسلمين ولو أخذنا بعين الاعتبار عمليات الترحيل القسرية التي شهدها اليهود من روسيا ومن مختلف أنحاء العالم، لاسيما وأن السلطان العثماني عبد الحميد في هذه الفترة قد حارب المشروع الصهيوني وحارب الهجرة، وقال في هذا الصدد:"إذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقا علينا أن نصرف النظر عن فكر توطين المهاجرين في فلسطين، وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضا تملكوا كافة قدراتها...".
القس أ .بارود	1891	قدر القس بارود إجمالي عدد سكان القدس بحوالي 60 ألف نسمة، وبالتالي الزيادة تبلغ 17000 نسمة في سنتين، وذكر أن سكان المدينة خليط من اليهود والمسيحيين المنشقين واليونانيون والأرمن

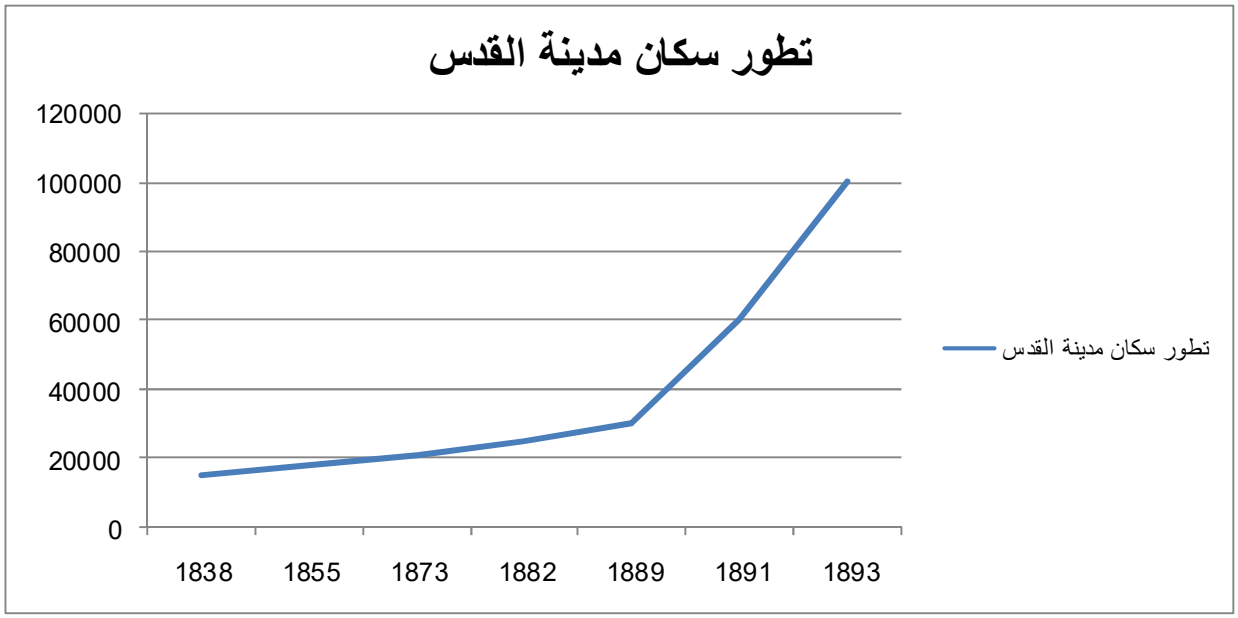
[1] Léonie de bazelaire, op cit, p116.

		يقدر عددهم حوالي 8000 نسمة، ويوجد بها كذلك حوالي 2500 كاثوليكي[1]، وقال:"...عدد اليهود في القدس يبلغ 5200 ويوجد حوالي 6000 مسلم و 230 يوناناي متحدا و 10 لاتين..."[2]، وأشار القس بارود إلى تزايد عدد اليهود في القدس حيث يقول: "... إن اليهود يتدفقون في الوقت الحالي إلى القدس من كل أنحاء العالم وهم يشكلون كثافة سكانية معتبرة..."[3] ، ومن خلال ملاحظاته نقول أن تقديره لعدد اليهود كان أكثر منطقية من سابقه وهو ليوني دو بازولار الذي بالغ كثيرا، ولكن على العموم الهجرة اليهودية لفلسطين في هذا القرن كانت جد معتبرة.
بيار لويس بيشونارد	1893	ذهب بيار لويس إلى المبالغة في تقدير عدد اليهود بالقدس وتدعيم أقوال سابقيه بكثرة عددهم في فلسطين مقارنة مع بقية الفئات الأخرى المكونة لمجتمع مدينة القدس، ويقول في ذلك:"...يعتقد اليهود أنهم في بيتهم بالقدس، ويمكن أن يكون عددهم حوالي 70 ألف وعدد السكان العام بالقدس 100 ألف نسمة..."[4]، وهو عدد مبالغ فيه كثيرا.

[1] L'abbe a. parraud, op cit, p223.
[2] L'abbe a. parraud, ibid, p104.
[3] ibid, p222.
[4] Pierre louis péchenard, op cit, p291.

تتناقض هذه الإحصائيات تماما مع التقديرات الرسمية للدولة العثمانية في أول إحصاء رسمي لعدد سكان المدينة من حيث الديانات ومن حيث عدد الذكور والإناث فهي إحصائيات مفصلة، وتتقارب مع إحصائيات بيار لويس في العدد العام فقط حيث قدر عدد سكان المدينة بحوالي 100 ألف أما الإحصائيات الرسمية فقدرتهم ب 81059 نسمة، أما بالنسبة للتقسيم الديني فقد ذكر بيار

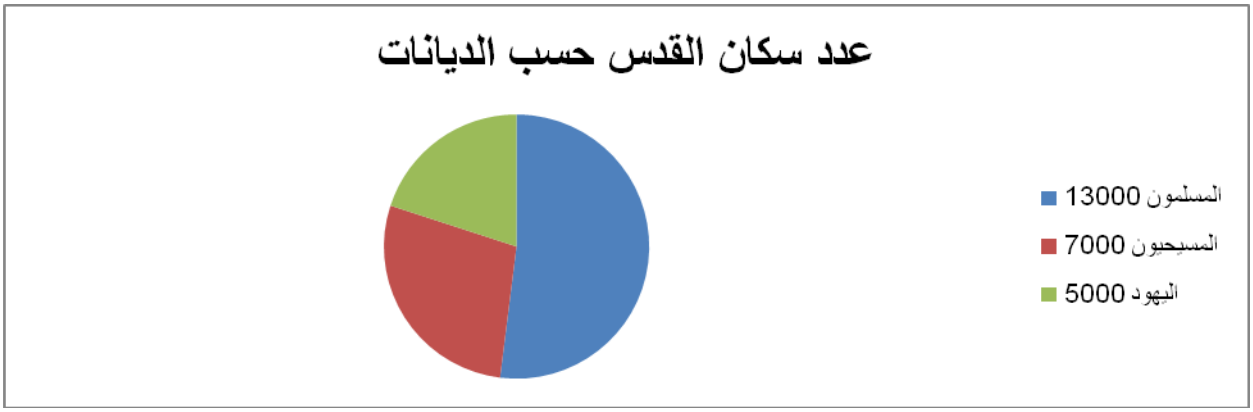
- منحنى بياني يبين تطور عدد سكان مدينة القدس في القرن 19م:



المنحنى البياني يوضح مباشرة لنا الانفجار الديموغرافي الذي عرفته مدينة القدس خلال القرن 19م، وقد عرفت القدس نقلة نوعية في عدد السكان خاصة مع النصف الثاني للقرن 19م، ويعود ذلك لعدة أسباب وأبرزها هي كونها مدينة مقدسة لدى المسلمين والمسيحيين واليهود، وبالتالي كانت مركز استقطاب بشري بامتياز.

- دائرة نسبية تبين عدد سكان مدينة القدس حسب الديانات بتقدير الرحالة فيكتور بودوت 1889م:

لويس أن عدد سكان المدينة اليهود يقدر ب 70 ألف نسمة من 100 ألف نسمة أي بنسبة 70 بالمائة من العدد العام، أما إحصائيات الدولة الرسمية فقد قدرت عدد يهود المدينة في سنة 1893م 7070 نسمة منهم 3535 إناث و 3570 ذكور أي بنسبة 8.72 بالمائة، والمسلمون عددهم 54364 نسمة منهم 26317 إناث و 28047 ذكور أي بنسبة 67.06 بالمائة من الكثافة العامة، والبقية مقسمة على الطوائف المسيحية، ويتعجب الباحث عبد الكريم رافق عن إحصاء عدد اليهود ويرى بأنه غير منطقي فيقول:"...يبدو أن الإحصاء الرسمي لسنة 1893م لم يلحظ إطلاقا تدفق المهاجرين اليهود إلى فلسطين في أعقاب هجراتهم الكبيرة، وبخاصة بدأ من العام 1882م وتملكهم الأراضي والإقامة في فلسطين، فهل أغمض القائمون بالإحصاء أعينهم عن هؤلاء المهاجرين الكثر أم أنهم اعتبروا دخولهم غير شرعي...". نقلا عن عبد الكريم رافق، **فلسطين في عهد العثمانيين..**، المرجع السابق ، ص ص 914-915.



الملاحظ من خلال إحصاء فيكتور بودوت أن عدد سكان القدس المسلمين يشكل الغالبية من عدد سكان المدينة، والملاحظ كذلك هو وجود نسبة معتبرة من المسيحيين لاسيما وأن أغلب مقدساتهم الدينية موجودة بالمدينة وعلى رأسها كنيسة القيامة والتي بداخلها القبر المقدس حسب زعمهم، وكذلك نلاحظ خلال هذا القرن التزايد المستمر لعدد المهاجرين اليهود الذين استقروا قرب وادي قدرون وبنو فيه مدنا قصديرية، وتزايدهم كان منتظما بالرغم من منعهم من الهجرة إليها ودخول أراضيها خاصة في عهد السلطان عبد الحميد، لكنهم كانوا يتسللون إلى المدينة مشيا على الأقدام دون أن تتفطن لهم السلطات، وتمكنوا من تأسيس مستعمرات كانت كبداية لقوة بشرية استعملتها في ما بعد الحركة الصهيونية لتجسيد أهدافها الاستعمارية.

شمال مدينة القدس توجد مدينة الناصرة التي تحتوي على كثافة سكانية معتبرة، والملاحظ أنها عرفت تطورا نسبيا خلال القرن 19م، لكنه ليس كبير مقارنة مع المدن الشامية الأخرى التي عرفت زيادة ملحوظة، والتطور السكني بها كان على الشكل التالي:

الرحالة	السنة	عدد السكان

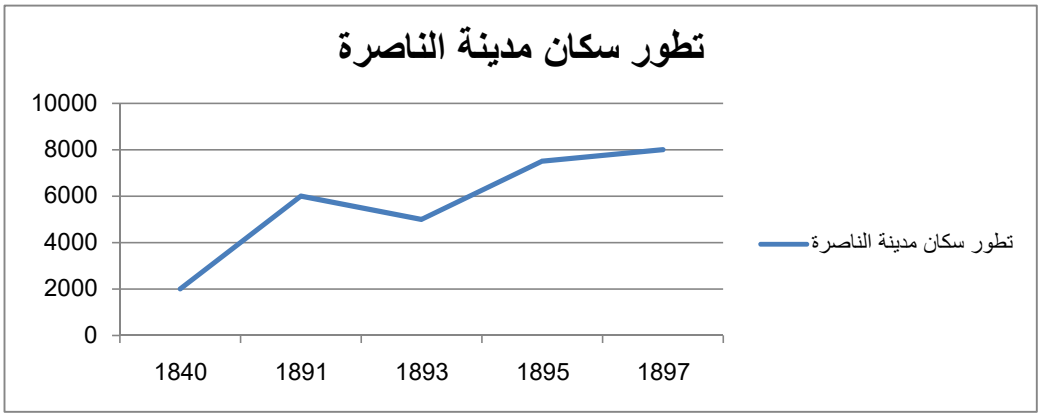
إدوارد بلوندال	1840	لاحظ إدوارد بلوندال أن مدينة الناصرة قليلة الكثافة السكانية مقارنة مع المدن التي سبق ذكرها، وقدر عدد سكانها بحوالي 500 إلى 2000 نسمة[1].
القس أ. بارود	1891	قدر القس بارود عدد سكان الناصرة بحوالي 6000 نسمة أي بزيادة مقدرة بحوالي أكثر من 4000 نسمة في 51 سنة، وهو تزايد بطيء مقارنة مع المدن الكبرى الأخرى التي عرفت تزايدا سكانيا كبيرا، ويذكر بارود أن منهم 2500 إما كاثوليك لاتين أو يونانيون أو مارونيون إضافة إلى 1000 يوناني منشق، وحوالي 100 بروتستانتي، وقدر عدد المسلمين بالمدينة بحوالي 1500 مسلم أي أنهم يمثلون ربع سكان المدينة[2]، وإذا ما قارنا إحصاء بارود مع إحصاء الألماني شوماخر الذي زار المدينة في سنة 1886م نلاحظ تقاربا كبيرا جدا حيث قدر عدد السكان بحوالي 6575 نسمة، ومن هنا نلاحظ أن المدينة عرفت استقرارا سكانيا واضحا مع النصف الثاني من القرن 19م[3].
مارتين دونوس	1893	ذهب الرحالة مارتين دونوس إلى تدعيم التقدير السابق لعدد السكان وقال:"...عدد سكان الناصرة يقدر بحوالي أكثر من 5 آلاف نسمة..."، وبالتالي نلاحظ أنها شهدت استقرارا نسبيا في عدد السكان خلال الفترة الفاصلة بين زيارة الرحالين، وذكر مارتين تفصيل سكان المدينة من حيث الديانة فيقول:"...تحتوي مدينة الناصرة على مزيج منهم 1200 مسلمين، 700 يوناني متحد،

[1] Eduard blondel, op cit, p203.
[2] L'abbe a. parraud, op cit, p 86.
[3] شوماخر، نقلا عن عبد الكريم رافق، **فلسطين في عهد العثمانيين** ...، المرجع السابق، ص 908.

		1000 يونانيا منشق، 1000 لاتينيا، 350 مارونيا، 150 بروتستانتيا..."[1]، وملاحظاته تدعم ملاحظات الرحالة بارود التي تذهب إلى القول أن عدد المسيحيين في مدينة الناصرة أكثر من عدد المسلمين.
م م ب ف	1895	قدرت إحصائيات هذا الرحالة عدد سكان الناصرة بحوالي 7500 نسمة، أي بزيادة طبيعية تصل إلى 2500 نسمة في فترة سنتين، وهي زيادة معتبرة إذا ما قارناها بسابقتها، وذهب هو كذلك إلى تفصيل سكان المدينة حسب الديانة فيذكر أن منهم 1850 مسلما و 1000 يوناني متحد و 1350 لاتينيا و 250 مارونيا و 200 يروتستانتي[2]، ومنه نستنتج أن غالبية سكان مدينة الناصرة كانوا من المسيحيين.
فرمين روزي	1897	قدر الرحالة فرمين روزي عدد سكان الناصرة في أواخر القرن 19م بحوالي 8000 نسمة أي بزيادة حوالي 500 نسمة في سنتين، وهو تقدير مقبول[3]، وبالتالي نستخلص أن مدينة الناصرة هي الأخرى عرفت زيادة سكانية منتظمة وأقل مقارنة مع المدن الكبرى كدمشق وحلب و بيروت خلال القرن 19م.

- منحنى بياني يوضح تطور عدد سكان مدينة الناصرة خلال القرن 19م:

[1] Martin donos, op cit, p 117.
[2] M m p v, op cit, p208.
[3] Firmin rauzy, op cit, p 29.



مدينة نابلس هي الأخرى كبقية المدن الشامية شهدت تزايدا سكانيا ملحوظا مع القرن 19م، وهي مدينة يغلب عليها العنصر السكاني المسلم مقارنة مع بقية العناصر الأخرى، وقد عرفت هي الأخرى تطورا اقتصاديا بسبب وقوعها ضمن مسار طريق الحج المسيحي، ويمكن أيضا أن التطور راجع إلى هجرة السكان من الريف إلى المدينة بحثا عن حياة أفضل، وذلك لأن الريف عرفت مظاهر أللاستقرار بسبب انعدام الأمن وكثرة الضرائب وتعاقب فترات الجفاف، وسنذكر الإحصائيات السكانية التي قدمها الرحالة الفرنسيون حول المدينة بالتفصيل وهي كالتالي:

الرحالة	السنة	عدد السكان
إدوارد بلوندال	1840	قدر الرحالة الفرنسي بلوندال عدد سكان نابلس بحوالي 12000 نسمة، ويقول:"... إنها مدينة ذات طابع إسلامي إذ يشكل بها المسلمون الغالبية القصوى مقارنة بالمسيحيين الذين يبلغ عددهم حوالي 100 مسيحي فقط..."[1].
القس باسك	1855	ذهب القس باسك الذي زار نابلس بعد 15 سنة من زيارة بلوندال إلى تقدير عدد سكان مدينة نابلس بحوالي

[1] Eduard blondel, op cit, p208.

		12000 نسمة، وبالتالي عرفت المدينة استقرارا في عدد السكان، ولا توجد زيادة ملحوظة في 15 سنة الفاصلة بين الرحلتين، وأكد القس باسك رأي سابقه على أن غالبية سكان المدينة هم من المسلمين[1].
جين ليان	1882	عرفت مدينة نابلس تزايدا سكانيا ملحوظا في النصف الثاني من القرن 19م، وهو الأمر الذي تؤكده ملاحظات الرحالة جين ليان الذي قدم إحصائيات حول المدينة يقول فيها: "... يتراوح عدد سكان مدينة نابلس ما بين 16 إلى 20 ألف نسمة منهم 90 كاثوليكي..."[2]، وبالتالي الزيادة السكانية بها بلغت حوالي 4000 نسمة في مدة 27 سنة وهي زيادة معتبرة.
القس خ ه لسبيناخ	1885	نفس التقدير ذهب إليه القس لسبيناخ الذي زار المدينة بعد 3 سنوات حيث يقول: "يوجد بالمدينة أكثر من 16 ألف نسمة منهم 100 كاثوليكي، 300 لاتيني، 600 يوناني، وبعض اليهود والبقية مسلمون"[3]، وبالتالي نلاحظ وجود استقرار وكذلك تدعيم لرأي سابقيه حول غالبية السكان المسلمين في المدينة، ونلاحظ كذلك أنه هو أول من تحدث عن وجود اليهود بالمدينة ولعله

[1] L'abbe becq, op cit, p179.
[2] Jean lian, op cit, p43.

للمزيد من المعلومات ينظر إلى الملحق رقم 18.

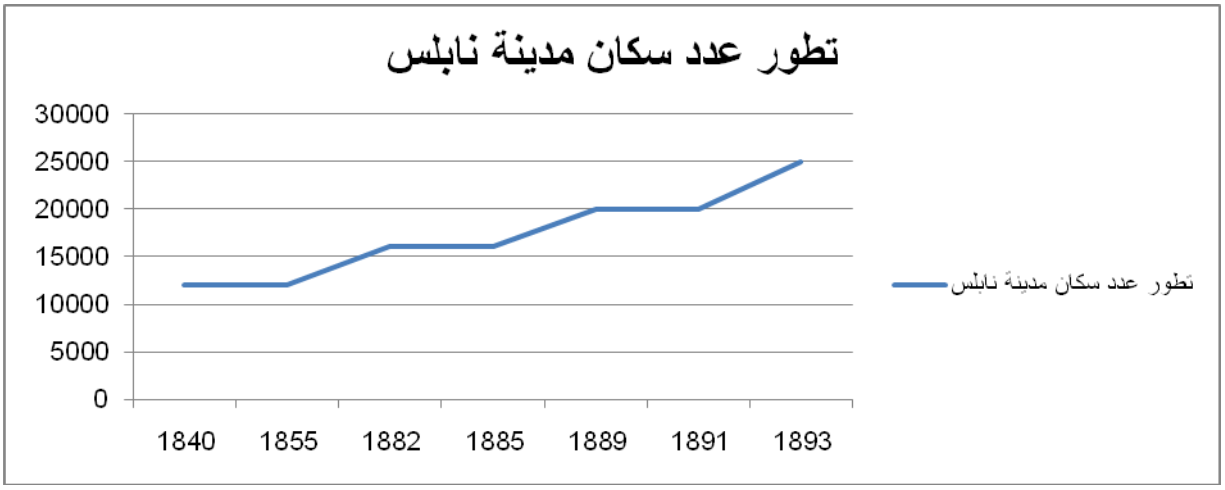
قدم الرحالة الفرنسي نيجيهولت تقديرا لعدد سكان المدينة في سنة 1868م وذكر أن عددهم 16050 نسمة، والفارق بين الرحلتين هو 17 سنة وجيان ليان ذكر أن عدد سكان المدينة يتراوح بين 16 و 20 ألف نسمة وإذا أخذنا بمتوسطه نقدر عدد سكان المدينة بحوالي 18000 نسمة وبالتالي زيادة مقدرة بحوالي 2000 نسمة في 17 سنة وهي زيادة معقولة جدا. نيجيهولت، نقلا عن عبد الكريم رافق، **فلسطين في عهد العثمانيين** ...، المرجع السابق، ص 907.

[3] L'abbé jh lespinasse, op cit, p175.

		بداية لاستيطان نسبي بالمدينة مقارنة بمدينة القدس.
ليوني دو بازولار	1889	بلغ عدد سكان مدينة نابلس خلال هذه السنة 20 ألف نسمة حسب الرحالة ليوني، وهو ما يدعم إحصائيات سابقيه ولاحقيه ويعطيها نوعا من المنطقية النسبية[1].
القس أ . بارود	1891	ذكر القس بارود أن مدينة نابلس هي ذات أهمية كبيرة، وقال أنها تحتل المرتبة الأولى بعد مدينة القدس في المدن الفلسطينية، وقدر هو أيضا عدد سكانها بحوالي 20 ألف نسمة[2].
مارتن دونوس	1893	شهدت نابلس تزايدا ملحوظا في عدد السكان حيث يذكر مارتن دونوس أن عدد سكانها يقدر بحوالي أكثر من 25 ألف نسمة وبالتالي زيادة سكانية مقدرة بحوالي 5000 نسمة، وهو تقدير مقبول مقارنة مع تقديرات سابقيه الرحالة ليوني والقس بارود فمن غير المعقول أن تبقى الكثافة السكانية بالمدينة مستقرة لأكثر من 10 سنوات، وذهب مارتن دونوس إلى تدعيم سابقيه في ما يخص سيطرة المسلمين على المدينة، ولكنه قال أن عدد اليهود أكثر من المسيحيين الذين يبلغ عددهم 250 مسيحي فقط[3]، وذكر أيضا وجود عدد معتبر من السامريين قدرهم بحوالي 150 شخص[4].

[1] Léonie de bazelaire, op cit, p96.
[2] L'abbe a. parraud, op cit, p126.
[3] Martin donos, op cit, p160.
[4] Martin donos, ibid, p164.

- منحنى بياني يوضح تطور عدد سكان مدينة نابلس خلال القرن 19م:



جنوب بيت المقدس تقع مدينة بيت لحم التي تعتبر من أهم المدن الشامية الواقعة في الجنوب، ويعود ذلك نظرا لما لها من أهمية وقدسية دينية كبيرة، وهو ما جعلها محطة لتوافد العديد من السكان الذين استقروا بها، وبالتالي عرفت تزايدا سكانيا ملحوظا في القرن 19م وهو موضح في الجدول التالي:

الرحالة	السنة	عدد السكان
إدوارد بلوندال	1838-1839	تعد مدينة بيت لحم من المدن الشامية المتوسطة الكثافة السكانية، وقد قدر الرحالة الفرنسي إدوارد بلوندال عدد سكانها أثناء زيارته لها بحوالي 2000 نسمة[1].
ليون دو بازولار	1889	نستنتج من خلال ملاحظات بازولار أن مدينة بيت لحم صغيرة ومتواضعة مقارنة ببقية المدن، وذكر في رحلته أن عدد سكانها حوالي 6000 نسمة، وبالتالي عرفت الكثافة السكانية بها زيادة عامة تقدر بحوالي 4000 نسمة في فترة

قدرت الإحصائيات العثمانية الرسمية عدد سكان قضاء نابلس ب 32030 نسمة وهو رقم قريب جدا من إحصاء مارتن دونوس إذا ما قارنا ظروف إنجاز هذا الإحصاء، بحيث تبقى إحصائيات الرحالة دائما تقريبية على حسب مدة الإقامة أو على حسب الوسائل التي اعتمدوا عليها في إجراء هذه الإحصائيات. مُحَمَّد رفيق التميمي، المصدر السابق، ص 16.

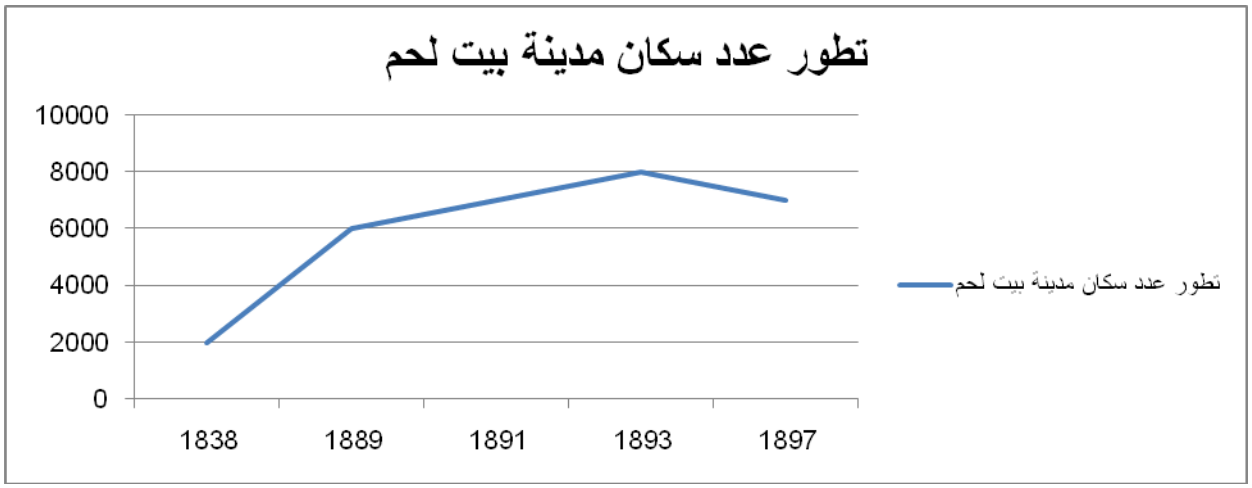
[1] Edouard blondel, op cit, p233.

		تزيد عن 50 سنة، وهي زيادة متوسطة وبطيئة إذا ما قارنها بالزيادة السكانية في بقية المدن الشامية[1].
القس أ. بارود	1891	لعل قرب المدينة من القدس جعل الكثافة متوسطة مقارنة بالمدينة الكبرى التي تجذب السكان لعدة عوامل، وقدر القس بارود عدد سكانها بحوالي 7000 نسمة أي بزيادة سكانية تقدر بحوالي 1000 نسمة في فترة سنتين وهي نسبة معتبرة إذا ما قارناها بسابقتها، ولاحظ أنها مدينة ذات طابع مسيحي إذ يذكر أنها أكبر مركز لتجمع الكاثوليك في جميع أنحاء فلسطين، وقدر عددهم بحوالي 5000 نسمة، وهو عدد هام مقارنة مع عدد سكان المدينة، ومن هنا نستنتج أن للمدينة طابع مسيحي[2].
بيار لويس بيشونارد	1893	يذكر بيار لويس أن عدد سكان بيت لحم في سنة زيارته يقدر بحوالي 8000 نسمة، ونلاحظ هنا زيادة سكانية مقدرة بحوالي 1000 نسمة في فترة سنتين، وإذا لاحظنا مقارنة مع سابقتها نجد نفس نسبة الزيادة، ومن هنا نقول أن الزيادة الطبيعية بالمدينة مستقرة إلى حد ما، وأكد بيار هو الآخر أن أغلب سكانها مسيحيين من الكاثوليك وذكر أنه يوجد بها حوالي 100 مسلم وقال أنه لا يوجد بالمدينة يهودي واحد[3].
فرمين روزي	1897	اتفق تقريبا فرمين مع سابقيه في إحصاء عدد سكان المدينة، وقدر أن عدد سكان بيت لحم يبلغ حوالي أكثر من

[1] Léonie de bazelaire, op cit, p190.
[2] L'abbe a. parraud, op cit, p198.
[3] Pierre louis péchenard, op cit, pp174-175.

		7000 نسمة، وجميعهم مسيحيون تقريبا ومذهبهم السائد هو الكاثوليكي، ونفى هو الآخر وجود اليهود في المدينة بل ذكر أيضا أنه لا يوجد ولا يهودي واحد يعيش وسط المدينة[1].

- منحنى بياني يوضح تطور عدد سكان مدينة بيت لحم خلال القرن 19م:



نلاحظ من خلال الجدول الإحصائي والمنحنى البياني أن مدينة بيت لحم هي الأخرى قد عرفت زيادة سكانية ملحوظة كغيرها من المدن الشامية الأخرى، خاصة مع أواخر القرن 19م، وهي مدينة عرفت أيضا توافد العديد من الأجانب كونها مدينة مقدسة وتمتلك مؤهلات طبيعية واقتصادية جعلتها محطة استقطاب.

نذهب إلى إحصائيات السكان لمدينة جنين من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن 19م، والتي جاءت كالتالي:

الرحالة	السنة	عدد السكان
القس باسك	1855	جنين هي بلدة صغيرة وعدد سكانها متوسط حسب تقدير القس باسك الذي يذكر أن عددهم حوالي 1000 نسمة، ويذكر في رحلته أن غالبية سكان

[1] Firmin rauzy, op cit, p148.

		المدينة يعتنقون الدين الإسلامي[1].
قافلة فرنسية للحج	1873	عرفت المدينة تزايدا سكانيا مقبولا مع النصف الثاني من القرن 19م، وقدرت إحصائيات القافلة الفرنسية الحجية لعام 1873م عدد سكانها بحوالي 3000 نسمة أي بزيادة 2000 نسمة في 18 سنة، وأكدت مقولة القس باسك بأن أغلبية سكان المدينة مسلمون ما عدا عائلتين كاثوليكيتين[2].
مارتن دونوس	1893	قدر مارتن دونس سكان المدينة بحوالي 5000 نسمة أي بزيادة مقدرة بحوالي 2000 نسمة في فترة 20 سنة، وهو ما يؤكد أن المدينة عرفت زيادة سكانية منتظمة، وأكد كذلك أن جل سكان المدينة مسلمون وأشار أيضا أنه لا يوجد بها سوى عائلتين كاثوليكيتين مما يؤكد صحة الإحصائيات المقدمة[3].

مدينة يافا تعتبر هي الأخرى تعد من أهم المدن الشامية، ويعود ذلك لامتلاكها مقومات طبيعية هائلة، فهي تطل على البحر الأبيض المتوسط في جهتها الغربية، وتحيط بها مناطق زراعية كبيرة مزروعة، شتاؤها دافئ و صيفها حار رطب، وبها كثافة سكانية معتبرة خاصة وأنها قريبة من مدينة القدس وهي بمثابة الميناء الوحيد لها[4]، كل هذه العوامل ساهمت في تزايد الكثافة السكانية بها خلال القرن 19م، والإحصائيات الخاصة بالمدينة هي موضحة في الجدول التالي:

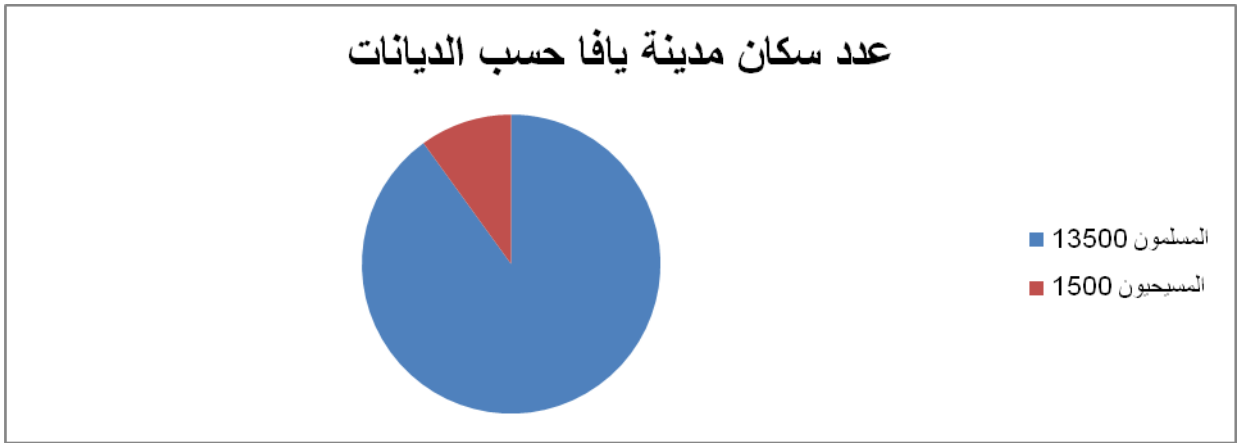
الرحالة	السنة	عدد السكان

[1] L'abbe becq, op cit, p187.
[2] Caravane française de 1873 bonheur et facilité du pèlerinage de Jérusalem et Bethléem, op cit, p194.
[3] Martin donos, op cit, p150.
[4] يوسف الحكيم، المصدر السابق، ص 202.

ليوني دو برادزالي	1889	توجد في مدينة يافا كثافة سكانية معتبرة قدرها ليوني دو برادزالي بحوالي 13000 نسمة، وأشار في كتابه أن من بين سكان المدينة يوجد 1200 لاتيني ويوناني متحدون أما البقية الغالبة فهي مسلمة[1].
مارتن دونوس	1893	الملاحظ تزايد سكان المدينة بحوالي 2000 نسمة في مدة 4 سنوات حسب تقدير مارتن دونوس الذي ذكر أن عدد سكان مدينة يافا يبلغ حوالي 16 ألف نسمة[2]، ونفس الإحصاء تقريبا ذكره الرحالة بيار لويس بيشونارد الذي زار المدينة في نفس السنة، والذي قدر هو الآخر عدد سكانها بحوالي أكثر من 15000 نسمة[3].

- دائرة نسبية تبين عدد سكان مدينة يافا حسب الديانات بتقدير الرحالة الفرنسي بيار لويس 1893م:

[1] Léonie de bazelaire, op cit, p254.
[2] Martin donos, op cit, p265.
[3] Pierre louis péchenard, op cit, p 84.
من خلال إحصائيات قدمها لنا يوسف الحكيم الذي عاصر مطلع القرن 20م نلاحظ أن عدد سكان المدين عرف تزايدا كبيرا جدا، وعرف قفزة نوعية من 15000 نسمة في أواخر القرن 19م إلى أكثر من 70000 نسمة في سنة 1910م، ويقول الكاتب أن جلهم من اليهود المهاجرين إضافة إلى السكان المحليين والعثمانيين. ينظر إلى يوسف الحكيم، المصدر السابق، ص 202.



مدينة حيفا هي الأخرى تعد من أبرز المدن الشامية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وتحتل موقعا جغرافيا هاما جعلها محل استقطاب، وتطور عدد السكان فيها لم يكن كبيرا خلال القرن 19م بل الملاحظ أنه عرفت استقرارا نسبيا، وهو ما تثبته كتابات الرحالة الفرنسيين التي جاءت على الشكل التالي:

الرحالة	السنة	عدد السكان
جين ليان	1882	قدر جين ليان عدد سكان حيفا بحوالي 6000 نسمة، وذكر أن منهم حوالي 1000 كاثوليكي[1].
القس أ . بارود	1891	تزايد عدد سكان حيفا بعد 9 سنوات من رحلة جين ليان بحوالي 4000 نسمة حسب إحصائيات القس بارود الذي ذكر أن عدد سكان كيفا يبلغ حوالي 10 آلاف نسمة، والملاحظ في إحصاءاته تزايد عدد الكاثوليك بالمدينة الذين قدرهم بحوالي 4200 نسمة[2].
بيار لويس بيشونارد	1893	قدر الرحالة بيار لويس عدد سكان المدينة بحوالي 6000 نسمة، ويذكر في رحلته أن منهم 4000

[1] Jean lian, op cit, p 26.
[2] L'abbe a. parraud, op cit, p244.

		مسيحي وحوالي 2000 من الكاثوليك واليونانيين المتحدين واللاتينيين والمارونيين[1]، ونلاحظ من خلال هذا الإحصاء تراجعا سكانيا كبيرا في السنتين الفاصلتين بين الرحلتين يقدر بحوالي 4000 نسمة.

4- مدن أخرى:

المدينة	الرحالة	السنة	عدد السكان
تدمر	جول قزافي ساقوز دو فروفري	1848	قدر جول قزافي عدد سكان المدينة بحوالي 500 أو 600 شخص[2].
صفد	القس جيان جاك بوراسي	1860	بلغ عدد سكان مدينة صفد حوالي أكثر من 10 آلاف نسمة حسب تقدير القس جيان[3].
حمص	ليون بول	1865	تعتبر مدينة حمص من المدن الشامية التي تعرف تركزا سكانيا معتبرا، وللأسف لم نجد سوى الإحصاء الذي قدمه الرحالة ليون بول في سنة 1865م، وقد قدر عدد سكانها بحوالي 20 ألف نسمة،

[1] Pierre louis péchenard, op cit, p91.
[2] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, p90.
[3] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p412.

إذا ما قارنا إحصائيات القس جين جاكس مع الإحصائيات الرسمية المقدمة في سجلات سالنامة الرسمية نلاحظ تقارب كبير جدا في الأرقام، وقدرت الإحصائيات الرسمية عدد سكان المدينة في سنة 1871م بحوالي 12475 نسمة. سالنامة دولة عليت عثمانية لعام 1872م، نقلا عن عبد الكريم رافق، **فلسطين في عهد العثمانيين** ...، المرجع السابق، ص 908.

			وذكر أن منهم حوالي 17 ألف مسيحي يوناني[1].
بعلبك	القس جوزيف أيشمان	1874	الكثافة السكانية ببعلبك متوسطة، ويبلغ عدد سكانها حوالي 5 آلاف نسمة حسب تقدير القس جوزيف[2].
عكا	فرانسوا لاكوست	1875	يبلغ عدد سكان مدينة عكا 8 آلاف نسمة حسب ما ذكره الرحالة فرانسوا لاكوست، وذكر كذلك في رحلته التقسيم التالي: 700 كاثوليكي، 1700 منشق يوناني، 90 يهوديا، 5500 مسلم، وبالتالي هي مدينة ذات طابع إسلامي[3]، وقد قدر الألماني شوماخر الذي زار المدينة في سنة 1886م عدد السكان بها بحوالي 9800 نسمة، وبالتالي زيادة مقدرة بحوالي 1800 نسمة، وهو ما يدل على أن المدينة عرفت تزايدا سكانيا كبيرا مع نهاية القرن 19م[4].

[1] Léon Paul, op cit, p179.
[2] L'abbé Joseph eschemann, op cit, p255.
[3] François Lacoste, op cit, p 487.
عرف عدد سكان مدينة عكا تزايد سريعا مع أواخر القرن 19م وبداية القرن 20م وذلك استنادا للإحصائيات الرسمية العثمانية، وقد قدرت عدد سكان المدينة في سنة 1893م ب 26610 نسمة وارتفع في سنة 1914م ليصل إلى 41290 نسمة. مُحَمَّد رفيق التميمي، **فلسطين**...، المصدر السابق، ص 17.
[4] شوماخر، نقلا عبد الكريم رافق، **فلسطين** ...، **المصدر نفسه**، ص

أريحا	جيان ليان	1882	قدر الفرنسي جيان ليان عدد سكان مدينة أريحا بحوالي 5600 نسمة، وقال أن منهم 3000 كاثوليكي[1].
الخليل	ليوني دو بازولار	1889	يقول ليوني دو بازولار في كتابه: "... هي مدينة بسيطة بدأت في النمو وذلك بسبب وقوعها في مكان تجاري هام و هو الطريق الرابط بين مصر والشرق، وهي مدينة لا تجد فيها أي مسيحي، وعدد سكانها 8000 نسمة بما في ذلك 1000 يهودي إسباني وبولندي..."[2].
طبرية	مارتين دونوسب	1893	ذكر مارتين دونوس أن مدينة طبرية مدينة صغيرة وعدد سكانها قليل، وقدر عددهم بحوالي 3500 نسمة منهم 2500 يهودي[3].

[1] Jean lian, op cit, p121.

[2] Léonie de bazelaire, op cit, p205.

يظهر لنا من خلال مقارنة إحصائيات ليوني دو برادزالي أن تقديره لعدد سكان المدينة كان بعيدا عن الحقيقة، وذلك من خلال مقارنتها بإحصائيات سالنامة والتي قدرت عدد سكان المدينة في سنة 1872م بحوالي 15000 نسمة وذلك بحوالي 17 سنة قبل قدومه للمدينة، ومن المستحيل أن تتراجع المدينة من 15000 إلى 8000 نسمة في هذه الفترة خاصة و أن المدينة عرفت استقرارا صحيا وأمنيا خلال هذه الفترة، وما يدعم موقفنا هو الإحصائيات المقدمة من قبل الرحالة قساطلي عن عدد السكان في سنة 1875م والذي قدرهم بحوالي 17000 نسمة وبالتالي زيادة مقدرة بحوالي 2000 نسمة في 3 سنوات. سالنامة دولة عليت عثمانية لعام 1872م، نقلا عن عبد الكريم رافق، **فلسطين** ...، المرجع السابق، ص 907.

[3] Martin Donosop cit, p135.

قدم لنا عبد الكريم رافق جدولا يقدم مجموعة من الإحصائيات الخاصة تقسيم سكان المدينة حسب الديانات مسلمون مسيحيون يهود، ومن خلالها نلاحظ ارتفاع عدد يهود المدينة مقارنة مع البقية ومعظم الإحصائيات لا تقل عن نسبة 50 بالمائة، وهو ما يؤكد أن ملاحظات الرحالة الفرنسي مارتين دونوسب صحيحة إلى حد ما، واستقرار اليهود في هذه المنطقة هو بسبب أهميتها

ثالثا. واقع التعليم والصحة بالشام:

تقدم ورقي المجتمعات أساسه التعليم الذي له أهمية كبيرة في تاريخ الحضارات والأمم بواسطته تتقدم ودونه تتخلف، وقد تحدث الرحالة الفرنسيون عن واقع التعليم في بلاد الشام خلال القرن 19م لكنهم لم يتشعبوا كثيرا فيه، وخصصوا له جزءا بسيطا من كتاباتهم، ولذلك سنحاول أن نكمل بعض الفراغات التي أهملوها من خلال الاعتماد على مصادر ومراجع عربية، وسيكون ذلك بشكل واضح وتفصيلي في الهوامش، وذلك رغبة منا في توضيح هذا الواقع لما له من أهمية بالغة لا يمكننا تجاوزها، والإضافات ليست في الهوامش فقط ففي بعض الأحيان توجد فقرات في المتن لا بد من تكملتها حتى تتضح الفكرة ولذلك نورد المعلومة مباشرة.

تكتسي الصحة هي الأخرى أهمية بالغة فهي مرتبطة بالتعليم مباشرة فبتطوره يرتقي القطاع الصحي والعكس صحيح، ونفس الملاحظة التي أوردناها على مدى اهتمام الرحالة الفرنسيين في كتاباتهم بالتعليم نجدها في الصحة، والملاحظ أنها هي الأخرى لم تحظى بنصيبها من الشرح والتفصيل، وعليه حاولنا أن نتمم فيها بعض النقائص من خلال إيراد بعض الشروح في المتن والهوامش.

ا- التعليم:

أهملت إلى حد ما السلطة العثمانية الشؤون التربوية والتعليمية في بلاد الشام، وهو الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه في وجه الإرساليات الأجنبية

التاريخية لديهم وكذلك باعتبارها أحد الأربع أماكن المقدسة لديهم وهي القدس والخليل وصفد وطبريا، ومن خلال الجدول نلاحظ تسارع في وتيرة الهجرة اليهودية إلى منطقة طبرية خاصة مع نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م، والجدول هو كالتالي:

طبرية	مسلمون	مسيحيون	يهود
بوركهاردت1812م	%75	قلة	%25
نيهولت 1868م	%22.5	%7.3	%70.2
سالنامة1871-1872م	%25.4	%10.6	%64
شوماخر 1886م	%37.2	%7.1	%55.7
تميمي و بهجت1912-1913م	%8.4	%8.3	%83.3

عبد الكريم رافق، **فلسطين** ...، المرجع السابق، ص 911.

والمؤسسات الدينية المحلية، وأصبحت تتحكم في نواة التعليم في بلاد الشام وكونت المواطن الشامي وفق ميولاتها السياسية والثقافية، وخدمت مصالح الدول التي جهزتها لتحقيق أهدافها، ويمكن القول: بلاد الشام عرفت غزوا ثقافيا تزعمته الإرساليات التبشيرية التي دعمت بكم هائل من المؤسسات الدينية والتعليمية[1]، وفي هذا السياق يذكر لنا شاهين مكاريوس بعض ملاحظاته عن التعليم في بلاد الشام ووضعيته فيقول:"...وأما المدارس في بلاد الشام فكلها للأجانب ما خلا الشيء القليل منها..."[2].

ساهمت الإرساليات التبشيرية التي عرفت تزايدا كبيرا مع القرن 19م في تطوير الحياة العلمية والأدبية في بلاد الشام، والهدف الرئيسي لهذه الإرساليات كان التبشير بالديانة المسيحية وعليه كانت في حاجة ماسة إلى إنشاء مؤسسات تعليمية عالية لاستكمال مهامها التبشيرية، ومن هنا باشرت الدول الأوربية ومن بينها فرنسا

---

[1] عبد الله إبراهيم سعيد، **العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في الأرياف اللبنانية 1861–1914م دراسة مقارنة في التاريخ الريفي استنادا لوثائق أصلية**، دار الفارابي، بيروت، لبنان2003م، ص 239.

هذا الأمر لا ينفي تماما أن الدولة العثمانية قد أهملت تماما إدخال إصلاحات على مجال التعليم خاصة مع النصف الثاني للقرن 19م، فقد قامت الدولة العثمانية بتأسيس مجلس المعارف سنة 1869م والذي تغير اسمه إلى وزارة المعارف، وقد لعبت هذه المؤسسة دورا كبيرا في مجال التعليم من خلال توجيهها لمجموعة من التعليمات لمراكزها الموجودة في الولايات من أجل فتح مدارس، وعرفت هذه المراكز بمديرية المعارف، وقد ركزت نشاطها في المناطق التي تعرف غزو للمدارس الأجنبية مثل مدينة بيروت، وكانت هذه بادرة خير في مجال التعليم خاصة بالنسبة لأبناء المسلمين، وقد أتبعت ذلك الدولة العثمانية قانون يلزم الآباء بإرسال أبنائهم للمدارس وشددت عليهم خاصة في عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني(1876–1909م)، بل تجاوز الأمر ذلك بفرض عقوبات قاسية على الآباء المخالفين تصل لدرجة السجن. رامي علي عيزوقي، المرجع السابق، ص 134.

يمكن القول أن محاولات الدولة العثمانية لإصلاح التعليم بدأت تقريبا منذ عصر التنظيمات وأصبحت توجد معالم سياسة تعليمية ذات أهداف، ومن هنا سنت مجموعة من الأنظمة اللازمة التي استهدفت نظام التعليم في الولايات، ومن أشهر من قاموا بتجسيد معالم هذه السياسة مدحت باشا والي دمشق، وقد عمل منذ توليه المسؤولية على تحسين أحوال التعليم فيها من خلال تأسيس جمعية المقاصد الخيرية التي انتشرت فروعها في جميع أنحاء الولاية، واستطاعت الجمعية أن تنشئ وحدها في عهد الوالي مدحت باشا في دمشق ثماني مدارس بلغ عدد تلاميذها حوالي 1200 تلميذ، كما أسست الجمعية مدرسة مخصصة لتعليم البنات ووصل عدد تلامذتها 150 تلميذة، وعلى العموم عرفت دمشق وحدها تزايد كبير في عدد المؤسسات التعليمية في عهد الوالي مدحت باشا حيث بلغ عدد المدارس الابتدائية في دمشق في 1880م 103 مدرسة ضمت 567 تلميذ منها 19 مدرسة مختلطة، كما تم في عهد مدحت باشا ضم المدارس الخاصة في إطار رسمي وهو دائرة المعارف الحكومية وأصبحت تسير وفق معالمها و أهدافها. كاظم حسن جاسم الأسدي، المرجع السابق، ص ص 285 – 293.

[2] شاهين مكاريوس، المصدر السابق، ص12.

في دعمها لتأسيس المؤسسات التعليمية[1]، والملاحظ أنه مع نهاية القرن 19م قد تمت المهمة بنجاح وتمكنت فرنسا من تأسيس عدد كبير من المدارس والمؤسسات التعليمية وازدهرت مدارسها بكثرة في الشام، وساهمت بشكل كبير في تجسيد الأهداف الخفية ومن بينها التنصير ونشر الأفكار الفرنسية[2].

تحدث الباحث فؤاد شاهين كذلك عن مناهج التعليم في هذه المؤسسات وأهدافها، وذكر أنها كانت تعمل على هواها ما يحلو لها لخدمة مآرب دولها، والبعض منها طرد من بلده ووجد غايته في بلاد الشام، وقد نقل شهادة الأب ديدس Père D'ides التي قالها في المؤتمر الفرنسي حول سوريا 1919م، والذي كان بعنوان المدارس الابتدائية الفرنسية في الريف السوري، ومن جملة ما قاله:"...جميعهم(يقصد التلاميذ) لم يتعلموا الفرنسية، لكنهم قد تشربوا في هذه المدارس المدعمة من قبل الفرنسيين حب فرنسا..."، ويذكر الباحث في موضع آخر أن فرنسا كانت تعتمد بشكل أساسي على إرسالياتها لتثبت حقها في استعمار هذه المنطقة، وهو ما تجسد بالفعل في مطلع القرن 20م[3]، ونقل أيضا مقولة بول هوفلان Paul Hovlan حول القضية وهي كالتالي:"... ولقد أصبحت فرنسا ودون أي جدال سيدة في سوريا، وتسرب التأثير الفرنسي في سوريا حتى العظم، فالأداة الفاعلة الأقوى لفرنسا هي المدرسة، إن كل السوريين المثقفين مسامين ومسيحيين يتكلمون الفرنسية ويفكرون بها، إن كل الأدوات الفاعلة الفرنسية في سوريا تفقد أهميتها أمام هيئة الاحتلال الضخمة والصامتة هذه، فهي معسكرة في سوريا منذ 50 سنة، وتضم بثقافتها النخبة العربية محققة بذلك أفضل عمل للتغلغل السياسي يمكن للحكومة أن تفكر به"[4].

أ- المؤسسات التعليمية المسيحية:

امتلأت بلاد الشام بالمؤسسات التعليمية المسيحية خاصة في القرن 19م، وقد ورد ذكر العديد منها في كتابات الرحالة الفرنسيين، وقمنا بتقسيمها جغرافيا وذلك بذكر مؤسسات كل مدينة على انفراد وهي كالتالي:

[1] الغالي غربي، المرجع السابق، ص 218.

[2] Louise marquette, op cit, p207.

[3] فؤاد شاهين، المرجع السابق، ص ص 144-145.

[4] بول هوفلان، مقال بصحيفة ستامبا الإيطالية، 5 أفريل 1914م نقلا عن فؤاد شاهين، المرجع نفسه، ص 146.

من المدن التي عرفت تواجد عدد مهم من المؤسسات التعليمية المسيحية مدينة دمشق، إذ ذكر الرحالة في كتاباتهم عددا كبيرا من المؤسسات التعليمية المسيحية التي أسست في دمشق من قبل الدول الأوربية، وبالتالي نلاحظ من خلال كتاباتهم أنه كانت هناك سيطرة تامة للتعليم المسيحي الفرنسي بالمدينة، وفي هذا الصدد ذكر لنا الرحالة الفرنسيون العديد من النماذخ نذكر منها المدارس التي كان يديرها اللازارين والفرنسيسكان واليونان، وهي ذات عدد معتبر حسب ما ذكره الرحالة فيكتور قرين Victor Guérin [1]، كما توجد في المدينة مدارس أخرى تعلم فيها اللغة التركية والعربية والفرنسية، وهي مدارس مختلطة بها عدد هائل من الأطفال يتكلمون بلغات مختلفة واللغة الفرنسية كانت هي الشائعة[2]، وقد ذكر لنا القس جين L'abbé Jean Jacques Bourrasse أنه من بين هذه المدارس توجد مدرسة مزدهرة بها حوالي 300 طفل يتعلمون بها اللغات، الجغرافيا، التاريخ، الرياضيات، وذكر لنا أنه لدى راهبات المحبة مدرسة إذ يقمن فيها بجمع الفتيات الصغيرات من مختلف الأديان والأعراق والألوان، ويقمن بتعليمهن العديد من الأمور التي تفيدهن في حياتهن وتؤمن لهن مستقبلهن[3]، والمدينة لا تحتوي على المؤسسات الفرنسية فقط إنما يوجد بها العديد من المؤسسات التعليمية الإنجليزية التي تأسست كذلك لتأدية مهمة البعثات الأساسية وهي التبشير للمذهب المسيحي البروتستانتي، والملاحظ أنها تمكنت في وقت قصير من ضم عدد كبير من التلاميذ، ولاحظ الرحالة الفرنسي ليون بول Léon Paul بأن عددهم بدأ في التزايد يوما بعد يوم[4].

مدينة القدس نالت هي الأخرى نصيبا مهما من حيث عدد المؤسسات التعليمية المسيحية، وقد أسس الفرنسيون خاصة بالقدس العديد منها، ونذكر

---

[1] Victor Guérin, op cit,p420.

عرفت مدينة دمشق انتشارا واسعا للمدارس الفرنسية وذلك منذ النصف الثاني للقرن 19م، وقد ذكر ذلك الشيخ طاهر الجزائري الذي هاجر إلها خلال هذه الفترة، ووصف أحوال مدينة دمشق التعليمية لمدحت باشا في فترة زيارته لها قائلا:"...إن مسلميها قد فشا بينهم الجهل، ومدارس الإفرنج تتقدم كل يوم تقدما ملموسا وليس للحكومة سوى مدارس ابتدائية يقرأ فيها الأحداث القرآن، فيجب التفكير بجد في أمر تعليم أبناء المسلمين وإصلاح مدارسنا..." (عمر لخضر بلعيد، **الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة الفكرية والثقافية في بلاد الشام**، جسور للنشر و التوزيع، ط1، المحمدية، الجزائر 2018م، ص 60.).

[2] L'abbé delaplanche, op cit, p220.

[3] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p436.

[4] Léon Paul, op cit, p145.

على سبيل المثال دارا للأيتام تسمى سانت بيار Saint Pierre تم فيها جمع العديد من الأطفال الصغار منهم المسيحيون والمسلمون، إذ يتلقون في هذه المؤسسة عدة أشياء كتعلم اللغات العربية[1] والفرنسية وأساليب التجارة، كما يعلمونهم إلى جانب ذلك بعض تعاليم الديانة المسيحية[2]، وأسس المبشرون مؤسسة إخوة المدارس المسيحية، وهي كذلك مؤسسة ذات طابع تبشيري، وبالتالي نلاحظ أن معظم المؤسسات المسيحية لم يكن غرضها تعليميا في الأساس وإنما هو نشر الديانة المسيحية وهو ما يدعم ما سبق وأن قلناه[3].

يتركز تعليم البنات في المدينة بشكل كبير لدى راهبات المحبة اللاتي أسسن مدرسة سيون Sion بالقدس، ويستقبلون فيها كل الفتيات الصغيرات اللواتي يتوجهن إليهن وذلك بدون تمييز الدين، وضمت المسيحيات الكاثوليك واليونانيات إضافة إلى المسلمات وبعض اليهوديات، ويتعلمن فيها العديد من الأمور كالقراءة والكتابة والخياطة كما يعلمنهن التحدث باللغة الفرنسية، ويذكر القس لسبيناخ L'abbé jh Lespinasse أن هذه المدرسة تستقبل أكثر من 200 طالبة، وقال أنه بجانب هذه المؤسسة تم تأسيس دار مخصصة للأيتام[4].

الملاحظ أيضا من خلال كتابات الرحالة أن الفرنسيين ركزوا نشاطهم التبشري كثيرا في مدينة بيروت[5] وذلك لعدة اعتبارات، وقاموا بتأسيس عدد هائل

---

[1] اللغة العربية هي اللغة الأكثر انتشارا بين سكان الشام، وهم يغارون عليها ويحافظون على استعمالها، حتى المسيحيون واليهود يتحدثون العربية ولا يتحدثون بلغة أخرى إلا ما كان في ممارسة طقوسهم الدينية. عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص64.

[2] Jean lian, op cit, p87.

لاحظ القس لسبيناج أنه عادة ما يسعى المسلمون الأغنياء إلى تعليم أبنائهم في المدارس الفرنسية، ويقول أن السبب الرئيسي لذلك هو أنهم يعلمون أن المستوى التعليمي فيها جيد ومتنوع مقارنة مع المؤسسات الحكومية

L'abbé jh lespinasse, op cit, p252.

[3] Pierre louis péchenard, op cit, p295.

[4] L'abbé jh Lespinasse, op cit, p p 249-250.

[5] قدر المدارس بصفة عامة في بيروت بسبعين مدرسة للذكور، وعدد مدارس الإناث أربعين، ومجموعة من الكتاتيب الصغيرة، وفيها من التلاميذ أكثر من 7000، والتلاميذ أكثر من 6000، وعدد المعلمين أكثر من 350، و 250 معلمة، وقد خرج من هذه المدارس العديد من المثقفين، وجانب كثير من هذه المدارس تابع للجمعية الخيرية الآرثذوكسية (عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص15.).

لم يقتصر التعليم المسيحي على بناء مؤسسات في أراضي بلاد الشام فقط بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك من خلال فتح أبواب بعض الدول الأوربية للبعثات القادمة من الشام، وكان نصيب لبنان كبيرا جدا في جانب البعثات العلمية وكذلك المدارس المسيحية

من المدارس والمؤسسات التي كان ظاهرها التعليم وباطنها التبشير والتنصير، وسبب تزايد المؤسسات بالمدينة هو الدعم والحماية الكبيرة المقدمة للإرساليات التبشيرية من طرف القنصلية الفرنسية ببيروت، ولا شك أن نشاط القنصلية نابع من الدعم الدائم من الحكومة الفرنسية التي تمكنت من الحصول على امتيازات كثيرة في المنطقة، وبفضل هذه التسهيلات تمكنوا من تأسيس عدة مدارس مسيحية لعبت دورا هاما في بلورة مشاريعها[1]، وقد غطت المدارس الأجنبية معظم مناطق بيروت لاسيما المناطق المسيحية، والمدارس لم تقتصر على مؤسسة دينية أو تبشيرية أو دولة وإنما كان هناك تنافس بين جميع الدول في افتتاح المدارس[2].

أشهر الإرساليات التبشيرية لبلاد الشام إرسالية اليسوعيين[3] الذين تمكنوا من إنشاء المطبعة العربية والفرنسية التي تطبع الكتب والصحف وهو ما ساعدهم كثيرا في نشر أفكارهم[4]، وأسسوا كلية الآباء التي احتوت على مدرسة داخلية ومدرسة

والسبب الرئيسي في ذلك هو كثرة الموارنة الذين يعتنقون الديانة المسيحية، وبالتالي حصلوا على دعم كبير من قبل فرنسا التي كانت تسعى لكسبهم في صفها بأي طريقة، وعليه تعهد لويس 14 بتعليم أولاد الموارنة مجانا في المدرسة اليسوعية بباريس، كما أسس البابا غريغوريس الثالث مدرسة خاصة بالموارنة بروما أخرجت العديد من الكهنة والقسيسين الذين عاد بعضهم لبلاده من أجل نشر علوم الغرب. ينظر إلى إيليا أبو ماضي، المصدر السابق، ص 16.

[1] L'abbé jh Lespinasse, op cit, p71.

[2] رامي علي عيزوقي، المرجع السابق، ص 135.

[3] جمعية الآباء اليسوعيين: و تعرف كذلك بجمعية يسوع أسسها القديس الإسباني المدعو ايناس دي لويولا عام 1534م في باريس، وقد وصلت إلى بلاد الشام في النصف الأول من القرن 17م. ماجد حمدان بحير، **متصرفية جبل لبنان 1861–1914م** ، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، العراق، 2006م، ص 143.

[4] تعتبر مدينة بيروت والمناطق المحيطة بها مثل جبل لبنان من المناطق الأولى في بلاد الشام التي عرفت دخول الطباعة لا سيما نسخ الكتب الدينية، وأنشأت فيها خلال لقرن 19م العديد من المطابع وأسهمت بدور فعال في بلوغ أهالي جبل لبنان درجة متقدمة من الثقافة بسبب تكاثر إنتاج الكتب، ومن بين هذه المطابع: مطبعة دير مار موسى الدوار في قزاحيا في البترون والتي تأسست في سنة 1808م، وقد حوت مدينة بيت الدين وسط الشوف مطبعتين الأولى أنشأها رجل ماروني يدعى حنا بك السعد عام 1853م، والثانية هي المطبعة الخاصة بحكومة جبل لبنان والتي أنشأت سنة 1863م بأمر من داود باشا متصرف جبل لبنان وسميت بالمطبعة اللبنانية، كما شهد الجبل بعدها تأسيس عدة مطابع مع نهاية القرن 19م ومنها: المطبعة العثمانية لصاحبها إبراهيم بك الأسود تأسست في سنة 1891م، والمطبعة اللبنانية لخليل أفندي باخوس في بعبدا التي تأسست في سنة 1894م، ومطبعة الأرز في جونية في كسروان التي تأسست في سنة 1895م، وكذلك تأسست مطبعة الصفا في عالية في الشوف على يد بك ناصر الدين سنة 1898م. ماجد حمدان بحير، **المرجع السابق**، ص ص 149–150.

دينية مارونية ومدرسة نهارية لرهبان المستقبل، والملاحظ أن طلاب هذه المدرسة يأتون من جميع الدول وهو ما يثبت مكانتها ودورها الكبير[1].

أسس الفرنسيون عدة مؤسسات لتعليم البنات، ومن بين أشهر هذه المؤسسات مؤسسة راهبات المحبة من اليسوعيين وكذلك نذكر المدرسة المارونية الكبرى وكلية الآباء اليسوعيين[2]، ويذكر لنا قابريال روجيرون Gabriel Rogeron أنه بدار راهبات المحبة يوجد مدارس داخلية ودار للأيتام ومستشفى، وذكر أنها مؤسسة ناجحة ومزدهرة وبها عدد كبير من التلاميذ وصل إلى أكثر من 700، كما تأتيها الفتيات من مختلف الأديان والأصول لتعلم أمور عديدة بما فيهن الفتيات التركيات الصغيرات[3]، وقد أكد قابريال روجيرون Gabriel Rogeron على أهمية المدرسة وهو ما جعلها تستقطب عددا كبيرا من الفتيات من أعراق شرقية مختلفة[4]، ويذكر القس خ تيكي G téqui أن هذه المؤسسة أنشئت بعد الحرب الأهلية 1860م، وقال أنها تضم عددا معتبرا من الأطفال بشكل دائم، وذكر كذلك أنهم يتعلمون عدة أشياء إضافة للدراسة كبعض الفنون مثل الخياطة وأغلب هؤلاء الأطفال عبارة عن أيتام[5]، والملاحظ أن راهبات المحبة كثيرات في مدينة بيروت، ويقمن بالعديد من الأعمال الخيرية التي ساهمت في تحقيق بعض الأهداف المسطرة[6].

---

[1] M m p v, op cit, p38.

[2] L'abbé bunote, op cit, p285.

[3] Gabriel rogeron, **souvenirs d'un voyage en orient**, Alphonse picard et fils éditeurs, paris, france1899, p127.

أكد لنا الرحالة المصري عبد الرحمن بك سامي الذي زار المدينة أيضا مع أواخر القرن 19م أن عدد الفتيات اللواتي يتلقين التعليم بها كبير جدا(عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص13.).

[4] Gabriel rogeron, op cit, p128.

[5] G téqui, op cit, p p249- 250.

[6] Louis bunel, op cit, p286.

يعتبر التطبيب من أخطر الوسائل التي انتهجتها الدول الأوربية من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية وذلك نظرا لما للطبيب من قيمة وتأثير في المدن والقرى، وقد قال في هذا الصدد أحد أفراد الجمعية اليسوعية:"...وفي بلاد الشرق وأكثر من أي مكان آخر يعتبر الطبيب شخصا هاما، إن تعليمه والاحترام الذي يحيط بمهنته وحياته الكريمة يكسبه خاصة في القرى سلطة معنوية وحجة لا تناقش تمكنه من الدخول إلى أكثر الأماكن انغلاقا بسبب الدين والتقاليد، إن الحكيم يستطيع بالفعل أن يمارس تأثيرا حقيقيا". طلال عتريسي، **البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان دراسة وثائقية تاريخية**، الوكالة العالمية للتوزيع،ط1، بيروت، لبنان1987م،ص 81.

إضافة إلى مؤسسة راهبات المحبة هناك جزء من المستشفى المسيحي اليسوعي ببيروت مخصص للفتيات الفقيرات من أهل البلاد، وتلامذته عبارة عن خليط من جميع الأديان وفيه توجد التركيات، اليونانيات، المارونيات وغيرهن، ويذكر خ تيكي G téqui أن المؤسسة تمكنت من تجسيد أهدافها فيقول:"...من هذه المؤسسة تخرجت العديد من المبشرات اللاتي ترعرعن في حب الكاثوليكية، وهن يسعين بقوة لتوسيع النفوذ الكاثوليكي، ومنافسة انتشار البروتستانتية الإنجليزية..."[1]، وهذه المؤسسة تحتوي على عدة مرافق بها العديد من الغرف المخصصة لإيواء أبناء السكان المحليين الصغار وأيضا أبناء الأتراك[2].

هذا العدد المهم من المدارس المسيحية لا ينفي عدم وجود مدارس إسلامية وهو الأمر الذي أكده عبد الرحمن بك سامي الذي زار مدينة دمشق أواخر القرن 19م، وذكر في هذا الصدد عدة أمثلة عنها منها مدارس مخصصة لدراسة علوم الدين والفقه يبلغ عدد طلبتها نحو 1000 طالب، وجلهم يتلقون العلوم على يد الأئمة المدرسين والعلماء الأعلام في الجامع الأموي وغيره، وبرز منهم الكثير من العلماء النوابغ الأفاضل، كما توجد كتاتيب كثيرة لتعليم الصغار مبادئ القراءة تبلغ 70 كتابا وعدد طلبتها حوالي 1500 طالب، كما توجد مكاتب ابتدائية عدد تلاميذها نحو 2000 طالب تدرس بها العربية والتركية والحساب والجغرافية ومبادئ التاريخ واللغة الفرنسية، وللحكومة مدرسة صنائع و 4 مدارس رشيدية ومدرسة حربية وأخرى إعدادية[3].

ب- مناهج التعليم وبرامجه:

1- مدينة حلب:

[1] ينظر إلى الملحق رقم 07.

[2] G téqui, op cit, p p251-252.

[3] عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص101.

المدارس اليهودية هي الأخرى موجودة في بلاد الشام، ونذكر على سبيل المثال المدارس الموجودة في مدينة دمشق والتي تم استحداثها من قبل البعثات التبشيرية البروتستانتية وهي: مدرسة بنات اليهود حوت وتضم 40 طالبة وكان المدرسون فيها من أصول أمريكية وأسست سنة 1840م، كما أسست كذلك مدرسة الإليانس الفرنسية بدمشق سنة 1865م ومدرسة أخرى لليهود البنين عام 1880م وللبنات عام 1883م، والتحق بهذه المدارس المئات من اليهود. سهام محمد هنداوي، المرجع السابق، ص ص 158-159.

تحتوي مدينة حلب على عدد من المؤسسات التعليمية التي تتميز ببساطة بنائها، وتتراوح الرسوم المدرسية فيها ما بين 10 و 20 سنتا في الأسبوع، ويتم تعيين معلم من أجل التدريس كما يخصص له راتب مقابل عمله، وتوجد بحلب 6 مدارس تابعة للمساجد وهي: الإسماعيلية، العثمانية، الأحمدية، الزينبية، الشعبانية، الخوماسية، أما بالنسبة للأعمار فتجد فيها مزيجا يضم كل الأعمار، ويتلقى التلاميذ فوائد كثيرة في هذه المدارس التي تجعلهم مثقفين وتروي عطشهم المعرفي خاصة وأن أهل حلب عرفوا بتقديرهم للتعليم، وتدرس بالمدارس علوم القرآن، النحو، كذلك بعض العلوم النقلية، أما في المدارس القاعدية فالتعليم بسيط جدا يتكون من تعلم القراءة والكتابة، ويتم غلق المدارس في أيام العطل الرسمية فقط وليس للتلاميذ إجازات غيرها، إذ يصلون في الصباح ثم يحضرون معهم فطورهم، وأحيانا يتم إرساله لهم في وقت الظهيرة، ووقت الوجبة هو الوقت الوحيد الذي ينالون فيه قسطا من الراحة، ولا يمكنهم أبدا مغادرة المدرسة حتى قبل غروب الشمس بساعتين[1].

لاحظ القنصل الفرنسي هنري قيز Henri Guys أن النساء في الشرق لا يحظين بقدر كاف من التعليم، ويذكر أنهن دائما مخفيات في المنازل وليس من السهل أن تدخل الفتات للدراسة[2]، ويمكن القول أن ملاحظاته قريبة من الواقع إلى حد ما وهو الأمر الذي نستشفه من شهادة أحد أبرز الأدباء الشاميين خلال القرن 19م أحمد فارس الشدياق[3]، والذي سعى من خلال بعض كتاباته إلى نقد سلوك الناس في مجتمعه، وعمل على تبصيرهم بمواطن الخلل في تفكيرهم، ودعا إلى إصلاح فكري واجتماعي شامل من أجل النهوض بالأمة، ولعل من أبز الركائز التي

[1] Henri Guys, op cit, p p 116-122.
[2] Henri Guys, op cit, p182.
[3] أحمد فارس الشدياق: ولد الكاتب واللغوي أحمد فارس الشدياق في قرية عشقوت بلبنان من أسرة مارونية، وقد بدأ يكتب الشعر في سن متقدمة وحفظ الكثير من المصطلحات ومرادفاتها مما كان له الأثر في خطبه وكتاباته، ارتحل إلى مصر وقضى بها فترة يتعلم ويعلم، وفي 1834 أرسله الأمريكان لمالطة من أجل تصحيح الكتب العربية التي تنتجها مطبعتهم، ثم انتقل للندن لخدمة جمعية التوراة وأقام فيها مدة من الزمن، ثم انصرف إلى باريس، وبعدها انتقل لتونس في 1857م وفيها اعتنق الإسلام وسمى نفسه أحمد، وبعد أن ذاع صيته انتقل لخدمة الباب العالي ورحل للأستانة والتي انطلق فيها في مرحلة التأليف الغزير وكافأته الدولة العثمانية بالألقاب والأوسمة، وتوفي في 20 سبتمبر 1887م. سلسلة عوالم ، **أحمد فارس الشدياق المعلم و الطالب ونصوص أخرى**، دار القصبة للنشر، الجزائر2012م، ص ص 5-7.

أعطاها حقها وهو ضرورة ترقية حال المرأة الشرقية وتثقيفها وإطلاعها على ما يفيدها ويرجع عليها وعلى مجتمعها بالنفع، ونقد السلوكيات والعادات السيئة في المجتمعات العربية خلال هذا القرن[1].

ما ذكرناه سابقا لا ينفي أبدا أن من النساء من تمكن من دخول المدارس وتلقى التعليم، فمع منتصف القرن 19م بدأ تعليم البنات يأخذ منحى آخر فمثلا في مدينة دمشق بعد خروج إبراهيم باشا عن سورية أخذ النصارى في تعليم بناتهن وحدا حدوهم بعض المسلمين واليهود، وزاد هذا الانفتاح مع نهاية القرن 19م فقد قدر عدد الفتيات اللواتي يدرسن سنة 1890م بما يلي:

العدد	الديانة
8000	مسيحية
6000	مسلمات
3000	يهوديات

عدد مدارس المسيحيات البنات في 1890م هو 10 مدارس، وللفتيات المسلمات 12 مدرسة و 15 كتابا، أما الفتيات اليهوديات فعدد المدارس المخصصة لهن 2، وتعلم بهذه المدارس أيضا الأشغال اليدوية[2]، كما تقدم دروس النحو إذ تجد شبانا مسلمين يدرسون النحو عن مدرسين مسيحيين، نظرا لتفوق الأصول الحديثة التي اتبعها هؤلاء بعد أن وضع أصولها مطران ماروني في حلب، وإن فائدة هذه الطريقة تعتبر ظاهر لأنها تعلم بسنتين ما لا تستطيع أن تعلمه الكتب الأخرى في عشر سنوات[3].

[1] سلسلة عوالم ، المرجع السابق، ص 29.

[2] عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص ص 101-102.

[3] هنري قيز ، المصدر السابق ، ص 38.

2- تعليم أولاد الجبل قرب بيروت[1]:

يذهب الأولاد المسيحيون المارونيون في الجبل على العموم إلى المدرسة بعد أن يبلغوا سن أربع أو خمس سنوات، والمدارس التي يتلقون فيها التعليم تعتمد على النفقات التي تدخل من عقار معين اشتراه الأهالي أو وقفه أحد الأتقياء، ومنه يدفعون جميع مستحقات المعلم المكلف بها، ويتعلمون في هذه المدارس اللغتين العربية والسريانية، ولا يكاد الأطفال يتقنون القراءة والكتابة حتى يحولهم آباؤهم إلى العمل، وهو الأمر الذي يجعلهم ينسون بسرعة ما تعلموه في المدارس، والملاحظ أن هذه المدارس تكون خلال سبعة أو ثمانية أشهر في الهواء الطلق أما في بقية أيام السنة فتكون في غرفة ضيقة تابعة للكنيسة، وهذه المدارس يتقن فيها الأطفال مبادئ القراءة البسيطة فقط أما القواعد فلا يتعلمون منها شيئا، ويتقاضى الكهنة المدرسون في القرى حوالي 150 فرنكا كل عام ويضاف إليها دخلهم الخارجي وهو ضئيل جدا[2].

أما بالنسبة للدروز فكانوا يعلمون أبنائهم في الكتاتيب بالرغم من الصعوبات الاقتصادية، وعدم توفر الوسائل التعليمية كالكتب والدفاتر والأقلام، وكانوا يرسلون أبناءهم للكتاب[3] حبا في تعليمهم حتى لو حرموا من مساعدتهم في ممارسة النشاط الزراعي، ولم يكتب الكثير عن حالة تلك الكتاتيب إلا ما ذكره بعض الرحالة الذين زارو جبل الدروز ذلك الوقت، و نذكر ملاحظات القس الرحالة بورتر Porter الذي زار الجبل عام 1852م، والذي قدم وصفا لأحد كتاتيب قرية قنوات فيقول: "...في المساء سررنا بزيارة معلم القرية لنا... وهو رجل عجوز...وقد تم استقباله باحترام كبير ووضع في صدر المضافة، وقد أخبرنا أن مدرسته تتألف من 20 ولدا تقريبا،

---

[1] يأتي الكثير من الطلاب من المناطق الجبلية خاصة من الطبقة الفقيرة، وهم يشتغلون بكد وجد من أجل دفع أجرة تعليمهم، وبالرغم من فقرهم إلى أنهم يتحدون الصعاب وهذا ما يدل على اجتهاد الشاميين ونهضتهم لإحراز الفوائد، وطالما خرج منهم أناس لا رأس مال لديهم سوى علمهم وأدبهم، فبغوا في روسيا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وأمريكا، وتولوا التحرير في الجرائد الأجنبية، وحازوا على السبق في المدارس ونالوا الشهادات والجوائز. عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص13.

[2] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص66.

[3] الكتاب: هو عبارة عن مدرسة صغيرة مكونة في العادة من غرفة واحدة يقودها معلم القرآن، ودائما يكون له مساعد من أكبر تلاميذه في العادة والأكثر اجتهادا، ويرتب فيها الأولاد في صفوف حسب درجة حفظهم، ويتعلم الأولاد فيها الحروف القراءة والكتابة ويحفظون القرآن، أما مكان الجلوس فهو مفروش بالحصير وتنتهي مدة الدراسة بالكتاب مع حفظ القرآن. مُحَمَّد عبد الله مُحَمَّد شلح، المرجع السابق، ص 105.

وقد سبق وأن رأيتهم يجهرون بقراءتهم فوق سطح أحد البيوت، وسألته بضعة أسئلة أجاب عليها قائلا: إن تلاميذه لا يملكون كتبا وهو مضطر لتعليمهم كتابة الأحرف والكلمات فوق ألواح صغيرة يحملونها معهم، ..... وقد رأيت فيما بعد هؤلاء الصبيان يسيرون في الشوارع معتزين بألواحهم المعلقة في أعناقهم..."[4].

لا يعني هذا أن كل سكان جبل لبنان الدروز قد عارضوا التعليم في المدارس الحكومية والأجنبية، فهناك الكثير من زعماء الدروز في جبال لبنان ممن رحب بالبعثات التبشيرية البريطانية والأمريكية التي قدمت لتأسيس المدارس والكليات في جبال الشوف كما في بيروت، وقدموا لها كذلك الحماية ولم يترددوا في إرسال أبنائهم وبناتهم إلى هذه المؤسسات التعليمية، ونتيجة لذلك انتشر التعليم الحديث

[4] القس بورتر، نقلا عن تركي قاسم الزغبي، المرجع السابق، ص 306.

تمكنت المدارس البروتستانتية من أن تشق طريقها في القرى الأرثوذوكسية والدرزية الجبلية بالرغم من المنافسة الشديدة من قبل المدارس الفرنسية و الأنجلو أمريكية، حيث وصل عددها في ضواحي لبنان عام 1869م 24 مدرسة وتطور العدد في عام 1880م إلى 57 مدرسة، وفي عام 1888م بلغ عدد المدارس الأمريكية في ولاية سوريا وبيروت وجبل لبنان وفلسطين حوالي 300 مدرسة، كما دخلت البعثات الروسية الأرثوذوكسية في هذا التنافس وحاولت استقطاب الطائفة الأرثوذوكسية المقيمة في المناطق الجبلية بالتدريس المجاني، وبلغ عدد مدارسها في سنة 1899م حوالي 30 مدرسة وبها حوالي 700 تلميذ، واقتصرت مدارس المسلمين على الكتاتيب الملحقة بالجوامع ومدارس المعارف العثمانية، ولكن بالرغم من التنافس الشديد ومجانية التعليم إلا أن الغلبة كانت لصالح التعليم الفرنسي لغة وإشرافا وتأثيرا و عناية، وقد بلغ عددها في ولايتي بيروت وسورية وجبل لبنان عام 1895م حوالي 338 مدرسة مقابل 260 مدرسة لمختلف الإرساليات والطوائف الغربية. عبد الله إبراهيم سعيد، المرجع السابق، ص ص 254-255.

قامت جمعيات الكاثوليك الفرنسية بإنشاء عدة مدارس خلال القرن 19م وذلك من أجل مجابهة الخطر البروتستانتي والأرثوذوكسي الذي كان يداهم منطقة جبل لبنان، وكذلك كان الهدف من إنشائها هو تحصين أبناء الطائفة المارونية من الأفكار التبشيرية المسيحية الدينية للطوائف الأخرى، وكذلك تضاعف عددها بسبب تضاعف نشاط رجال الدين الموارنة في مجال التعليم، ومن بين المدارس التي تأسست خلال القرن 19م: مدرسة كفرخي في البترون1812م، مدرستان في كسروان وهما رومية وماريوحنا عام 1827م، مدرسة صربا في كسروان 1827م، مدرسة مار عبدا هرهر في كسروان 1827م، مدرسة ريفون في كسروان عام 1832م، مدرسة عرمة قرب عرامون في كسروان 1875م، مدرسة المزار في غزير بكسروان 1882م، المدرسة اللبنانية في قرية شهوان في كسروان 1883م، مدرسة مار بطرس في جبيل في كسروان 1883م، مدرسة بسكنتافي بكسروان 1896م، مدرسة عين تزار في الشوف 1811م وتدرس اللغات العربية والفرنسية واليونانية، مدرسة دير الصابغ في الشوير في المتن 1881م، المدرسة الوطنية في بعبدات في المتن 1883م، مدرسة دوما في البترون 1895م، والمدرسة الشرقية في زحلة 1898م. ماجد حمدان بهير، المرجع السابق، ص ص 144-145.

في أواخر القرن 19م لدى بعض القبائل الدرزية مبكرا لم يقل عن درجة انتشاره عند المسيحيين[1].

II- الصحة:

1- الأمراض والأوبئة:

مدينة دمشق كغيرها من المدن الشامية عرفت انتشار بعض الأدواء والأمراض منها ما هو محلي ومنها ما هو موجود في كل المناطق، ومن الأدواء التي ذكرها لنا الرحالة و التي تنتشر بكثرة في المدينة داء الزحار وهو كثير الحدوث بالمدينة[2]، وهو عبارة عن ألم يصيب المعدة وهو داء عام يأتي بسبب الإفراط في تناول بعض المأكولات كالثمار الفجة والعسل، والجبن والزيتون والزيت الحار، واللبن الحامض الرائب، والخبز قليل الاختمار، ويعاني السكان من الإصابة بالحمى وهي ناتجة عن أكل الفواكه الرديئة، كما ينتشر داء آخر بالمدينة وهو داء الجذري الخبيث[3]، ويقول فولني Volney أن بياض البشرة الذي يميز سكان المدينة ليس دليلا على الصحة، كما يذكر أن كثرة الإصابات بهذه الأدواء راجعة إلى غنى المدينة بالفواكه التي تقطف خاصة في فصلي الصيف والخريف، وهو ما يجعل سكان المدينة يقبلون عليها بكثرة ويتناولون كميات كبيرة منها[4]، والحمى التي يصاب بها سكان دمشق ليست راجعة لنمط الأكل وحده إنما هناك أسباب أخرى كارتفاع درجة الحرارة في فصل الصيف مما يؤدي ارتفاع عدد المصابين بالحمى[5].

تنتشر بعض الأمراض الأخرى كذلك في دمشق منها مرض الجذام، وفي هذا الصدد يذكر لنا غوستاف فلوبير Gustav Fluber في رحلته أنه دخل أحد المزارع المجاورة لمدينة دمشق مخصصة لتربية الدواجن، ووجد فيها حوالي 5 أو 6 رجال و 3 نساء مصابين بالجذام حيث كانوا يجلسون في هذا المكان من أجل استنشاق الهواء النقي، ووصف لنا أوجاعهم حيث يقول: "...أحدهم بأنف قد أكل المرض

---

[1] كمال الصليبي، **الدروز في التاريخ**، مؤسسة التراث الدرزي، بيروت، لبنان 2001م، ص 14.

[2] G téqui, op cit, p291.

يستخدم الرعاة في المناطق الجبلية حليب الماعز المختارة كدواء شامل، و هي من أفضل العلاجات لمرض الزحار.

[3] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ج2، ص11.

[4] حبيب السيوفي، المصدر نفسه،ج2، ص57.

[5] Edouard blondel, op cit, p176.

أرنبتها بالتمام كأنه مصاب بالجذري ووجهه مليء بالحروق، وآخر ببشرة محمرة كأنه حرق بالنار، ... وثالث بوجه شاحب وجسم أخضر بلون العشب تكسوه القروح، كانوا جميعا يئنون رجالا ونساء، وكانوا يختلطون رجالا ونساء ولا يفصل بينهم إلا بمقدار الألم الذي يعانونه، وقد أعطيناهم بعض المال فارتفعت عقائرهم بالدعاء لنا، وأذكر بالخصوص تلك المرأة صاحبة الأنف المجدوع صاحبة الغرغرة الرهيبة الصادرة من حنجرتها..."، ويختم غوستاف حديثه بوصف المعاناة التي يعيشها مرضى الجذام فيقول:"... تعيش هذه الفئة التعيسة منعزلة عن العالم، ويقومون بمداواة بعضهم البعض ويعتنون ببعضهم دون أن يتلقوا أدنى مساعدة خارجية، والألم يكون لديهم شديدا في مرحلة بداية المرض لكن الشلل يأتي بعد ذلك تدريجيا، وأشد شيء يترك جرحا في قلبهم ويؤلمهم هو النظر إلى حالة وجوههم في المرآة..."[1].

في ما عدا الأمراض والأدواء التي سبق وأن ذكرناها يمكن القول أن مناخ مدينة دمشق على العموم صحي مقارنة مع بقية المناطق، ولا تعرف المدينة انتشار أوبئة وأمراض خطيرة وحدوثها نادر خاصة وباء الطاعون الذي لم تعشه المدينة إلا في بعض المرات[2]، ومن أشهر الأوبئة التي أصابت مدينة دمشق كان في القرن 18م وهو وباء عام 1743م الذي ذكره أحمد البديري في كتابه حوادث دمشق اليومية، وذكر أنه بدأ في فصل الخريف واستمر طول الشتاء، وقال أن السكان توقعوا خروجه بدخول السنة الجديدة، وأشار أنه قد هلك فيه خلق معتبر[3]، وأشار لنا أيضا الرحالة فيكتور قورين Victor Guerin عن حدوث وباء آخر عام 1875م، وذكر أنه قد مات فيه أكثر من 10000 نسمة وهو وباء الطاعون الخطير[4]، ونلاحظ أن الفترة الزمنية بين وباء 1743م ووباء 1875م طويلة مما يدل على أن المدينة تعرف استقرارا

---

[1] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص64.

[2] Edouard blondel, op cit, p177.

[3] أحمد البديري الحلاق، المصدر السابق، ص 56.

[4] الطاعون: نوع من الوباء و هو عند أهل الطب ورم رديء قاتل يخرج معه تلهب شديد مؤلم جدا، ويصير لون ما حوله مخضرا أو أسودا، ويؤول أمره إلى التقرح بسرعة شديدة، وهو يحدث في ثلاث مواضع على الأرجح وهي: الإبط، وخلف الأذن وفي الأرنبة(في الأنف). هيفة صالح صلاح الصاعدي، **الأوبئة والأمراض في العصرين الأيوبي والمملوكي في مصر والشام**، رسالة ماجستير، جامعة طيبة، السعودية2012م، ص 71.

صحيا[1]، والوباء إذا حدث لا يمس المدن فقط بل حتى سكان الريف لا يسلمون منه، و من أشهر الأوبئة المنتشرة في الريف على العموم داء الجذري والكوليرا[2].

من المدن الأخرى التي تطرق إليها الرحالة في حديثهم عن الجانب الصحي مدينة حلب، وقد لاحظوا أن مناج مدينة حلب صحي جدا وأن المدينة ناذرا ما تعرف حدوث أمراض وأوبئة[3]، ويؤكد هذا ما ذكره فولني volney الذي عاش في المنطقة مدة معتبرة حيث يتحدث في رحلته عن هوائها الجاف وملائمته للأشخاص المصابين بالأمراض الصدرية، ولكن هذا الأمر حسبه لا يمنع وجود أمراض والأوبئة، ومن الأوبئة التي ذكرها وباء حبة حلب، وهو منتشر بالمدينة فقط وفي بعض ضواحيها وفي أنحاء ديار بكر أيضا، وهو عبارة عن بثر يكون في مراحله الأولى عبارة عن التهاب ثم يصير قرحا يدوم أحيانا لمدة سنة، ويخرخ عادة في الوجه فيترك فيه أثرا مشوها، ونقلا عن سكان المنطقة يقول أن هذا المرض يصيب كل من يقيم في حلب لمدة ثلاثة أشهر، ويشفى الشخص المصاب من هذه الحبة وحده دون أن يضع أي دواء، ويعتقد سكان حلب أن هذا المرض ينجم من الماء الذي يشربونه[4]، ومن الأمراض الأخرى المنتشرة في المدينة الحمى[5] ونزلات العيون التي تحدث بسبب الندى الذي ينتشر في الليل، وبسبب عادة النوم على السطوح، وهو الأمر الذي يؤدي إلى حوادث مرضية وتقل هذه الأمراض كلما اتجهنا إلى المناطق الجبلية[6].

من المدن الأخرى التي تعرف استقرارا صحيا مدينة بيروت، وهي من أبرز المدن الساحلية التي تتميز بمناخها الصحي مقارنة مع المدن الساحلية الأخرى

---

[1] Victor Guérin, op cit,p420.
[2] Le compte de perthuis, op cit, p244.
[3] Edouard blondel, op cit, p281.

[4] حبيب السيوفي، المصدر السابق،ج2، ص 11.

[5] أصيب العديد من الرحالة الفرنسيين بمرض الحمى ونذكر على سبيل المثال الراهب ماغري والرحالة الفرنسي جان دي لاروك في القرن 17م بعد وصولهما للبنان، كما أصيب البارون ألفرد الفرنسي الذي كان منخرطا في جيش إبراهيم باشا بالحمى التي ظهرت عليه عند دخوله الجبال اللبنانية قادم من سوريا، وبالتالي نقول أن مرض الحمى هو أكثر انتشارا في المدن اللبنانية مقارنة مع بقية المناطق الشامية(ينظر إلى أنيس الأبيض، **شهادة الرحالة الأجانب في الريف اللبناني من القرن السابع عشر إلى التاسع عشر**، جريدة الحياة، صحيفة يومية سياسية عربية دولية مستقلة، بيروت، لبنان، السبت 19 أكتوبر 2013.).

[6] قسطنطين فرانسوا فولني، المصدر السابق، ج2، ص201.

التي تعرف تواجد وانتشار العديد من الأمراض والأوبئة، خاصة وأن المناطق الساحلية وموانئها في عرضة دائمة لتوافد العديد من الأمراض والأوبئة كالطاعون مثلا بسبب كثرة الروافد[1]، ويذكر لنا إدوارد بلوندال Edouard Blondel من خلال إحصائياته أنها من أقل المدن المتوسطية تعرضا للأمراض، ولكنه لا ينفي وجود بعض الأمراض والأدواء فيذكر لنا الزحار والحمى الخبيثة التي يقول فيها: أنها تتطور أثناء الفترات الحارة خاصة في المناطق القريبة من الأنهار والمياه الراكدة، وعليه خلص إلى أن هناك عدد قليل من الأمراض التي يمكن الخوف منها، وكغيرها من المدن الأخرى يجب تجنب التعرض للشمس الحارة في فصل الصيف لأن أشعة الشمس تحدث حمى دماغية شديدة الضرر، ولاحظ أن السكان المحليين يرتدون العمائم السميكة التي تحميهم بشكل فعال من هذا الخطر لاسيما وأن الرعاية الطبية نادرة جدا، ولذلك كان لا بد من أخذ الحيطة والحذر دائما لعدم الوقوع في المرض[2].

مدينة القدس عرفت خلال القرن 19م توافد العديد من الأجانب لأنها مدينة مقدسة لديهم، وهو الأمر الذي ساهم في انتشار عدة أمراض وأوبئة وافدة، ولعل من أشهرها وباء الطاعون الذين كان منتشرا بكثرة في المدينة[3]، كما ينتشر في المدينة مرض البرص وفي هذا يقول الرحالة الفرنسي ألفونس كورات Alphonse Couret:"...وترى في المدينة المصابين بالبرص بكثرة يعترضون الحجاج المسيحيين في طريقهم، ويلتمسون منهم الصدقات بأصوات عالية..."[4]، وهو نفس

[1] Allard Camille, op cit, p66.

مدينة بيروت ودمشق كانت تقصد من مناطق بعيدة بحثا عن الاستشفاء وذلك نظرا لنقاء هوائها، وفي هذا يذكر صاحب رحلته المعروفة بالقول الحق في بيروت ودمشق السيد عبد الرحمن بك سامي سبب رحلته في القرن 19م لبيروت ودمشق فيقول:"...قصدت الأقطار السورية حسب مشورة الأطباء لتغيير الهواء والترويح عن النفس إثر ما ألم بي من انحراف الصحة، فجلت في بيروت ودمشق ولبنان أياما عديدة سررت فيها كثيرا من اعتدال الهواء وعذوبة الماء وجودة المكان...". ينظر إلى عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص 5.

[2] Edouard blondel, op cit, p46.

[3] Edouard blondel, ibid, p216.

[4] Alphonse couret, op cit, p195.

يذكر المستشرق دافيد صموئيل مارجوليوت أن سكان بلاد الشام المصابين بمرض البرص كانوا على العموم يذهبون لمدينة دمشق، وذلك من أجل التداوي بمياهها العذبة التي تحتل الصدارة بالنسبة للمنابع المائية في بلاد الشام، وذكر أن هذا الأمر كان يكسب

نفس ما لاحظه الرحالة م م ب ف M m p v الذي زار المدينة بعده بأربع سنوات، ويذكر لنا أنهم يفعلون نفس الأمر ويطلبون المساعدة باسم المخلص(يقصد نبي الله عيسى) وذلك باستعمال صرخات حزينة[1].

من الأمراض الأخرى المنتشرة بكثرة في القدس أيضا مرض جلدي وهو الجذام، وقد عرف هذا المرض تزايدا كبيرا لدرجة أنه تم تأسيس حي سمي بحي الجذام والذي جمع فيه جميع المرضى[2]، ومع أواخر القرن 19م قامت الحكومة التركية بإنشاء مجموعة من المؤسسات الخاصة بهم في مدينة القدس كما أنشأت مؤسسة أخرى خيرية، ويقدم لهم فيها كل ما يحتاجونه من أكل وتوفر لهم كذلك الرعاية الصحية من قبل الفرنسيسكان وراهبات القديس فنست دي بول[3]، كما يتم معالجة مرضى الجذام أيضا في المستشفيات التركية[4]، ويذكر لنا إدوارد بلوندال Edouard Blondel **أنهم يعيشون حياة عادية ولا يمنعهم المرض من الزواج، ويقول أنهم يمضون حياتهم في التسول وطلب الصدقات لأنهم لا يستطيعون العمل[5]، وهو ما يؤكده لنا جين ليان** Jean lian **إذ يقول:"... المجذومون يتزوجون من بعضهم البعض وأطفالهم يتمتعون بصحة جيدة حتى سن البلوغ..."[6].**

تنذر الأمراض في المناطق الجبلية وفي الأماكن العالية ويعيش بها السكان حتى عمر التسعين، والذين يموتون قبل هذا السن يكون السبب قلة العناية أو قلة الطعام الجيد[7]، والهواء في جبل لبنان[8] جميل بصفة عامة خاصة في الأماكن

سكان المدينة فخرا واعتزازا بأنهار مدينتهم خاصة نهر بردى. دافيد صموئيل مارجوليت، **القاهرة وبيت المقدس ودمشق**، تر:خالد أسد عيسى، أحمد غسان سبانو، منشورات دار علاء الدين، دمشق، سوريا2018م، ص 220.

[1] M m p v, op cit, p113.

[2] Edouard blondel, op cit, p229.

[3] M m p v, op cit, p116.

[4] M m p v, ibid, p158.

[5] Edouard blondel, op cit, p230.

[6] Jean lian, **Jérusalem et la terre sainte histoire de pèlerinage de pénitence de France aux sainte lieux 28 avril 08 juin 1882**, imprimerie et lithographie g Foix rue balquerie, Auch, France 1883, p137.

[7] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص68.

[8] لم تكن تسمية جبل لبنان ذات دلالة جغرافية في كل وقت، ففي القرنين 17 و 18م اقتصر مدلول التسمية على المناطق الجبلية الشمالية التالية: بلاد بشري، بلاد البترون، بلاد جبيل أي موطن الموارنة الأساسي، أما بلاد كسروان المنطقة الجبلية الوسطى فكانت غالبا ما تحافظ على تسميتها المستقلة، ولا تدخل في إطار مدلول جبل لبنان إلا ناذرا، أما بلاد الشوف وهي المنطقة الجبلية الجنوبية

المرتفعة التي يقصدها الناس في فصل الصيف، وسكان المناطق الساحلية ينتقلون في فصل الصيف إليها، والمكان الوحيد ذو المناج السيئ في هذه البقعة هو المنطقة التي تقع وراء نهر بيروت، حيث أن أهالي هذه المنطقة يموتون بمرض الاستسقاء والكظام.

قلما تنتشر في الجبل الأمراض السارية فالدم نقي جدا في الجبل، وهناك فئة قليلة تصاب بمرض البرص وهو أمر ناذر جدا وقلما يحدث في هذه المناطق، والمصاب يذهب إلى مدينة دمشق ليستشفي فيها وذلك عن طريق الشرب من مائها والاستحمام به، فهو يخفف وطأة الألم حين بلوغه الحد الأعلى، ويشفي منه إلى الأبد بشرط أن يكون المرض جديدا، ويعاود المريض استعمال هذه الطريقة الإستشفائية وإلا دب فيه المرض من جديد، ولهذا الأمر تجد أن المصابين بالبرص قد استقروا بالمدينة ويعيشون اعتمادا على الصدقات[1]، والجبليون معرضون دائما لحبة يدعونها حبة الكي، وهي لا تشفى إلا بواسطة حرقها، أما أعراضها فهي صعوبة في البلع ورائحة اللهاث الكريهة والبثور في الفم أو في الأمعاء أحيانا، وكي بسيط في مقدمة الرأس يشفي منها تماما[2].

فكان يطلق عليها اسم جبل الدروز ولم تشملها تسمية جبل لبنان إلا لاحقا، ومنذ بدايات القرن 19م بدأ اسم جبل لبنان يتعمم على المناطق الجبلية الثلاث. وجيه كوثراني، **الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي من المتصرفية العثمانية إلى دولة لبنان الكبير**، منشورات بحسون الثقافية، بيروت، لبنان 1986م، ص ص 11-12.

[1] Allard Camille, op cit, p66.

لعبت غابات الصنوبر المتواجدة في الجبال التابعة لمتصرفية جبل لبنان دورا هاما في الوقاية من الأمراض الفتاكة التي كانت موجودة في المدن الساحلية، وهو السبب الرئيسي لانتقال المرضى إلى هذه المناطق طلبا للاستشفاء بل منهم بعض المرضى الذين كانوا موجودين في مرافق الحجر الصحي وفروا منها أملا في الشفاء. عبد الله إبراهيم سعيد، المرجع السابق، ص 246.

[2] هنري فيز ، المصدر السابق ، ص245.

ساعد على انتشار الأوبئة والأمراض في المناطق الجبلية والأماكن المجاورة لها شرب المياه من الآبار المكشوفة والمياه الراكدة، أو من الحفر المكشوفة والتي هي نفسها التي تشرب منها الحيوانات، وكان الجبليون يشربون من مجاري الأنهار دون أن يأخذوا الاحتياطات الضرورية للعناية بها وتعقيمها، وسبب ذلك غياب الوسائل الصحية الحديثة ونقص الإرشاد الطبي الواقي من الأمراض السارية خاصة الملاريا والحمى، وكانت هذه المجاري والينابيع مكانا ملائما لتكاثر الحشرات خاصة البعوض الناقل للأمراض، إلى جانب هذا لعب شكل المنزل الريفي المستطيل والقليل النوافذ المفتقر للقواعد الصحية من تهوية وتدفئة دورا مؤثرا في نقل الأمراض المتفشية وفي تكاثر الحشرات الضارة، ومن أهم الأمراض التي انتشرت في جبل لبنان في الفترة الممتدة من سنة 1861م إلى 1914م الملاريا، الحمى التيفوئيدية، الباراتيفويد، الدوسانترابا، الأمراض الرئوية كالسل، وأمراض الكبد، أمراض القلب، أمراض الكلى، أمراض الجهاز

2- طرق العلاج:

ذكر الرحالة في كتاباتهم نماذج عن أساليب وطرق العلاج نبدأها بمدينة حلب، والملاحظ من خلالها أن الطب في مدينة حلب خلال القرن 19م كان لا يزال يعتمد على الطرق التقليدية بصفة عامة كالأمثال والحكم التي توارثها السكان عن الأجداد منذ القدم، ويذكر لنا هنري قيز Henri Guys أن الأطباء الموجودين في المدينة لم يتكونوا في مدارس بل ورثوا هذه المهنة من آبائهم، وهم لا يصفون أدوية عصرية إنما يعتمدون على الخلطات المكونة من أعشاب عادة، والأطباء هم نفسهم مالكو الصيدليات ويقومون ببيع العلاجات التي يخلطونها في مستوصفاتهم.

تحدث هنري قيز Henri Guys عن عدة عادات من خلال ملاحظاته منها أن المشرقيين قليلا ما يذهبون إلى الأطباء في حال مرضهم إلا إذا أحسوا بتفاقم المرض لديهم إلى درجة كبيرة، ويقول أنه عندما يمرض المشرقي فإنه في العادة يلجأ إلى مشورة أهله وأصدقائه لعلهم يصفون له علاجا فعالا جربوه من قبل وشفاهم، وفي الأخير عندما يعجزون عن إيجاد حل فإنهم يتوجهون إلى الصيدليات، وتجد دائما تجد حمارا عند باب الصيدليات خاصة وأن الطبيب يحتاج دائما إلى التنقل للحارات القديمة لعلاج المرضى الذين لا يمكنهم المجيء عنده[1]، ويذكر جول قزافي Jules Xavier أن السكان يستعملون كبريتات الكينين الفعالة لعلاج الحمى[2]، أما بالنسبة للنساء فإنهن لا يعالجن عند طبيب بل هناك نساء مختصات من جنسهن للعلاج وحتى للولادة[3].

الهضمي، الروماتيزم، السكري، الانفلوانزا، الجذام، الهواء الأصفر، الطاعون، الحمى الصفراء، الحمى المالطية، الجذري، الحمى القرمزية. عبد الله إبراهيم سعيد، المرجع السابق، ص 245.

[1] Henri guys, op cit, p p – 327-330.

نفى هنري قيز من خلال كلامه عدم وجود أطباء أكفاء في بلاد الشام، بينما اشتهرت العديد من المدن بوجود مدارس راقية لتعليم الطب وتخرج منها العديد من الأطباء الأكفاء، ومارسوا أنشطتهم في العديد من المدن الشامية، ونذكر مدارس مدينة دمشق المشهورة وهي الدخوارية والدنيسرية واللبودية النجمية، وأشتغل خريجوها في بيمارستان النوري أيضا والصغير والقمري بدمشق، ولم تكن دمشق وحدها هي التي تحتوي على دور علاج بل كل مدينة كان لها بيمارستاناتها، ففي حلب يوجد بيمارستان النوري والبيمارستان الجديد، وفي أنطاكية ونابلس والقدس وعكا وصفد وغزة والكرك وحصن الأكراد والرملة. محمد الخطيب، المرجع السابق، ص 217.

[2] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, p 43.

[3] Henri guys, op cit, p134.

أما بالنسبة لمدينة بيروت فالملاحظ أنها عرفت خلال القرن 19م تطورا ملحوظا في الجانب الصحي مقارنة مع بقية المدن الشامية، ويوجد بها العديد من الصيدليات والتي لاحظها إدوارد بلوندال Edouard Blondel وذكر أنه دخل لإحداها ووجدها غنية إلى حد ما بالأدوية الفعالة والمعدة جيدا وقال أنها ذات جودة عالية[1]، ومدينة بيروت بما أنها ساحلية فهي معرضة كثيرا لخطر الطاعون لاسيما وأن مينائها يعرف توافد العديد من الأجانب، ولذلك أنشأت الحكومة مؤسسة مخصصة للحجر الصحي، ويتم فيها حجز كل حالة مصابة بالطاعون أو مشتبه فيها، وهذه الإجراءات تتخذ من قبل السلطات للحد من تكاثر الطاعون الذي ينتشر بسرعة[2]، وقد أكد ألارد كاميل Allard Camille قوة جهاز الحجر الصحي في المدينة وذكر أنه يوجد بالمدينة مفتش عمله الأساسي مراقبة نشاط الحجر الصحي، وقال:"... نظام الحجر الصحي جيد جدا في بيروت وهم لا يهملون الأهمية القصوى لهذه التدابير التي تحمي حياة السكان..."، وذكر أنه تم تخصيص عدد من الأطباء كمسئولين عن النظام الصحي بالميناء، ومرخص لهم مراقبة السفن القادمة من المناطق الأخرى[3].

يمكن القول أن تجسد فكرة الحجر الصحي في بلاد الشام هو أمر جديد في المنطقة، ويرجع الفضل فيها إلى فترة محمد علي والي مصر، وهو ما أكدته ملاحظات الرحالة الروسي بازيلي Bazille الذي تحدث عن أهم الإجراءات التي اتبعها من أجل حماية المنطقة من انتقال وباء الطاعون، وذكر في كتابه أن محمد علي واكب من خلال مشاريعه الإصلاحية تجديدات أكثر حداثة من التي وضعتها السلطة العثمانية، وقال أن السلطان العثماني لم يكن في إمكانه إدخال أي تغييرات لأنها كانت كافية لإثارة عصيان في أرجاء الإمبراطورية والسلطان يتهم بالهرطقة، وذكر أن محمد علي قد سخر العديد من الأطباء الذين جلبهم من أوربا للخدمة في

[1] Edouard blondel, op cit, p47.
إلى جانب الصيدليات توجد في مدينة بيروت مجموعة مهمة من المستشفيات مثل مستشفى الحكومة، وتوجد عدة مستشفيات مسيحية مثل مستشفى البروسيين، مستشفى اليسوعيين، مستشفى الروم. ينظر إلى عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص ص 29-30.

[2] Edouard blondel, op cit, p59.
[3] Allard Camille, op cit, p p68-71.

هذا المجال، وأعطاهم صلاحيات واسعة في عمليات التطويق الكبرى في مناطق انتشار العدوى[1].

الطاعون ليس محلي إنما يأتي في أغلب الأحيان من مناطق أخرى مثل مصر، وقد يأتي أحيانا من استانبول كل سنتين أو ثلاث مارا بالمدن التي تفصل المنطقة عن العاصمة، وعندما تظهر عوارضه في منطقة ما عادة ما تظهر في العام الموالي نظرا لبقاء الجراثيم، وقد ذكر هنري قيز Henri Guys أن السكان المحليين لا يسلمون بأن الطاعون ينتشر عن طريق اللمس بل ينتشر عن طريق الهواء والماء، ويذكر كذلك أن حالات واحتمالات عودة الداء بعد سنتين قليلة جدا والخطورة تتضاءل متى طال عليه الزمن، ومن الإيجابيات التي تحدث عنها إضافة إلى ما ذكرناه سابقا عن نظام الحجر الصحي هو دخول عملية التلقيح إلى المنطقة، وقال أن الحكومة منذ سنوات طويلة استعملتها لمواجهة وباء الطاعون مع العلم أنه كتب مذكراته في بداية القرن 19م[2].

لاحظ هنري قيز Henri Guys أن من صفات سكان بلاد الشام المسلمين الرضوج التام للأحكام الإلهية في فترة حدوث الطاعون وقال في ذلك:"...أمر جدير بالإعجاب فالتسليم التام بقضاء ومشيئة الله يتجلى في أعلى مظاهره حين انتشار الطاعون، فهم لا يتزحزحون بل بالعكس يثبتون أمام هذا الخطر الذي يهددهم، وذلك يكون مهما كان عدد الضحايا الذي يخلفه الطاعون، فالمسلم إذا حدث وأصيب أحد أفراد عائلته بالوباء فإنه لا يحتاط أبدا، ويقول لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وهناك الكثير من الأدلة على وجود أشخاص خالطو العدوى لكنهم لم يصابوا أبدا..."[3]، ويؤكد هذه الملاحظات ما نقله لنا إدوارد بلوندال Edouard Blondel الذي ذكر أن المسلمين بصفة عامة لا يخافون من الطاعون وقال:"...قرآنهم أخبرهم بأن الذي يموت بالطاعون يدخل للجنة مع حور العين، وتسمى بعقيدة القدرية وتحتهم على عدم اتخاذ إجراءات ولا احتياطات..."[4].

[1] بازيلي مخاتيلوفيتش، المصدر السابق، ص ص 184-185.

[2] هنري قيز ، المصدر السابق ،ج1، ص ص 240-242.

[3] هنري قيز ، المصدر نفسه ، ج1، ص95.

[4] Edouard Blondel, op cit, p60.

توجد في منطقة الجبلية المحيطة بمدينة بيروت كثير من مناجم الفحم والسكان لا يستعملونه كوقود، وإنما يستعملونه لأغراض علاجية خاصة بعدما اكتشفوا فيه ميزة طبية وهي شفاء الجراح الأكثر اتساعا في فترة زمنية قصيرة مقدرة بأربعة وعشرين ساعة، ويتم تحويله إلى مسحوق ناعم لا يمكن مسكه بالأصابع، ثم ينثر على الجرح ويلف بشاشة ليندمل الجرح بسرعة عجيبة، ويضع السكان المحليون فوق البثور التي تظهر لديهم لزقات تكون إما من العنب المجفف الأسود ودهن من ألية الخروف، أو تكون من الحليب ولب الخبز والزعفران، وأحيانا يوضع عليها البزاق الأصفر، والدمامل أيضا تشفى وتتلاشى في بعض الأحيان بعد استعمال هذه الأدوية، والعرق الذي ينضح بغزارة من المريض هو من العلامات الدالة على بداية التعافي والشفاء، وإذا لم يعقب فتح الدمامل التعرق فإنهم يلجئون إلى بضعها فتشد ليسيل قيحها بطريقة الفتائل والمراهم العادية[1].

يستعمل سكان المناطق الجبلية بكثرة إضافة إلى عدد كبير من سكان المدن نبتة الزعتر والتي تعتبر من العلاجات النافعة المجربة، وعادة ما يتم تناولها في الفترة الصباحية وينشطون بها معدتهم ويفتحون بها قابلية تناول طعام النهار، وهذه النبتة موجودة في البيت دائما ويقوم السكان بتجفيف النبتة المعطرة ثم يحفظونها بعد دقها حيث تصبح ناعمة، وبعدها يضيفون إليها السماق وبعض الملح لكي تصبح حامضة وهو أمر يستطيبه الشاميون خاصة النساء، والزعتر الشامي يعتبر من أجمل الهدايا التي تقدم للآخرين كما يتم تصدير نسبة كبيرة منه[2].

في الختام ومن خلال ما سبق ذكره نستنتج أن الجانب السكاني في بلاد الشام خلال القرن 19م قد عرف تطورا ملحوظا، والزيادة كانت منتظمة على مدار هذا القرن ولم يؤثر فيها الاختلاف الطائفي والديني والمذهبي، وبالرغم من وجود بعض الصراعات الهامشية التي حدثت في بعض الفترات كالحرب الأهلية 1860م إلى أنها كانت مؤقتة ولم تدم طويلا وسرعان ما كان يستتب الأمن، وملاحظة أخرى لا يمكننا إهمالها وهي تزايد عدد اليهود الكبير في هذه الفترة خاصة مع النصف الثاني من القرن 19م، حيث شكلوا كثافة معتبرة في المنطقة اعتمدت عليها في ما

[1] هنري قيز ، المصدر السابق ، ص ص 234-245.

[2] هنري غيز، المصدر نفسه، ج2، ص64.

بعد المنظمة الصهيونية كقاعدة متينة لتجسيد أهدافها الاستيطانية التي ستتحول فيما بعد لاستعمار حقيقي بتواطؤ دولي، أما بالنسبة للجانب الصحي فالملاحظ أنه لم يرقى إلى التطور الكبير الذي كانت تعرفه الدول الأوربية، وكان بسيطا يعتمد في العموم على الطرق التقليدية المتوارثة منذ وقت طويل، ولكن هذا لاينفي تماما وجود مستشفيات وصيدليات وبعض الطرق الحديثة في العلاخ، لكن تواجدها كان نسبيا مقارنة بعدد السكان.

الفصل الثالث

المجتمع الشامي مظاهر وتفاعلات

أولاً : الجانب الديني

ثانياً : مميزات وخصائص اللباس الشامي

ثالثاً : يوميات سكان الشام

رابعا : الاحتفالات

بلاد الشام عبارة عن فسيفساء دينية ومذهبية وطائفية، ولكل واحدة منها عقائدها ومعتقداتها وطقوسها وميولاتها الخاصة وعاداتها وتقاليدها وممارساتها وطبائعها، وتأتي المناطق الشمالية الغربية من بلاد الشام في المرتبة الأولى من حيث هذا التباين والتنوع الديني والمذهبي الكبير مقارنة مع بقية المناطق الشامية الأخرى، وهذا التنوع والتباين موجود أيضا بنسب مختلفة ومتفاوتة في بقية المناطق لكن أقل على العموم من شمال غرب الشام، وقد انبهر الرحالة الفرنسيون من هذا الأمر حيث تلاحظ ذلك جليا في كتاباتهم وأوصافهم لها، وعليه سنتقدم في هذا الفصل تفصيلا للأمور التي يمكن من خلالها التمييز بين سكان الشام، سواء ما تعلق بالجانب الديني وفروعه المذهبية والطائفية، أو ما يتعلق بمختلف التفاصيل الأخرى من عادات وتقاليد وممارسات وخصائص أخرى متنوعة، والتي يمكن من خلالها بكل سهولة تمييز وتفرقة السكان ومعرفة أصولهم وديانتهم وحتى مستواهم المعيشي في بعض الأحيان.

أولا- الجانب الديني:

1- المجموعات الدينية:

1/1 - المسلمون:

رغم أن السكان في بلاد الشام يعتنقون عدة ديانات وحتى الطوائف والطقوس الدينية تختلف وتتنوع إلا أن المسلمين هم الذين يشكلون الأغلبية، وهو الأمر الذي تأكده ملاحظات الرحالة الفرنسيين فهذا فليل بيتيجني Filleul Pétigny Clara يذكر في كتابه أن المسلمين هم من أكبر الطوائف الموجودة بالشام، وقال أنهم يشكلون الأغلبية من سكان الشام، ومن مسلمي الشام يوجد من يعتنق المذهب السني ومنهم من يعتنق المذهب الشيعي لكن على العموم المسلمون السنة هم الأكثر عددا، ونستطيع أن نميز في الكتابات الفرنسية بين السنة والشيعة ببساطة فهم عندما يتكلمون عن الشيعة يسمونهم المتواليس أما السنة فتجد كلمة المسلمين.

يتبع المسلمون الشاميون السنة بصفة عامة الشريعة الشفوية والفعلية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم التي توارثوها وتناقلوها، ويعترفون بشرعية الخلفاء الراشدين، وقد لاحظ الرحالة الفرنسيون أن المسلمين بصفة عامة في بلاد الشام

يتميزون بمجموعة من الأخلاق الحسنة ومن أهمها احترام الغير حتى ولو كانوا من غير دينهم، وعليه يوجد تعايش ديني كبير خاصة بين المسلمين والمسيحيين، والحكام المسلمون يتركون الحرية التامة للمسيحيين في الذهاب إلى الكنائس والصلاة بها، ويعاملونهم بشكل جيد ويحافظون على بيوتهم وكنائسهم[1]، وهو ما يؤكده لنا الرحالة لومباي G De Lombay من خلال ملاحظاته التي دونها في زيارته لمدينة دمشق حيث قال:"...تعتبر مدينة دمشق مثالا حيا على التعايش الديني خاصة بين المسلمين والمسيحيين..."[2].

ذكر الرحالة الكثير من الأمور عن المسلمين وممارساتهم، ومن بينها ملاحظاتهم حول التزام المسلمين بأداء واجباتهم الدينية في أوقاتها حتى لو كان لديهم مشاغل أخرى، فهذا إدوارد بلوندال Edouard Blondel يقدم لنا وصفا دقيقا لالتزام المسلمين بأداء صلاة الجمعة في وقتها يوم الجمعة حيث يقول أنهم يتجهون للمساجد من أجل أداء صلاة الجمعة، ويقومون بإغلاق متاجرهم حيث تبقى المدن شبه فارغة وذلك لقداسة هذا اليوم، وذكر أنهم في الأوقات الأخرى بعد أداء الصلوات يقومون بفتح متاجرهم، وفي الأوقات الأخرى بمجرد أن يصعد المؤذن إلى المئذنة ويؤذن للصلاة ترى التجار في البازارات يتسارعون للوضوء، وذكر أن من التجار من يصلي في محله، أما الذين يذهبون للمساجد فقد لاحظ أنهم يدعون أغراضهم كما هي لأنهم يعرفون أنها في أمان ويصلون بكل حرية[3].

لم يتحدث رحالة القرن 19م عن المسلمين البدو لكن لاستيفاء الغرض نذكر ملاحظات فولني Volney للبدو، وهو الذي بقي عندهم لفترة طويلة، وقد لاحظ أنهم يتمتعون بحرية دينية كبيرة، وقال أن العرب المقيمون بالقرب من المدن يحتفظون من باب السياسة بظاهر يدل على تمسكهم بالدين، غير أن هذا الظاهر غير متين وتعبدهم متراج، مما يجعلهم في نظر غيرهم كأن لا دين لهم ولا شريعة، حتى هم أنفسهم يقولون الدين لم يجعل لنا، ويضيفون كيف يتسنى لنا الوضوء ولا ماء لدينا، وكيف نؤدي الزكاة ولا مال لدينا، ولماذا نصوم رمضان ونحن نصوم كل السنة، ولماذا نحج بيت الله الحرام والله موجود في كل مكان، ولا يمكننا أبدا الأخذ

[1] Filleul pétigny Clara, op cit, p166.
[2] G de lombay, op cit, p164.
[3] Edouard blondel, op cit, p p 21- 22.

برأيه، ولا يمكننا أن نعممه على كافة سكان البدو لأن معاشرته لسكان البدو كان مقتصرا على بعض القبائل التي آوته فقط[1].

إلى جانب المذهب السني يعد المذهب الشيعي[2] من بين أبرز المذاهب الإسلامية التي تنتشر في بلاد الشام، وقد عرف انتشارا ملحوظا بالمنطقة خاصة الجهات الشرقية والوسطى، ويختلفون عن المسلمين السنة في بعض العادات وفي بعض العقائد وممارساتهم الدينية أيضا متميزة، وقدم لنا الرحالة العديد من الملاحظات في هذا الشأن وذكروا أن منهم فئات تعيش في عزلة عن السكان الآخرين خاصة الفئة المنتشرة في أعلى جبال الجليل[3]، ووصلوا إلى درجات عالية من العزلة حيث ذكر الرحالة الفرنسيون الذين زاروهم في مسار رحلاتهم أنهم لا يأكلون ولا يشربون من أتباع الطوائف الأخرى من غير دينهم[4]، وهي الملاحظة التي يؤكدها لنا فيلال بيتجني Clara Filleul de Pétigny الذي يقول أنهم وصلوا في عزلتهم إلى درجة تكسير الطبق الذي يتم تقديم الطعام فيه خارخ منازلهم[5].

يذكر القنصل الفرنسي هنري قيز Henri Guys في مذكراته أنها طائفة يكتنفها بعض الغموض في معتقداتها وعاداتها مقارنة مع بقية الطوائف، وقام بسرد بعض معتقداتهم فيقول:"...هم يقدسون علي بن أبي طالب والذي هو بمثابة إله لديهم، ويعتقدون أنه سيبعث من جديد ليحكم الكون، وأنه سيخرخ مع نجم لامع، وبحسب اعتقادهم يمثل علي في وحدته الإلهية محمدا، وديانتهم هي مزيج مأخوذ من عدة ديانات، وهم ينقسمون إلى طوائف..."[6]، ويقول أيضا أن الشيعة يعتقدون

[1] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص30.

[2] تذكر كتب التاريخ أن واضع فكرة التشيع رجل يهودي يسمى عبد الله بن سبأ، وأخرج أفكاره الخبيثة في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ، حيث كان يتنقل بها بين سبأ والمدينة وبصرة والكوفة ومصر والشام، وقد التف حوله الكثير من المفسدين والحاقدين والجهال بحقيقة الدين، وكان له أهداف يهودية تسعى لزعزعة وحدة المسلمين عن طريق خلق معتقدات جديدة خارجة عن ملة الإسلام (ينظر إلى علي مُحَمَّد الصلابي، **صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي**، دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر 2007م، ص 13.).

[3] Michel Jullien, op cit, p16.

[4] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p141.

[5] Clara filleul de pétigny, op cit, p233.

[6] Henri Guys, op cit, p pp39-41.

أن النبي ليس محمدا(صلى الله عليه و سلم) وأن الرسالة قد وقعت خطأ لديه بعدما كانت موجهة في الأساس إلى علي بن أبي طالب، ويستعمل الشيعة موسيقى خاصة تعتمد على عدة أدوات، وهي كافية لخلق جو ممتع يساعدهم على أداء الرقصات الدينية التي يحبونها، ويعلمون أطفالهم منذ الصغر عادة كتم الأسرار التي تتعلق بدينهم[1].

2/1- أهل الذمة[2]:

أ- المسيحيون:

تحتوي بلاد الشام على كثافة سكانية معتبرة تعتنق الديانة المسيحية، وينقسم هؤلاء المسيحيون إلى أرثوذكس وكاثوليك وهذا التقسيم الأكبر[3]، أما بالنسبة للتقسيم الأصغر الكاثوليك ليسوا متحدين فبعضهم موارنة وآخرون يونانيون متحدون، وآخرون أرمن[4]، وآخرون سوريون، ومنهم لاتينيون، والملاحظ أن

الكيسانية، الزيدية، الإمامية، الغلاة، الإسماعيلية، وبعضهم يميل إلى الاعتزال وآخر للسنة وفريق للتشبيه، وكل فرقة لها معتقداتها وعاداتها الخاصة. ينظر إلى أبي الفتح مُحَمَّد بن عبد الكريم الشهرستاني، المصدر السابق، ج1، ص 106.والفرق الشيعية المنتشرة ببلاد الشام هم الإسماعيلية و الزيدية و النصيرية التي هي من فروع الغلاة التي انقسمت ل 11 صنفا.

[1] Henri Guys, op cit, p44-46.

[2] مع ثلاثينيات القرن التاسع عشر تغير مصطلح أهل الذمة لدى السلطات العثمانية وأصبح يطلق عليهم اسم الخواجة في السجلات الرسمية، ويمكن تفسير هذا التغيير إلى تغير نظرة الدولة العثمانية لهذه الفئة خاصة بعد إصدار السلطان العثماني عبد المجيد الأول لخط كلخانة 1839م وكذلك صدور خط هاميون 1856م، واللذان بموجبهما كفل أمن الرعايا المسيحيين وحياتهم وأغراضهم وألغيت عنهم ضريبة القرعة العسكرية، وصاروا مؤهلين للخدمة العسكرية مع حرية شراء الإعفاءات، ويلاحظ كذلك أن الباب العالي اعتبر أهل الذمة تابعين للدولة العثمانية بموجب فرمانات المساواة التي تمخضت عن حقبة التنظيمات. إيمان عبد الله التهامي، المرجع السابق، ص ص 121-156.

[3] الأرثوذكس: هم أتباع الكنيسة الشرقية البيزنطية، وقد نظم أمورها في البلاد الإسلامية السلطان مُحَمَّد الفاتح وسمي أتباعها روم ملتي أي الملة أو الطائفة، وقد اتبع القسم الأعظم من مسيحيي ولاية سورية الكنيسة الأرثوذوكسية فكان لهم بطريركيتان في بلاد الشام واحدة بالقدس والأخرى بدمشق.

الكاثوليك: يعرفون بالروم الكاثوليك وهم منشقون عن الروم الأرثوذكس وتم اضطهادهم من قبل الأرثوذكس، وتمكنوا من أن يشكلوا طائفة جديدة وانتخبوا عام 1724م بطريكا خاصا بهم واعترفوا برئاسة البابا. سهام مُحَمَّد هنداوي، المرجع السابق، ص ص 145-147.

[4] الأرمن: طائفة اعترفت بها الدولة العثمانية عشية فتح القسطنطينية سنة 1453م، وكان مطران الأرمن الأرثوذكس مستقرا في اسكودار، وفي بلاد الشام وجدت فرقتان منهم وهم الأرمن الأرثوذوكس والأرمن الكاثوليك. سهام مُحَمَّد هنداوي، المرجع نفسه، ص 148.

هذه الفئات غير متحدة وهناك كراهية كبيرة قائمة بين هذه المجموعات[1]، وقد عرفت بلاد الشام مع منتصف القرن 19م بداية انتشار المذهب البروتستانتي الذي كانت تدعمه بريطانيا، ويحتفل المسيحيون في بلاد الشام بعدة مناسبات دينية سجلها لنا الرحالة في كتاباتهم وهي كالتالي:

تقام الاحتفالات الدينية المسيحية كل سنة ومن أشهرها تلك التي كانت تحتضنها مدينة القدس، والقدس كما هو معروف مدينة ذات مكانة دينية كبيرة لدى المسيحيين، وفيها العديد من المقدسات مما جعلها مركزا يجتمعون فيه ويمارسون فيه طقوسهم وعاداتهم، ويحتفلون فيه بمناسباتهم الدينية الكبرى والصغرى، ومن أشهر المناسبات التي يتجمع فيها عدد كبير من المسيحيين عيد القديس إيليا(إلياس) في يوم 20 يوليو من كل سنة، وقد عاش القس لسبيناخ L'abbé jh Lespinasse أثناء تأديته للحج المسيحي هذه المناسبة، ووصف هذا الاحتفال بالعظيم، وقال أن المميز فيه أنه يكتسي حلة شرقية، وذكر أنه بهذه المناسبة يتوافد العديد من الحجاج الكاثوليك والمنشقين والموارنة والدروز بل حتى المسلمون قال أنهم يحضرون بأعداد كبيرة من أجل مشاهدة الاحتفال، ويعسكر الضيوف في الساحة الكبرى المقابلة لكنيسة القيامة، ويبدؤون في الغناء وإطلاق النار حتى أن الجبال المحيطة بالمدينة ترن بذلك، ويبدؤون في الرقص على إيقاع هذه الأغاني كما تنظم حفلة أخرى في اليوم الثاني باستعمال الفنتازيا الرائعة، والتي تكتسي بخيولها طابعا شرقيا محض[2].

تقام بمدينة القدس أيضا المهرجانات الكبرى كعيد الفصح، وهو من أشهر الأعياد المسيحية، ويقام بالمدينة أيضا عيد الميلاد خاصة وأن القبر المقدس ومغارة الميلاد لدى المسيحيين موجودان بها[3]، وتمارس كل الطقوس الاحتفالية تقريبا في داخل كنيسة القيامة حيث تجتمع كل الفرق المسيحية من أقباط، أحباش، أرمن، كاثوليك، منشقين، موارنة، لاتينيون، سوريون، يونانيون خاضعون وغير خاضعون[4]، ويأتي الحجاج المسيحيون للقدس من كل أنحاء العالم من إنجلترا، إسبانيا، بافاريا، بلجيكا، النمسا، بولندا، إيطاليا، أمريكا، بروسيا،

[1] Gabriel charmes, op cit, p165.
[2] L'abbé jh Lespinasse, op cit, p66.
[3] Edouard blondel, op cit, p215.
[4] M m p v, op cit, p112.

كندا، فرنسا[1]، كما يأتي من روسيا عدد كبير من الحجاج يصل إلى حوالي 5000 روسي سنويا[2].

يحتفل قريبا من القدس وبالتحديد في مدينة الناصرة المسيحيون بعدة مناسبات، لاسيما وأن لديهم بالمدينة مجموعة من المقدسات، ومن بين الاحتفالات المسيحية التي تنظم بها عيد القداس الذي يتم بكنيسة البشارة[3]، ويذكر بيار لويس Pierre Louis Péchenard أن المسيحيين الفرنسيسكان هم الذين يحتفلون بالقداس في الكنيسة، ويعرف عندهم هذا اليوم بيوم الصعود[4]، والفرنسيسكان ليس هم الوحيدين الذين يحتفلون بهذا العيد فالآباء الكبوشيين يحتفلون به أيضا لكن في يوم السبت[5]، ويتم تخصيص يوم الأحد أو ما يسمى بعيد الشكر كيوم مخصص لأداء المناسك المسيحية الأخرى[6]، ومن بين العادات التي تميز الاحتفالات بعيد القداس نسرد ما ذكره لنا الرحالة م م ب ف M m p v الذي حضر المناسبة فيقول:"...وتتم عملية المباركة باستخدام البخور ويردد القداس باللغة العربية، ثم يأخذ الكاهن القربان ويوزع الخبز والخمر، وبعدها يقترب الحاضرون من المائدة المقدسة، ويقبلون على الأصناف المختلفة الموضوعة فوقها باستعمال ملعقة ذهبية..."[7].

يحتفل الموارنة المسيحيون المقيمون في الجهات الشرقية لبلاد الشام في كل سنة بيوم يعرف عندهم بيوم التجلي، ويقيمون بمناسبته مهرجان الأرز على الجبل حيث يصعد البطريك إلى هناك رفقة مجموعة من الأساقفة، ويرافقهم عدد كبير من المتدينيين المسيحيين الذين يأتون في المرتبة الأولى، وعدد كبير من المؤمنين العاديين، ويتم تقديم الذبيحة المقدسة لديهم هناك فوق مذابح مصنوعة من الحجارة أقيمت عند سفح أكبر الأشجار[8].

[1] Alphonse couret, op cit, p155.
[2] L'abbé a. parraud, op cit, p208.
[3] Firmin rauzy, op cit, p30.
[4] Pierre louis péchenard, op cit, p164.
[5] G téqui, op cit, p254.
[6] Jean baptiste morot, op cit, p354.
[7] M m p v, op cit, p47.
[8] Filleul pétigny Clara, op cit, p 161.

يمتلك المسيحيون في بلاد الشام العديد من المؤسسات التي تدعم وجودهم، وتمنحهم امتيازات كبيرة، وقد تزايد عددها مع مطلع القرن 19م مع تزايد الامتيازات الممنوحة للدول الأوربية بالمنطقة، حيث نالت فرنسا حصة الأسد منها وتمكنت من بناء عدد مهم من المؤسسات ذات الطابع الديني، وقمنا بتوزيعها حسب المدن وهي كالتالي:

مؤسسات مدينة دمشق والتي هي كثيرة العدد، ومن المؤكد أن من أهم المؤسسات المسيحية الفرنسية المتواجدة بمدينة دمشق القنصلية الفرنسية[1] التي كانت تدعم التواجد الفرنسي ومؤسساته التابعة[2]، وقد أعطانا إدموند دي بريسونسي بريسونسي Edmond de Pressensé وصفا عمرانيا لهذا البناء فيذكر أن شكلها من الخارج كان سيئا لكن بعد المرور عبر النفق تدخل إلى الجزء الداخلي وتنتقل إلى مفاجأة أخرى، حيث تتغير الصورة الخارجية وتجد فناءا مرصوفا بالرخام، وفي وسطه يوجد حوض مائي محاط بأشجار البرتقال الجميلة، والمنزل بصفة عامة يتميز بزخرفة غنية ومتنوعة وهو نموذخ للطراز العربي الراقي، فترى السقف وحجر الرصف مزين بالفسيفساء، إضافة إلى وجود محاريب محفورة في الجدار بها خزف ثمين مزخرف بعناية خاصة[3].

تحتوي مدينة دمشق كذلك على عدد كبير من الكنائس، وهو الأمر الذي لاحظه الرحالة ومنهم دولابلانش L'abbé Delaplanche وذكر ذلك في رحلته[4]، والمكان الذي أقيمت فيه أغلب كنائس دمشق هو الحي المسيحي الذي يحتوي على عدد مهم من الكنائس والأديرة خاصة مؤسسات راهبات المحبة والفرنسيسكان[5]، والملاحظ أنه كان لكل فئة مسيحية سوءا لاتين أو يونان أو أرمن سوريون موارنة كنائسهم الخاصة[6]، ومن أهم الكنائس أيضا كنيسة لازاريست التي بها دار للأيتام، مدرسة داخلية، مستشفى، مستوصف، وللكاثوليك اليونانيين بدمشق كنيسة

[1] ينظر إلى الملحق رقم 05.

[2] M m p v, op cit, p61.

[3] Edmond de pressensé, **le pays de l'évangile notes d'un voyage en orient**, librairie de chmyrueis éditeur, paris, France 1864, p 233.

[4] L'abbé delaplanche, op cit, p220.

[5] Victor Guérin, op cit,p402.

[6] L'abbé delaplanche, op cit, p223.

صغيرة مبنية في موقع القديس يوحنا الدمشقي[1]، وقد تم تجديد كنائس دمشق بعد حوادث سنة 1860م، وهذه بعض الإحصائيات عن عدد الكنائس بدمشق التي قدمها محمد علي كرد صاحب خطط الشام فيقول:"... يمتلك الروم الأرثودوكس 3 كنائس أكبرها المريمية، وكنيسة يوحنا الدمشقي بنيت بعد 1860م، وكنيسة الميدان التي بنيت في 1862م، ولطائفة الروم الكاثوليك 3 كنائس أيضا وهي كنيسة السيدة وكنيسة القديس جاورجيوس وكنيسة سيدة النياح، وللسريان الكاثوليك كنيسة باسم مار موسى الحبشي، وللأرمن كنيسة اسمها مار سركيس، وللسريان اليعاقبة كنيسة بالقرب من الباب الشرقي باسم القديس جاورجيوس، وللأرمن الكاثوليك كنيسة باسم القديس غريغوريوس، وللبروتستانت كنيستان..."[2].

يعد المستشفى الفرنسي في دمشق أيضا من المؤسسات المسيحية الهامة، فهو يعد مكانا لتجمع سكان المدينة وسكان القرى المجاورة الذين يأتون لطلب الرعاية الصحية والعلاج مجانا[3]، وتوجد إلى جانبه مستشفيات خاصة بالأخوات المسيحيات يأتيها أناس من مختلف مكونات المجتمع الدمشقي، ويستقبل المرضى من المسيحيين المسلمين اليهود الدروز الهلاليين الأكراد التركمان العرب البدو[4]، ونضيف إلى ذلك مؤسسة سانت فنسنت التي تستقبل هي الأخرى عددا كبيرا من الأطفال الذين ينتمون إلى جميع الديانات دون التمييز بينهم، ويوجد بها مستوصف يأتيه الناس لطلب العلاج الذي تقدمه الفتيات العاملات به[5].

احتوت مدينة بيروت هي الأخرى على العديد من المؤسسات أبرزها القنصلية الفرنسية التي فيها من الآثار الجميلة المتنوعة الكثير، مثل النحاس الفارسي، بعض التحف الأسطورية المصرية البرونزية، أواني من فخار ذات أصل فينيقي، خزف مغربي، تحف، ميداليات[6]، وتلعب هذه القنصلية دورا كبيرا في حماية بعثة الإخوة اليسوعين الذين يمارسون أنشطتهم التبشيرية في المدينة، وكانوا يتلقون الدعم الدائم من الحكومة الفرنسية، وبفضل هذا الدعم تمكنوا من تأسيس عدة

[1] M m p v, op cit, p p 59-60.

[2] محمد كرد علي، المصدر السابق، ج 6، ص ص 14-15.

[3] Victor Guérin, op cit,p420.

[4] L'abbé delaplanche, op cit, p220.

[5] G téqui, op cit, p271.

[6] Eugène melchior de vogue, op cit, p28.

مدارس مسيحية[1]، ويذكر لنا القس جوزيف L'abbé Joseph Eschemann أنه توجد ببيروت عدة مؤسسات مسيحية تابعة لليسوعيين ذكر أبرزها وهي كلية اليسوعيين[2]، وتوجد كذلك الكلية الهائلة للآباء، والتي تحتوي على عدة مرافق من بينها مدرسة داخلية، مدرسة دينية مارونية، مدرسة نهارية تكون الرهبان وتدرس بها أكثر من 14 لغة[3].

تحتوي مدينة بيروت على عدد هام من المسيحيين، وهو ما جعلها تحتوي على عدد كبير من الكنائس، وفي هذا الصدد يذكر لنا إدوارد بلوندال Edouard Blondel أن المدينة تحتوي على العديد من الكنائس الكاثوليكية التي يرأسها أباء كبوشيون[4]، والمدينة عرفت كما ذكرنا سابقا انتشار المذهب البروتستانتي، ولذلك قامت بريطانيا الحامية لهم بإنشاء العديد من الكنائس حتى تضمن تدخلها وحقوقها في المنطقة[5]، وبالتالي كان لكل طائفة مسيحية كنائسها الخاصة بل حتى حتى المذاهب الفرعية كانت تمتلك كنائس خاصة بها، وتوضح لنا الصورة أكثر من خلال ما ذكره محمد علي كرد حيث يقول:"...بصفة عامة يمكن القول أن كنائس بيروت كثيرة جدا، وهي منتشرة بالمدن والقرى، ولا تكاد تخلو قرية من كنيسة أو كنيستين وربما أكثر، وكمثال على ذلك نجد مدينة زحلة الجبلية تحتوي على الكثير من الكنائس..."[6].

أنشأت الإرساليات التبشيرية العديد من المؤسسات التي تساعدها في ممارسة أنشطتها نذكر منها: دار الأيتام في بيروت، والمستشفى الذي يديره فرسان القديس يوحنا الذي يوجد فيه عدد مهم من الممرضات اللواتي يقدمن خدمات مجانية للمرضى[7]، ويقول خ تيكي G Téqui أن الأخوات الممرضات يعتنين بما يقارب 700 شخص في اليوم الواحد، ويذكر أن العمل هو أمر تطوعي يقمن به في سبيل الله، ونخالفه الرأي لأن الظاهر كان إنسانيا والباطن كان هدفه تنصير المجتمع الشامي،

[1] L'abbé jh Lespinasse, op cit, p71.
[2] L'abbé joseph eschemann, op cit, p251.
[3] M m p v, op cit, p38.
[4] Edouard blondel, op cit, p14.
[5] Gabriel charmes, op cit, p 135.
[6] محمد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص 22.
[7] Léon Paul, op cit, p155.

وكسب قاعدة قوية تساعد فرنسا على تجسيد أهدافها الاستعمارية[1]، ويؤكد ألارد كاميل Allard Camille التفاني الكبير والمجهودات التي تقوم بها راهبات المحبة ويقول أنهن يقدمن مساعدات كبيرة للأطباء في علاج المرضى، وذكر كذلك نشاط راهبات سانت فانست اللاتي يشتغلن في مستشفى بيروت ويقدمن مجموعة هائلة من الخدمات، وأشار أن المستشفى قائم بتبرعات المحسنين، وقال أن الأطباء لديهم مهمة زيارة المرضى الغير قادرين على الذهاب إلى المستشفى في بيوتهم وكذلك في السجون[2]، كما توجد بيروت عدة أديرة منها دير خاصة بالآباء الفرنسيسكان[3]، ودير للآباء اللازاريين والكبوشيين واليسوعيين[4]، والمؤسسات المسيحية لا تقتصر على المدينة فقط حيث يوجد في المناطق الجبلية المحيطة ببيروت عدة أديرة للمسيحيين السريان والكاثوليك اليونانين[5].

توجد بالقدس العديد من المؤسسات المسيحية نظرا لقدسية المنطقة لديهم، ومن أهمها كنيسة القيامة[6]، وهي من أقدس الكنائس لدى المسيحيين حيث حيث يوجد بها القبر المقدس الذي يدعون أن نبي الله عيسى عليه السلام مدفون فيه، وتمتلك الكنيسة طابعا عمرانيا جميلا وصفه الرحالة في كتاباتهم فهاهو القس بيكو L'abbé Beco يقول أن الكنيسة من الخارج لا تنتمي في شكلها لأي نوع محدد من الهندسة المعمارية، ولكنها عبارة عن بناء جاد به مزيج من الزخارف الرائعة[7]، والكنيسة مكونة من عدة أبنية عندما تراها من الخارج حيث تظهر لك

[1] G téqui, op cit, p253.
[2] Allard Camille, op cit, p73.
[3] Jean baptiste morot, op cit, p354.
[4] Louis Bunel, op cit, p289.
[5] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p117.
[6] شيدتها الملكة هيلانة أم الملك قسطنطين في 335م ثم أحرقها الفرس سنة 614م ليعاد بنائها سنة 636م على يد الراهب مود اسط ثم رممها البطريك توما الأول سنة 817م في عهد المأمون العباسي وفي عهد الإخشيد سلطان مصر أحرقت سنة 965م ، ثم عمرت سنة 980م عهد البطريك يوسف 2 ، ثم هدمها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة 1009م ليأمر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ببنائها سنة 1035م ، ولما جاء الصليبيون أعادو ترميمها ،ثم نشب حريق مهول بها أدى لسقوط القبة سنة 1808م ولم تبقى إلا كنيسة الملكة هيلانة ، وفي عهد السلطان محمود حصل الروم على إذن ترميمها سنة 1810م ، وبقيت على حالها حتى جددت بعد حرب 1967م واستمر الترميم لسنة 1984م. يوسف نجيب، **القدس عبر التاريخ دراسة كتابية وتاريخية وأثرية للقدس والأراضي المقدسة** ، مطبعة المصريين، ط1 ، مصر ، 2004 ، ص 100.
[7] L'abbé beco ,**impressions d'un pèlerin de terre sainte au printemps de 1855**, a a d et gxe imprimeurs libraires, tours, france1859, p 81.

بكنائسها المتشعبة ومنشآتها المتعددة، وبها بوابة كبيرة مدعمة بمجموعة من الأعمدة الرشيقة وزخرفتها ذات لون مظلم تمنحها طابعا رائعا، وقبل الباب توجد ساحة صغيرة بمثابة الفناء الأمامي مزدحمة بالباعة المتجولين، وهذه هي الساحة التي تمارس فيها الاحتفالات الدينية وتقام بها المراسيم قبل الدخول إلى الكنيسة[1]، وتأخذ الكنيسة شكل مربع كبير نوعا ما وهي مرصوفة بشكل جيد، وتظهر في واجهة الكنيسة ملامح القدم كما توجد بها مجموعة كبيرة من الزخارف التي تبهر العين[2].

ذكر لنا الرحالة إضافة إلى كنيسة القيامة كنائس أخرى موجودة بالقدس نذكر منها كنيسة الرعية اللاتينية، ويوجد كذلك بالمدينة مجموعة من الأديرة منها دير كبير للفرنسيسكان الكاثوليك[3]، كما تحتوي المدينة على مستشفى مسيحي يسمى سانت لويس وهو تابع لفرنسا[4]، ويذكر القس بارود L'abbe a. Parraud أنه مليء براهبات المحبة اللاتي يقدمن فيه خدمات كبيرة للمرضى[5]، وهن راهبات ماري ريباراتريس، وتشتغل معهن أخوات سانت فانست دوبول، وراهبات القديس يوسف، كما تشتغل به كذلك راهبات الوردية، وإخوة المدارس المسيحية[6]، ويذكر ألفونس كورات Alphonse Couret أن الراهبات يعالجن كل المرضى دون استثناء بما فيهم مرضى الجذام، ويقول أن الراهبات المتخصصات في علاج الجذام هن أخوات سانت فنست دوبول[7]، والملاحظ أن المستشفى كبير حيث يحتوي على عدة مرافق وهي: جهة مخصصة للمرضى بها عدة غرف إضافة إلى صيدلية، ومستوصف تشخص فيه الحالات قبل أن تحول لقاعات العلاج[8]، وهذا المستشفى ليس الوحيد بل يوجد مستشفى آخر اسمه سان جان، وهو أيضا يقدم عدة خدمات للمرضى[9].

---

[1] L'abbé m – landrieusc , **aux pays du christ études biblique en Égypte et en Palestine** , maison de la bonne presse, paris , France, 1895 , p 232.
[2] l'abbé a. vannesson, **au pays de notre seigneur études et impressions d'un pèlerin** ,imprimerie librairie de l'œuvre de sainte Paul, paris, France, 1890, p 151.
[3] Firmin rauzy, op cit, p 192.
[4] Martin donos, op cit, p228.
[5] L'abbe a. parraud, op cit, p101.
[6] Pierre louis péchenard, op cit, p295.
[7] Alphonse couret, op cit, p200.
[8] Pierre louis péchenard, op cit, p309.
[9] Alphonse couret, op cit, p178.

بعض المؤسسات المسيحية الفرنسية الأخرى: كنيسة القديسة حنة، كنيسة ساكري كور، مصليات إخوة باتر، مستشفى نمساوي، نوتر داميدو سالوت، دار للأيتام في سانت بيار، كنيسة القديس أوغسطين في سان جان، كنيسة ميلاد القديس يوحنا المعمدان، مغارة الحليب في بيت لحم، نزل كازانوفا[1]، وتأسست بالقدس بعض المدارس الفرنسية ككلية سانت بيار ونوتردام دو فرونس[2]، كما يوجد يوجد بالمدينة عدة أديرة مثل دير سيدات سيون الذي يعد من أكبرها[3]، ويوجد كذلك دير للآباء البيض[4]، ودير للراهبات الأرمن[5]، وهناك مؤسسة جديدة لراهبات سانت فنست دي بول[6]، وتوجد مؤسسة راهبات القديس يوسف[7]، ومؤسسة راهبات نوتر داين دي سيون[8].

من خلال ما سبق نلاحظ أنه كان للمسيحيين كم هائل من المؤسسات التي دعمتهم، ويعود الفضل في ذلك إلى الامتيازات الكبرى التي تحصلت عليها الدول العظمى، وعليه يمكن القول أن الدول الاستعمارية تمكنت من زرع قواعد متينة في بلاد الشام، وهي التي اعتمدت عليها في تجسيد سياساتها وخططها، وقد ساهمت بشكل كبير في نشر أفكارها ومبادئها، ومهدت الطريق لاحتلال المنطقة.

ب- اليهود:

تمركز اليهود المهاجرون بكثرة في مدينة القدس وضواحيها، وذلك لأن معظم مقدساتهم الدينية التي بنوا عليها ادعاءاتهم موجودة بها[9]، ويأتي على رأسها

---

[1] Jean lian, op cit, p110.
[2] Pierre louis péchenard, op cit, p296.
[3] Jean lian, op cit, p99.
[4] Firmin rauzy, op cit, p 110.
[5] L'abbe a. parraud, op cit, p237.
[6] M m p v, op cit, p158.
[7] Martin donos, op cit, p241.
[8] Jean lian, op cit, p102.
[9] خلص الرحالة الفرنسي غوستاف لوبون الذي بحث كثيرا في تاريخ الحضارات القديمة وأصولها ومناطق تركزها وعاداتها وتقاليدها إلى أن موطن اليهود الأصلي هو البادية، وذكر بأن فلسطين أو ما يصطلحون عليه بأرض الميعاد لم تكن إلا أمرا مختلقا، وقال:"...قدماء اليهود لم يجاوزا أطوار الحضارة السفلى التي لا تكاد تميز من طور الوحشية، وعندما خرج هؤلاء البدويون الذين لا أثر للثقافة فيهم من البادية ليستقروا في فلسطين، وجدوا أنفسهم أمام أمم قوية متمدنة منذ زمن طويل...". غوستاف لوبون، **اليهود في تاريخ الحضارات الأولى**، تر:عادل زعيتر، عليسة للنشر و التوزيع، ط1، تونس2018م، ص 6.

حجر الدموع الشهير، والذي هو بزعمهم من الحجارة الباقية من هيكل سليمان، وهي عبارة عن أحجار ضخمة يبلغ ارتفاع بعضها 10 أمتار، وطولها حوالي 90 متر، وهي المكان الذي يصطف فيه اليهود رجالا وأطفالا ونساءا[1]، ويأتونها من كل مكان ويبدؤون في ممارسة طقوسهم الدينية، وأبرزها البكاء والأنين خاصة يوم الجمعة[2]، وقد لاحظ القس لسبيناخ L'abbé jh Lespinasse الذي زار المدينة مع أواخر القرن 19م أن عددهم كبير وقدرهم بالمئات، وقال واصفا إياهم:"...يقفون أمام هذا الجدار، ويضعون عليه جباههم، ويبقون على هذا الحال إلى آخر النهار، وكل يوم جمعة يتم نفس الشيء..."[3].

لاحظ الرحالة أن الأسوار التي يقيم اليهود عندها طقوسهم عند قاعدتها مبنية بحجارة ضخمة مستديرة، ويقومون عندها إلى جانب البكاء بترتيل كتابهم المقدس، ويحملونه على أيديهم ويتحركون بجذعهم جيئة وذهابا، ويوجد أيضا في الجهة الشرقية البناء نفسه والسور ذاته وهو أيضا مكان مقدس يذهب إليه اليهود[4]، والبكاء ليس مقتصرا على يوم الجمعة فمن اليهود من يذهب للبكاء عند الحائط يوم الأحد، ويصف لنا فرمين روزي Firmin Rauzy بعض الممارسات الأخرى التي يقومون بها فيقول:"... يقومون بلمس الجدار عدة مرات بجباههم وشفاههم، ويضعون آذانهم لسماع الإجابة، ويبدؤون في البكاء والأنين، ويجلسون أحيانا قرب الجدار أو يلتصقون به..."[5]، وهذا الجدار حسب ملاحظات ليوني بازولار Léonie de Bazelaire قريب جدا من بوابة تتيح الوصول إلى الحي اليهودي[6]، ومن الواضح أن اليهود في هذه الفترة قد تمكنوا من تثبيت أقدامهم، واستوطنوا في المدينة بأعداد كبيرة، وهو الأمر الذي منحهم حرية كبيرة وهذا ما يؤكده لنا الرحالة بيار بيتيوت Pierre Petiot الذي لاحظ أن اليهود يمارسون طقوسهم دون أن يهتموا لأمر المارين بهم[7].

[1] M m p v, op cit, p148.
[2] Léonie de bazelaire, op cit, p177.
[3] L'abbé jh Lespinasse, op cit, p p348-349.
[4] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص25.
[5] Firmin rauzy, op cit, p188.
[6] Léonie de bazelaire, op cit, p179.
[7] Pierre petiot, op cit, p77.

تعد بحيرة طبرية من الأماكن المقدسة كذلك لدى اليهود، وهم يذهبون إليها ويأتونها من شتى الأصقاع، ويجتمعون حولها بأعداد كبيرة لممارسة طقوسهم[1]، واليهود يعتبرون مدينة القدس وطبريا وصفد من أقدس الأماكن لديهم، ويذكر لنا القس جين جاكس L'abbé Jean Jacques أن اليهود موجودون في صفد بكثرة بل يقول أنهم تمكنوا من تأسيس مجموعة من المدارس الحاخامية حتى أن كبير الحاخامات يقيم في صفد، ويقول أنه يأتي عدد كبير من اليهود من أوربا وآسيا في أواخر حياتهم ليستقروا في هذه المنطقة، ويقومون بذلك حتى يتم دفنهم في المقبرة التابعة لها بعد موتهم، وهم يدعون أن المقبرة تعتبر مقر لأسلافهم المدفونين بها[2]، وقد تحدث لنا جين ليان Jean Lian عن نموذج من أبرز الاحتفالات التي ينظمها اليهود بالمنطقة، وهو عيد الفصح اليهودي الذي يعد من أعيادهم الرئيسية ويحتفلون به لمدة 7 أيام كل سنة[3].

الكنيس هو من الأماكن الدينية المقدسة لليهود حسب كتابات الرحالة إذ يمارسون فيه طقوسهم الدينية الأسبوعية، ومن أيامهم المقدسة يوم السبت الذي يأتي فيه الرجال والأطفال والنساء، والملاحظ أن النساء لا يسمح لهن بالدخول إلى باحة المعبد بل يبقين عند بابه، ويدخل الرجال والصغار فيجلسون على مقاعد خشبية يرتلون فيها كلاما مكتوبا في كتاب التوراة، وفي وسط المسطبة يكلف حاخام بقيادة الجوقة حيث يتمايل بجذعه مثلما يفعلون عند حائط المبكى في القدس، وأمام هذا الحاخام توضع طاولة عليها آلات موسيقية مصنوعة من الفضة على شكل أنابيب نارجيلة تتدلى منها سلاسل صغيرة من الفضة، ويعزفون بها مع الحركة الاهتزازية إلى الأمام والخلف، والجميع يصرح بكل ما لديهم من قوة ويقرؤون من كتابهم بصوت مرتفع[4].

تمتع اليهود في بيت المقدس بحرية كبيرة جدا لم يعهدوها من قبل منذ أوائل القرن 19م خاصة في عهد الحكم المصري لبلاد الشام، وقد كانوا من قبل محرومين من التردد على مقدساتهم الدينية، لكنهم أصبحوا في مأمن من الظلم و الاعتداءات و تمتعوا بالعدل التام =في ظل الحكم الجديد، واعترف اليهود بأنهم يجرون عباداتهم بطريقة علنية وبكل حرية وأن كل طلباتهم تم الاستجابة لها. لطيفة محمد سالم، **الحكم المصري في الشام 1831-1841م**، مكتبة مدبولي، ط2، القاهرة، مصر 1990م، ص 258.

[1] L'abbe a. parraud, op cit, p104.

[2] L'abbé jean jacques bourassé, op cit, p413.

[3] Jean lian, op cit, p57.

[4] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص60.

2- عادات وتقاليد المسلمين في شهر رمضان:

أقدس الأشهر لدى المسلمين هو شهر رمضان، ولذلك اشتهر سكان بلاد الشام كغيرهم من المسلمين بالإعداد الجيد لاستقبال شهر رمضان[1]، حتى أنهم بمناسبة قدوم هذا الشهر ينظمون احتفالات كبيرة لاستقباله، فتجد في الساحات الرئيسية فرقة تركية تعزف أناشيد باستعمال أدوات نحاسية بانسجام تام، ومآذن المساجد داخل المدينة وخارجها تطلق ترنيمات احتفالية بالمناسبة ويقرأ بها القرآن والأناشيد ترتل، ومن العادات التي ذكرها الرحالة أن المسلمين يتوقفون تماما عن الأكل والشرب في هذا الشهر من الصباح حتى غروب الشمس[2]، ويتم تحديد أوقات الإمساك والإفطار بإطلاق مجموعة من طلقات المدفعية، وكذلك تحدد بواسطتها أوقات الصلوات[3].

انبهر هنري قيز Henri Guys من ليالي رمضان في المشرق ووصفها بالمهرجان حيث لاحظ أن المدينة تصبح في الليل أكثر حيوية ونشاط من الفترة الصباحية[4]، وذكر لنا أنه في شهر رمضان تتضاعف اجتماعات الرجال سواءا في البيوت أو في المقاهي التي يظل بعضها مفتوحا إلى غاية إطلاق المدفع لصلاة الفجر، وقال عن هذه الأماكن:"... وتراهم يدخنون ويشربون القهوة، ويقضون وقتا طويلا على هذا الحال، ويسمعون كذلك للموسيقيين أو لرواة القصص وفي بعض الأحيان يستمتعون بعروض القاراقوز..."[5]، ومن العادات المشهورة أيضا لدى الشاميين في شهر رمضان تسارع وتنافس الأثرياء وأصحاب الأموال إلى توزيع الصدقات على الفقراء والمساكين[6].

قدم لنا هنري قيز Henri Guys الذي أمضى سنوات عديدة وعاشر سكان الشام وصفا آخر لأيام العيد وما قبلها بقليل، حيث يذكر أنه في الأيام التي تسبق العيد الخاص برمضان تقوم النساء بالعمل بجد من أجل تحضير أطباق العيد،

[1] هنري قيز ، المصدر السابق ، ص 98.

[2] Pierre petiot, op cit, p96.

[3] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص22.

[4] Henri Guys, op cit, p182.

[5] Henri Guys, ibid, p303.

[6] هنري قيز ، المصدر السابق ، ص 98.

والرجال يذهبون إلى المسجد يوم العيد الأول، وتدوم مدة مكثهم في المسجد حوالي 15 إلى 20 دقيقة، ويكون ذلك وقت شروق الشمس، وبعد ذلك يذهبون من أجل زيارة المقبرة وهي من أبرز تقاليدهم، وعندما يعودون إلى المدينة يحيون بعضهم البعض ويتبادلون القبلات التي تتراوح من 4 إلى 5 قبلات، وعند العودة إلى المنزل يقدم غذاء وطبق حلو مثلا أرز بالعسل وهو من الأطعمة الشعبية الشهية، ثم يذهبون بعد تناول الغذاء لزيارة السلطات من أجل تهنئتهم وكذلك زيارة البالغين والأقارب والأصدقاء[1].

3- ركب الحج الشامي[2]:

تنظم كل سنة قافلتان كبيرتان تتوجهان إلى الحج؛ واحدة مكونة من المغاربة الذين يجتمعون في القاهرة، والثانية مكونة من الحجاج الذين يأتون من تركيا وأوربا وآسيا الصغرى وسوريا وبلاد فارس وشمال آسيا، وتلتقي كل هذه الوفود في دمشق وتسمى ركب الحج الشامي، ومسؤولية استقبال هذه الأفواخ الحجاجية الكبيرة وتوفير احتياجاتها ومرافقتها كانت موكلة إلى باشا دمشق، وقد لاحظ الرحالة جول قزافي المجهودات Jules Xavier Saguez De Freuvry **التي يقوم بها الباشا من أجل تجهيز القافلة، ويتضح من خلال كلامه أن المسؤولية الملقاة على**

[1] Henri Guys, op cit, p p193-194.

تحتفل الإدارة العثمانية بالعيد بمراسم رسمية، ويكون ذلك بإطلاق مجموعة من القذفات المدفعية إيذانا بانتهاء شهر رمضان، وتقام كذلك الحفلات في المساجد وتزين الدوائر الرسمية، وفي أول يوم عيد تصطف الفرق العسكرية وتقدم التحية للوالي والقائد العسكري بالمدينة، ولا تختلف مراسم عيد الأضحى عن مراسم عيد الفطر إلا في تقديم الأضاحي وتوزيعها بعد صلاة العيد والتلبية كتلبية الحجاج (مُحَّد الخطيب، المرجع السابق، ص 201.).

[2] طريق سير هذا الركب عمودي أي من الشمال نحو الجنوب، وأغلب الحجاج يأتون من منطقة الأناضول ومن بلاد فارس ويلتقون بدمشق التي منها يتجهون للجنوب إلى مكة

G de lombay, op cit, p158.

لم تكن قافلة الحج الشامي من محدثات العهد العثماني فقد وجدت منذ العهد المملوكي، وقد أدت قافلة الحج دورا مهما في تاريخ دمشق بخاصة وبلاد الشام عامة، وكانت لها أهمية كبيرة لدى السلطان العثماني الذي اتخذ لنفسه اسم حامي الحرمين الشريفين، وزاد في أهمية هذه القافلة كونها واحدة من قافلتين رئيسيتين سمحت بهما ونظمتهما الدولة العثمانية في العالم الإسلامي، وقد كانت تشتمل على أعداد كبيرة من الحجاج المتوافدين من مختلف المناطق إلى دمشق في موسم الحج. مُحَّد الخطيب، المرجع السابق، ص 125.

عاتقه كبيرة جدا، فكان عليه توفير المؤن، وكذلك الإبل اللازمة وعليه أن يأخذ كل احتياطاته حتى يضمن لها السلامة بل و يرافقها شخصيا إلى غاية مكة.

تعطي هذه القافلة أهمية كبيرة لمدينة دمشق لكونها قبلة للمتوجهين إلى الكعبة ومركز انطلاقهم، فيتوافد عليها كل سنة عدد غفير يصل بعضهم إليها قبل 5 أشهر من موعد الحج، وعليه تصبح دمشق تشبه حينئذ سوقا عظيمة، ويرى فيها عدد كبير من الغرباء الذين يأتون من سائر أطراف البلاد التركية والفارسية، فتزدحم بالإبل والخيل والبغال وتكتظ خاناتها ومخازنها بشتى أنواع البضائع[1]، ويسمى المكان الذي تجتمع فيه قافلة الحج بالميدان، وهو يقع في الجهة الجنوبية من دمشق ومن هناك يبدأ طريق الحج، والميدان هو عبارة عن تجمع لعدد كبير من المحلات التي توجد فيها كل احتياجات الحجاج ففيه تجد الحدادين، بائعي الفواكه، المقاهي، الجزارين وغيرهم[2].

باقتراب موسم الحج بأيام قليلة يبدأ الحجاج في التوافد على دمشق من أجل أخذ مكانهم في القافلة، ويأتي الباشا في موكب مهيب ويأخذ مكانة في وسط المخيم، ثم بعد انتهاء التجهيزات تنطلق القافلة المكونة من 20 إلى 30 ألف من الحجاج والتجار عبر الصحراء[3]، وتبدأ مع الرحلة الصعوبات التي تواجههم منها ندرة الآبار وفي بعض الأحيان تكون ممتلئة لكن محروسة من قبل البدو، وهم يجبرون الباشا على التفاوض معهم من أجل أخذ الماء، أما الأغنياء من الحجاج فيجلبون معهم كل ما يحتاجونه من عبيد وجمال ومئونة، والفقراء منهم مضطرون إلى المشي على الأقدام[4]، وقدر فلوريمون جاك Florimon Jacques De Basterot

[1] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, p p46-47.

[2] G de lombay, op cit, p160.

[3] ذكر الرحالة فيكتور قرين أيضا أن الحجاج الذين يجتمعون في مدينة دمشق يصلون إلى أعداد كبيرة، وقدر هو أيضا عددهم من خلال ملاحظاته بالآلاف، وهو ما يدل على أن القافلة كانت كبيرة جدا.

Victor Guérin, op cit,p418.

يذكر الأستاذ محمد شريف عدنان الصواف أن عدد القافلة الحجية الشامية كان يصل حتى 50000 حاج في بعض الأحيان (محمد شريف عدنان الصواف، المرجع السابق، ص 108.).

[4] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, p p46-47.

يذكر لنا هنري قيز في كتابه أن الذين لا يمكنهم الحج إلى مكة ركوبا يلجئون إلى الحج مشيا على الأقدام، وذلك حتى لا يخسروا ثواب هذا الركن العظيم، وقال أنهم يشتغلون في طريق قافلة الحج في فتح الطريق أو في خدمة الحجاج، و هم يؤدون الحج دون أي هاجس أو صعوبة . ينظر إلى هنري قيز ، المصدر السابق ، ص98.

المدة التي تستغرقها القافلة أثناء ذهابها بحوالي أكثر من 40 يوم من دمشق إلى مكة مع احتساب كل التوقعات والإقامات، وقال أنها تستغرق أحيانا حوالي 4 أشهر ذهابا و إيابا، و يلقب باشا دمشق الذي هو قائد القافلة بأمير الحجاخ[1].

تعبر القافلة في أيامها الأولى بعد الخروج من دمشق على سهل حوران وهو سهل واسع يمتد إلى الجنوب الشرقي من المدينة[2]، وعلى باشا دمشق قائد قافلة الحج أن يدفع مبلغ كبير للبدو من أجل ضمان حرية مرور القافلة الحجية عبر الصحراء[3]، وذلك لأن القافلة تمر بأراضيهم فوجب التفاهم معهم وإعطائهم المال ويستخدمون في بعض الأحيان كأدلاء، ويقع في غالب الأحيان اختلاف بين مشايخ القبائل فينتهز أمير ركب الحج الفرصة من أجل الاستفادة من هذا النزاع ويبادر إلى مساومتهم، ومن المعتاد أن يتم تفضيل القبائل الضاربة بطول بلاد حوران، ويبعث الباشا إلى زعيمها سلاح وخيمة وخلعة، ويبلغه بأنه قد عينه رئيسا للأدلاء، وبالتالي يكلفه بتجهيز إبل مقابل منحه مبلغ معين، ولكنه لا يضمن له التعويض في حال وقوع أي خسائر قد تلحق به، حيث أنه قد يموت من الإبل في عام واحد ما يقارب 10000[4]، وليست هذه هي المشكلة الوحيدة التي تواجهها القافلة وقد ذكر جول قزافي Jules Xavier Saguez De Freuvry أن من المشاكل الأخرى التي تواجه القافلة ما تعلق بالجانب الصحي، فالحجاخ معرضون للإصابة بعدة أمراض أشهرها الحمى والطاعون، وهذه الأمراض تقضي على عدد كبير خاصة المسنين[5].

---

[1] Florimon jacques de basterot, op cit, p114.

أمير الحج: هو المكلف برعاية قافلة الحج و تأمين حمايتها، وقد كان هذا العمل من أعظم المهمات التي يوليها السلاطين العثمانيون أهمية كبيرة بل كانوا يقفون على ترتيباتها شخصيا، ولذلك كان يختار لهذه المهمة أقوى الرجال وأكثرهم قدرة على إدارة المواقف الصعبة، لأنه كثيرا ما يتعرض للأخطار وسيخوض معارك مع قطاع الطرق المنتشرين في الصحراء، وكانت إمارة الحج الشامي أول عهد العثمانيين من مهام حاكم علجون أو حاكم نابلس، وذلك لقربها من البادية وقدرتها على سرعة التدخل لنجدة القافلة عند وجود طارئ ما، ومن أشهر الأمراء الذين تولوا إمارة الحج الشامي من أمراء نابلس أمراء آل فروخ، ثم انتقلت إمارة الحج الشامي إلى والي الشام ابتداءا من سنة 1708م، وذلك نظرا لقوة ولاة الشام ومركزية مدينة دمشق بالنسبة لبلاد الشام و ما حولها. مُحَمَّد شريف عدنان الصواف، المرجع السابق، ص ص 113-114.

[2] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p161.

[3] La société des livres religieux de Toulouse, ibid, p158.

[4] حبيب السيوفي، المصدر السابق،ج2، ص ص 57-58.

[5] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, p48.

مدينة دمشق في اتصال دائم مع القبائل العربية البدوية ومع مدن بغداد حلب ومكة[1]، ومدينة دمشق بلا منازع باستثناء إسطنبول والقاهرة هي من أهم المناطق التجارية في الدولة العثمانية، ويعود ذلك لعدة أسباب موقعها الممتاز وكثرة سكانها وذكاء أهلها المتجه إلى التجارة، وكذلك تهافت الأجانب عليها في جميع الأوقات، خاصة في الفترة التي تعود فيها القوافل من مكة وبغداد، والتي تتوفر على جميع الأصناف من البضائع[2].

تشبه أسواق دمشق فترة إقامة الحجاج بها أسواق المدن الأوربية الكبرى وغيرها، حيث يجد المشتري فيها جميع المواد والأدوات التي تقدمها تجارة واسعة، ورحلة الحج هي رحلة عبادة وتجارة فقلما تجد حاجا لا يتعاطى التجارة في طريق حجه[3]، فالحاج الذي يذهب إلى مكة لا يحجم عن التزود بالحاجيات الهامة التي يمكنه بيعها لسد نفقات حجه، وعند ذهاب القافلة نجد ما لا يقل عن 2000 جمل تحمل بضائع للبيع أو للمقايضة، وإذا ما عادت القافلة فهي تأتي بالبن العدني، والسنا، والصموغ، الأباريز، الأنسجة، الأواني الصينية، عيدان الند، العنبر، وكل منتجات الحوض البحر الجنوبي التي تعرض آنذاك بكثرة في مكة واردة إليها عن طريق البحر الأحمر[4].

تحضا القافلة الحجية بمراسيم احتفالية كبيرة، وقد لاحظ الرحالة الفرنسيون أن المسلمين يقدسون هذا الحدث ويولونه أهمية كبيرة، و سنذكر كمثال عن ذلك بعض المراسم الاحتفالية المنظمة في مدينة القدس بمناسبة خروج القافلة الحجية، وفي هذا الصدد قدم لنا ليوني دو بازولار Léonie De Bazelaire وصفا دقيقا لذلك، حيث ذكر في رحلته أن الباشا يحضر بنفسه العرض الكبير المنظم بالمدينة وقال أن الموكب يمر عبر وادي قدرون، ويحتوي هذا الحشد على جنود أتراك وينقسم لقسمين: الأول يتكون من الطبقات الدنيا والغرباء، ويمشون

[1] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p423.

[2] هنري قيز ، المصدر السابق، ص187.

[3] يعد موسم الحج من أحسن الفرص لممارسة النشاط التجاري المربح، ولذلك يغادر فريق كبير من الحجاج بلادهم وهم محملون بالبضائع، ويقومون ببيعها في طريق الحج ويجمعون المال الذي يجنونه إلى المال الذي يأخذونه معهم، وعندما يصلون إلى مكة يشترون الشاش والأقمشة الهندية المنسوجة في البنغال إضافة إلى شال كشمير، عود الصين و ندها، ماس الغلق ند، لآلىء البحرين، التوابل، الأباريز والبن اليمني. ينظر إلى حبيب السيوفي، المصدر السابق،ج2، ص58.

[4] هنري قيز ، المصدر السابق، ص188.

على صوت الطبول في صفوف منتظمة، والقسم الثاني يشمل الطبقة العليا وفيها وجهاء المدينة والأعيان والأغنياء، ويتقدم موكب الموسيقى صدارة الموكب وترافقه طلقات نارية، وحين يخرج الموكب من المدينة تطلق طلقات المدفعية وعددها 20 طلقة[1].

احتفال السكان لا يكون عند خروج القافلة فقط إنما يكون كذلك عند رجوعها، وهو ما ذكره لنا الرحالة مارتن دونوس Martin Donos حيث يقول:"... كما يتم تنظيم موكب احتفالي آخر في الوقت التي تعود فيه القافلة الحجية من مكة، إذ ترى موكب عربي كبير يتقدمه موسيقيون يضربون الطبول، ويعزفون على مجموعة من الآلات الموسيقية، ويعزفون بواسطتها أغاني دينية، وترى أشخاصا منهم يرتدون أزياء فاخرة ويجري ورائهم وفود من الأطفال والنساء، وهؤلاء هم الحجاج العائدون من مكة يتم الاحتفال بهم..."[2].

إلى جانب الاحتفالات العامة هناك احتفالات خاصة ينظمها كل حاج على انفراد بعد رجوعه من الحج، وخلالها يقدم هدية لأقربائه وجيرانه وأصدقائه وأحبابه الذين أتوا ليباركوا له، وتختلف قيمة الهدايا حسب قدرات الحاج المالية، وبمجرد قدومه يبدأ المهنئون في التوافد جماعات وفرادى في داره، وتختم عادة هذه الزيارات بإقامة حفلة تكون عبارة عن اجتماع يضم الأقارب والأصدقاء والجيران، ويدعون المنشدين ويفتتحون المجلس بتلاوة بعض الآيات من القرآن الكريم وينشدون قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم[3].

4-حفظ القرآن:

الملاحظ أن المدارس الحكومية في بلاد الشام قليلة جدا، ولذلك أغلب السكان يوجهون أبنائهم إلى الكتاتيب التي يتعلمون فيها القراءة والكتابة ويحفظون

---

[1] Léonie de bazelaire, op cit, p108.

[2] Martin donos, op cit, pp 220-221.

تنظم احتفالات كبيرة بمناسبة توديع واستقبال القافلة الحجية، وتعتبر هذه الاحتفالات من أطول المراسم الدينية المدنية وأكثرها روعة،كما أن عدد المشاركين فيها يزيد على ما عداهم من المشاركين في الاحتفالات الأخرى التي كانت تقام، وشملت تلك المراسم مواكب عديدة منها: موكب الزيت والشموع، موكب المحمل والسنجق، موكب القافلة، إضافة إلى استقبال القافلة. مُحَمَّد الخطيب، المرجع السابق، ص 139.

[3] مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص 275.

القرآن، وحفظ القرآن وتحصيله هو أمر شاق ويتم بالمثابرة والجد ومن الطلبة من يبقى سنوات لإتمامه، ولكن الشيء الملاحظ أن سكان الشام حريصون على إتمامه خاصة وأنهم يعرفون أنهم سيجازون على ذلك في الدنيا والآخرة، فيوم ما يعلن محفظ القرآن ختم التلميذ للمصحف فإن والده يعطيه مبلغا من المال إكراما له، ويدعو شيخه وأصحابه لحفلة تقام في وقت لاحق، ويكرم الحافظ للقرآن تكريما عظيما يليق بمقامه ففي يوم الحفلة يلبس الصبي ثيابا فخمة جديدة، ويركب فوق حصان مزين ويتبعه رفقائه وعلى رأسهم شيخه من الكتاب إلى المنزل، وتشارك النساء التي يمر أمامهن الموكب في هذا الحفل بإطلاق الزغاريد[1].

يحضر هذا اليوم المميز أفراد العائلة كلهم والأصدقاء أيضا مدعوون لحضور هذا الحفل، ويحضر أيضا كل أفراد المدرسة القرآنية وعلى رأسها الشيخ الذي علمه القرآن، وتقام أثنائه مجموعة من المراسيم فتسبق الحفلة بالصلاة على النبي على أنغام الطبل، ويأتي بعد ذلك الطفل يحمل صينية مزينة ومزخرفة موضوعة فوق رأسه وفوقها ترى المصحف مغطى بمنديل مطرز من ذهب، وفي نفس الوقت يغني الطلبة الآخرون المدائح الدينية، ويقوم والده بتوزيع الفواكه المجففة على رفاقه ويمنحهم مبلغ من المال كذلك وتسمى بالإكرامية، بعد ذلك ينصرف الصغار ويبقى الشيخ والكبار والوجهاء لتناول وجبة غذاء، وهذه الحفلات تختلف حسب إمكانيات والد الطالب فإذا كان والده غنيا فإنه يمنح للشيخ بدلة كاملة ومبلغ من المال[2]، ويحضر العمال في المساجد إلى الحفلة فهم أيضا مدعوون لحضور هذا الاحتفال الكبير، ويقومون أثناء ذلك بالطواف الاحتفالي ويصاحبونه بترديد مجموعة من الأناشيد الدينية و يرتلون مقاطع من القرآن[3].

5 - الممارسات والمسائل المتعلقة بالوفاة:

أ- العادات الخاصة بالوفاة:

تجهز عند وفاة شخص ما عند المسلمين ثلاث أكفان توضع عليها أعشاب عطرية حتى تكون رائحتها جميلة، ويتكفل مجموعة من الأشخاص سوءا من العائلة

[1] هنري قيز ، المصدر السابق، ص 37.

[2] Henri Guys, op cit, p p-121-122.

[3] هنري قيز ، المرجع السابق ، ص 38.

أو من موكلين بتغسيل الميت حيث يوضع جسمه على مقعد ويتم تغسيله، والتغسيل يكون باستعمال الصابون والماء الساخن وينظف كل طرف بدقة وبعدها يفرك كل جسمه بماء الورد الممزوخ بالكافور، ثم يتم لفه بالأكفان الثلاثة ويوضع بعدها في محمل ويؤخذ للمسجد من أجل الصلاة عليه، ومن العادات التي لاحظها هنري قيز Henri Guys أن المشيعين يقفون عند القبر ويقول أحدهم ما حكمكم على هذا الرجل ويسارع الجميع بالقول أنه أفضل الرجال، و يقول أنه يقال ذلك حتى ولو كان سلوك الميت مخالفا لذلك في حياته لأنهم يثقون في رحمة الله[1].

لاحظ ليوني دو بازولار Léonie De Bazelaire الفرق الكبير بين الجنائز الإسلامية والجنائز المسيحية، وقال عنها ما يلي:"... إنها بسيطة جدا مقارنة بالغربية فلا عربة للجنازة ولا زهور ولا ضريح فاخر ولا توضع أكاليل الزهور على القبر، فالميت يوضع على نقالة بدون نعش، وهو ملفوف في كفن ويحمل على أكتاف أربعة من الأقارب..."[2]، ويتبع الجنازة حشد كبير وتسمع الصرخات التي تعبر عن الألم الشديد، والنساء يرتدين الفساتين الطويلة ذات اللون الأسود الداكن التي تدل على الحداد ويطلقن صرخات عبارة عن عويل عالي النبرة، وقبل أن يتم دفن الميت يردد مجموعة من المشايخ آيات قرآنية كصدقة على الميت[3]، ومن العادات التي تتميز بها أيضا جنائز بلاد الشام من خلال ما ذكره غوستاف لوبون Gustav Le bon حضور فريق من العميان والمساكين والدراويش الذين يتقدمون الموكب الجنائزي ويقومون بترتيل القرآن، وذلك لاعتقاد السكان المحليين أن بركتهم قد تساعد الميت في قبره[4].

يوضع الميت في قبره حيث يكون رأسه متجه نحو الغرب وقدمه للشرق حيث يكون بذلك متجها نحو القبلة التي تقع في المنطقة الجنوبية بالنسبة لبلاد الشام أي فوق كتفه الأيمن بحيث يتجه بصره نحو الجنوب حيث تقع مدينة مكة، ثم يغطى القبر بألواح حجرية كبيرة متصلة مع بعضها البعض كي تمنع دخول التراب لحفرة المتوفى وبعدها يتم ملء النصف الأعلى بالتراب، ومن العادات الشائعة أيضا

[1] Henri Guys, op cit, p213.
[2] Léonie de bazelaire, op cit, p222.
[3] Capitaine Deville**, Palmyre souvenirs de voyage et histoire**, libraire Plon, paris, France 1894, p 37.
[4] غوستاف لوبون ، المصدر السابق ، ص 321.

أن أهل الميت بعد الفراغ من الدفن يوزعون الصدقات على الشيوج والفقراء الذين اللذين حضروا الجنازة وذلك قبل العودة إلى المدينة، وبعد أن يعود أهل الميت إلى المدينة يترتبون في شكل صف مستقيم وذلك لتلقي التعازي التي هي عبارة عن كلمات مواسات لأهل الميت[1]، ونفس الشيء لاحظه القس جين جاكس L'abbé Jean Jacques Bourrasse الذي قال في هذا:"... تتكون قافلة جنائزية من المعزين لتعظيم الأجر لأهل الميت، وهناك مجموعة من الكلمات المحددة للتعزية وهو أمر متفق عليه بين الجميع..."[2].

التضامن والتعاون شيء مشهور عند المسلمين وهو من أسمى معاني الأخوة الإسلامية، حيث يحظر عموم أقارب الميت وكذلك أصدقائه ومعارفه، وهم من يتكفل بإيواء المعزين الوافدين من القرى المجاورة ويتكفلون بإطعامهم، فكل واحد منهم يصطحب معه مجموعة إلى بيته، وعدد المجموعة يكون حسب إمكانيات الشخص، وهم يتسابقون لأخذ المعزين بعد قدومهم من الجنازة ويرون في ذلك فخرا واعتزازا، وتختلف الخدمات المقدمة للمعزين عندما يكون المتوفي رجلا مرموقا أو غنيا إلى مدى بعيد، حيث يفد لعائلة الميت وجهاء المدينة أو وجهاء الضواحي وحاشيتهم إذا كانت الوفاة في قرية لتقديم العزاء لهم، وتتدافع جماهير غفيرة من أجل تقديم واجب العزاء بل ويأتون من جميع القرى المجاورة، وعلى العموم يتكفل جيران وأقارب الميت بهذه الوفود وينزلونها عندهم ويكرمونهم وذلك لأن أهل الميت لا يطبخون في الأيام الأولى من الوفاة، وفي الداخل عند النسوة عند وصول كل وفد أو أي قريب من المعزين يتعالى مرة أخرى صراج محزن وهو مقدمة لنواح جديد تصعده النسوة[3].

تحدد مدة الحداد عند المسلمين بصفة عامة بثلاث أيام، وهي الأيام التي تكون فيها شدة الألم كبيرة لدى أهل الميت الذين تراهم طول الوقت يبكون خاصة النساء[4]، أما الأيام السبعة المقبلة يكون فيها الألم معتدلا وينقص الألم مع مرور

[1] Henri Guys, op cit, p214.
[2] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p470.
[3] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص82.
[4] من عادات سكان حلب في الوفاة إحضار نائحات بدويات ينثرن على رؤوسهن الحناء و يشددن في أواسطهن المآزر و يخدشن خدودهن و يسودن وجوههن. محمد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص 284.

الشهر الأول[1]، ومن العادات المتوارثة أنه في اليوم الثالث للوفاة يتم زيارة القبر مرة أخرى من طرف الأقارب وتقدم الصدقات مرة أخرى، وفي اليوم السابع للوفاة يتم تنظيم وليمة كبيرة يحضرها لشيوج والفقراء والأقارب، ويتكرر نفس الأمر في اليوم الأربعين للوفاة وكذلك بعد نهاية سنة كاملة للوفاة، والميت عندما يترك وصية يجب تنفيذها ويمكن لأفراد العائلة لمس التركة لتقديم التبرعات والصدقات وتغطية مصاريف الجنازة، وإن ترك الميت أطفالا قصر فإنها تحجز لهم حتى يكبروا، وأرملة الميت تقضي العدة التي تقدر بأربعة أشهر و 10 أيام، وبعد انقضاء هذه المدة يمكنها أن تتزوخ، وإن كانت حامل فلا تتزوخ حتى تضع حملها، وتأخذ الأرملة ما لها من حق في الميراث من زوجها، وكذلك الرجل يرث من زوجته إذا ماتت[2].

يذكر هنري قيز Henri Guys في ملاحظاته أن الدروز يمارسون نفس الطقوس التي يقوم بها المسلمون السنة في طريقة دفن الموتى تقريبا، لكن الاختلاف الوحيد بينهما هو في بعض التفاصيل، وذكر في ذلك أنهم لا يغسلون موتاهم[3]، أما بالنسبة لعادات اليهود حين وفاة شخص ما فهي غامضة نوعا ما وجرت التقاليد الخاصة بهم على أن يدفنوا موتاهم في الظلام، ومن عاداتهم الإسراع في إجراء المراسم الخاصة بالدفن[4]، وقبل الدفن يغسل الميت فوق اللوحوت وهو المكان الذي يغسل فيه الميت عند اليهود، ثم يوضع في ثوب من الكتان وهو بمثابة الكفن، و يعيبونه قليلا كي لا يطمع فيه نباشو القبور لأن اليهود معروفون بغناهم، وفي الأخير توضع الجثة في الأورت أي النعش ثم تقرأ عليه تعاويد خاصة بهم ويصلى عليه وبعدها يوارونه في ترابه[5].

أما في ما يخص العادات المسيحية المارونية أثناء الوفاة فهي أيضا بسيطة حيث يشارك في الجنازة عدد قليل من الأشخاص، ويلف الميت في كفن ثم يرفع على الأكف في محمل بسيط من الخشب، ويدفن في قبر عادة ما يكون مبني من الحجارة، ثم يغطى ببعض الأشواك لمنع الحيوانات من الاقتراب من جثته ويرمى

[1] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p471.
[2] Henri Guys, op cit, pp 215-216.
[3] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص56.
[4] Henri Guys, op cit, p222.
[5] محمد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص 290.

التراب عليه، ويحدث كل هذا بعد صلاة خفيفة عليه من قبل الكاهن، و إذا كان الميت ثريا فيختلف الوضع عن الأول حيث يغسل الجثمان ويعطر وتجلس حوله نساء مهمتهن العويل، وهن مأجورات على ذلك وكلما ينقص مستوى العويل تحفزهن إحداهن على رفعه مرة أخرى، أما الرجال فيتجمعون ويتبادلون أطراف الحديث كأنهم في حفل أو في أمور تجارية لا في جنازة، ثم يطوف 4 رجال بالنعش حول منزل الميت وبعدها يأمرهم الكاهن بالتوجه للكنيسة، وبعد الصلاة عليه ينقل للمقبرة ثم يدفن وتنظم وجبة إفطار كبيرة ببيته[1].

يتميز الجبليون في جنائزهم مقارنة مع المناطق الأخرى حيث يتم تكريم الضيوف المعزين وإيوائهم لعدة أيام، وتقدم لهم كل أنواع المأكولات والمشروبات ويرسل الأمراء والأميرات عدة قطع من الأقمشة المزركشة بالذهب والفضة ليلف بها نعش الميت، ويلبسون كل من أبناء الميت الفراء وفي حال عدم وجودهم تلبس للأقرباء الأقرب ويعد هذا الأمر شرفا للأسرة، وقد تكون هذه الالتفاتة من العائلة الأميرية مقابل خدمات جليلة قدمها الراحل لهم، والملاحظ أن الجبليين متمسكون كثيرا بتقاليدهم حتى و إن كانت على حسابهم، فهم يحاولون في مثل هذه المناسبات أن يظهروا أنفسهم أمام الناس بهالة كبيرة من التقدير، وهو الأمر الذي يدفعهم إلى تكبد مصاريف لا يحتملونها وذلك حتى يتحدث الناس عن عظمة المأتم[2].

ب- المقابر:

تحتوي مدينة دمشق[3] على مقبرة كبيرة، وهي مخصصة لدفن موتى المسلمين[4]، ومعظم القبور الموجودة بها مبنية على الأرض ومغطاة بطبقة رقيقة من الجير، وتشكل أهرامات طويلة العرض ومنخفضة الطول، ويوجد فوقها حجر

[1] جوزف بدوي، المرجع السابق، د ص.

[2] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص83.

[3] كان المعلم الطوبوغرافي هو عامل الجذب الأساسي لاختيار مناطق المقابر المختلفة في مدينة دمشق، فالمواقع التي يتم اختيارها كمكان لدفن الموتى هي انعكاس للتقسيمات السكانية في المدينة، وكان للمسلمين خمس مقابر أكبرها مقبرة الدحداح التي تقع في =الشمال، ومقبرة باب الصغير التي تقع في الجنوب الغربي، ومقبرة الرسلانية في الشرق، ومقبرة باب الله في جنوب الميدان، ومقبرة قاسيون في سفح جبل قاسيون. ليندا شيلشر، المرجع السابق، ص36.

[4] Florimon jacques de basterot, op cit, p125.

مسطح مزروع عموديا على الجانب حيث مسند رأس الموتى محفور بآيات من القرآن[1]، وقد لاحظ جول قزافي Jules Xavier Saguez De Freuvry أن قبور الفقراء الموجودة بها عادية وكلها متشابهة أما قبور الأغنياء فقال يصفها:"... مغطاة بقبة حجرية صغيرة وبها قاعة صغيرة وفناء مبني بالخشب ومغطى بسقف..."[2]، والمقابر الإسلامية غير محاطة بجدران مثل ما هو الأمر في المقابر المسيحية، ولذلك يقول القس جوزيف L'abbé Joseph Eschemann أنها هي عرضة للتلف ولدخول الحيوانات التي تنبشها، وقال أنها مصنوعة بشكل يوفر الراحة للقادمين للزيارة، وعلى العموم هي على الشكل التالي:

حفرة مربعة بطول 1.5 متر ويصنع القبر أحيانا بالحجر وأحيانا بالرخام وذلك يتوقف حسب ثروة الميت وأهله، ويرتفع القبر في كلا طرفيه عمود صغير أو نوع من اللوح الرخامي الذي تسجل عليه بعض المعلومات حول الميت وآيات قرآنية، وعند مكان الرأس يوجد إبريق الذي يملأ بالماء ليسقي به القبر، وعادة تزرع فوق القبر نباتات كالصبار وأنواع أخرى، وكذلك تخصص مقاعد مريحة للجلوس قرب قبر الميت[3].

إلى جانب المقبرة الإسلامية توجد بدمشق مقبرة أخرى مسيحية كبيرة وهي خاصة بطائفة الكاثوليك اليونانين الذين يتواجدون بكثرة في المدينة[4]، وهي مبنية على بعد حوالي 01 كلم من البوابة الجنوبية للبلدة، وأقام المسيحيون في الموقع كنيسة نظرا لقدسية المكان عندهم، وكذلك كي تكون عملية إجراء المراسيم قريبة، وعادة ما ينظم المسيحيون من دمشق موكبا جنائزيا مرة على مرة لزيارة المقبرة[5]، وفي ما يخص الشكل الخارجي للقبور فقد وصفها لنا غوسطاف فلوبير Gustav Fluber حيث قال:"... يمكن القول أن المقابر المسيحية عبارة عن مغارات جماعية كانوا يدفنون في كل واحدة منها أفراد الأسرة جميعا، وكلها مهدمة تقريبا وتنبعث منها رائحة الجثث المتعفنة، ويوجد بها العديد من الجثث التي يمكن أن تراها من خلال فتحات، وكذلك يوجد بها العديد من الجماجم بلا أجساد والعديد من

[1] Edouard blondel, op cit, p179.
[2] Jules xavier saguez de freuvry, op cit, p40.
[3] L'abbé Joseph eschemann, op cit, p 245.
[4] M m p v, op cit, p 60.
[5] L'abbé jean jacques bourassé, op cit, p422.

الأجساد بلا رؤوس..."، ولعل السبب في ذلك الخراب الذي لحقها هو نبش القبور من طرف الباحثين عن الكنوز والفقراء[1].

مقابر مدينة القدس كان لها نصيب في كتابات الرحالة الفرنسيين، إذ ذكر لنا فرمين روزي Firmin Rozy الذي زار مدينة القدس مع أواخر القرن 19م أن المدينة تحتوي على العديد من المقابر، ومن بينها مقبرة الملوك الذي قال عنها أنها مقبرة كبيرة جدا، كما ذكر في رحلته أنه يوجد في واد قدرون يوجد العديد من المقابر[2]، ولعل هذا السبب الذي دفع اليهود إلى التوافد إلى هذه المنطقة، حيث يقول شاتوبراين Chateaubriand:"... ويأتي اليهود من مختلف أنحاء العالم بغرض الموت بواد قدرون نظرا لقدسيته لديهم..."[3]، أما جين ليان Jean Lian فتحدث في رحلته عن المقابر المسيحية الموجودة في المدينة وقال أن عددها كبير وكل واحدة مخصصة لمذهب مسيحي معين، وتتميز مقارنة مع بقية المقابر المسيحية بأنه لا يوجد جدار يحيط بها[4].

---

[1] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص63.

[2] Firmin rauzy, op cit, p p-70-78.

[3] M Chateaubriand (de), **Itineraire de paris a jerusalem et de jerusalem a paris**, bernardin bechet libraire, France 1867, P 259.

شاتوبراين فرانسوا رينه دي (1768-1848): يعد من كبار الكتاب الفرنسيين الذين أثروا في الحركة الرومانطيقية في أوائل القرن التاسع عشر، وذلك يعود إلى غنى مخيلته وتصوراته وبلاغة إنشائه، وله العديد من المؤلفات منها: "آخر بني سراج"، "رينه"، "مذكرات ما وراء القبر"، "كنة المسيحية"، ولما زار الشرق ودون مذكراته في كتاب اسمه:"رحلة إلى أورشليم". أميرة جبر، المرجع السابق، ص 5.

تعتبر رحلة شاتوبراين الرحلة الوحيدة في 10 سنوات الأولى للقرن 19م التي تمكنا من الوصول إليها، وكانت من مدينة باريس إلى بيت المقدس في سنة 1806م، ولكن للأسف الشديد بعد إطلاعنا على محتواها وجدنا بأن ما كتبه كان عبارة عن وصف دقيق لمراحل الرحلة فقط والأماكن التي زارها، وبالتالي تعتبر بمثابة دليل سياحي للحجاج الذين سيأتون للمنطقة، وفي ما يخص الأمور الاجتماعية فقد أهملها كثيرا ولم يذكر إلا بعض المقتطفات التي استخدمناها في بعض المواضع، ورحلته مرت على عدة محطات نذكر منها مدينة أريحا والقدس والبحر الميت وبيت لحم، وقد ترجم الجزء الخاص ببلاد الشام إلى العربية ولمن أراد الإطلاع عليه هو موجود في كتاب مي عبد الكريم، **رحالة رومانطقيون يوميات ومشاهدات فلسطين والأردن في كتابات فرنسية في القرن التاسع عشر**، سلسلة شرق الغربيين، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة 2005م، ص ص 39-78.

[4] Jean lian, op cit, p81.

إضافة إلى المقابر الإسلامية والمسيحية التي تحدث الرحالة الفرنسيون عنها نذكر بعض التفاصيل عن المقابر اليهودية التي لم يذكروها في كتاباتهم، والمقابر اليهودية تختلف تماما عن غيرها وتتميز بتقسيمها حسب الطوائف اليهودية، وقد استخدم اليهود في قبورهم اللغة العبرية في كتابتهم على القبر، والملاحظ نقشهم لنجمة داود على شواهد القبور وكذلك صورة لأداة تدل على الحرفة التي كان

خ- زيارة المقابر:

توجد المقابر بصفة عامة قرب المدن، وهذا من أجل نقل جثة الميت بسهولة لاسيما وأن الميت كان يحمل فوق الأكتاف ويذهب به مشيا على الأقدام لمضاعفة الثواب، ومن العادات المنتشرة بكثرة أواسط المسلمين هي زيارة المقابر خاصة النساء، وهو أيضا سبب رئيسي لبناء المقابر قرب المدن وحولها وعلى مرأى من الجمهور لتسهيل مهمة الزائرين، وأيضا محافظة على سلامة وأمن النساء وعفتهن التي قد تنتهك إذا كانت في أماكن بعيدة أو منزوية[1]، ولاحظ القس جين جاك L'abbé jean Jacques Bourrasse الإقبال الكبير للنساء على المقابر خاصة في الفترات الأولى للوفاة، وذكر في رحلته أنهن يمضين أوقات طويلة في البكاء والنحيب عند قبر الميت[2].

بصفة عامة تغتنم النساء في بلاد الشام فرصة الذهاب لزيارة المقابر من أجل الترويح عن أنفسهن وأخذ قسط من التسلية والراحة، وذكر هنري قيز Henri Guys أن هذه هي الطريقة الوحيدة تقريبا التي تمكن النساء من مغادرة المدينة وشم رائحة الجبل، وقال كذلك:"... وهن لا يحجمن عن استغلال هذه الفرصة عندما يسمح بذلك، ويجتمعن حلقات حلقات حول الأضرحة ويتحدثن أو يصلين، بينما يقوم أحد الشيوج عادة ما يكون أعمى بتلاوة القرآن على قبر الميت..."[3]، والذهاب للمقابر ليس كل يوم إنما هو محدد في أيام و مناسبات أو في حال كانت الوفاة حديثة العهد[4]، وقد ذكر لنا أيضا القس جوزيف L'abbé Joseph Eschemann من خلال ملاحظاته أن المقابر أصبحت أماكن لتمضية الوقت فمن العائلات من تمضي كامل اليوم، ويحضرون معهم كل اللوازم من طعام وشراب وفراش للجلوس براحة تامة[5].

يمارسها المتوفى، وفي بعض الأحيان تجد نقش للشمعدان المقدس لدى اليهود ذي الفروع التسعة التي تمثل عندهم وصايا موسى عليه السلام، ويقيم اليهود قرب مقابرهم كنيس للصلاة على الميت. سهام مُحَمَّد هنداوي، **تاريخ دمشق في عهد السلطان العثماني عبد الحميد**، دار رسلان، ط1، دمشق،سوريا 2012م، ص 155.

[1] هنري قيز ، المصدر السابق، ص 42.

[2] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p470.

[3] هنري قيز ، المصدر السابق ، ص 79.

[4] Edouard blondel, op cit, p36.

[5] L'abbé joseph eschemann, op cit, p246.

تلتزم النساء الشاميات المسلمات اللواتي يذهبن لزيارة المقابر بالعفة والوقار، ويلبسون حجاب طويل يغطي كامل جسدهن، وبالنسبة لليوم الذي تكثر فيه زيارة النساء للمقابر هو يوم الجمعة، وفيه تمارس النساء عدة أشياء منها البكاء عند القبر، وفي بعض الجهات تجد جماعات يتبادلن أطراف الحديث، ومن العادات أيضا أن تحمل النساء معهن غصن من الآس وإناء ماء، ويصب فوق القبر ضنا منهم أنه تجديد للرحمات على الميت[1]، وتتضاعف هذه العادات إذا حلت الأعياد فتزين القبور بالأزهار وتقضي النساء حولها أياما[2].

6/المزارات المقدسة في بلاد الشام:

بلاد الشام غنية بالعديد من المزارات المقدسة لمختلف الطوائف الدينية، وهي موزعة على المدن الشامية بشكل متفاوت، ولكن الملاحظ أن هناك بعض المدن التي تفردت كثيرا في عدد المزارات، وأصبحت مركز استقطاب بامتياز للجماهير العاشقة لزيارة الأماكن المقدسة، وتعد مدينة دمشق من هذه المدن الشامية الأكثر غنى بالمزارات والمقامات وقبور الأولياء والأشراف، فهذه الأرض هي من أطهر وأشرف الأماكن باعتبارها كانت مقر ومسكن للعديد من الأنبياء والصالحين، وكذلك باعتبارها أرض الرسالات وأرض التوحيد منذ القدم، و يحوي هذا المكان على أجساد الكثير من الأنبياء وهو الأمر الذي أوردته العديد من الكتابات التاريخية[3]، وعليه و استنادا لما سبق امتلكت مدينة دمشق قدسية دينية كبيرة لدى المسلمين وغيرهم وأصبحت مزارا مفضلا لهم[4]، ولعل من أقدس الأماكن لدى الدمشقيين مكان يقع على بعد كيلومترين من دمشق يعرف لدى المسلمين بالصالحية[5]، وتذكر كلارا فليل بيتيجني Clara Filleul De Pétigny أن السبب

[1] Victor Guérin, op cit,p411.

[2] غوستاف لوبون ، المصدر السابق ، ص 321.

[3] سهام مُحَمَّد هنداوي، المرجع السابق، ص 138.

[4] G de lombay, op cit, p157.

[5] M m p v, op cit, p66.

الصالحية: هي المنطقة الممتدة من وسط جبل قسيون ومن نهاية حي الاكراد في ساحة شمدين حتى بداية حي المهاجرين وهي تضم الشركسية في جهة الغرب وتمتد جنوبا لتشمل حي جامع الجسر الأبيض، ومركزها جامع الحنابلة و جامع الصالحية، وتعتبر الصالحية من أقدم المدن الإسلامية وأعظمها، وسبب ذلك ليس الآثار والقصور التي شيدت بها إنما عظمتها تكمن في احتوائها على العديد

الرئيسي لتقديس المكان هو المعلومة المتناقلة بين سكان المدينة، وهي أن هذا المكان هو المكان الذي نزل فيه آدم عليه السلام[1]، وأنه هو أيضا نفس المكان الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل[2]، ويقولون أيضا أن قبر هابيل وقبر نوح عليه السلام موجودان في ضواحي المدينة[3]، وفي الطريق الرابط بين مدينة دمشق وبعلبك يوجد ضريح يزوره الناس يقال أنه قبر سام بن النبي نوح عليه السلام[4]، وتوجد أيضا قرية صغيرة قرب دمشق تسمى دير أيوب، وسميت بهذا الاسم لأن السكان المحليين يقولون با أن منزل أيوب عليه السلام كان فيها وفيه ابتلاه الله، والعين التي ظهرت بعد انتهاء ابتلائه وقبره عليه السلام موجودون فيها[5].

توجد أماكن مقدسة أيضا لدى المسيحيين بدمشق نذكر منها البوابة الشرقية للمدينة والتي تسمى ببوابة القديس بولس[6]، وكذلك قبر حنانيا سيد القديس بولوس الذي مازال أيضا موجودا في دمشق، ويعد من أبرز المعالم المسيحية[7]، وقد تم تحويله إلى كنيسة صغيرة يأتي لزيارتها المسيحيون من كل مكان[8]، وقد أوردت الباحثة سهام محمد هنداوي جردا لمجموعة من الروايات التي تحدد قبور الأنبياء والصحابة والصالحين والتي لم ترد في كتابات الرحالة، وسنذكرها حتى نبين القدسية الكبيرة لهذا المكان و هي كما يلي:

من دور العلم والمدارس الكبرى ودور الحديث والقرآن ومدارس الفقه التي ملأت الدنيا علما، وتعرف أيضا بمدينة العلم والعلماء. مُحَمَّد شريف عدنان الصواف، المرجع السابق، ص ص 18-19.

[1] إضافة إلى مكان نزول آدم عليه السلام تحتضن بلاد الشام قبر آدم أيضا، وقد ذكر موضعه الواسطي إذ يقول أنه موجود في بيت المقدس في داخل المسجد الأقصى، وذكر رواية عن عمر أبي الوليد تقول أن رأس آدم عليه السلام عند مسجد إبراهيم عليه السلام ورجلاه عند الصخرة، وما وجود هذا العدد الكبير من قبور الأنبياء ومهبطهم في بلاد الشام إلا من قداسة هذه المنطقة وتكريم الله عزوجل لها. الواسطي، **فضائل بيت المقدس**، تق تح تع: مُحَمَّد زينهم مُحَمَّد عزب، دار المعارف، القاهرة، مصر2001م، ص 73.
يذكر الأستاذ مُحَمَّد شريف عدنان الصواف أن آدم عليه السلام وحواء استوطنا في قرية تسمى داثرة و التي لم تعد موجودة في الوقت الحالي، وذكر أن اسمها اليوم هو بيت أبيات. مُحَمَّد شريف عدنان الصواف، المرجع السابق، ص11.

[2] Clara filleul de pétigny, op cit,p218.

[3] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p439.

[4] Florimon jacques de basterot, op cit, p107.

[5] زكرياء بن مُحَمَّد بن محمود القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت، ص196.

[6] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p439.

[7] Clara filleul de pétigny, op cit, p245.

[8] M m p v, op cit, p59.

- قبر النبي هود عليه السلام في قبلة مسجد دمشق.
- قبر النبي موسى عليه السلام بالكثيب الأحمر في قرية قرب مدينة دمشق.
- قبر نبي الله ذي الكفل عليه السلام في سفح جبل قاسيون[1].
- قبر نبي الله زكرياء عليه السلام في الجامع الأموي بدمشق.
- قبر نبي الله يحي ابن زكرياء في الجامع الأموي[2].
- قبر نبي الله اليسع عليه السلام في حوران قرب دمشق.
- دفن في مدينة دمشق عدد معتبر من الصحابة و هم حوالي سبعون رجلا نذكر منهم أبو الدرداء، أوس بن أوس الثقفي، بلال بن رباح، سهل بن ربيع الأنصاري، أبي ريحانة شمعون الأزدي، فضالة بن عبيد، آثلة بن الأصقع، سهيل ابن الحنظلية، ضرار ابن الأزور الأسدي، أبي الدحداح، رضية الكلبي في قرية قرب دمشق، تميم الداري، حرملة بن يزيد[3].

مدينة بيروت هي الأخرى من المدن الشامية التي توجد بها العديد من الأماكن الدينية المقدسة، وهي مزارات تعرف توافد العديد من المريدين، وقد ذكر الرحالة بعض هذه المناطق في كتاباتهم وتحدثوا عن قدسيتها لدى السكان المحليين، ومن أمثلة ذلك نذكر الضريح الذي يذكر السكان أن نبي الله إلياس مدفون فيه، وهو يقع بالتحديد في الطريق الرابط بين مدينة بيروت ومدينة بعلبك

[1] قاسيون: هو جبل مشهور في مدينة دمشق يمتد من برزة شرقا إلى خانق الربوة غربا والخانق هو الممر الضيق بين الجبلين، وقد استوطن البشر هذه المنطقة منذ حوالي 8000 سنة، وتتميز هذه المنطقة بنقاء الهواء وجمال المنظر وإطلالته على السهول الواسعة التي تمتد في غوطة دمشق شرقا وغربا ويطل على أنهار دمشق، وهذه كلها تعتبر من العوامل الأساسية لجذب السكان، وقد اختلف المؤرخون في سبب تسمية قاسيون بهذا الاسم ورجح أنه لفظ سرياني آرامي قديم يعبر عن القسوة. مُحَمَّد شريف عدنان الصواف، المرجع السابق ، ص ص 9-11.

[2] حدد ابن جبير مكان نبي الله يحي بن زكرياء عليهما السلام فيقول:" فأولها مشهد رأس يحي بن زكريا عليهما السلام، وهو مدفون مدفون بالجامع المكرم، في البلاط القبلي، قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية ﷺ، و عليه تابوت خشب معترض من الأسطوانة، وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف كأنه القدح الكبير...". ينظر إلى ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ضبط: مُحَمَّد زينهم، دار المعارف، ط2، القاهرة، مصر 2021م، ص 218.

[3] سهام مُحَمَّد هنداوي، المرجع السابق، ص ص 139-142.

بالقرب من وادي البقاع[1]، و قد لاحظ الرحالة احترام وتقديس المسلمين والمسيحيين لهذا المكان ومدى احترامهم للنبي إلياس، ولهذا السبب تعرف هذه المنطقة توافد مختلف الطوائف التي تقوم سنويا بالعديد من الزيارات للمكان، ولقد شيد بالقرب من ضريحه مسجد يشتغل به مجموعة من العمال الذين يعيشون من الصدقات التي يقدمها لهم الزائرون للضريح، وهي صدقات يقدمها أصحابها راجين من خلالها أن تتحقق دعواتهم بواسطة شفاعة هذا الرجل المقدس المدفون بالمكان، وإلى جانب هذا الضريح هناك العديد من المزارات المقدسة لبعض الأنبياء على طول هذا الوادي ولذلك يقدسه المسلمون.

قرب مدينة بيروت هناك مكان مقدس تناقل السكان روايات عنه بأنه هو المكان الذي دفن فيه نبي الله نوح عليه السلام[2]، وهذا ما زاد المكان أهمية بالغة في نظر سكان المنطقة، ويذكر هنري قيز Henri Guys أن العديد من هذه المزارات قد تأسست نتيجة الصراعات الطائفية، وذلك كي يثبت كل طرف أحقيته[3]، ومقام النبي نوح بالتحديد يبعد قليلا عن قرية المعلقة، وهو مقام به مجموعة من الآثار وجامع كبير مدعو باسم النبي نوح، وقد حظي المسجد بالعديد من زيارات الخلفاء والسلاطين، حيث خلدت زياراتهم بمخطوطات منقوشة على طول جدران المسجد، وقد بني هذا المسجد بحجارة قديمة، و ضريح النبي نوح شيد في غرفة طويلة تتناسب مع حجم الجسد ويبلغ طول القبر 31 متر، وعرضه 1.65 متر[4].

يوجد أيضا في مدينة القدس التاريخية العديد من المزارات والأماكن المقدسة التي تستقطب عددا كبيرا من الزوار ، وهي مدينة غنية بالمعالم والمزارات الدينية خاصة المساجد ومن أشهرها المسجد الأقصى، والمسيحيون واليهود أيضا لديهم أماكن يزورونها بها عدة مقدسات خاصة بهم كقبر إبراهيم سارة إسحاق

[1] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص 18.

[2] يزور بعض المسلمين المكان الذي فيه قبر نوح عليه السلام ويعضمونه، وقد ورد في إحدى الرحلات المغربية ذكر المكان والتحدث عن قدسيته و جاء فيها:"ويمنا مقامه الشريف، مستمدين الكرامة والفتوح...كان أول أولي العزم، ومن أفضل من بعث بالقوة والحزم، وكان يشتغل بصناعة التجارة...عاش ألف سنة وأربعمائة وثمانين بعد الألف...واختلف في مقامه الأنور، قيل بالكوفة وقيل بالجبل الأحمر، والأصح أنه بذيل جبل لبنان...". أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ج2، ص 173.

[3] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص19.

[4] هنري غيز، المصدر نفسه، ج2، ص31.

ويعقوب[1]، ومن أهم المزارات المقدسة في فلسطين كذلك خان يونس الموجود في المنطقة الساحلية الجنوبية، ويقال أن هذا المكان هو الذي طرح فيه الحوت النبي يونس[2]، إضافة إلى قبر نبي الله إبراهيم عليه السلام، وهو موجود في مدينة قرب القدس تعرف باسم الخليل وقد سميت نسبة إليه[3]، كما يوجد في فلسطين قبر راحيل زوجة يعقوب وذلك في مدينة الناصرة، وهو مكان مقدس لدى المسلمين واليهود حيث تجد بعضهم جالسين عند القبر يمارسون مجموعة من الطقوس[4]، ومن المناطق المقدسة الأخرى التي ذكرها لنا الرحالة الفرنسيون مكان يعرف ببئر يعقوب في مدينة نابلس، وهو مزار مشهور ويعرف كذلك بقبر يوسف[5].

7- طقوس دراويش الصوفية:

يوجد نوع من التجمعات خاص بهذه الفئة تكون بقيادة مشايخ تختلف عاداتهم باختلاف الطرق التي ينتمون إليها، وهم عادة ما يعتكفون لفترة زمنية معينة ويقومون بتنظيم حلقات ذكر ومواعظ تذكير، و يرددون دائما كلمة باسم الله في كل الحلقات الدائرية[6]، وعلى العموم يمكن القول أن هذه الممارسات هي عبارة عن حفلات خاصة بالدراويش وفيها يجدون متعة كبيرة، ولهذا الغرض خصص مكان محدد لممارسة هذه الطقوس، وهو عبارة عن غرفة كبيرة مغطاة بقبة عالية جدا مدعومة بأعمدة، وبها منبر بأحد الجانبين، وهناك كذلك منصة مخصصة للعازفين الذين يستعملون عدة آلات أشهرها الطبول، ومن أبرز العادات وجود سبحة كبيرة جدا بها 1001 حبة معلقة في الجدار.

يذكر هنري قيز Henri guys أن الحفل على العموم يبدأ بالتحديد في وقت الظهر[7]، حيث يتجمع الدراويش أحيانا في شكل دائرة ويمسكون بأيدي بعضهم البعض، ويدورون مع تحريك أرجلهم إلى الأمام مرة اليسرى ومرة الرجل اليمنى، وتبدأ العملية بالتسارع بشكل غير محسوس دون توقف، لدرجة أنها تصبح حيوية

[1] L’abbe a. parraud, op cit, p227.

[2] غوسطاف فلوبير، المصد السابق، ص8.

[3] Léonie de bazelaire, op cit, p205.
[4] Pierre louis péchenard, op cit, p174.
[5] L’abbe a. parraud, op cit, p131.
[6] Henri guys, op cit, p172.
[7] Henri guys, ibid, p p 225-236.

للغاية ومتعبة بشكل مفرط، ولا يمتلك أحدهم الشجاعة للخروج من الدائرة مهما كانت الأسباب لأن إنهاء الممارسة المقدسة وصمة عار.

هذه الممارسة حسبهم تمكنهم من الحصول على نعمة سماوية أو ما يعرف عندهم بالنشوة، وتكون أنغام الأغاني ثقيلة من أجل أن تمنحهم حرية الحركة، وهذه الحركة سرعان ما تتحول إلى عواء وأحيانا يبدؤون في نزع الملابس الزائدة والعمائم، وقد يصل بهم الأمر أحيانا في النهاية إلى السقوط على الأرض، والبعض يمر إلى مرحلة النشوة القصوى، وعندما يرى شيخهم تراخيا في الأداء بسبب التعب يدخل وسطهم، وذلك حتى يحفزهم أكثر مما يجعل حركاتهم أكثر عنفا من السابق، وتسمى هذه العادة بحلقة الذكر، ويتأرجح أصحاب الحلقة مع ملازمة مقولة الله الله، وذلك لا يتوقف حتى تتوقف الموسيقى[1].

يصل الدراويش في بعض الحلقات إلى درجة ضرب أنفسهم بالسكاكين والسيوف، ويكوون أنفسهم بالمكاوي الساخنة التي يعلقونها ويقبضونها بأسنانهم وهي لحظة السعادة القصوى لدى هؤلاء، وهذه العملية يكون الوصول إليها في الفصل الرابع من الحلقة، ويتم الوصول لهذه الدرجة من قبل الدراويش القدماء الذين يقفون خارخ الحلقة الراقصة، وعند الانتهاء من الحلقة يزورهم الشيخ للاطمئنان عليهم وينفخ على جروحهم، ويصحب ذلك دعائه لهم بالشفاء الكامل، ثم تتم عملية معالجة المصابين ببعض الأوراق المكتوب عليها بالقرآن[2].

يفتش الدراويش في المساجد عن أسباب الرزق، وعن ملجأ يهبطون إليه بعد النزول إلى المدينة، ويطوف الدراويش في شوارع المدن بألبسة غريبة وعلى رؤوسهم طرابيش طويلة وقد يتسلح بعضهم بحراب، ويحملون في أيديهم صحيفة ضخمة تشبه في شكلها نصف جوزة، ومن الدراويش من يمشون دون ملابس أو ملابس لا تغطي كامل جسدهم، ويكتفون بصلب أيديهم على صدورهم أو تركها متدلية كرقاص الساعة، والملاحظ أن هؤلاء يحضون باحترام الناس والتقدير، وقد منحوا العديد من الامتيازات دون غيرهم [3]، والكثير من الناس العامة يقدسون الدراويش ويخافونهم، ووصل الأمر أنه عندما يذهب درويش مشهور بالتقوى لزيارة أحد

[1] ibid, p173.
[2] ibid, p p 237-238.
[3] هنري قيز ، المصدر السابق ، ص 34.

الأماكن بالضواحي أو بأماكن العبادة، ترى الناس يتسارعون للقائه ويرتمون تحت نعاله ويحولون بينها وبين الأرض، فيمر على أجسادهم وهم يظنون أن في هذا الأمر بركة، وهو نفس الأمر الذي يعلمونه لأولادهم ويرغبونهم فيه[1].

أمر تقديس الدراويش لا يشمل كل أفراد المجتمع الشامي فمنهم من لا يؤمن ببركتهم، ولا يهتم لأمرهم بل ويمقتهم، وهذا ما ذكره الرحال الفرنسي جيراردي نرفال Girardi Narval في رحلته إلى الشرق، وهو الذي لاحظ حلقات الذكر التي ينظمها الدراويش، ورأى فيها من الغرائب ما جعله يبحث عن مضمونها ورأى السكان فيها، ويقول في هذا الصدد:"...حكم السيد جان وهو ضابط سابق في الجيش الجمهوري أن ما يقومون به أمر سخيف جدا، وأكد أن المسلمين أنفسهم يرثون حال أولئك الدراويش، وعامة الشعب هم الذين يشجعونهم، وليس هناك أبعد عن الإسلام الحق منهم، بل إن جميع الشواهد لتدل أن ما يقومون به لا معنى له..."[2].

ثانيا- مميزات وخصائص اللباس الشامي:

اللباس هو شكل من أشكال الحضارة الإنسانية، وذلك لأنه يعبر عن ميزات كل منطقة وخصائصها، ومن خلال كتب الرحالة الفرنسيين لاحظنا أن هناك تباين كبير في طريقة اللبس ببلاد الشام، وأن لكل منطقة زيها الخاص بها وشكل اللبس، ولاختلاف اللباس دلالات كبيرة منها التفاوت الاجتماعي بين الطبقات، وكذلك يدل على الحالة الاقتصادية التي تؤثر على الجانب الاجتماعي الخاص بالفترة المدروسة[3]، ومن خلال التدقيق أكثر في نمط اللباس لاحظنا تفرد كل فئة وكل ديانة وكل طبقة بلباس خاص يميزها عن البقية، فمثلا نجد أن أهل الذمة التزموا ببعض القيود الشرعية التي تتعلق بالجانب الاجتماعي مقارنة ببقية الفئات، وهذه القيود موجودة منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي وضع قانونا يعرف العهدة العمرية خصصت لأهل الذمة، وألزم على إثرها أهل الذمة بلبس مغاير

[1] هنري قيز ، المصدر نفسه ، ص94.

[2] جيراردي نرفال، **رحلة الى الشرق**، تر: كوثر عبد السلام المجيري، مر:سهيد القلماوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر1966م، ج1، ص204.

[3] مجاهدي زوليخة، المرجع السابق، ص ص 823-840.

يميزهم عن الآخرين، والنصارى الشاميون أيضا شرطوا على أنفسهم ذلك في كتابهم الذي أرسلوه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وشرطوا أن لا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من ملابسهم لا في القلنسوة ولا العمامة ولا النعلين، وأن لا ينقشوا خواتمهم بالعربية[1]، أما اليهود فقد عرفوا بالمكر والخداع الذي جلبوا عليه منذ القديم، وكذلك عرفوا بالربا الفاحش، ولذلك فرض عليهم الحكام المسلمون زيا خاصا من اللباس حتى يتمكن الناس من معرفتهم وتجنب مكرهم وخداعهم[2].

سنستعرض في هذا الجزء إلى التنوع الفسيفسائي لنمط اللباس الشامي الذي اختلف حسب فئات المجتمع وحسب طبقاته وحسب ديانة أفراده، ومن خلال كتابات الرحالة نستنتج أنه يمكن لأي شخص أن يميز أفراد المجتمع الشامي بسهولة لأن كل منهم يتميز عن الآخر بطريقة لبسه مما يمكن من معرفة مكانة الشخص الاجتماعية وتوجهه الديني والمذهبي، والمدن الشامية على العموم هي عبارة عن خليط ترى فيه كل الألوان والأشكال، وهو الأمر الذي زاد من سحر المدن الشرقية وجعلها تتميز عن غيرها من الأماكن والمدن الأخرى، كما سنستعرض الخصائص التفصيلية التي قدمها الرحالة حول طريقة لبس بعض الفئات، والتي ركزوا عليها وفصلوا فيها كثيرا خاصة الموارنة والدروز.

أ- فسيفساء اللباس في المدن:

01- المدن الشمالية الشرقية:

نبدأ بمدينة دمشق التي تتميز بطابعها الشرقي المحض، فهي من المناطق الشامية التي حافظت على عاداتها وتقاليدها أكثر من أي منطقة أخرى، ولاحظ الرحالة لويس ماركت Louise Marquette هذا الأمر، وذكر أنه خلال تواجده بمدينة دمشق لم يرى إلا فئة قليلة ترتدي أزياء أوربية، وقال أن السكان المحليين يحافظون على نمط لباسهم المعروف منذ فترة طويلة[3]، ونفس الأمر أكده إدموند دو بريسونسي Edmond De Pressensé الذي قال:"... يمكن القول أن الملابس

[1] أميرة الشيخ رضا فرحات، المرجع السابق، ص 320.

[2] يحي بوعزيز، المرجع السابق، ج3، ص 453.

[3] Louise marquette, op cit, p231.

الأوربية نادرة في مدينة دمشق..."[1]، وعلى العموم الأزياء المحلية تتميز بتنوعها وتعدد أشكالها وألوانها حتى أن الداخل لمدينة دمشق يندهش لهذا التنوع، وفي هذا المقام يقول سافيجني دو مونكوربس Savigny De Moncorps :"... دمشق مثل عش النمل يرى الزائر فيها كل الأشكال والألوان في الحشود الموجودة فيها، وتتنوع الأزياء فيها والملابس فيها إلى مالا نهاية..."[2].

يرتدي الرجال بدمشق بصفة عامة سراويل فضفاضة واسعة[3]، ومعها سترة صغيرة من الحرير المطرز بالذهب أو بالفضة، ويضعون معها حزام كشمير مزين بخنجر أنيق[4]، وهناك من الرجال من يرتدي مع هذا الزي عمامة بيضاء ومنهم من يرتدي الطربوش[5]، والطربوش الذي يرتدونه يلفونه بعمائم صغيرة ويسمى بالطربوش الإسطمبولي، أما طلبة العلم فيتميزون بارتداء عمائم من قماش الشاش الناصع البياض، وبالنسبة لليهود والنصارى فتجد منهم من يلبس الطربوش ولكن يرمون فوقه منديل بدل العمامة كي يتميزوا عن المسلمين[6]، ويذكر جول قزافي Jules Xavier Saguez de Freuvry أن الطربوش الذي يلبسونه والعمامة هو من أبرز مميزات السكان المسلمين وبها يعرفون[7]، والطرابيش التي يلبسونها لونها على العموم أحمر أما العمائم فهي بيضاء اللون، والألبسة الحريرية مخططة بخطوط بيضاء وسوداء ومشدودة بزنانير[8]، ويوجد من سكان المدينة من الأغنياء يرتدون ملابس طويلة مطرزة بالذهب في بعض الأحيان ويتباهون بها، و يمكن القول أن أزياء الرجال بصفة عامة تتميز بأنها متنوعة ومتعددة الألوان[9].

---

[1] Edmond de pressensé, op cit, p239.

[2] Savigny de moncorps, op cit, p161.

[3] مع نهاية القرن 19م و بداية القرن 20م أخذ بعض الرجال الدمشقيين يغيرون في عادات لبس السروال الفضفاض، واتجهوا إلى لبس البنطلون أو ما يعرف عندهم بالتسرول، وأكثر من تميز بهذه الموضة هم الرجال الذين يشتغلون في المناصب الحكومية. عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص79.

[4] Jean sigausc ,op cit, p115.

[5] Louise marquette, op cit, p246.

[6] عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص79.

[7] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, p10.

[8] غوستاف لوبون ، المصدر السابق، ص ص 159- 160.

[9] Edmond de pressensé, op cit, p239.

مدينة دمشق عبارة عن خليط يجمع كل الأجناس والطبقات ويعود ذلك لموقعها التجاري، وعليه ترى أنماطا أخرى من الألبسة نذكر منهم التجار الفارسيين الذين يلبسون القلانس الفروية والخناجر الزنارية[1]، ووصف لنا غوستاف لوبون Gustav le Bon أيضا من خلال ملاحظاته الحرس الخاص بالقناصل، وقال:"...يحملون معهم السياط أما ملابسهم فهي مميزة تسمى الموشاة الزرقاء..."، وذكر الموظفين العثمانيين الذين يمشون في الأسواق ويتميزون عن البقية بردائهم الرسمي الفاخر القاتم اللون[2]، وتشتهر مدينة دمشق بكثرة الدراويش الذين يتميزون بارتداء ملابس غريبة ذات الألوان المشرقة حيث يمكن تمييزهم بها بسهولة[3].

يرتدي المسيحيون عمامة سوداء اللون أما اللذين يرتدون الطربوش فيكون لونه أرجواني، وهم مجبرون على نزع أسلحتهم والنزول عن راحلتهم عند دخول المدينة وكلها شروط مفروضة عليهم[4]، والمسيحيون بدمشق يعظمون أعيادهم الدينية ولذلك يرتدون فيها ملابس جميلة المظهر ومتنوعة الألوان ذات طابع احتفالي[5]، وقد تحدث لنا الرحالة م م ب ف M m p v الذي حضر أحد هذه الاحتفالات عن نمط اللباس الاحتفالي، فقال أن اليونانين الكاثوليك يرتدون ملابس فاخرة ذات اللون الأحمر ،ذكر منها أمثلة كالمعاطف الراقية والمبطنة بالفراء[6].

يهود دمشق ليس لعمائمهم شكل الشريط الملتوي مثل ما هو موجود لدى يهود القدس وطبرية وصفد، والملاحظ أن لدى اليهود في دمشق نوع من الحرية

[1] الأزر هي قماش قطن أبيض رقيق حسن الصنعة، وللنساء الشاميات عناية عظيمة بنظافتها وترتيبها، وبعض منهن يتأزرن بملايات بملايات ملونة تشبه الملايا المصرية، وبعض الغنيات يتأزرن بالملايا الحريرية وبعضها بها موشاة بالقصب، وكلها من إنتاج محلي. عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص 80.

[2] غوستاف لوبون ، المصدر السابق، ص ص 159- 160.

[3] Eugène melchior de vogue, op cit, p97.

[4] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, p10.

[5] L'abbé delaplanche, op cit, p223.

[6] M m p v, op cit, p63.

عادة ارتداء الملابس الفرائية قديمة في مدينة دمشق. عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص79.

مقارنة مع بقية المناطق، حتى أن بعضهم يضع عمائم تشبه إلى حد كبير عمائم الأقباط، ولا توجد كذلك القبعات ذات الشكل الهلالي التي ترتديها نساء بيت المقدس بل يحل محلها شعر اصطناعي من الحرير المفتول يتدلى بشكل غليظ خلف الظهر، وقد وجد في بعض منازل اليهود ضفيرة مثل هذه تغطي الظهر كله وتنزل حتى أسفل الساقين وكأنه ذيل حصان[1]، واليهود يتفاوتون اجتماعيا حيث يرتدي الأغنياء منهم بدمشق ملابس فاخرة، أما النساء اليهوديات الغنيات فيرتدين قبعات مخملية مليئة بالماس والزهور[2].

يفد السكان البدو[3] لمدينة دمشق قادمين من المناطق الصحراوية ويمكن تمييزهم بسهولة عن طريق لباسهم، وأغلبهم يرتدون برنوس من الصوف قديم جدا يمارسون به أنشطتهم الرعوية والزراعية ولونه قاتم، وقد ذكر إدوارد بلوندال Edouard Blondel أن مظهره مقرف جدا وقال:"... ويجب أن يصبح أشلاء حتى يتم استبداله ببرنوس جديد..."[4]، ومنهم من يرتدي معاطف غامقة اللون ذات خطوط بيضاء، وفي بعض الأحيان يوجد بها خطوط بنية مرمية للوراء، والملاحظ أنها أقل قدما مقارنة بالأولى[5].

لاحظ الرحالة أن النساء الدمشقيات يتميزن بالسترة، وأجمعوا جميعا أنهن محجبات ويرتدين معاطف بيضاء طويلة، وهو الزي الموحد لجميع النساء في ذلك الوقت[6]، والاختلاف قد يكون فقط في اللون أو الشكل، وهو ما ذكره سافينجي

---

[1] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص60.

[2] Savigny de moncorps, op cit, p164.

ارتدى اليهود حتى نهاية القرن 19م قبعات حمراء بدون حواف على رؤوسهم، ولكن صدر فرمان أجبر اليهود على ارتداء القبعات ذات اللون الأزرق على أن يبقى لون الشاش أحمر، وألزم اليهود القراؤون الربانيون بلبس اللون الأصفر، والمرأة أيضا ترتدي الإزار الأصفر، ولكن سرعان ما تمكن اليهود من استخلاص فرمان سلطاني يعفيهم من لبس هذا الزي، وهذا الامتياز منح لهم بعد أن تمكنوا من وضع أنفسهم تحت حماية القناصل الأجانب وأصبحوا يتزينون بالأزياء الأوربية. سهام مُحَمَّد هنداوي، المرجع السابق، ص 157.

[3] ينظر إلى الملحق رقم 06.

[4] Edouard blondel, op cit, p178.

[5] M m p v, op cit, pp 56-63.

[6] Edouard blondel, op cit, p178.

الفتاة في بلاد الشام كانت تضع الحجاب على رأسها ووجهها منذ سن مبكر وهو التاسعة من عمرها بل يوجد من يضعنه قبل ذلك بمدة طويلة. مُحَمَّد الخطيب،المرجع السابق، ص.

دومنكوربس Savigny de Moncorps الذي لاحظ وجود نساء يرتدين أحيانا حجاب ألوانه مختلفة[1]، وأحيانا ما تكون به خطوط صفراء، وعلى العموم حجاب النساء المسلمات يتميز بأنه فضفاض للغاية، ولا يمكن أن يظهر شيء منهن من خلاله، و يوضع إضافة إليه قطعة قماش على الوجه تغطي الوجه عادة ما يكون لونها أزرق غامق[2].

يختلف الأمر في المنزل حيث ترتدي النساء أجمل ما لديهن وتتزين لإرضاء أزواجهن، فيضعن غطاء ذو لون ذهبي يصل للأذن وأساور من الماس، إضافة إلى سلاسل من المرجان وصفوف من اللآلئ وعملات ذهبية مبعثرة في الشعر تنزل حتى العنق[3]، ومن أشهر ملابس النساء الدمشقيات المنزلية أيضا الترتر وهو سترة من الحرير لونها أخضر لامع، أكمامها طويلة ومتدلية ومفتوحة الكوع لتكشف عن الأذرع المزينة بأساور ثمينة، وتوجد كذلك سترات من الشاش الفضي، وشال من الكشمير يربط حول الحزام، والنساء ذوات الرتب العالية والغنيات يحملن خنجرا فاخرا مقبضه مرصع بحجارة ثمينة وهو أمر يتفاخرن به، كما يرتدين كذلك سراويل عريضة تغطي الساق إلى أعلى الكاحل، وهو عادة محاط بحلقات من المال وأحيانا بأجراس صغيرة من نفس المعدن وهذا الزي رائع جدا[4].

الحجاب الفضفاض أو ما يعرف بالبرقع الذي تتستر به النساء في دمشق وطرابلس لا يسمح لأحد بأن يتمكن من وصفهن وصفا دقيقا، بينما من الممكن أن تجد نساء قرويات لا يتسترن كاملا وأقل حشمة وعفة من ساكنات المدن، ولكن الألبسة التي يرتدونها تتميز بأنها فضفاضة ولا يمكن من خلالها معرفة قوامهن[5]، ونفس الأمر بالنسبة للمرأة المسيحية المتدينة فهن أيضا يتميزن بارتداء معطف كبير وعليه حجاب خفيف في الرأس يرفع حسب الرغبة[6]، وبالنسبة لقطعة القماش التي تغطي الوجه فهي غير موجودة، وهو ما تثبته ملاحظات الرحالة لومباي G de

[1] Savigny de moncorps, op cit, p162.
[2] Louise marquette, op cit, p231.
[3] Jean sigausc ,op cit, p115.
[4] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, pp156-157.
[5] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص10.
[6] Louise marquette, op cit, p231.

Lombay الذي ذكر أن العديد من النساء المسيحيات الدمشقيات يضعن وشم خانة في رؤوسهن مما يثبت أن الوجه مكشوف[1].

مدينة حلب تعتبر من المدن الشامية الأكثر انفتاحا في الجانب الحضاري، ويعود السبب في ذلك إلى طبيعة نشاطها الاقتصادي الذي جعلها قبلة للأوربيين، ونفس الشيء بالنسبة لتجارها فهم أيضا كانوا يتوجهون نحو أوربا ويجلبون معهم المؤثرات الجديدة[2]، ولهذا نمط لبس سكان المدينة مختلف مقارنة مع المناطق الشامية الأخرى وفيها من يقلد الأنماط أوربية، والملاحظ كذلك أن السكان في وقت سابق كانوا يلبسون الأقمشة الحريرية المحلية بكثرة، ولكنهم انتقلوا إلى شراء الموسلين والألبسة الهندية، وأصبحت الصناعة الأوربية كذلك رائجة بشكل كبير ونافست السلع المحلية[3].

النساء المسلمات في حلب أيضا يتميزن بصفة التستر الكامل، حيث يرتدين لباس يغطي كل جسمهم عند الخروج من المنازل حتى وجوههن لا يمكن رؤيتها[4]، والملاحظ أن أزياء النساء الحلبيات تختلف حسب الطبقة الاجتماعية للمرأة، حيث ترتدي بعضهن ألبسة راقية جدا، والطبقة الفقيرة ترتدي تقريبا لباس بسيط موحد[5]، أما النساء اليهوديات فهن على العموم غنيات، ويظهر ذلك في طريقة لبسهن التي تتميز بالفخامة والجمال مما يجعلهن يتباهين به خلال مشيهن[6]، وتوجد من النساء الغنيات من بلغن درجة كبيرة من الرفاهية وصلت إلى حد ارتداء قبعة من القماش ملونة ومزينة باللؤلؤ والأحجار الكريمة[7].

2- المدن الشمالية الغربية:

تعجب وانبهر الرحالة الفرنسيون الذين زاروا هذه المناطق لاسيما مدينة بيروت، وذلك يرجع للتنوع الكبير في أنماط اللبس المختلفة الأشكال والألوان التي

---

[1] G de lombay, op cit, p165.
[2] Edouard blondel, op cit, p280.
[3] Henri guys, op cit, p81.
[4] Henri guys, ibid, p183.
[5] Henri guys, op cit, p.60
[6] Henri guys, ibid, p279.
[7] ibid, p183.

يرتديها السكان المحليون والأجانب[1]، ويعود السبب الرئيسي لذلك إلى أن سكان بيروت يتكونون من خليط كبير مقارنة ببقية المناطق، ويذكر ألارد كاميل Allard Camille أنه كان بإمكانه أن يفرق بسهولة بين فئات المجتمع المختلفة، وذلك عن طريق لباسهم الذي هو موحد عند كل فئة وكل ديانة، وقال في ذلك:"... عند المشي في شوارعها تلاحظ السكان يرتدون مجموعة متنوعة من الأزياء تمكنك من التفريق بينهم، فمثلا الدروز يرتدون معطف مخطط بخطوط بيضاء وسوداء طويلة، العربي يرتدي برنوس، التركي بحذائه الجلدي الأصفر وله سروال واسع وعمامته خضراء في الغالب..."[2]، وذهب الرحالة جيان باتيست Jean Baptiste Morot إلى ذكر طريقة أخرى للتمييز بين السكان والتفريق بينهم، وذلك يكون عن طريق لون العمائم فيقول:"... فترى العمائم من جميع الألوان فالمسيحيون واليهود يرتدون عمائم ذات لون أسود وأزرق أو رمادي، أما العلماء فيرتدون عمائم ذات لون أبيض، وزعماء الدين يرتدون عمائم خضراء اللون..."[3]، وبصفة عامة يمكن القول أن الأزياء في مدينة بيروت هي عبارة عن خليط عجيب مكون من كل أزياء الشرق والغرب[4].

يرتدي الرجال في بيروت على العموم فوق ملابسهم سترة خشنة دون أكمام مصنوعة من شعر الإبل، ويرتدون حزام عريض ملون عند الخصر يضعون به مسدس أو خنجر وهي عادة مشتركة مع بقية المناطق الشامية[5]، أما أسفل البطن فيرتدون بنطلون واسع مصنوع من الحرير، وفي أرجلهم يرتدون حذاء أحمر أو أصفر[6]، كما يظهر التأثير الأوربي في الأزياء وطريقة اللباس في بيروت عند بعض السكان خاصة فئة الأغنياء والتجار[7]، والعمامة ليست هي الشيء الوحيد الذي يوضع فوق الرأس فمثلا الجنود يرتدون الطربوش، والفقراء يضعون التكية وهو نوع من القبعات المرتفعة تشبه قبعة الطاهي تكون بيضاء اللون أو رمادية[8].

[1] Gabriel charmes, op cit, p136.
[2] Allard Camille, op cit, p66.
[3] Jean baptiste morot, op cit, p283.
[4] Louis bunel, op cit, p288.
[5] Richard cortambert, op cit, p25.
[6] L'abbé jean jacques op cit, p478.
[7] Jean baptiste morot, op cit, p354.
[8] M m p v, op cit, p 44.

عرفت مدينة بيروت تغيرا نوعيا في نمط اللباس مع النصف الثاني للقرن 19م، ففي أواخر القرن 18م ومطلع القرن 19م كان اللباس كافيا لتمييز السكان عن بعضهم البعض، ولكن بعد أن اجتاح المصريون المنطقة بدأت تظهر معالم هذا التغير، وتحرر المسيحيون من القيود التي فرضها عليهم الأتراك في زيهم، فمثلا المسيحي كان لا يمكنه ارتداء العمامة البيضاء التي هي مخصصة للمسلمين فقط، ولكن بعد ذلك أصبح في إمكان المسيحيين ارتداء العمائم البيضاء[1]، وأصبح زي المسيحيين مثل زي الأتراك مع إدخال بعض التعديلات، فيرتدي الرجال معطف ذو لون غامق يميل إلى الأسود تقريبا وهذا المعطف مطرز بالحرير والفضة على الكتف، وهو على شكل كيس كبير مفتوح في المنتصف في الجزء العلوي، وتحت المعطف يرتدون معطفا آخر أضيق مفتوح من الأمام ومزين من الخلف بتطريز مثلث، أما العمامة التي يرتدونها فلونها أزرق بشكل عام ومختلطة باللون الأبيض[2]، الأبيض[2]، والمسيحيون أصبحوا لا يختلفون عن السكان المحليين إلا بلون لباسهم الأشد سوادا[3]، والملاحظ على زي البيروتيين مع أواخر القرن 19م هو تضاعف الانفتاح على نمط اللباس الأوربي خاصة لدى الفئات المثقفة ومن جميع الطوائف، وقل لبس العمامة وقل الاقتصار على لبس الجبة، وأدخلت الطرابيش المغربية ،

[1] Edouard blondel, op cit, pp20-21.

ذكر بازيلي أن المسيحيين قد تمكنوا من الحصول على العديد من الامتيازات في عد الحكم المصري ببلاد الشام، وقال أن إبراهيم باشا قام بتخفيف الأحكام المفروضة على مسيحيي الشام، مثل منع ركوب الخيل أو لبس بعض أنواع الثياب وسرح لهم ارتداء العمامة البيضاء والثوب الذي يريدونه، وقد جلد أحد المتدينين الذي رمى مسيحيا ارتدى عمامة بيضاء في أسواق دمشق بالقذارة، وقد أجبر العلماء وعامة الناس على الانصياع لأوامر إبراهيم باشا الفولاذية، وأثار هذا التسامح المفرط في بعض الأحيان حساسية كبيرة لدى المسلمين، ومن هنا استنتج بازيلي أن هذه التغييرات هي التي ستؤدي فيما بعد إلى نشوب صراعات دينية كبيرة في المنطقة. بازيلي مخاتيلوفيتش، المصدر السابق، ص ص 195-196.

عمامة المسلمين وإن تشابهت في اللون فإنها تختلف في الحجم وكيفية وضعها، حيث كانت توضع أحيانا فوق الطربوش، وإن كانت العمامة ساترة أطراف الطربوش وتهبط إلى الآذان فأصحابها من العلماء الزاهدين، وإن كانت من القماش الأبيض الرقيق فإما أن =يكون صاحبها إماما أو خطيبا لمسجد أو قاضيا أو مفتيا أو شيخ مدرسة قرآنية، وأما إن كان لون القماش أخضر ملتف على تاج فصاحبها ينتسب للرفاعية وإن كان الأخضر على طربوش فهو من الأشراف، أما إن كان أسود حول الطربوش فهو من القادرية. مُحَمَّد الخطيب، المرجع السابق، ص 199.

[2] M delaroiere, op cit, p47.

[3] هنري قيز ، المصدر السابق ، ص104.

وبعدما كان البيروتي يميل إلى اقتناء الملابس ذات اللون الأحمر والبنفسجي، توجه إلى اقتناء الثياب ذات اللون الأسود وشاع استخدام الجوارب[1].

ترتدي النساء البيروتيات زي يشبه قليلا لباس النساء التركيات، ولكن بدلا من عصابات الرأس البيضاء التي تغطي وجوههم يرتدون منديل صغير يسمح لهم بكشف أنفسهم عندما يستطيعون فعل ذلك دون إزعاج[2]، وهذا المنديل سميك وملون لا يمكن من خلاله معرفتهن أو تميزهم عن بعضهم البعض[3]، ولونه بصفة عامة بني أو أسود[4]، وأحذيتهم بدلا من أن تكون صفراء مثل أحذية التركيات فهن يرتدين أحذية ذات لون أحمر[5]، وبالنسبة للجسد فهو مغطى بالكامل بلباس فضفاض طويل لونه أبيض حيث لا تظهر تفاصيل جسدهن، ويقول ألارد كاميل Allard Camille واصفا هذا اللباس:"...النساء المسلمات ببيروت يشبهن الأشباح في لباسهن، والذي هو عبارة عن أشرعة بيضاء كبيرة تغطيهم بالكامل..."[6]، وهذا اللباس واسع جدا لدرجة أنهن يقمن بحمله أمامهن بأيديهن كي لا يتسخ[7]، كما أن الكشف عن القدم هو أمر غير مستحب في الشام، ولذلك على النساء ارتداء جزم عريضة مستديرة الشكل، وفي بعض الأحيان يلبسون خرق يلففنها حول القدم حتى لا يظهر منها شيء، والنساء يحتفظن بما لديهن من أحذية قديمة التي تمكنهم من شراء حذاء آخر دون الذهاب إلى إسكافي يقيس أرجلهن[8].

بالنسبة للنساء المسيحيات المقيمات في مدينة بيروت فيوجد فئة كبيرة منهن من يمشين مكشوفات الوجه ويزينون أنفسهن قبل الخروج من بيوتهن[9]، ومنهن من لا يرتدين حتى حجاب الرأس ويمشين مكشوفات، وقد ذكرهن ليون درالد Léon Dhéralde حيث قال:"... تشاهد في ساحل بيروت نساء غير محجبات ذوات

[1] حسان حلاق، المرجع السابق، ص ص17 – 18.

[2] M delaroiere, op cit, p48.

[3] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p478.

[4] L'abbé jean jacques bourrasse, ibid, p478.

[5] M delaroiere, op cit, p48.

[6] Allard Camille, op cit, p66.

[7] Gabriel rogeron, op cit, p132.

[8] هنري قيز ، المصدر السابق ، ص104.

[9] L'abbé jean jacques bourassé, op cit, p478.

شعر طويل محمل بالترتر، ويزين رؤوسهن بالطنطورة الرشيقة..."[1]، وأكد ذلك الرحالة م م ب ف M m p v الذي لاحظ هو الآخر الانفتاح الكبير على مخالطة الرجال فيقول:"...كما تراهم يمشون في الطرق والأسواق والحارات ويتحدثن مع الرجال الأجانب عليهن، وهن يقلدن النساء الأوربيات حق التقليد، ولا يختلفن عنهن إلا في اللسان واللغة..."[2]، وهذا لا يعني أن الأمر ينطبق على جميع المسيحيات فيوجد من المسيحيات نساء محجبات يرتدين لباس أبيض يغطي جسدهن بالكامل ممسوك عند الخصر بقليل من القماش، ويرتدين معها قطعة من قماش على رؤوسهن[3]، والأمر نفسه بالنسبة للراهبات والأخوات والممرضات اللواتي يرتدين معطفا به أربطة سوداء ضيقة بها حزام ضيق عند الخصر، وترتدين فوق رؤوسهن أيضا قبعة في وسطها صليب صغير[4].

الحجاب والسترة هو أمر خاص بالخارج فقط، فالنساء البيروتيات في بيوتهن يتزين ويلبسن أحلى ما لديهن و يصبغن أصابعهن باللون الأصفر وحول العينين باللون الأسود، الخدان باللون الأحمر والأبيض، الشفتان باللون الأزرق، أوشام خفيفة في الجبهة وحول الفم، ويرتدين مجوهرات من قلائد وخواتم وسوارات وأقراط وما إلى ذلك[5]، ويرتدي الأطفال مثل الكبار ولا يوجد فرق إلا في القبعة الحمراء التي يرتدونها، وشعرهم مزين بعملات ذهبية وعادة ما يصبغون شعورهم بالحناء[6].

كما قدم لنا الرحالة بعض الملاحظات البسيطة حول نمط لباس سكان مدينة زحلة، حيث لاحظوا أن سكان مدينة زحلة بصفة عامة يهتمون بملابسهم

---

[1] Léon dhéralde, **voyage en orient Jérusalem et Palestine**, f f ardant frères quai du marché neuf h, paris, france1881, p141.

نساء بيروت بصفة عامة متأدبات ومحتشمات سواءا المسلمات المتحجبات أو المسيحيات الغير محجبات، ويذكر عبد الرحمن بك سامي الذي زار المدينة أن المسيحيات يقابلن الزائرين بأخلاق لطيفة وبأدب، وهن متأدبات يتكلمن باللغة العربية. عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص 14.

[2] هذه التقليد الأعمى ظهر في مدينة بيروت وبلاد الشام عامة مع أواخر القرن 19م. حسان حلاق، المرجع السابق، ص21.

[3] M m p v, op cit, p 44.

[4] Léon Paul, op cit, p155.

[5] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p478.

[6] Edouard blondel, op cit, p34.

ويحافظون عليها ويحافظون على نظافتها، أما النساء المسلمات كغيرهن من المناطق يتلحفن كغيرهن من النساء الشاميات بلباس فضفاض مصنوع من النسيج الأحمر، ويعصبن رؤوسهن بكل بساطة، وبالنسبة للرجال فيتميزون بارتداء الطربوش بدلا من العمامة وهو ملفوف بمنديل يغطي الرأس[1]، ولباسهم على العموم مصنوع من قماش قطني أزرق مصنوع محليا عكس بقية المناطق التي تعتمد على الحرير في صنع الملابس[2].

03- المدن الجنوبية:

نبدأ الحديث عن فسيفساء اللباس في هذه المنطقة بالمدينة الأكثر أهمية وهي القدس، ولاحظنا من خلال دراستنا أن الرحالة الفرنسيين قد أهملوا في كتاباتهم الحديث عن مواصفات الملابس التي يرتديها المسلمون في بيت المقدس، وقد ورد في ذلك القليل من الملاحظات نذكر من بينها ما أورده فرمين روزي Firmin Rauzy حول العمائم التي يرتدونها، والتي قال أنها تتشابه في لونها وطريقة لبسها مع بقية المناطق، وهي العمائم الدائرية البيضاء، وقال أنهم عندما يحجون يرتدون عمامة ذات لون أخضر[3]، ويرتدون في أرجلهم أحذية مسطحة ونعال دون كعب خاصة النعال المغربية الحمراء[4].

يحافظ يهود القدس بصفة عامة على الأزياء التقليدية الخاصة بهم، والتي تعود لفترات قديمة جدا، والرجال اليهود يلبسون ثياب متنوعة ويتوقف ذلك حسب جنسياتهم المختلفة فمنهم بولنديون، روس، ألمان، إسبان...، رؤوسهم مغطاة بقبعة مسطحة من الفراء عادة ما يكون لونها أصفر، ومنهم من يرتدي قبعة عالية في بعض الأحيان، ويرتدي أكثرهم معطفا طويلا، ومنهم من يرتدي ملابس غالية الثمن مصنوعة من الحرير مشدودة عند الخصر بحزام أنيق[5]، وعلى الأرجح هم اليهود القادمون من روسيا، ويرتدون معها زوخ من أحذية القوزاق الكبيرة[6]،

[1] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص 32.
[2] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p136.
[3] Firmin rauzy, op cit, pp184-185.
[4] L'abbé jh Lespinasse, op cit, p341.
[5] Léonie de bazelaire, op cit, p178.
[6] Firmin rauzy, op cit, p184.

والمعاطف التي يرتدونها مصنوعة من الحرير وهي واسعة مبطنة بالفراء[1]، وبالنسبة لليهود البولونيين فهم يختلفون قليلا في طريقة لبسهم، وما يميزهم هو ارتدائهم لقبعة مصنوعة من فرو ثعلب[2]، وذكر روزي Firmin Rauzy أن منهم الأغنياء يرتدون تاخ حريري كبير وقبعة من الفرو، ويتميزون بتجعيد شعر طويل ملتوي يظهر تحتها.

يلبس بعض اليهود بالقدس سترات ملونة بألوان زاهية، ويرتدون فوقها العمائم التي تختلف عن عمائم المسلمين[3]، وهذه السترات مصنوعة من الحرير أيضا، واللون الغالب على ملابسهم هو الأسود القاتم[4]، ومن اليهود من يلبسون ملابس حريرية مغطاة بالكشمير الأبيض والوردي الطويل[5]، أما اليهود الذين يأتون من أجل زيارة حائط المبكى فيلبسون ثيابا خاصة، وهي مكونة من قبعات يتدلى الشعر تحتها ملتويا في شكل لولبي، ويلبس بعضهم فساتين جميلة لونها أسود ومنها الأزرق والأرجواني المخملي والقرمزي المبطن بالجلد الثمين[6].

أغلب المسيحيين الموجودين في القدس من الحجاج، حيث يأتون إلى القدس من أجل ممارسة طقوسهم، وإحياء الاحتفالات الرسمية كعيد الفصح، والتي يوجد فيها جموع كبيرة ومواكب مكونة من يونانيين يرتدون أزياء فاخرة، الروس الأرثودوكس الذين يعرفون بشعرهم الطويل ويرتدون أحذيتهم الوطنية

عرفت فلسطين توافد عدد كبير من اليهود الروس منذ منتصف القرن 19م ويعود ذلك إلى عدة أسباب، فمنذ سنة 1882م تأسست في روسيا أولى الحركات الصهيونية المتمثلة في هو في في تسيون أي عشاق جبل صهيون وحركة البيلو أي بيت يعقوب قوموا لنمشي، كما تأسست في بروسيا منظمة صهيونية أخرى اسمها حبات تسيون أي حب صهيون، كما شهدت روسيا في نفس الفترة صدور أولى المجلات الأسبوعية والصحف اليومية التي تنادي بالفكرة الصهيونية، وصدر كذلك في عام 1882م كتاب بعنوان التحرر الذاتي وهو نداء قدمه يهودي إلى إخوانه، وبالتالي عرفت هذه الفترة هجرة عدد كبير من اليهود الروس إلى فلسطين بسبب النشاط الكبير للمنظمات والجمعيات التي نشأت. ميشال إده، **الشتات اليهودي والصراع العربي الإسرائيلي**، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان1990م، ص 8.

[1] M m p v, op cit, p157.

[2] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص22.

[3] Firmin rauzy, op cit, p188.
[4] Pierre petiot, op cit, p 77.
[5] M m p v, op cit, p 155.
[6] M m p v, ibid, p149.

الكبيرة[1]، ويتميزون عن غيرهم بأنهم عمالقة، ويرتدون معاطف طويلة مع فستان أسود مبطن بالفراء[2]، كما يتميز المسيحيون أيضا بتصفيفة شعرهم وملابسهم الفضفاضة[3].

يرتدي الكهنة لباس خاص يميزهم عن عامة الناس، فمنهم المنشقون الذين يرتدون لباس فضفاض أسود، ويتميزون بشعرهم الطويل المظفر، ومنهم مرتفعوا الشعر مثل شعر النساء[4]، والآباء البيض يرتدون طربوش أحمر وحزام من الجلد، ويعلقون على صدورهم مسبحة طويلة ذات لونين أبيض وأسود[5]، ويرتدي الأساقفة اليونانيون لباس من الحرير الأحمر أو الأرجواني مع ثوب نصفه من المخمل، ويرتدون صليبا وخاتما وحجابا كبيرا مع تاخ فاخر[6]، أما النساء الكاثوليكيات الغنيات فيرتدين فساتين من الأقمشة الرفيعة، وأذرعهم محملة بالمجوهرات والأحجار الكريمة، ولا يضعون القفازات على أيديهم في حال خروجهن من المنزل إلا إذا كان الجو باردا[7].

يتميز لباس البدو بغرابته لاسيما في ما يخص أحذيتهم، والتي تتميز بتنوعها فمنها الحذاء الأحمر[8] الطويل، ومنها النعال التي هي عبارة عن قطعة من الجلد تشد إلى القدم بحبال، ووسط الجسم محزوم بجلد عريض إضافة إلى أنهم يضعون فوق رؤوسهم كوفية تغطيه، وجلهم يحملون معهم بنادق طويلة الماسورة مزينة بقطع من الجلد، ويمكن القول أن ما من شيء يحمله أو يلبسه البدوي إلا ويصبح بدوي مثله، ولعل هذا الأمر هو الذي يفسر ظاهرة تشابه الألوان وإن اختلفت مكوناتها، وهي تقريبا نفس الملاحظات المقدمة سابقا حول لباس بدو

[1] Léonie de bazelaire, op cit, p108.
[2] M m p v, op cit, p118.
[3] Firmin rauzy, op cit, p184.
[4] Léonie de bazelaire, op cit, p111.
[5] Alphonse couret, op cit, p179.
[6] Louise marquette, op cit, p194.
[7] Louise marquette, ibid, p189.
[8] الرجال والنساء يكرهون جميعا عادة المشي حفاة الأرجل، والأمر نفسه ينطبق حتى على الفلاحين والفقراء الأكثر عوزا، وهذا الأمر يترك الأرجل دائما نظيفة. عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص68.

مدينة دمشق[1]، ونفس هذا الوصف للباس البدو أورده الرحالة الفرنسي شاتوبراين Chteaubriand في مذكرات رحلته حيث يقول فيهم:"... ويرتدي معظم سكان البدو يرتدون سترة مربوطة بحزام في وسط الجسم، ويزيلون في بعض الأحيان ذراعا من كم القميص، وفي بعض الأحيان تجد بعضهم يلف نفسه في بطانية من الصوف الأبيض بمثابة معطف... وتجدهم مسلحين بخنجر أو رمح أو بندقية طويلة..."[2]، وهذا ما يؤكد لنا بأن حياة سكان البادية كانت صعبة، وأن التقشف في اللباس كان من المظاهر المنتشرة.

المرأة المسلمة بالقدس كغيرها من نساء الشام تستر كامل جسدها حتى وجهها لا يظهر، وهو مخبأ تحت قطعة نسيج ملونة، وقال عنهن ليوني دو بازولار Léonie de Bazelaire:"... هي مغطاة بالكامل من الرأس إلى أخمص القدمين بحجاب ضخم أبيض اللون مما يجعلها تبدو مثل الأشباح..."[3]، أما النساء اللواتي يسكن في الريف المجاور للقدس يرتدين لباسا ملقما بمربع صغير ملون على الصدر، ويغطين رؤوسهن بقبعة طويلة الجانبين تغطي الأذنين، والجبهة تغطيها صفوف من القطع النقدية الواحدة فوق الأخرى تتدلى منها صفائح معدنية كبيرة مربوطة بخيوط، أما أعلى القبعة فهو يأخذ شكل الكعكة، وتحيطها الغنيات بسوار من الفضة، أما الفتيات الصغيرات فيعتمرن وشاحا مزينا بقطع فضية[4].

ننتقل من القدس إلى مدينة الناصرة التي أهملت فيها الكتابات الفرنسية الحديث عن نمط لباس الرجال، واكتفت بالحديث عن أهم مميزات لباس النساء الناصريات، حيث لاحظوا أن المرأة الناصرية هي الأخرى مستورة وسط سترة واسعة كغيرها من نساء الشام، لكن الفرق الوحيد هو أن اللباس الفضفاض الذي ترتدينه ليس ذو لون واحد إنما يتكون من ألوان زاهية ومتنوعة[5]، وعلى الرأس أو الكتفين ترتدين حجاب عادة ما يكون لونه أصفر أو أزرق[6]، ويؤكد هذه الملاحظات ما قاله

[1] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص36.

[2] M Chateaubriand (de), op cit, P 240.

[3] Léonie de bazelaire, op cit, p108.

[4] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص28.

[5] Firmin rauzy, op cit, p30.

[6] Martin donos, op cit, p117.

القس بارود L'abbe a. Parraud عن نساء الناصرة، حيث ذكر أنه رأى نساء يرتدين ثوب أزرق بسيط وينزل على أكتافهن حجاب أبيض، وهو مرتفع بشكل مربع عند النساء المتزوجات، وبشكل دائري لدى الفتيات، وذلك حتى يتم التمييز بينهن، وتوجد من تضع حوله عملات معدنية من الذهب أو الفضة أو النحاس[1].

أما بالنسبة لنساء الناصرة المسيحيات فقد ذكر بعض الرحالة أنهن لا ترتدين الحجاب، وتتألف ملابسهم من بنطلون كبير من قماش قطني، وينزل عليه ثوب من قماش أزرق مفتوح على الجبهة، ويتم شد الخصر بواسطة وشاح، أما الشعر فيضعن فوقه منديل قصير يغطي الرأس ومعه يضعون صنف من العملات الذهبية أو الفضية المتراكبة مثل قشور السمك[2]، والشعر عادة ما يكون على شكل ضفائر[3]، وقد تحدث الرحالة م م ب ف M m p v عن المظهر الجمالي الذي تتميز به نساء الناصرة المسيحيات، ويعود السبب في ذلك إلى تزينهن المبالغ فيه فغالبا ما يرتدين ملابس غنية بعملات معدنية موضوعة على اليدين والجبهة[4]، أما ملابس الأطفال الصغار فهي تتكون من فستان طويل بلون متنوع مربوط عند الخصر بحزام، ويضعون كوفية على الرأس ومعظمهن من الكاثوليك[5]، وبالنسبة لرجال مدينة الناصرة لم يتحدث عنهم الرحالة إلا ما أورده الرحالة بارود L'abbe a. Parraud الذي أعطى وصفا بسيطا لبدو الناصرة، وذكر أن لديهم نمط لبس موحد يتكون من معطف أبيض وأسود يضعون فيه دائما أسلحتهم[6].

مدينة نابلس هي الأخرى نالت نصيبها من ملاحظات الرحالة الفرنسيين في ما يخص نمط اللبس، إذ تحدثوا عن رجال البدو بنابلس ونمط لباسهم الذي يتكون من معطف أسود مخطط بشكل عمودي مع الأبيض وهو يشبه لباس بدو الناصرة، ويضعون فوق رأسهم عمامة زرقاء داكنة ومشدودة بحبل من شعر الجمل الأسود، فستان قطني أسود، حذاء جلدي كبير، حزام أحمر، حقيبة كاليكو حمراء مربعة، وعلى الجزء الأمامي من الصدر قماش خشن مخطط باللون الأزرق

[1] L'abbe a. parraud, op cit, p p93-94.
[2] Edouard blondel, op cit, p 201.
[3] Martin donos, op cit, p120.
[4] M m p v, op cit, p208.
[5] Martin donos, op cit, p118.
[6] L'abbé a. parraud, op cit, p98.

والأصفر[1]، ومن عرب البادية من يرتدون إضافة لما سبق ذكره سترة مشدودة عند الخصر[2]، وبدو نابلس الفقراء بصفة عامة يرتدون قمصان ذات قماش خشن، ويحملون معهم السكاكين والخناجر والمسدسات[3]، أما أطفال البدو فيرتدون ملابس تظهرهم نصف عارين، ورأسهم محلوق بالكامل ما عدا خصلة من الشعر متروكة على الجبهة[4].

ترتدي النساء النابلسيات البدويات ملابس ذات لون أسود تشبه ملابس المصريات، ويضعن أيضا منديل أسود تتناثر فيه الأزهار وهو نوع من الأوشحة التي توضع حول الرأس، وباقة من الأساور الزجاجية الصفراء والحمراء، وهن متميزات بوضع بأوشام زرقاء مرسومة تحت الشفة السفلية إلى غاية الذقن، وأذرعهن عادة ما تكون مكشوفة[5]، وذكر فرمين روزي Firmin Rauzy أن منهن من يرتدين قميص قطني أزرق بسيط يتميز بأنه ضيق عند منطقة الخصر[6].

لم يفصل الرحالة الفرنسيون في ذكر نمط اللباس الخاص بكل المكونات السكانية لمدينة بيت لحم، فتحدثوا عن سكان البدو المقيمين في ضواحي مدينة بيت لحم، وذكروا أن بيئتهم باردة قليلا مما يجعلهم يعتمدون على ألبسة خشنة مصنوعة من جلود الغنم المليئة بالصوف الحريري، ويرتدون معها الأقمشة المخططة وفي أرجلهم الصنادل الحمراء المغربية[7]، وقد أكد هذه الملاحظات فرمين روزي Firmin Rauzy حيث قال:"... يعيشون في الهضاب العليا، ويرتدون حزام وطربوش تحيط به عمامة، ويلبسون نعال المغرب الحمراء..."[8]، ونفس الشيء ذكره القس بارود L'abbe a. Parraud الذي قال أن بدوي بيت لحم يرتدون جلود الأغنام، وسيقانهم تبقى دائما عارية في المنطقة التي تقع أسفل الركبة[9].

[1] Alphonse couret, op cit, p140.
[2] Léonie de bazelaire, op cit, p104.
[3] Edouard blondel, op cit, pp210-211.
[4] Alphonse couret, op cit, p151.
[5] Alphonse couret, ibid, p133.
[6] Firmin rauzy, op cit, p170.
[7] Pierre louis péchenard, op cit, p175.
[8] Firmin rauzy, op cit, p148.
[9] L'abbe a. parraud, op cit, p200.

ترتدي النساء في بيت لحم كغيرهن من النساء الشاميات حجاب أبيض طويل يتدلى فوق الأكتاف، وفستان أزرق بأكمام واسعة مزينة بصفيحة صدرية مطرزة بالحرير الأحمر والأصفر ومزينة بسلاسل من العملات المعدنية[1]، والنساء الغنيات في بيت لحم من ترتدي زي جميل مكون من فستان كبير مخطط ومشدود عند الخصر بحزام ملون، ومنهن من يرتدين غطاء غنيا جدا مغطى بقطعة من الفضة وكل طرف مربوط بالآخر، وتلتف القلائد حول الرقبة وتنزل في عدة صفوف على الصدر، بينما يتم تعليق حجاب كبير إلى المسند ويطفو على الكتفين، وأيديهن وأذرعهن محملة بالأساور والخواتم، وفي بعض الأحيان يرتدون فيها الحجارة الكريمة[2]، وعلى العموم يمكن القول أن زي نساء بيت لحم رائع حيث تتداخل فيه الألوان الزاهية والأشكال ذات الشكل الساحر[3].

سكان مدينة يافا كغيرهم من سكان بلاد الشام يرتدون عمامة بيضاء لكنها تختلف قليلا في طريقة لبسها حيث يلف جزء منها حول الرقبة وتشد في جهتها العليا بواسطة حبل أسود، ويرتدون قميص قصير فيه مزيج بين اللون الأبيض والوردي ويتم إحكامه بحزام جلد أحمر عريض قليلا، و أغلبهم يضعون به أسلحة مختلفة وأبرزها مسدسات قديمة فضية وبعض أنواع الخناجر الفاخرة، وفي أوقات البرد يرتدون فوقها قميص صوفي كبير مخطط بشكل عمودي بالأبيض والأسود والأزرق أحيانا أو الوردي، والملاحظ أن سكان المنطقة يحبون أن تكون ملابسهم ذات ألوان مختلفة مما يعطيها شكلا جميلا[4]، وبالنسبة لنساء مدينة يافا فلم نجد إلا ما قدمه لنا القس لسبيناخ L'abbé jh Lespinasse حول بعض التركيات اللواتي صادفهن أثناء مدة إقامته القصيرة بالمدينة، وذكر بأنهن مستورات ويرتدين حجاب أسود مليء بالتمائم وأزياء مطرزة[5].

ب- اللباس الخاص بالفئات:

1- الدروز:

---

[1] Firmin rauzy, op cit, p148.
[2] Léonie de bazelaire, op cit, p190.
[3] Pierre louis péchenard, op cit, p175.
[4] Alphonse couret, op cit, p155.
[5] L'abbé jh lespinasse, op cit, p81.

يتميز الدروزيون بزيهم الرائع ولا يوجد ما هو أكثر من غنى ملابسهم ودروعهم، وعمائمهم تتميز بأنها ضخمة مقارنة بالبقية وملفوفة بأناقة ومحاطة بقالب ملون متوهج، ويلبسون معها سترة قصيرة ملونة بالأحمر وهو لباسهم المشترك الذي يجمع بين جميع الدروز وسكان الجبل، والسترة هذه تختلف حسب الأهمية والثروة فهناك من ينسجها بالذهب، وأحيانا الذهب والحرير والتصاميم تكون أنيقة حيث يتباين تنوع الألوان الذهبية والفضية من القماش، أما السراويل التي يرتدونها فهي ضخمة مكونة من العديد من الطيات تغطي الساقين، وفي القدمين يرتدون أحذية الكاحل المغربية الحمراء والنعال المغربية الصفراء فوق جزمة الكاحل، إضافة إلى جاكيت مبطنة بأكمام متدلية يتم رميها على الكتفين، وحزام من حرير يلتف حول الجسم من ثنايا عديدة، ويستخدمه الفارس لحمل أسلحته، ويحمل كل واحد تقريبا مقبضين أو ثلاثة من الياتاجان، وهي عبارة عن خناجر شرقية تخرخ من الحزام، وتعطي للصدر شكلا مشرقا، ويحملون فيها عادة 2 أو 3 مسدسات مطعمة بالذهب أو بالفضة[1].

يعرف الدروز كذلك بلبس عمامة بيضاء التي تلف حول طربوش، ويرتدون أحيانا عباءة من الصوف ذات خطوط عريضة سوداء وبيضاء[2]، وذكر محمد كرد علي في كتابه خطط الشام بأن الدروز حافظوا على طريقة لبسهم التي لم تتغير منذ أن حلوا بهذه المنطقة، وهو الأمر الذي يدل أن الدرزيين مجتمع محافظ على عاداته وتقاليده وأخلاقه[3].

لا تلف الدروزيات والمارونيات جميع جسدهن بملاءة غليظة أو شفافة كما هي عادة نساء المدن المسلمات، ويرتدين قطعة من القماش أو من الحرير يبلغ طولها ما بين 2 إلى 3 أمتار محكمة الوضع في قمة الطنطور، تسترسل إلى الوراء حتى ثلثي جسدهن يحجبن بها وجوههن إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وبالنسبة لعادة استعمال الطنطور فهي ترجع إلى الدروز، وعادة الملاءة إلى مسيحيي كسروان، ثم ما لبث أن اتبع القسم الأكبر من هؤلاء، وعلى الأخص الذين يقطنون البلدان الدرزية عادة لبس الطنطور، وإن الأميرات وزوجات المشايخ والأشراف كن يلبسن

[1] La société des livres religieux de Toulouse, ibid, p116.

[2] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص52.

[3] محمد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص 293.

طناطير من ذهب، أما الذين يتعاطين الحرف فطناطيرهن من الفضة ويحلى الجزء الأول منها بالذهب، وطناطير الدروز قصيرة أكثر من غيرها، أما طناطير نساء العقال وعامة الشعب فهي خشبية أو مصنوعة من القرون.

عادة ارتداء الطرابيش الكبيرة حديثة العهد عند الدروز، ولم تتبع في الجبل إلا منذ حوالي 100 سنة، وهو عبارة عن زي أتي به من مدينة تونس، مع أن هذه الطرابيش كانت تصنعها فرنسا بعد أن تمكنت من تقليدها، وهذه العادات قد زالت عندما بدأت عادات مصر في الانتشار بالمنطقة بعد عودة الأمير بشير إلى الجبل عام 1823م بعد حصار عكا، الذي كان على إثر عصيان عبد الله باشا، وهو الأمر الذي أحدث انقلابا كبيرا في الأزياء الملبوسة، وهكذا استحسن الجميع ذوق الأمير لأن الأزياء التي كان يلبسها فخمة جدا[1].

2- الموارنة:

يعرف الموارنة بالتباهي المفرط بالملبوسات والأسلحة والخيول وجميع ثروتهم محصورة في ما يلبسونه[2]، والرجال الموارنة بصفة عامة يرتدون سترات مطرزة[3]، وملابسهم تتميز بألوانها الداكنة والخشنة[4] وأسفل البطن وكبقية المدن الشامية يرتدون بنطلون عريض[5]، والموارنة على العموم خاصة الجبليون لا يحجبون زوجاتهم، وهن يرتدين فساتين طويلة من حرير مخطط مع حزام، ويرتدين أطقم من الماس والياقوت، كما تضع النساء المارونيات ضفائر شعر متشابكة في مجموعات، وتسقط على الكتف وهي موضة عامة أيضا في بلاد الشام[6]، ويرتدين خواتم ضخمة وأساور فضية حول الزندين، وخلاخل في الساقين ويتقلدن عقودا ثمينة، ويضعن في آذانهن أقراطا من ذهب ويتعصبن بعصابات تشك فيها الدنانير الذهبية، ويعلقن في ذوائبهن عددا غير قليل من هذه الدنانير، وغنى الرجال في هذا البلد يظهر من خلال المجوهرات التي تلبسها نساؤهم في النهار

[1] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص ص80-81.
[2] هنري غيز، المصدر نفسه، ج2، ص59.
[3] Jean sigausc ,op cit, p84.
[4] Léon dhéralde, op cit, p143.
[5] Eugène melchior de vogue, op cit, p28.
[6] Théophile Gautier, op cit, p196.

والليل[1]، والنساء الأكثر ثراء فيرتدين قبعة صغيرة مطرزة بالذهب مغطاة بنوع من الإخليل، ويرتبط بهذا الأخير سلاسل مزينة بعملات ذهبية تقع على العنق[2]، أما الكهنة المارونيون فيرتدون ملابس سوداء بالكامل[3]ذات قلنسوة مثبتة على منطقة الخصر بحزام جلدي[4].

3- لباس سكان الجبل :

يذكر هنري قيز Henri Guys أن سكان الجبل الذين يعيشون في المناطق النائية فقراء جدا، وأكثرهم لا يملكون غير قميص واحد أو اثنين يلبسونها حتى تبلى فوق أجسامهم، وترتدي نسائهن فساتين زرقاء مشدودة عند الخصر بزنار تزينه بعض القطع من الطنطور، ويلف حوله برقع لا يمكن الاستغناء عنه وهو غطاء الرأس، أما الفتيات الفلاحات فيحل عندهن الساتان المقلم محل النسيج، ويرتدين جبة الجوج يحيط بها كشكش صغير، وتتزين النساء أسفل سراويلهن بتطريزها بالخيوط الحريرية، أما بقية أعمال الزينة فتكون على حسب الإمكانيات.

يستعمل الجبليون المنديل كأداة للزينة، ويصنعونه من قطعة نسيج يبلغ عرضها 30 سنتمترا، وهو يعلق بجنب كيس التبغ في الزنار، ويستعمل لمسح أطراف الأصابع عندما تتلوث، والنساء لا يستعملن المناديل إلا في حالات قليلة، وهي حالات الإصابة بالرشح والتي يجب عليهن أن يحفظن خلال الإصابة به أوساج الرأس في الجيب[5].

يرتدي بعض سكان الجبل الأغنياء سراويل واسعة من قماش أزرق وسترة قصيرة مفتوحة من الأمام والأكمام لا تصل إلى الكوع، وهي من قماش صوفي مزخرف وأيضا مصنوع من الحرير، وغالبا ما يتم تزينها بخيط ذهبي، ويرتدون شال أو وشاح يشد الحزام وبه مسدسات أو خناجر من مختلف الأحجام والأشكال، وغطاء أحمر طويل يغطي الرأس ويسقط على الظهر والجانبين، ويرتدون معها

[1] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص59.

[2] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p463.
[3] Alphonse couret, op cit, p130.
[4] Edouard blondel, op cit, p114.

[5] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص68.

أحذية خشنة حمراء[1]، والملاحظ أن عادات اللبس حتى بالجبل بدأت تفقد طابعها التقليدي مع بداية القرن 20م، وتحول جمهور عظيم من السكان إلى اللباس الغربي والقبعة الإفرنجية، والسبب يعود إلى التعليم الغربي في المدارس التبشيرية المنتشرة بالمدن والقرى، فأهملت العمائم والسراويل الفضفاضة والعباءات والكوفية والعقال[2].

ثالثا- يوميات سكان الشام:

1- الممارسات اليومية العامة:

يتضح لنا من خلال كتابات الرحالة تركيزهم المطلق على إثبات نظرية أن الرجل الشامي كان كل همه منصبا على طلب الرزق دون الالتفات إلى أي شيء له علاقة بالثقافة، وقد نفى هنري قيز Henri Guys الذي مطلقا وجود أنشطة ثقافية يمضي فيها السكان الشاميون فيها بعض أوقاتهم، بل قال حتى الصحف تكاد تكون منعدمة ولا يوجد أي إقبال عليها ولا يوجد من يقرأها، ونلاحظ أنه قد بالغ في ذلك كثيرا لأن الصحف في بلاد الشام في هذه الفترة عرفت ازدهارا كبيرا وتنوعا في المضامين بل يمكننا القول أنها كانت غزيرة، وبلغت درجة أن كل طبقات المجتمع أصبحت تكتب فيها، وذلك ما نجده مفصلا في كتاب جورجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية[3]، وبعدها انتقل هنري قيز Henri Guys إلى الحديث عن نشاط القصاصين

[1] Edouard blondel, op cit, p114.

[2] محمد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص298.

[3] بعكس ما ذكره المؤلف عن عدم وجود جرائد للمطالعة ذكر جورجي زيدان في كتاب تاريخ آداب اللغة العربية أن الصحافة ظهرت في الوطن العربي المشرقي بغزارة وبدأت من أواخر القرن 18م، وبالتحديد في مصر مع الحملة الفرنسية عليها1798-1801م، ثم انتشرت في سوريا على يد المبشرين وهي ذات طابع ديني وكان ذلك مع منتصف القرن 19م، ومن أمثلة الصحف التي ظهرت بسوريا مرآة الأحوال 1855م التي أصدرها رزق الله حسون الحلبي، حديقة الأخبار 1858م صدرت ببيروت على يد خليل الخوري، عطارد و برجيس 1858م للكونت رشيد الدحداح اللبناني، الجوائب ونفير سوريا 1860م لأحمد فارس الشدياق، جريدة سوريا ظهرت بدمشق سنة 1865م، جريدة الفرات في حلب 1867م، جريدة لبنان لصاحبها داود باشا حاكم لبنان سنة 1867م، وفي سنة 1870م إزدهرت الصحافة السياسية والعلمية بسوريا ومن أهم الصحف التي ظهرت: الزهرة، البشير، الجنة لبطرس البستاني، وله أيضا الجنان، في 1871م جريدة كوكب الصبح المنير، الجنينة للبستاني، النجاح للصابونجي، 1874م جريدة التقدم، وفي 1885م ظهرت جريدة الفنون الإسلامية أنشأتها جمعية الفنون برياسة الحاج سعد الدين حمادة، لسان الحال 1877م لخليل سركيس، المصباح 1880م لنقولا نقاش. جورجي زيدان، المرجع السابق، ج 4، ص ص411-417.

في المقاهي وانتقده أشد الانتقاد، وقال أن القصاصين مهمتهم تسلية فئة عاطلة عن العمل بنقل روايات موجودة في كتب بالية، وهو أمر لا يعكس الواقع الذي يؤكد على أن هذه الجلسات كانت ذات طابع تعليمي تثقيفي تربوي وتحفيزي، والمعروف أن هذه الجلسات كانت تجمع طبقة مثقفة واعية شغفها كبير في حب المعرفة والتعلم[1].

أغلب السكان يمضون النهار في قضاء أشغالهم حتى يحل المساء فيذهبون إلى بيوتهم وذلك بعد غروب الشمس، وعلى العموم هم لا يبرحونها وقلما يسمحون لأنفسهم بالقيام بجولة صغيرة على الأقدام بعد صلاة العشاء، وإن فعلوا ذلك فإن الجولة لا تتعدى المتنزهات أو إحدى المناطق القريبة من المدينة، وسبب ذلك أنهم كانوا يخشون إقلاق الحكومة في حال ابتعادهم، وأبواب المدن كانت تغلق في الليل[2].

لا يعد الشغل مانعا لأخذ أقساط من الراحة ويحب الشاميون بصفة عامة التنزه والاجتماع في الأماكن الجميلة خاصة عند منابع ومجاري المياه[3]، ويجلسون

من الأدلة التي نسوقها لإثبات انتشار الصحف بكثرة هو انتقاد مُحَمَّد كرد علي في أحد مقالاته التهالك على إنشاء الصحف والمجلات في بلاد الشام، حيث قال:"...نأسف على الورق الذي تطبع فيه والوقت الذي يصرف عليها وهي خالية من الفوائد اللازمة، ولولا بضع جرائد ومجلات لا بأس بها...وما رأينا صناعات استسهل الناس أمرها كالصحافة...من أجل هذا احتقرت الأمة الصحافة لما رأت من ضعف بعض أدعيائها في أخلاقهم ومعارفهم وقد شانوا اسمها وعبثوا بجمالها، تذرعا إلى مطمع ينالونه، وصيت بالباطل يحصلونه، ومقام عال ينزلونه، نعم لم نشهد العطار بيطارا، ولا الإسكافي نجارا...ولكن شهدنا الفلاح صحفيا، والمتشدق مؤلفا، والثرثار محاميا..." وهذا الكلام الذي قاله يدل على غزارة التأليف الصحفي وكثرة إقبال الناس عليه. مُحَمَّد علي كرد، المصدر السابق، ج4، ص ص 83-84.

[1] هنري قيز ، المصدر السابق، ص 66.

نفس الرأي ذهب إليه الرحالة لومباي الذي قال في رحلته :"...بالتالي يمكن القول أن المسلمين يعيشون في حالة من الكسل والقدرية..." وهو ما يدل على أبعاد الكتابات الفرنسية الخطيرة التي سعت إلى تشويه صورة المجتمع

G de lombay, op cit, p157.

[2] هنري قيز ، المصدر السابق ، ص 67.

[3] من أمثلة حب التنزه نجد سكان مدينة دمشق مولعين بالخروج للمتنزهات والحدائق، وكانوا يخصصون يوم السبت للاستراحة والخروج للتنزه، ومن أهم المناطق متنزه الصالحية والنيرب والمرجة وباب توما وجنينة الأفندي والصوفانية الجبهة والميدان الأخضر ومتنزه ما بين النهرين ومنتزه الشرفان وهو حي مليء بمختلف أنواع الأشجار، وبستان الأصفر وبستان ابن الجنيدي وبستان الباسطي وبستان ابن العيش وبستان الباشا وبستان ست الشامو بستان الدواسات وبستان بني كريم الدين وبستان المربوض والبستان الكبير وبستان القطان وبستان ابن القرندس وبستان الوقف وأراضي السهمان من منتزهات الغوطة وأراضي النيربين وأراضي الخضرا المليئة

قربها لأوقات طويلة حيث يتبادلون أطراف الحديث مع التدخين[1]، ويكون ذلك بكثرة في فصل الصيف لاسيما وأن داخل المدينة يكون أكثر حرارة، وكذلك يندفعون نحو الحدائق ويأخذون معهم حتى وجبة العشاء[2]، ووجبة العشاء متنوعة تتكون من الفول المدمس والمكدوس والزيتون واللبنة والجبنة والزعتر والكشكة الخضراء والمجذرة والفول المقلي الكبة النية والسلطات بأنواعها والفواكه، إضافة إلى المشروبات مثل شراب التوت والورد والشاي الأخضر والقهوة، والتمر الهندي وعصير البرتقال وشراب الليمون[3].

توجد في الشام فئة أخرى من السكان يجلسون في المتنزهات، ويستمعون فيها إلى الموسيقيين الذين يأتون بدورهم لنفس المكان من أجل العمل، ونفس الشيء بالنسبة للمسيحيين واليهود الذين يمتلكون حدائق فاخرة خاصة بهم يقضون أوقات العطل فيها، ويستعملون ثلاث أشياء لتمضية أوقات ممتعة يشربون القهوة، ويدخنون الغليون، ومنهم من يشرب البراندي وهو أحد أنواع الخمور[4]، أما الأشخاص الملتزمون بصفة عامة يفضلون الذهاب إلى المساجد للصلاة والعبادة

بجداول المياه ولأنهار وكانوا يجدون بها كل المرافق التي تمكنهم من قضاء أوقات جميلة . ينظر إلى مهند مبيضين، **التنزه و السيران في دمشق العثمانية**، جريدة الحياة، صحيفة يومية سياسية عربية دولية مستقلة، بيروت، لبنان، السبت 3 جوان 2017.

نفس الرأي ذهب له القزويني حيث يقول في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد:"...أهل دمشق أحسن الناس خلقا وخلقا و زيا، وأميلهم للهو واللعب، ولهم في كل يوم سبت اشتغال باللهو واللعب...فيجتمع المملوك بإخوانه المملوكين، والصبي بأترابه من الصبيان، والزوجة بأخواتها من النساء، والرجل أيضا بأصدقائه، فأما أهل التمييز فيمشون إلى البساتين ولهم فيها قصور ومواضع طيبة، أما سائر الناس فإلى الميدان الأخضر...والناس مشغولون باللعب واللهو إلى آخر النهار...". زكرياء بن مُحَمَّد بن محمود القزويني، المصدر السابق، د ت، ص191.

الاختلاط غير موجود في هذه المنتزهات فهناك أماكن خاصة بالرجال وأخرى خاصة بالنساء، والحلات الشادة قليلة جدا. مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص279.

[1] يختلف أمر انتشار الدخان في بلاد الشام عن انتشار القهوة، فالقهوة ظهرت في البلاد العربية ثم انتقلت إلى البلاد الأوربية، أما التدخين فقد انتقل إلى العالم الإسلامي عن طريق الغرب، والدخان هو الناتج عن حرق مادة التبغ وهو نبات يعرف بهذا الاسم، وانتشر هذا النبات في القارة الأمريكية ، وأطلق عليه الإسبان اسم توباكو وعربت الكلمة إلى تبغ، وتذهب بعض الدراسات إلى القول بأن التدخين قد انتقل إلى البلاد العربية عبر تركيا في 1590م. نسيبة عبد العزيز الحاج علاوي، **مشكلة القهوة والتدخين في الدولة العثمانية 1525– 1654م**، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد 18، العدد 11، 2011م، ص ص 552- 582.

[2] Henri Guys, op cit, pp353-354.

[3] مهند مبيضين، المرجع السابق، د ص.

[4] Henri Guys, op cit, p354.

بدلا من الصلاة في بيوتهم أو الجلوس في المقاهي أو تمضية الأوقات في الملاهي المختلفة[1].

بالنسبة للمرأة في بلاد الشام فهي تمضي تقريبا اليوم كاملا في المنزل ويمكن القول أنهن منفصلات عن المجتمع الخارجي[2]، وتقوم النساء بأشغال المنزل كالغسل والعجن والطبخ ويصنعن القهوة، وفي نفس الوقت تجدهم يتسامرون بها أو يقمن بالتدخين وهن في إحدى هذه الجلسات[3]، والنساء أثناء بقائهن طوال اليوم بالمنزل يقمن بقضاء جميع أشغالهن المنزلية، وبعد الانتهاء من ذلك يزين أنفسهن بالملابس الجميلة والزهور التي ينتقونها، وذلك قبل الاجتماع بأزواجهن الذين لا يعودون إلى المنزل إلا قبل غروب الشمس[4].

يمكن للنساء خلال العطل الخروج والذهاب إلى بعض الأماكن العامة المخصصة للعب الأطفال، وهناك أيضا أماكن مخصصة للبنات الصغيرات اللواتي يأتين مع أمهاتهن وهي فرصة للأمهات لنيل قسط من الراحة واللهو والترف ويتذرعن بتسلية بناتهن[5]، وتحضى النساء الحلبيات مقارنة ببقية المدن بنصيب كبير من هذا الترف بسبب كثرة الحدائق المغلقة والتي توجد بعيدة عن أعين الرجال، ويمضون أوقات ممتعة في الأكل والشرب والغناء وتبادل أطراف الحديث[6].

2 - الزيارات المتبادلة بين السكان:

الزيارات المتبادلة بين العائلات هي من أبرز العادات المنتشرة في بلاد الشام، وهي غير محددة بوقت أو مناسبة إنما تكون بشكل دوري، ويتم الفصل التام بين الرجال والنساء في هذه اللقاءات فالرجال يبقون في غرف البيت الخارجية، والنساء يبقين في الغرف الداخلية، ويعتبر التقاء الرجال مع بعضهم البعض في بيوتهم من العادات المعروفة في بلاد الشام منذ وقت طويل، وعادة ما يكون اللقاء كل مرة في بيت أحدهم وذلك مرة في الأسبوع وبالتحديد مساء يوم الجمعة، وتقدم للضيوف

[1] هنري قيز ، المصدر السابق ، ص 68.

[2] G téqui, op cit, p271.

[3] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص80.

[4] Henri guys, op cit, p183.
[5] Henri guys, ibid, p195.
[6] Henri guys, op cit, p355.

أطباق الحلويات حتى وقت متأخر وكذلك القهوة والدخان، ويقضي الرجال الوقت في هذه الاجتماعات في الأحاديث والأغاني ولعب الألعاب المختلفة[1].

يقوم الزائر عند دخوله للمنزل بتحريك رجله ليخلع حذائه ويتركه عند الباب، ويستعمل الشرقيون عبارات التبجيل والتعظيم عند التقائهم، كما أن الزائر لا يذكر أبدا الغرض من زيارته إلا بعد أن يشرب القهوة[2]، وكرم الضيافة هو من أشهر الأخلاق التي يتميز بها سكان الشام، وهي من أبرز الدواعي التي تجعل السياح الأجانب يتعلقون بهذه المنطقة ويحبون زيارتها، وهذا الأمر موجود بكثرة بالرغم من أن تكاليف الحياة الغالية، وأغلب السكان لديهم إمكانيات بسيطة، ولكنهم يكرمون ضيوفهم بأغلى ما عندهم.

أبهر إكرام الضيف الرحالة مما رؤوا فيه من أخلاق حميدة وحسنة لا توجد عندهم، ويقولون أن العرب يتميزون بصفة عامة بحب دعوة الضيوف ويلحون عليهم من أجل الأكل، وإذا ما لاحظ صاحب المنزل تمنع الضيوف من الأكل بعد أن يستحلفونهم بأقدس الأشياء لديهم، يمسك صاحب المنزل لقمة بيده وهي مزيج من المأكولات الموضوعة ويقدمها لضيفه الذي يلتهمها بفمه، وهي من أبرز عادات سكان الشام فهم يكلفون الضيوف بالإكثار من الأكل عندهم، ويعبر الضيوف عن هذا الكرم الكبير بقولهم كاد الأكل أن يخرخ من أنفي وذلك بسبب كثرة الأكل، وعند انتهاء الضيف من الأكل يأتي الخادم بالطست والصابون والأبريق والمنشفة موضوعة على كتفه، ويبدأ في صب الماء على يدي الضيف ويناوله المنشفة بكتفه، ثم تأتي مرحلة شرب القهوة والتدخين وهو الأمر الذي يدل على نهاية الوليمة، ويحاول صاحب الدار أن يخلق جوا من الفكاهة لضيفه فيروي له ما تزخر به ذاكرته من قصص فضولية لاسيما وأن الشاميين بصفة عامة قصاصون ماهرون[3].

من العادات الأخرى أنه عندما يلتقي شخصان يتبادلان وابلا من المجاملات، ويتبادلان الكثير من الأسئلة حتى تفرغ جعبتهم ليفترقا بعدها، وكل منهما يتمنى جميع أنواع السعادة لصاحبه ولأولاده وأنسابه و أصدقائه وحتى ممتلكاته، ولا يتوقفان عن الكلام حتى يحول شيء ما بينهما، ويحاول الموارنة كذلك تقليد

[1] Henri guys, ibid, pp191-193.

[2] هنري قيز ، المصدر السابق ، ج1، ص92.

[3] هنري غيز، المصدر نفسه، ج2، ص59 -64.

المسلمين في إلقاء التحية فيحيي بعضهم بعضا بأسلوب واحد وبكلمة واحدة، ففي الصباح يقولون صباح الخير وفي المساء يقولون مساء الخير[1].

3- الجلوس في المقاهي[2]:

تجمع المقاهي تحت سقوفها كل الأجناس والأطياف والأعراق، وكذلك $^;j بها كل الشرائح الاجتماعية من أغنياء وفقراء، وتعتبر حيزا مكانيا اجتماعيا وجزء أساسي في تكوين المدن، ويعتبر المقهى مكانا اجتماعيا له مميزات في علاقاته وتفاعلاته وفي ملكيته واستعمالاته[3]، وبلاد الشام مليئة بالمقاهي فهي كثيرة وموجودة في كل مكان، وهي عبارة عن غرف قديمة البلاط تنصب حولها مقاعد من الحجارة مفروشة بحصير، كما توجد فيها عدة كراسي علو الواحدة منها 25 سم، يجلس عليها الزبائن المتفرجون منها ما هو في الداخل والبعض الآخر موجود في الخارج في الطريق العام[4]، ويوجد في المقاهي عدة تجهيزات منها موقد عليه إبريقان أو ثلاث للقهوة، وعدد من الفناجين مغلفة بالنحاس الأصفر، وإلى جانب الموقد توجد النرجيلات وهي عجمية الأصل يدخن بها التنباك؛ وهو نوع من التبغ ذو طعم حاد جدا، وهذا ما يجبرهم على تدخينه بالماء فبغير ذلك لا يمكن احتماله.

تكون المقاهي في المساء ممتلئة بحشود كبيرة الذين يبقون جالسين فيها لفترات طويلة، وتمتد الجلسة إلى ما قبل العشاء وقلما تتجاوزه، ويستغل الفرصة

---

[1] هنري غيز، نفسه، ج2، ص70.

[2] انتشرت القهوة في بلاد الشام على يد الشيخ أبو بكر بن عبد الله الشادلي المعروف بالعيدروسي في 1503م، وقد جلب هذه العادة الجديدة إلى دمشق من إقامته باليمن، ويذكر أنه تعرف على ثمرة القهوة أثناء تجواله، وبعد أن جربها أرشد أتباعه إلى تعاطيها لما تحمله من مزايا مثل تنشيط البدن والإعانة على السهر خاصة للطلبة والعباد، وعليه أصبحت الصلة وطيدة بين القهوة والطريقة الشاذلية، وتوارث أهل دمشق مثلا عادة وهي سكب كوب أول وإفراغه ويقال أنه حصة الشادلي، لأنهم يعتقدون أن الشاذلي هو مبتدعها وأول من شربها وأنهم إن لم يسكبوا له فنجانا ينقلب الإبريق وتراق القهوة، وقد تصادف دخول القهوة إلى بلاد الشام تقريبا الدخول العثماني. نسيبة عبد العزيز الحاج علاوي، المرجع السابق، ص ص 552- 582.

[3] جودي الأسمر، **مقاهي مدينة طرابلس اللبنانية**، جريدة المدن، جريدة إلكترونية مستقلة، الثلاثاء 2018/04/10، موقع اللغة والثقافة العربية www. Langue-arabe.fr

[4] هنري قيز ، المصدر السابق، ص 30.

القصاصون من أجل سرد حكاياتهم، ولاعبو الكركوز لتحريك مواهبهم[1]، وبصفة عامة القهوة وتدخين النرجيلة وحضور تلك المشاهد لا تكلف أكثر من 20 بارة (عشر سنتيمات فرنسية)[2]، ويؤكد قابريال شارمس Gabriel Charmes أن دخول المقاهي متاح لجميع الطبقات بسبب موائمة الأسعار فيقول:"...المقاهي هنا بصفة عامة مليئة بحشود كبيرة بشرتهم من ألوان مختلفة، كما تجد فيها كل أنماط وطبقات المجتمع منهم العاطلين عن العمل، أناس عاميون، سائقو الجمال، البرجوازيون، التجار، المتفرجون البسطاء، وتراهم جميعا يدخنون النرجيلة..."[3].

ليست القهوة في الشرق أمرا مقتصرا على المقاهي العامة إنما تعتبر أيضا من الأشياء الأساسية في البيوت، وتصب للضيوف في جميع المناسبات، وتصب عند الأغنياء وعند الفقراء كذلك، وقد تأثر الأوربيون الذين يسكنون المنطقة بها وأصبحوا يتبعون هذه العادة، وعدم تقديم القهوة للضيف يعتبر من سوء الأدب وقلة الاحترام ويغضب لذلك كثيرا، وهذه العادة تفشت كثيرا إلى غاية أنها أصبحت من عادات الأوربيين، فأصبح الفرنسي يتدمر أيضا من عدم تقديم القهوة لهم في البيوت الأوربية ويرجع ذلك إلى قلة الأدب و الاحترام[4].

أ- أشهر المقاهي في بلاد الشام:

تشتهر مدينة دمشق على غرار بقية المدن الشامية الكبرى بكثرة مقاهيها[5]، وتتميز عن غيرها بجمالها وتوفرها على مميزات تجعلها قبلة مفضلة للسكان المحليين والأجانب، ويتم فتحها عادة على ضفاف الأنهار حيث تجد أغلبها محاط

[1] كان للكركوز تأثير كبير في المجتمع الشامي خلال القرن 19م، و لعبت دور الموجه والمهذب من خلال تصوير العادات السيئة المتفشية في المجتمع، وكذلك كانت وسيلة لتقديم النقد للحكام، وكان الكركوزي يستشهد في كلامه بشعر حماسي وجداني من أشعار عنترة وصفي الدين الحلبي و أبي العتاهية وغيرهم، وقد تأثر هذا النوع من الفنون بالسينما الغربية وانتشارها الكبير. فؤاد العادل، **المجتمع الشامي**، سلسلة الثقافة الشعبية، القاهرة، مصر، د ت، ص 11.

[2] هنري قيز ، المصدر السابق، ص ص31- 32.

[3] Gabriel charmes, op cit, p137.

[4] هنري قيز ، المصدر السابق ، ص 30.

[5] أغلبية من يجلسون في المقاهي الدمشقية هم من المسلمين، والمقاهي منتشرة في الأحياء التي يقيمون فيها أيضا (عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص 84.)
ينظر إلى الملحق رقم 10.

بمناظر جميلة ورائعة بسبب كثرة المساحات الخضراء ، وقد شيدت بطريقة خاصة حيث لا تصلها أشعة الشمس مع السماح بدوران الهواء في نفس الوقت بكل حرية، وتمكن روادها من مشاهدة المساحات الخضراء المحيطة بها حيث يرون من خلالها الأشجار دائمة الخضرة وما إلى ذلك من نفاثات مياه[1]، والمياه التي تحيط بالمقاهي عبارة عن تفرعات جزئية من نهر بردى[2]، ومنها ما هو على شكل شلال مما يضفي على المكان طابعا جماليا عظيما[3]، وعلى العموم تنتشر أغلب المقاهي في دمشق على ضفاف وادى بردى تحت ظلال الأشجار العملاقة[4] والتي تحجب بظلها الأرائك التي يجلس عليها الزبائن[5].

تتكون المقاهي على العموم من قبة عالية مصنوعة من الخشب، ومدعومة بأعمدة من نفس المادة مغطاة جزئيا بالسجاد، كما تزرع جنبها شجيرات صغيرة دائمة الخضرة ونباتات تتسلق الجدران[6]، وتوجد في بعض المقاهي سقيفة مصنوعة مصنوعة من أغطية مليئة بالثقوب لكي يجلس تحتها الزبائن يستظلون بظلها عادة ما تكون في الساحة الخارجية للمقهى، ويقدم فيها للزبون ما يطلبه في أكواب مزخرفة[7]، وتتميز مقاهي دمشق بجودة ذوق القهوة المقدمة للزبائن وذلك ما تحدث تحدث عنه غوستاف لوبون Gustav le Bon الذي زار المنطقة، وذكر في ملاحظاته

[1] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p150.

[2] يتميز نهر بردى بكثرة تفرعاته وتشعباته، وهو الأمر الذي يمنح المظاهر التضاريسة للمدينة تكوينا مميزا، وقد تكونت بفعل عامل الحفر مصاطب نهرية واضحة، وهو ما منح مدينة دمشق والغوطة المحيطة بها تربة خصبة جدا، وهي كلها عوامل تساهم في منح المدينة غطاء نباتي كثيف، وتساهم بشكل فعال في تلطيف الجو خاصة على مستوى ضفاف النهر، مما ما دفع أغلب السكان إلى إنشاء المقاهي على ضفاف الأنهار حتى تستقطب إليها أكبر عدد من الزبائن الذين يحبون التمتع بجمال الطبيعة. كارين صادر، المرجع السابق، ص 22.

[3] مدينة دمشق معروفة بكثرة مياهها وعذوبتها و هو ما يجعلها مدينة ذات أهمية سياحية واقتصادية وحتى استشفائية، وفي هذا ننقل وصف ابن جبير للمدينة ولمائها الغزير في رحلته فيقول:"...ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الأرقام بكل سبيل، ورياض يحي النفوس نسميها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم هلموا إلى معرس للحسن ومقيل، قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظماء، فتكاد تناديك بها لصم الصلاب أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. ابن جبير، المصدر السابق، ص 210.

[4] Eugéne melchior de vogue, op cit, p73.

[5] L'abbé jean jacques bourassé, op cit, p428.

[6] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p150.

[7] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص66.

أن القهوة المصنوعة فيها ممتازة، وتتميز بحسن الصنع وذوقها رائع[1]، والقهوة ليست الشراب الوحيد المقدم في المقاهي فمن أشهر المشروبات التي يحبها سكان دمشق إلى جانب القهوة شراب الورد[2].

يذكر جول قزافي Jules Xavier Saguez De Freuvry أن المقاهي في دمشق تحتل الصدارة في المرافق العمومية وهي من أبرز المرافق التي توفر الراحة، وقال أن أغلب المواعيد يتم ضبطها في المقاهي حيث الهواء الطلق والجو الملائم، ومن بين المقاهي الدمشقية التي ذكرها مقهى باب السلام الذي قال أنه من أجمل مقاهي المدينة[3]، وهو يقع على حافة نهر بردى و يوجد داخله مجموعة من الصالات تقابلها مساحات خضراء جميلة، والمياه تجري أمامها ولذلك أصبحت قهوة باب السلام من المقاهي الأكثر اكتظاظا في دمشق[4]، وأوردت الباحثة كارين صادر تسمية بعض المقاهي الموجودة على ضفاف نهر بردى، وأولها مقهى الدفتردار الذي يقع على الطريق المعبد في جهة الضفة الشمالية لنهر بردى، وهو مجهز على نمط أوربي حتى أنه تم تخصيص فضاء خاص بالألعاب المستحدثة في المدينة مثل البيلياردو، أما المقهى الثاني الذي ذكرته هو مقهى البلدية الذي يقع على الضفة اليمنى لنهر بردى[5].

من الأمور السلبية التي لاحظها الرحالة الفرنسيون في مقاهي مدينة دمشق بقاء العاطلين عن العمل فيها لأوقات طويلة يمضونها في المحادثات والتدخين ويهملون شؤون حياتهم اليومية[6]، وقد أكد على هذا للرأي الرحالة إدوارد بلوندال Edouard Blondel الذي لاحظ امتلاء المقاهي الموجودة في ضاحية الصالحية بالقرب من نهر بردى بالعاطلين عن العمل الذين قال فيهم:"... يجلسون فيها بالساعات فوق مقاعدها الخشبية المرتفعة التي بالكاد تصل لستة بوصات موضوعة تحت ظل الأشجار الرائع، وتجدهم يدخنون الشيشة ويستمتعون بنفحات الماء وزقزقة الطيور ويتذوقون القهوة المعطرة بدون سكر ببطيء ولا يبالون أبدا بمشاغل

[1] غوستاف لوبون ، المصدر السابق ، ص 322.

[2] Léon Paul, op cit, p139.

[3] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, p27.

[4] Jules Xavier saguez de freuvry, ibid, pp25-28.

[5] كارين صادر، المرجع السابق، ص 43.

[6] Jules Xavier saguez de freuvry, ibid, pp25-28.

الحياة..."[1]، وبصفة عامة قدرت بعض الكتابات التاريخية عدد المقاهي في مدينة دمشق بحوالي 120 مقهى ما بين صغير وكبير منتشرة في كل أحياء المدينة، والمقاهي ذات الطراز القديم منها كثيرة، كما توجد مقاهي ذات نمط جديد وثمن القهوة فيها أغلى من القديمة[2].

سكان مدينة حلب كغيرهم من سكان الشام مولعون بشرب القهوة، ولها أولوية وتفضيل على بقية المشروبات، وتجدها مستعملة في كل المقامات سواءا في منازل الخاصة أو في منازل الباشوات وصالوناتهم، وهناك مجموعة من الصالونات الكبيرة المخصصة لشرب القهوة، ولا يكتفي رواد هذه الصالونات بشرب القهوة فقط بل يلعبون بعض الألعاب الترفيهية، إضافة إلى وجود القصاصين داخلها الذين يروون بعض القصص القديمة التي يحب السكان المحليون سماعها، كما توجد فرق موسيقية في بعض المقاهي تطرب الحاضرين[3]، والمقاهي بحلب مخصصة لعقد الاجتماعات منها تجمعات عامة وبعضها يومي، وهذه التجمعات أنواع فمنها ما هو خاص بالأحزاب وشركائهم، حيث يقدمون للضيوف القهوة والشيشات، ويدوم الاجتماع عادة من 2 إلى 3 ساعات، ولاحظ الرحالة في حلب نفس الملاحظة التي لاحظوها في مدينة دمشق وهي أن سكان حلب العاطلين عن العمل يمضون أغلب أوقاتهم في المقاهي[4].

مدينة بيروت تعرف بالتوافد الكبير للأجانب، وكذلك تعرف بنشاطها وحيويتها المستمدة من مينائها، وعليه من الطبيعي وجود عدد كبير من المقاهي تستقبلهم وتوفر حاجياتهم، وقد ذكر لنا الرحالة الفرنسيون عدة نماذج كانت موجودة في القرن 19م نذكر منها المقهى الرئيسي الذي ذكره ليون درالد Léon Dhéralde الموجود مباشرة قرب الميناء، والذي ذكر أنه يعرف توافد العديد من الأشخاص باختلاف أصلهم وطبقتهم الاجتماعية، ومبني في مكان جيد وبشكل

[1] Edouard blondel, op cit, p 177.

نفس الملاحظة سجلتها بعثة جمعية الكتب الدينية حيث تذكر ما يلي: "...ترى في نفس الوقت السكان مشغولين في تذوق القهوة والتدخين من آلة ذات أنابيب طويلة و يبقون على هذا الحال لفترات طويلة..."

La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p150.

[2] عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص93.

[3] Henri guys, op cit, p84.

[4] Henri guys, ibid, pp171-172.

جميل حيث تنتشر أشجار التين على جانبيه مما يوفر جوا مريحا لمريديه[1]، وبعد التقدم قليلا توجد عدد من المقاهي التي تصطف على طول جانبي الطريق الساحلي[2]، ثم بعد التوجه عبر هذا الطريق والدخول إلى المدينة التي توجد بالساحة الرئيسية أيضا العديد من المقاهي المكتظة[3].

إضافة إلى هذه المقاهي الموجودة في الساحل وداخل المدينة توجد في ضواحي بيروت عدة مقاهي أخرى مقامة في الهواء الطلق وتستظل تحت الأشجار الكبيرة[4]، وهي مكان محبوب لدى السكان الذين يفضلون الهدوء وجمال الطبيعة ويمضون بها ساعات طويلة يدخنون ويشربون القهوة ويتبادلون أطراف الحديث[5]، ومقاهي مدينة بيروت كغيرها من مقاهي مدن الشام تحتوي على عدة أشياء مميزة، ونذكر على سبيل المثال الفرق الموسيقية التي تمتلك آلات متطورة وتنظم حفلات موسيقية تطرب الحاضرين، ويباع بهذه المقاهي إلى جانب القهوة والشاي عدة أشياء منها المشروبات الباردة كالماء المثلج[6].

ب- الاستماع للقصاصين في المقاهي :

يمتلك القصاصون مكانة مهمة في المقاهي، ووجودهم يضفي عليها جوا حماسيا جميلا، وهي من أبرز الأشياء التي تجلب الزبائن، وراوي القصص مهمته الترفيه عن الناس وملأ أوقات الفراغ، لكن في المقابل يستفيد الحاضرون من العديد من المعلومات الجديدة ويكتسبون منها عادات وأخلاق وشيم جديدة، ويتميز القصاصون في بلاد الشام بمعرفتهم لعدد كبير من القصص والتي يمكن القول أنها تكاد لا تنتهي، وتمتلئ القهوة أثناء قدومهم وتكثر فيها الضحكات والسماء تحجب بالدخان، والرواة على العموم محترفون ويقومون بتغيير الصوت على حسب طبيعة

[1] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص6.

[2] Léon dhéralde, op cit, p141.

[3] Eugène melchior de vogue, op cit, p31.

[4] يوجد عدد معتبر من المقاهي في مدينة بيروت مقامة بالقرب من مناطق ذات طبيعة خلابة كالحدائق، خاصة وأن السكان يحبون الذهاب إليها في المساء بعد يوم شاق من العمل، وبالتالي يبحثون عن مناظر تريح عقولهم وتزيل تعب العمل. عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق،ص18.

[5] Jean baptiste morot, op cit, p285.

[6] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص7.

المشهد[1]، وقد أكد إدوارد بلوندال Edouard Blondel على أهمية القصص التي تلقى بالمقاهي وهو ما يجعل رواة القصص يجلبون انتباه سكان البلد بقصصهم الرائعة، وقال في ذلك: "... ترى صمت رهيب يسود حول القصاص، وهو يروي في القصة وترى اهتمام الجمهور الشديد للقصة التي يتابعونها بشغف..."[2].

تعد قصص العجائب التي يتلوها القاصون المحترفون من أهم وسائل التسلية عند الشاميين، وانتقلت هذه العادة من هواية إلى حرفة منتشرة بكثرة، وفي جميع المناطق يتقاضى صاحبها مبلغا ماليا، ويملكون حظوة كبيرة لدى الأهالي، ولذلك يحرص أصحاب المقاهي على جلبهم، ويقصون القصص ارتجالا في بعض الأحيان[3]، ويقتصرون في الغالب على إنشاد قصيدة أو تلاوة قصة أو رواية ألف ليلة و ليلة، ويذكر غوستاف لوبون Gustav le Bon أنه أثناء زيارته لحي من أحياء يافا الشعبية شاهد جمعا من الحمالين والأجراء يستمعون على نور مصباح إلى قصة عنترة بعناية، كما يقول غوستاف لوبون Gustav le Bon عن القصاصين: "... ندرك ناحية من أخلاق العرب بما نراه من تأثير القاصين في الجمهور العربي الذي نعلم أنه ذو حيوية مع وقار، وقوة خيال مع تمثيل، والذي يبدو أنه يرى ما يسمع، والذي يبلغ من فرط التأثر ما يظهر أنه يسمعه حقا ..."[4].

ذكر غوستاف لوبون Gustav le Bon رواية لأحد السائحين يصف فيها حالة المشرقيين أثناء سماعهم للحكواتي يقول فيها أن الإنسان ينظر إلى أبناء الصحراء أولئك حين يستمعون قصصهم المفضلة، فهو يرى كيف يضطربون وكيف يهدءون، وكيف تلمع عيونهم في وجوههم السمر، وكيف تنقلب دعتهم إلى غضب وبكاؤهم إلى ضحك، وكيف تقف أنفاسهم ويستردونها، وكيف يقاسمون الأبطال سرائهم ودرائهم، حقا إن تلك لروايات وإن الحاضرين لممثلون، وحقا إن الشعراء في أوربا مع نفوذ

[1] Jean sigausc ,op cit, p83.
[2] Edouard blondel, op cit, pp177-178.
[3] يذكر هنري قيز صفات الخطابة التي يتميزون بها فيذكر أنهم يرون القصص بطريقة إنشادية مما يثير لذة في قلوب السامعين، حتى أن بعضهم يقوم بالغناء في بعض مقاطع القصة خاصة إذا كان صوته جميل، وقال هم فئة عبقرية تعرف كيف تتحكم في القصة وكيف تستنبط العبر في الوقت الملائم، وهم يقومون باتباع أسلوب المحاورة ويتخللها العديد من الأمثال والحكم، وعندما يتعب أولاد الفن من كثرة الكلام تعرض ألعاب أخرى خاصة ألعاب الصغار فيشارك فيها جميع الحاضرين دون استثناء للعمر. ينظر إلى هنري قيز، المصدر السابق، ص86.
[4] غوستاف لوبون ، المصدر السابق، ص 326.

أشعارهم وسحر بيانهم وجمال وصفهم لا يؤثرون في نفوس الغربيين الفاترة عشر معشار ما يؤثر به في نفوس السامعين ذلك القصاص الذي هو من الأجلاف، فإذا ما أحيط ببطل الرواية ارتجف السامعون وصاحوا قائلين لا لا حفظه الله، وإذا كان في ساحة الوغى محاربا كتائب أعدائه بسيفه أمسكوا سيوفهم كأنهم يريدون إنجاده، وإذا ما كان يذهب فريسة الغدر والخيانة قطبوا وصرخوا قائلين لعنة الله على الخائنين، وإذا ما قضى عليه أعداءه الكثيرون تأوهوا وقالوا تغمده الله برحمته وفسح له في دار السلام، وإذا ما كان العكس فرجع منصورا هتفوا قائلين المجد لرب الجند، ويكون هتافهم وقت ما يذكر القاص محاسن الطبيعة ولا سيما الربيع طيب طيب، ولا شيء يعدل سرورهم الذي يبدو على ملامحهم عندما يصف القاص امرأة جميلة، فتراهم ينصتون إليه إنصات من يكاد لبه يطير من الوجد، وإذا ما أتم وصفه قائلا : "... الحمد لله الذي خلق المرأة... " قالوا قول المعجب الشاكر الحمد لله الذي خلق المرأة[1].

لا يكل ولا يمل القصاصون بصفة عامة من إلقاء الأحاديث واحدة تلوى الأخرى، وتستغرق حكاياتهم أحيانا المساء كاملا، وتختلف موضوعات القصص وأكثرها يتحدث عن مرحلة صدر الإسلام، وعن الخلفاء الراشدين وأوقات القوة الإسلامية، ويمكن القول أن القصة تعد من أحسن الطرق التي تستخدم من أجل تمضية الأوقات في الشام[2]، ويوجد من رواة القصص الذين يعرفون عددا لا ينتهي من القصص والحكايات، وهؤلاء يعتبرون من أهم المصادر التي يستخدمها السكان المحليون من أجل تقضية أوقاتهم[3]، ويذكر محمد علي كرد في خطط الشام أن هذه الفئة تسمى بطبقة أولاد الفن، وقال أنهم يسلون الناس بقصصهم التي تزخر بها ذاكرتهم، ولديهم منها الشيء الكثير[4].

خ- ممارسة ألعاب الترفيه في المقاهي:

[1] غوستاف لوبون ، المصدر نفسه، ص 327.

[2] Henri guys, op cit, p304.

[3] Henri guys, ibid, p18.

[4] يقرأ القصاصون القصص التي غالبا ما يحبها الناس وأغلبها حماسي مثل رواية عنترة والزير وأبي زيد وغيرها، و هي تزخر بمبادئ الشجاعة والأنفة والحمية والوفاء والصدق والمروءة والجرأة ورعاية الجار إلى آخر ما يوجد من مكارم الأخلاق، ويصفون الخصوم بالجبن والكذب والبخل والرياء والغدر والخيانة ونكث العهد إلى آخر ما هناك من مفاسد الأخلاق، مما يربي نفوس السامعين على حب الفضائل والعمل بها، ويبغض لهم الرذائل ويحملهم على البعد عنه. مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص 279.

المقاهي في بلاد الشام لا تقتصر خدماتها على تقديم المشروبات والتدخين والاستماع للقصاصين فقط، بل هي مكان لتنوع ثقافي وترفيهي وتوجد بها العديد من الأمور التي تجلب الزبائن، ومن بينها ألعاب الترفيه والتسلية وهي عديدة ومتنوعة، ونذكر من بينها لعبة الشطرنج والنرد ولعبة الدامة والتمثيل[1] وعرض القراقوز الشرقي[2]، والذي يتم عبر الظلال الملونة الشفافة مثل الفوانيس السحرية، وهو من أبرز ألعاب التسلية وأشهرها، وفي فترات عرضها تمتلئ القاعة بالأشخاص وبالدخان الذي يتصاعد من أنابيب الشيشة التي يستعملها المتفرجون الجالسون على مقاعد منخفضة، ويعزف معها مقاطع موسيقية باستعمال طبل الباسك وهي بمثابة الأوركسترا، وتضيء الغرفة عدد قليل من الفتائل وتدور بين الشخصيات حوارات مثيرة للجدل[3]، وهذه العروض تقدم في المقاهي على شكل مسرحيات هادفة تروى بها مجموعة من القصص[4]، وقد ذكر الكاتب اللبناني جودي الأسمر مثال على النشاطات الترفيهية التي كانت تمارس في مقهى موسى بمدينة طرابلس اللبنانية في منطقة باب الرمل، حيث يذكر أنه كانت تحيا بها ليالي فنية المعروفة بقصص خيال الظل، كان يجسدها الفنان محمود الكراكيزي الذي كان نابغة في إلقاء الشعر بمختلف أنواعه، حيث يقوم بتحريك الدمى خلف شاشة يسلط عليها الضوء من الخلف بشكل يبعث بالفرح والبهجة في نفوس المتفرجين، وكان يقص عليهم قصص عنترة وأبي زيد الهلالي وغيرهما من أبطال التراث القصصي[5].

توجد بمدينة دمشق كذلك بعض المقاهي التي تحتوي على ألعاب غربية دخيلة على المنطقة، وكمثال على ذلك نذكر لعبة البلياردو التي دخلت حديثا للمنطقة بفعل الانفتاح الكبير على الغرب، وقال عنها غوسطاف فلوبير Gustav

[1] غوستاف لوبون ، المصدر السابق، ص 325.

[2] يسمى كذلك خيال الظل وكان من أشد عوامل التأثير في تهذيب الأخلاق وتقويمها، وذلك لما فيه من رسائل ومواعظ أخلاقية نابعة من نقد الممثل للواقع، مما يؤثر على الناس بقوة، فمثلا تجدها أحيانا تعالج عادات سيئة متفشية في العصر، ويتم إظهارها في قالب يجعل الناس تنفر منها، ويصورون ظلم الحكام وأصحاب النفوذ وغيرها من الأمور التي تعبر عن واقع المجتمع. مُحَمَّد كرد علي، المصدر نفسه، ج6، ص279.

[3] Savigny de moncorps, op cit, pp171-172.

[4] Jean sigausc ,op cit, p82.

[5] جودي الأسمر، المرجع السابق، د ص.

Fluber:"... تجد أمامها مجموعة من الأتراك الذين يرتدون ملابس أوربية يراقبون حركة الكرات على الطاولة، وهناك شخص مكلف بحساب النقاط، وهي من العادات الأوربية التي انتقلت إلى المنطقة، ويمكن القول أن بعض مظاهر الحضارة الأوربية بدأت في الدخول إلى الشرق..."[1].

د - التدخين[2] في المقاهي:

تعاطي المرء أثناء شربه للقهوة التبغ عن طريق نرجيلات طويلة الأنابيب ذات النماذخ العديدة يعد من أشهر العادات المشرقية، حيث يمر الدخان من آنيتها المملوءة بالماء قبل أن تصل للأفواه، ويبلل التبغ ويوضع في أعلى النرجيلات، وتوضع عليه مادة تحترق مع التنفس، ويوجد أيضا السيقار والحشيش الذي هو مادة مسكرة ويعد من أهم وسائل اللهو والتسلية[3]، والنرجيلة هي نوع خاص من الوسائل يستعمله الشاميون في التدخين ومستعملة حتى عند النساء، وجهته السفلية تقع على الأرض، وهو عبارة عن نصف إناء مملوء بالماء، والرقبة يعلوها قضيب معدني يحتوي الجزء العلوي على الجمر والشيشة، وبها خرطوم طوله من متر إلى مترين يصل إلى شفاه المدخن، ويمتص فوق الماء مما يجعل الدخان أكثر نعومة وأكثر سلاسة[4]، والمقاهي على العموم مليئة بمحبي التبغ الذين يستهلكون كميات كبيرة منه أثناء تجادبهم أطراف الحديث رفقة مدخنين آخرين، وبعض النرجيلات فيها طرفان يتبادل فيها المدخنون الأدوار[5]، ولاحظ الرحالة ومنهم إدوارد إدوارد بلوندال Edouard Blondel أن التدخين يمثل اللذة الأولى لدى المشرقيين وهو ما يجعلهم يستعملونه بكثرة[6].

5- الذهاب للحمامات[7]:

---

[1] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص67.

[2] التدخين يعد من العادات الشائعة في بلاد الشام ويكون بالتبغ والنرجيلة. محمد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص280.

[3] غوستاف لوبون ، المصدر السابق، ص 323.

[4] Jean lian, op cit, p43.

[5] Henri guys, op cit, pp88-89.

[6] Edouard blondel, op cit, p22.

[7] يعتبر الحمام في المشرق مؤسسة من مؤسسات الاستجمام الشعبي الذي يجتمع فيه سكان الحي أو أصحاب الحرفة، فيستحمون ويغتسلون ويتسامرون ويتفكهون. فؤاد العادل، المرجع السابق، ص 11.

أ- حمامات الشام:

تمتلئ بلاد الشام بالحمامات وهو ما أشار إليه الرحالة الفرنسيون، بل منهم من قال أن الشام من أكثر المناطق في العالم احتواء على الحمامات، وتتميز حماماتها بنمط بناء خاص يجعلها قبلة مفضلة لدى السكان المحليين والأجانب، والحمامات تنتشر في كل المدن الشامية لكنها تتفاوت في العدد من مدينة إلى أخرى، وتعتبر مدينة دمشق من المدن الشامية التي توجد بها الحمامات العامة بكثرة[1]، وقد مدحها الرحالة إدوارد بلوندال Edouard Blondel وذلك لما رآه فيها من أناقة حيث تتوفر على العديد من مرافق الراحة والرفاهية[2]، ويوجد عدة أنواع من الحمامات أشهرها الحمامات البخارية المرصوفة بالرخام والمزينة بأعمدة أنيقة جدا التي توفر للزبون جوا رائعا[3].

تتألف حمامات بلاد الشام بصفة عامة من صالة واسعة في المدخل مبنية بالحجارة، وتعلوها قباب تطل منها نوافذ صغيرة مدورة لتستقبل ضوء النهار، وإن هذه الحمامات لا تعرف الهواء مطلقا لأن كل نافذة منها مجهزة بعدسة من الزجاخ تمنع دخول الهواء وتحافظ على درجة الرطوبة العالية[4]، ويحتوي الحمام على العديد من الغرف المتصلة مع بعضها البعض بأنفاق، وهناك غرفة أشد حرارة كلما خرجت منها إلى غرفة أخرى تبدأ درجة الحرارة في التناقص، وبالتالي يمكن للمستحم الخروج من الحمام دون التعرض إلى انتقال مباشر من درجة حرارة عالية إلى درجة منخفضة خاصة إذا كان الجو باردا[5].

[1] أجمع أهل السياحة في أنحاء الإمبراطورية العثمانية ومعظم الديار الشرقية على تفضيل حمامات دمشق على غيرها، ويعود ذلك لهندستها المتقنة وانتظامها وغزارة مياهها وحسن خدماتها واعتناء أصحابها بالمستحمين، وهندسة جميع حمامات دمشق وفق نمط واحد، وعدد حمامات دمشق 58 حمام متفرقة في أنحاء المدينة أشهرها حمام القيشاني، وحمام الخياطين، وحمام النوفرة، وغير ذلك كثير من الحمامات المشهورة. عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص94.

[2] Edouard blondel, op cit, p177.

[3] Edmond de pressensé, op cit, p252.

[4] هنري قيز ، المصدر السابق، ص79.

[5] Edouard blondel, op cit, p48.

تشتهر بلاد الشام أيضا بحمامات عمواس وحماة المشهورة، وهي معروفة بينابيعها الحرارية التي تعود إلى العهد الروماني[1]، وحماة مشهورة أيضا بنواعيرها التي تعد من أكبر النواعير المعروفة بالشام، ودائرة عجلاتها مؤلفة من قواديس مركبة بنمط يجعلها تدور حول نفسها وهي ممتلئة بالماء، وإذا ما وصلت إلى قمتها انحدر منها الماء إلى حوض متصل بقنوات، فيسيل الماء منها إلى الحمامات الخاصة والعامة[2].

إضافة إلى الحمامات العامة توجد أيضا حمامات خاصة أجمل منها، وهي ملك للأغنياء مبنية في منازلهم وتتميز بنمطها العمراني الفائق الجمال، لكن بالرغم من جمالها وبهائها إلى أن نسائهن لا يحببنها ولا يحتملن البقاء وحدهن في حمامهن ويفضلن الحمام الجماعي، والسبب في ذلك هو المتعة الخاصة عندما تلتقين بغيرهن من النساء في الحمامات العامة حيث يتبادلن الأخبار وأطراف الحديث.

ب- طريقة الاستحمام:

يذهب السكان للحمام دوريا لتنظيف أنفسهم، ويكون الإقبال عليها كبيرا في أوقات الأعياد والاحتفالات والمناسبات[3]، والحمامات الشامية لا تستعمل لغرض النظافة فقط إنما يستعمل السكان المحليون الحمام لأغراض أخرى مثل الاستشفاء خاصة الحمامات البخارية التي تعالج العديد من الأمراض[4]، ولذلك يمكن القول أن الحمامات في الشام ليست مخصصة لتطهير البدن فقط، وإنما لها فوائد أخرى

[1] g téqui,op cit, p215.

[2] حبيب السيوفي، المصدر السابق،ج2، ص63.

[3] Henri Guys, op cit, pp133-134.

[4] تعرف الحمامات التي تستعمل لغرض الاستشفاء في بلاد الشام بالحمة بفتح الحاء وتشديد الميم، وهي عبارة عن عيون حارة يستشفى بها الأعلاء والمرضى وتعرف كذلك بالحمامات المعدنية، وهي كثيرة في بلاد الشام وأهمها حمامات طبرية التي تداوي الأمراض التناسلية للنساء وتشفي الأوجاع الحادة الزمنية والرثية والنقرس والبول السكري والمرة السوداء والتهاب قصبة الرئة وبعض الأمراض الجلدية، وكذلك توجد حمامات اليرموك التي تنفع أمراض الجلد و هي ثلاثة المقلى وحمام سليم وحمام الجرب إضافة إلى حمام الريح قرب آثار الحمامات الرومانية وقال أحد قاصديها واصفا إياها لا أبالغ إذا قلت أن معدل قاصديها في شهر نيسان لا يقل عن 20 ألف، ويوجد كذلك حمام زرقا شرقي الأردن، وحمام أبي رباح ناحية حمص ينفع الأمراض العصبية وتصلب الأعضاء والتشنج، ويوجد حمام قلمون الكبريتي، وحمام أرك جهة تدمر، وحمام أنطاكية الكبريتي ويحتوي على المغنيزيوم أيضا، وهذه هي أهم حمامات الشام المعدنية التي يقصدها الناس للاستشفاء. مُحَمَّد علي كرد، المصدر السابق، ج4، ص ص 164-167.

خاصة الطبية منها، ولذلك هي من الضروريات التي يعتمد عليها الفرد الشامي وهي شيء ملتصق بنمط عيشه.

تمر عملية الاستحمام عند الرجال بعدة مراحل: أولها نزع الثياب بعد دخول الصالة الكبرى للحمام فوق أحد المقاعد الخشبية الكبيرة القائمة حول الغرفة، ثم يستغني عن ملابسه بمنشفة يضعها فوق وسط جسمه، والغرفة مشتركة بين الجميع إلا أنه يمكن الاختلاء في أحد المقصورات القائمة في الزوايا الأربع، وما من شك أن المستحم يكون مرتاح البال على أغراضه لأن صاحب الحمام حريص على الحفاظ عليها لحماية سمعة الحمام[1]، والصالة الداخلية محاطة بمنصات عالية تنتشر فوقها الحصائر في كل مكان، وهي أيضا مكان مخصص لوضع الملابس، وبعد الخروج من الحمام يأخذون كل وقتهم ويستمتعون باللحظة فيدخنون ويشربون القهوة بجانب حوض رخامي كبير، وعادة ما تكون الغرفة المخصصة للقهوة عالية جدا، كما توجد خيوط معلقة توضع عليها المناشف الخاصة بالاستحمام حتى تجف، والأولاد الذين يشتغلون في الحمام يتقنون تقنية رمي المناشف فوق الخيوط[2].

يرتاح الرجال تحت القبة الداخلية للحمام من أجل التعرق الجيد، لتبدأ بعد ذلك مرحلة الفرك وذلك باستعمال كيس من شعر النخيل والصابون، ويتم استقبال الناس في الحمام بشكل جيد جميعهم دون تمييز، والفرق الوحيد الذي يمكن أن يلاحظ هو الفوطات فبعضها بسيط والبعض الآخر أنيق وكبير، والفرك يكون مرتين

[1] هنري قيز ، المصدر السابق، ص 39.

[2] Edouard blondel, op cit, p47.

يعتمد نظام العمل في الحمامات العامة على عدد من المهام التي توكل إلى مجموعة من الأشخاص يختص كل منهم بدور معين ومهمة محددة حسب تخصصه وحسب المهنة التي يستطيع أن يؤديها داخل الحمام، ومن هؤلاء الأشخاص ما تكون مهمته أساسية بحيث لا يسير الحمام بدون وجوده مثل المعلم والناظور والقيم، وبعض عمال الحمام يتم إلحاقهم بداخل الحمام لممارسة مهنهم رغبة من صاحب الحمام في إضافة خدمات مميزة في حمامه مثل القهوجي، وهناك عمال لا ترتبط خدمتهم بداخل الحمام مباشرة وإنما ترتبط خدمته بخدمة الحمام مباشرة وليس خدمة الزبون، ومن أمثلة ذلك الوقاد والزبال والسواق وغيرهم، والملاحظ أن الطاقم الذي يعمل في حمامات الرجال هو نفسه الطاقم الذي يعمل في حمامات النساء، ولكن جميع أفراده يكونون من النساء مع اختلاف بسيط في بعض التسميات. منصور مُحَمَّد عبد الرزاق، **الحمامات العامة بمدينة حلب منذ بداية العصر الأيوبي وحتى نهاية العصر العثماني دراسة آثارية مقارنة**، المكتب العربي للمعارف، ط1، القاهرة، مصر 2014م، ص 75.

أو ثلاث مرات وعندما يخرج الزبون يغطيه خدم الحمام بفوطته[1]، وهناك مجموعة مخصصة للدلك والفرك حيث يستلقي الزبون بشكل عرضي ويدخن غليونه ويشرب قهوته، وهم يفركون، وإذا حدث واشتكى أحد الزبائن إلى مالك الحمام[2] فإنهم يتلقون منه عقابا كبيرا[3]، والحمامات العامة بصفة عامة رائعة وتستقبل كافة الناس دون تفرقة طبقية، وفي هذا يقول هنري قيز Henri Guys:"...حيث ترى في نفس المكان وتحت نفس القبو العامل التعيس والآغا الفخم..."[4].

بالرغم من أن الحمام هو مكان يستعمله سكان الشام من أجل أغراض استشفائية ولغرض النظافة الجسدية إلا أنه في نفس الوقت يشكل خطرا كبيرا في بعض الأحيان، لأن الحمامات هي من بين أهم الأسباب التي تؤدي إلى انتقال الأمراض المعدية كالجلدية وأولها و أسرعها مرض الجرب الكثير الانتشار في البلاد[5].

الاستحمام ليس حكرا على الرجال فقط بل هو من أهم عادات النساء الشاميات المفضلة، فإذا فقدنه فقدن أهم أسباب الملذات في حياتهن لاسيما وأنهن يمضين أغلب الأوقات في منازلهن، وأزواجهن لا يمنعونهن منه لأنهم على يقين تام بأنه المكان الوحيد الذي لا يتعرض فيه شرفهم لأي خطر؛ لأن الحمام يستقبل الرجال والنساء ويخصص لكل منهم وقتا خاص، وتهيئ النساء يوم ذهابهن إلى الحمام كل حوائجهن منذ الصباح الباكر، فيجعلن من المناديل رزما مختلفة تصلح لعدة شؤون وهي متعددة، فمنها ما يكون مصنوعا من الحرير أو القطن، ومنها ما يكون مربع الحجم ذو لون أبيض، والوقت الذي يقضينه في الحمام طويل لا يقل

[1] Henri Guys, op cit, Pp137-139.

[2] يسمى صاحب الحام بالحمامي، ويعرف أيضا بالمدير أو المعلم، ويكون جلوسه عادة في البراني الذي يلي مدخل الحمام مباشرة، ويطلق هذا اللقب على الشخص الذي تعتبر مهنته الرئيسية إدارة الحمامات سواء بطريقة التمليك أو بطريقة الإيجار، ويشرف على الحمام بنفسه حتى يضمن نجاح العمل به خاصة إذا كان مؤجرا فعليه أن يعمل بجد لتغطية المصاريف وتحقيق ربح مناسب، ويستطيع الحمامي أن يراقب كل ما يحدث في الحمام من خلال موقعه، كما يمكنه موقعه من استقبال الزبائن أحسن استقبال لأن ذلك يكون له أثر على الزبائن. منصور محمد عبد الرزاق، المرجع السابق، ص77.

[3] Henri Guys, op cit, p140.

[4] Henri Guys, ibid, pp132-133.

[5] هنري قيز ، المصدر السابق، ص 39.

عن 3 أو 4 ساعات، ولا يكتفين بالاستحمام فقط إنما يأكلن ويشربن أثناء ذلك حتى أن بعضهن يدخن الغليون والنرجيلة في أوقات استراحتهن.

مشاغل النساء في الحمام كثيرة فهناك يجتمعن لينظفن جلودهن بأكياس من الشعر الناعم، ويضعن على رؤوسهن الحناء ليصبح الشعر ناعما، ثم يدلكن أجسامهن بمادة لزجة ممزوجة بماء الورد، وأخيرا يمشطن ويصففن شعورهن، وهن كالعائلة الواحدة داخل الحمام، ولهذا يبقين وقتا طويلا، كما أن لغو النساء يشتد في الحمام فهنالك يلقن بعضهم البعض ما حفظنه من النساء اللواتي كن يدلكن أجسامهن ويغسلنها[1].

لا يحب المتشددون من المسلمين الحمامات ويحرمونها لأنها في نظرهم أماكن للنميمة ووضع المكائد، فأغلب النساء تذهبن إلى الحمام من أجل الحصول على ما يحصل عليه الرجال من جلوسهم في المقاهي، خاصة التقاط مختلف الأخبار وأهمها فضائح البيوت التي هي أبرز ما يثير فضولهن ويجذبهم، والحمام بالنسبة للنساء أمر ضروري خاصة في فترة خطب البنت أو في الأعراس وحفلات الختان، وكذلك في مختلف الأعياد أو عندما تتم دعوتهن[2].

6- الملاهي وشرب الخمر[3]:

شرب الخمر عادة منتشرة عند بعض سكان بلاد الشام، وهي فئة مولعة بالخمرة والسكر[4]، ويذكر هنري قيز Henri Guys أن الخمور تباع علنا من قبل

---

[1] هنري قيز ، المصدر نفسه، ص 78.

[2] Henri Guys, op cit, pp 132-140.

[3] هو من المسكرات ويصنع منه ما لا يقل عن 15000 هكتلتر في كل سنة في دمشق والنبك وحمص وزحلة وكثير من قرى فلسطين ولبنان ووادي تيم، حيث يوضع عصير العنب في دنان عظيمة حتى إذا اختمر يضاف إليه الإنسيون، وبعدها يقطر العرق بالإنبيق فيكون مقداره ربع العصير تقريبا، وليس شرب الخمر شائعا في الشام كأوروبا التي يحل فيها محل الماء أثناء الطعام، وأكبر معامل الخمرة هو معمل ريشون بفلسطين ويعد من أكبر معامل العالم، ويشحن نبيذه إلى مصر والعراق وأوربا، ولا يستهلك منه إلا القليل في الشام. مُحَمَّد علي كرد، المصدر السابق،ج 4، ص191.

[4] هنري قيز ، المصدر السابق، ص 73.

من خلال الملاحظات التي قدمها لنا هنري قيز نستنتج أن هناك فئة معينة تتعاطى الخمر وهم قليلون، والحالات الشاذة لا يقاس عليها أبدا، إضافة إلى ذلك يمكن القول أن عادة شرب الخمر في بلاد الشام خلال القرن 19م هي حكر على المسيحيين واليهود وكانت لهم مؤسسات خاصة لذلك، ونذكر على سبيل المثال إنشاء خمارة من قبل إبراهيم باشا في عهد الحكم المصري بلاد الشام

المؤسسات التركية، وقال أن السلطات التركية قدمت حرية في شرب الخمر الذي حرمه الدين الإسلامي، ولذلك صار البعض من السكان يشربون الخمر علانية، وأصبحت الحانات تمتلئ وتتميز بحدوث شجارات دامية، ويذكر أن أغلب رواد الحانات كانوا من الجنود الأتراك، وتناقل أخبار تقول أنه كثيرا ما تجد الشوارع مليئة بالجنود في حالة سكر، وشرب الخمر هو من العادات الدخيلة على بلاد الشام أتت من أوربا بعد الانفتاح الكبير على مؤثراتها[1].

أطنب هنري قيز Henri Guys في حديثه عن شرب الخمر الذي رأى فيه أمرا خطيرا يضر بعادات وأخلاق المجتمع وقال:"...البيع العام للمشروبات جعل بعض السكان المحليين مدمنين عليها وانغمسوا في شهوتها..."[2]، وأرجع السبب في ذلك إلى عدد الملاهي الذي أصبح كبيرا جدا وعلى وجه التخصيص المؤجرة من قبل السلطة[3]، وهو الأمر الذي جعل الكثير من الشباب يفقدون مستقبلهم وينحرفون، وقال أيضا:"...ترى في العديد من الأحيان هؤلاء الأشخاص سكارى يدورون في الشوارع..."[4]، والبعض من هؤلاء كون علاقات قوية مع المسيحيين خاصة إن كانوا ممن يحبون شرب الخمر، وذلك نابع من حب وميل لتقليد الفرنسيين في طريقة الشرب[5].

بدمشق، ومن أجل ذلك عرض مزادا علنيا لإنشائها وخصصه لليهود والنصارى، وبالفعل أصبح مكانا خاصا لهم يقيمون فيه احتفالاتهم وأعيادهم الدينية، بل وكان المشرفون عليها يأخذون الزبيب والعنب من بيوت النصارى واليهود ليصنعوا منه الخمر. مجهول، **مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا**، تح تق: أحمد غان سباتو، سلسلة دراسات ووثاق تاريخ دمشق والشام، د ت، ص 66.

[1] Henri Guys, op cit, pp 92-93.

[2] Henri Guys, ibid, p155.

[3] خالف الرحالة المصري عبد الرحمن بك سامي هذا القول وذهب إلى القول في رحلته بأن المحلات المخصصة لسقية البيرا ويقصد بها الحانات غير موجودة، وتقل ملاهي المومسات. عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص 13.

نفس الملاحظة قدمها حسان حلاق الذي بحث في تاريخ بيروت من خلال التقارير الواردة في سجلات المحاكم الشرعية خلال القرن 19م حيث يقول عن عادات سكان مدينة بيروت في هذا المجال:"...ومن العادات الاجتماعية الحميدة في مدينة بيروت عدم الجهر بالمعاصي كشرب الخمر والزنا، لا سيما بالنسبة للطائفة الإسلامية التي حرم عليها الخمر والزنى...كما لا يتعاط أهل بيروت المنكرات كتناول الحشيش وبقية أنواع المخدرات، ولا يوجد في مدينتهم مراكز للمومسات. ينظر إلى حسان حلاق، المرجع السابق، ص21.

[4] Henri Guys, op cit, p156.

[5] هنري قيز ، المصدر السابق، ص 72.

الملاهي التي تحدث عنها هنري قيز Henri Guys موجودة في مدينة حلب، وقد ذكر السبب الذي يؤدي لتوافد الشباب عليها، فقال أنه توجد العديد من المغريات التي تجذب الشباب في هذه الملاهي كالنساء الراقصات اللواتي يفتن الشباب، وانتشرت ظاهرة البغاء خاصة من قبل النساء الوافدات لبلاد الشام كالمصريات والحجازيات، اللواتي كن يعرضن سحرهن في شوارع مدينة حلب دون أن يتلقين أي إزعاج من قبل الشرطة، وقال في الأخير أن السكان الغيورين على بلدهم هم الوحيدون الذين يحاربون هذه الآفات ويحاربون الفساد، لاسيما وأن الحلبيين بصفة عامة يحبون الأخلاق الحميدة، وهو ما يثبت أن هذه الممارسات هي أمور شاذة لا يمكن قياسها على الأغلبية الساحقة المحافظة على دينها وعاداتها وتقاليدها[1].

ذكر لنا الباحث محمد الخطيب في كتابه أن اليهود الوافدين إلى المدن الشامية ومنها دمشق قد لعبوا دورا كبيرا في انتشار العادات السيئة، وقال أن حي اليهود كان يجذب الشباب الذين يريدون التمتع بالحياة الصاخبة واقتصاص المتعة، وكانوا يقضون السهرات الطويلة مع أصحابهم برفقة الفتيات والراقصات اليهوديات ويشربون الخمر، وذكر أن بعض اليهود سمحوا لبناتهم بجذب الشباب من الطوائف الأخرى من أجل إبعادهم عن دينهم وعملهم بالإدمان على النساء والخمور، وكل ذلك من أجل إضعاف المجتمع وتسهيل السيطرة عليه من قبل الغرب المسيحي[2].

7- تربية الحيوانات:

تعد تربية الحيوانات من الأمور التي يوليها الشاميون أهمية كبيرة ويخصصون لها أوقات محددة، وهناك فئة كبيرة من سكان بلاد الشام مولعة بتربية

استغل الأجانب و كذلك المسيحيون الذين يحضون بحماية القنصليات الأوربية فرصة منح الدولة للامتيازات الخاصة بمنح رخص فتح حانات لبيع وشرب الخمر، وفتحوا عددا من الخمارات وقدموا خدمات المشروبات الكحولية وكان أكثر روادها أفراد الجيش، وقد حدثت العديد من المشاكل في هذه الخمارات والنزاعات والشجارات الدامية التي أدت في الكثير من الأحيان إلى القتل، ومن بين الذين حصلوا على رخص فتح الخمارات اليونانيون تحت حماية مباشرة من طرف بريطانيا، وفرضت رسوم محددة على الخمارات مقابل مزاولة نشاطها. لطيفة محمد سالم، الحكم المصري في الشام، 1831-1841م، مكتبة مدبولي، ط2، القاهرة، مصر 1990م، ص 268.

[1] Henri Guys, op cit, p157.

[2] محمد الخطيب، المرجع السابق، ص ص 203-204.

الحيوانات وهي هوايتهم الأساسية حيث يمضون معظم أوقاتهم في العناية بها والاستمتاع بتربيتها، وتعد تربية الخيول من أبرز الهوايات إضافة إلى تربية أنواع حيوانات أخرى، والتي يربونها لممارسة هواية الصيد أو لأغراض أخرى، وسنذكر أهم أنواع الحيوانات التي لاحظ الرحالة الفرنسيون أن الشاميين يربونها:

أ- تربية الخيول[1]:

يربي الشاميون الخيول العربية الأصيلة ويملكها الأغنياء ويخصصون لها أماكن خاصة ويهتمون بها، ويلبسون الحصان سرجا فاخرا يختلف من شخص لآخر، ويتوقف ذلك حسب درجة الغنى والثراء، فهناك أنواع من السروخ الغنية الرائعة ذات الترصيع الذهبي أو الفضي ومنها ما هو بسيط، وحول وسادة السرخ تعلق مجموعة من التمائم الغنية وتزين بالمجوهرات[2]، وقد لاحظ الرحالة مدى تعلق السكان المحليين بخيولهم، وذكروا أن المشرقي لا يفارق حصانه منذ طفولته[3].

عاطفة البدو اتجاه خيولهم قوية مقارنة بسكان المدينة وتكاد تكون مثل عاطفتهم اتجاه أولادهم ونسائهم حتى أن بعضهم يعتبرها جزءا لا يتجزأ من العائلة[4]، ويعمل سكان البدو دائما على الحفاظ على العرق العربي الأصيل ويمنعون اختلاطه مع بقية السلالات، وهو دائما مسرخ ومربوط القدمين الأماميتين

[1] الخيل في الشام ثلاثة أصناف العراب أو الأصيلة والبراذين أو ما تعرف بالكدش والمولدة التي تولد من أم عربية و أب أعجمي أو العكس، والأولى يسمى هجين والثانية يسمى مقرفا، وتجلب الكدش من الأناضول وهي أسوء مقارنة بالعربية، وهي صالحة لحمل الأثقال والحصاد والدرس وعددها كبير يبلغ حوالي 70 بالمئة من مجموع خيل الشام، أما الخيل المولدة فهي أجمل من البراذين وأقوى، وهي تركب وتستعمل في جر المركبات ومجموعها حوالي 20 بالمئة، وأجمل الخيل في العالم خيل العراب وهي مستقيمة الرأس متوسطة الجثة وطول أعضائها متوسط، لها رأس مربع و جبهة مسطحة ومقدم مستقيم ووجه متوسط الطول، وفكان متباعدان ومنخران جامدان وأذنان حساستان وعينان كبيرتان، وعنق رشيد شديد العضل وظهر مستقيم وردف أفقي مكتنز، وعجزان مستديران وصدر واسع وبطن صغير، وقوائم رشيقة قوية العضل عمودية لا عيب فيها، وأوتار جلية ومفاصل عريضة وجلد رقيق مرن وشعر قصير، والجواد العربي آية في انتظام كماله وتكوينه، وهو جميل قوي شهم، ووزنها من 400 إلى 450كلغ والارتفاع من 1.42 إلى 1.55متر، وهي صالحة للركوب والسباق، وأجملها كان في دمشق وحمص وحماة لدى بعض الأسر والعشائر. مُحَمَّد علي كرد، المصدر السابق،ج 4، ص ص 183-184.

[2] L'abbé jh Lespinasse, op cit, pp343-344.

[3] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p117.

[4] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, p129.

بالأغلال، والدروز والشيعة هم الآخرون يهتمون بتربية الخيول خاصة وأن معظمهم يعيش في المناطق الجبلية، أما سكان المدن فهم لا يستعملون الخيول كثيرا ولا يربونها وأكثر ما يملكون الحمير التي تستعمل للتنقل وحمل البضائع، ومن أشهر أنواع الخيول في المنطقة الخيول الخيشومية وهي خيول نادرة وقليلة[1]، ويربون كذلك الخيول النادرة الممتازة القادرة على تخطي الصعاب والعقبات التي تواجهها أثناء السباقات[2]، والملاحظ من خلال كتب الرحالة الفرنسيين أن طريقة معاملة السكان الشاميين للخيول تختلف حسب السلالة، وقد ذكر شاتوبراين Chateaubriand في هذا الصدد أن الخيول الأصيلة كانت تعامل بشكل جيد، أما الخيول العادية المختلطة السلالة فلاحظ أنها تعامل بصرامة وتخصص للأعمال الشاقة ولا يعطى لها في اليوم الواحد إلا القليل من الشعير، ولكنها كما قال تتميز بقوة التحمل والقوة والسرعة[3].

تعد دمشق من الأماكن التي تعرف بعشق سكانها لتربية الخيول، ولهذا في يوم الجمعة والأحد ينظم سوق كبير خاص لبيع الخيول ويحدث فيه تزاحم كبير في المكان المعروف بالميدان الواقع جنوب المدينة، وهو عبارة عن ساحة كبيرة تحيط بها أشجار الجوز القديمة التي ظلا رائعا، ويتجمع بها جمهور غفير وهم عشاق ركوب الخيل، وهذا المكان يتيح للزائرين فرصة رؤية الخيول العربية الأصيلة خاصة وأن أصحابها يقدمون عروضا لإغراء المشترين، ومن أشهر الخيول التي تأتي لهذا السوق خيول سكان البدو الصحراويون التي تتميز بمواصفات جميلة وقوة جسدية كبيرة[4]، ودمشق ليست هي المدينة الوحيدة التي يحب سكانها تربية الخيول وامتطائها فالأمر نفسه نجده في مدن أخرى كمدينة حلب التي يعشق سكانها الخيل حسب ما ذكره لنا القنصل الفرنسي هنري قيز Henri Guys [5].

ب- حيوانات أخرى:

[1] Jules Xavier saguez de freuvry, ibid, p131.
[2] Edouard blondel, op cit, p43.
[3] M Chateaubriand (de), op cit, p240.
[4] Edouard blondel, ibid, p178.
[5] Henri guys, op cit, p59.

تربية الحيوانات ليس مقتصرا على الخيول فقط إنما الهوايات نجدها متنوعة لدى سكان بلاد الشام فمثلا تجد هواية تربية الحمام خاصة في مدينة حلب، وكانت تحدث العديد من الأمور السلبية بسببها كالسرقات وانتشار عصابات الحمام، كما يحب الشاميون أيضا تربية القطط، وهي من الحيوانات التي قلما تجد بيتا لا يحتويها[1]، ومن العادات الشائعة في الشام كذلك تربية الكلاب السلوقية والصقور التي تستعمل من أجل الصيد، ويعد الصيد من أبرز هواياتهم خاصة عند الطبقة الثرية[2]، وقد أولت السلطات أهمية بالغة لحماية الحيوانات، ولهذا الغرض وجد قانون يدين كل من يقوم بقتل قط أو كلب[3].

رابعا- الاحتفالات:

تعد الاحتفالات من أهم المظاهر الاجتماعية التي تعبر عن خصوصية أي مكان، وتميزه عن غيره من المناطق باستعمال طرق وعادات خاصة للاحتفال، وهي من الأمور التي اهتم بها الرحالة كثيرا وذلك لغرض الكشف عن الاختلافات في الممارسات بين الشعوب وسلوكياتها وعاداتها[4]، وعليه سنعرض أهم الأنماط الاحتفالية التي دونها الرحالة في كتاباتهم حول بلاد الشام، والتي من خلالها وضحوا بالتفصيل الكثير من العادات والتقاليد التي تميز بها سكان المنطقة، والتي هي الأخرى تختلف حسب الديانة وحسب المذهب وكذلك حسب الطبقة الاجتماعية للشخص، كما تتنوع الاحتفالات حسب المناسبات حيث تخصص لكل مناسبة طقوس احتفالية خاصة بها وهي كالتالي:

1- حفلات الزواج[5]:

حفلات الزواج من أهم المناسبات التي يحتفل بها الشاميون ويعدون لها تجهيزات كبيرة مما يجعلها مميزة، والزواج كان يتم في سن مبكرة بالنسبة

[1] Henri guys, ibid, pp340-341.
[2] Edouard blondel, op cit, p43.
[3] Henri Guys, op cit, p341.

[4] مجاهدي زوليخة، المرجع السابق، ص ص 823-840.

[5] ترتكز الأسرة في بنائها وتكوينها على مؤسسة الزواج، والزواج بالنسبة للشاميين مهما كان دينهم من الأعمال المسرة جدا في الحياة، وكان من الناذر أن يبقى شاب دون زواج بعد العشرين. مُحَمَّد الخطيب، المرجع السابق، ص 188.

للجنسين فالسن المحدد للفتيات كان على العموم ما بين 13 و 15 سنة[1]، ومنهن من تتزوجن في سن أصغر يتراوح من 10 إلى 12 سنة، أما الرجال على العموم كانوا يتزوجون في سن العشرينيات[2]، وقد ذكر محمد علي كرد أن سن الزواخ عند الشاب المسيحي يختلف مقارنة مع الشاب المسلم، وقال أن منهم من لا يتزوخ حتى يصل عمره إلى 30 أو 40 سنة[3].

عندما يريد شاب أن يتزوخ يكلف أهله لطلب الزواخ من الوصي على البنت، وهو أبوها والذي تعود له الكلمة الأولى والأخيرة، ومن العادات التي كانت منتشرة عند بعض العائلات أنه عندما تطلب فتاة ما إلى الزواخ فإن الأب لا يستشير زوجته أو ابنته بل يكتفي بإعلامهم فقط أنه قد أعطى الكلمة، وأن حفلة العرس ستكون في اليوم الذي عينه، وهذا لا يعني أن الأب يوافق مباشرة دون معرفة أصل وأخلاق العريس لأنه أدرى بمصلحة ابنته، والعروس تجهل في الغالب اسم خطيبها وشكله وإذا أرادت أن تراه لا يكون ذلك إلا بواسطة ثقوب صغيرة موجودة في النافذة، أو عن طريق خصاص الباب أو بصورة خفية في الشارع من خلال منديلها الشاشي الذي تضعه النساء على وجوههن، وهو يمكنهن من رؤية الخارخ ويغطي تفاصيل الوجه[4].

قبل أن تتم الخطبة يمر الشاب بمجموعة من المراحل قبل أن يأخذ قراره النهائي، ففي المرحلة الأولى يكلف أمه وأخواته أو بعض الأقارب للاختيار له[5]، وأغلبهم لم يسبق لهم أن رءوا وجوه زوجاتهم المستقبلية لأن هذا الأمر لا يمكن أن يحدث خاصة وأنهن يرتدين حجاب يغطي كل الجسد بما فيه الوجه، وتبدأ النساء في مباشرة المهمة وجمع المعلومات عن المرأة التي يبحثون عنها، وبعد إيجاد الفتاة المناسبة ينظمون زيارة لبيتها ويجهزون موكبا احتفاليا، وبمجرد وصولهم يحيون الأم ويظهرون أنهم غير مبالون بوجود الفتيات، وذلك حتى لا ينكشف أمرهم

[1] G téqui, op cit, p287.
[2] Edouard blondel, op cit, p35.
[3] مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص295.
[4] هنري قيز ، المصدر السابق، ص ص81- 82.
[5] متى بلغ الشاب العشرينيات من عمره يتولى كبير العائلة إرسال شخص ممن يرضاه من أخت أو عمة أو خالة أو نسيبة أو بعض الجيران الأقرب إلى بيوت المدينة، وذلك لغرض البحث والتنقيب على زوجة للشاب، وينطلقون بقاعدة الكفاءة والثروة والسن والآداب، وقد تستغرق العملية عاما كاملا، ومتى وقع قرارهن بالإجماع على إحدى الفتيات يكررن التردد إليها عدة مرات ليرين أخلاقها وخلقها بالتفصيل. مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص277.

وبالتالي يتمكنون من معرفة العيوب، وفي هذه المرحلة تبدأ عملية الملاحظة الدقيقة لتصرفات الشابة وهي لا تعلم بذلك، فمثلا يلاحظون أظافرها أثناء وضع القهوة والمشروبات الغازية ولحظة تقديم الفاكهة، وكذلك يلاحظن كيفية التقديم وطريقة اللبس والمجوهرات التي تضعها.

تقوم الأم دائما بتقديم الاعتذارات لابنتها بدليل أن التصرف الذي قامت به حدث بسبب الخجل والارتباك وتبدأ في الثناء على بناتها، وتحرص على اختيار أحسن العبارات وذلك حتى تتمكن من إغراء الضيوف، ثم يذهبن للمنزل ويقدمن تقريرا مفصلا للعريس حول جمالهن وأخلاقهن، وبعدها يتم إجراء زيارة أخرى وتكون نهائية فيها يتم اتخاذ القرار النهائي، والعريس يكون سعيدا جدا بعد سماع هذه الإغراءات والوعود التي تمنحها الأم له لأن نجاح الأم في الاختيار هو نجاح للزواخ، وفي بعض الأحيان يصبح العريس تعيسا بسبب عدم تطابق المواصفات التي في مخيلته مع الواقع[1].

نفس الأمر الذي تقوم به عائلة العريس تقوم به أسرة العروس، حيث تكلف مجموعة من النساء بزيارة الحي الذي يقطن فيه الخاطب سرا، فيدخلن غالب بيوت ذلك الحي باحثات عن أمور تخص الخاطب كالأخلاق والثروة وتجارته أو وظيفته، وعن عدد أهل بيته وعن حالة الأسرة الاجتماعية ومدى استقرارها، وهن بهذا يقمن في الحقيقة بعمل استخباراتي محكم يكون على إثره التقرير النهائي المقدم لكبير عائلة المخطوبة وهنا تنتهي مهمة النساء[2].

يفوض العريس في المرحلة الموالية بعد أن يقبل مواصفات العروس شخصا للخطبة، وهو الذي يفاوض أباها في مقدار مهرها لأنه هو الذي سيدفعه، فإذا كان هناك تراضي يجيء الخاطب رفقه بعض أصحابه إلى بيت العروس و يحضر معهم شهود وكاتب، وعندئذ يلفظ بصيغة العقد الشرعية ويدون الكاتب ما وقع[3]، وبهذا يكون عقد النكاح قد انتهى شرعا، ولا تزف العروس إلى زوجها إلا بعد أيام تقام فيها

[1] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, pp40-42.

[2] محمد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص277.

[3] العادة المتبعة في عقد القران أو ما يعرف عندهم بكتب الكتاب أن يحضر ولي الزوج وولي الزوجة أو وكيليهما بين يدي القاضي أو المفتي، ويسمون المهر وبعد الانتهاء من هذه المراسيم تقرأ الفاتحة على نية التوفيق و الصلاح. حسان حلاق، المرجع السابق، ص20.

المراسم والحفلات، ومن العادات الشائعة أن العروس تذهب إلى الحمام في موكب احتفالي وتبعث بعدها مزينة إلى بيت زوجها المعد بعناية لاستقبالها، ويكون ذلك أيضا في موكب كبير، وعندما يتفرق الناس يمكن لزوجها أن يرفع عنها الستار ليراها لأول مرة[1].

يسير موكب العروس في الشوارع على صوت الدف وتغني خلاله النساء بصوت عالي، ويعددون فضائل المرأة ويسبقهم الأثاث الذي جهزته[2]، ويكون ذلك عادة في عشية الزفاف والجهاز الذي تجلبه العروس يكون كبيرا أو صغيرا على حسب ثروة الأب والعريس، وهو يتألف عادة من الملبوس وأدوات الطبخ وأدوات البيت كالمسرجة والمقعد وحزمة فتائل والأشياء الأخرى البسيطة الثمن، وتحمل كل قطعة من هذه القطع على حدة للمفاخرة حتى يقال أن جهاز بنت فلان نقله كذا وكذا من الرجال، ولدى وصول هذا الجهاز يسلم إلى قريبات العريس وتتعالى الزغاريد ويستمر ذلك لساعات طويلة، وهذه الزغاريد هي ملذة توحي حب المنافسة لدى النساء، وهو الأمر الذي يحملهن على اغتنام كل مناسبة لإظهار هذه البراعة والتفوق، أما بالنسبة لعقد الزواخ الرسمي فينظمه القاضي بناءا على شهادة أنساب العرسان الذين حضروا الخطبة الرسمية[3].

تلبس العروس في ليلة زفافها فستان أبيض وفوقه حجاب أبيض طويل يغطي كامل جسدها[4]، وكما قلنا سابقا أنه من العادات المتوارثة أنه لا يمكنها أن ترى عريسها جيدا إلا يوم الزفاف وفي برهات قليلة تتمكن فيها من اختلاس النظر إليه، وهذا نابع من الحياء الكبير الذي تتميز به نساء الشام ويذكر هنري قيز Henri Guys أن منهن من لا ترفع رأسها ولا ترى زوجها لمدة 7 أيام كاملة حتى يبدأ الخجل في التلاشي شيئا فشيئا[5]، وتعدد الزوجات مسموح به لدى المسلمين لكن هو أمر قلما تجده في الصحراء فهو أمر منبوذ وناذر الحدوث[6]، وكذلك في مذهب

[1] غوستاف لوبون ، المصدر السابق ، ص ص320- 321.

[2] Léonie de bazelaire, op cit, p223.

[3] هنري قيز ، المصدر السابق، ص 82.

[4] Léonie de bazelaire, op cit, p223.

[5] هنري قيز ، المصدر السابق، ص 83.

[6] Le compte de perthuis, op cit, p96.

الدروز التعدد أمر غير مقبول، ولا يحق للرجل أن يجمع بين زوجتين إلا إذا ماتت الزوجة أو طلقت، ولا تعود إليه المطلقة ولو تزوجت من زوخ آخر[1].

2- نماذخ من الأعراس الشامية:

الأعراس الشامية بصفة عامة ليست بسيطة إنما هي حسب ملاحظات الرحالة مؤثرة وأكثر بهجة مقارنة بالأعراس الأوربية، ومنها ما يخلف صدى كبير يسمع به جميع السكان نظرا لقيمة الاحتفال، وتستمر الأفراح عادة لمدة أيام تتخللها العديد من الأمور كالرقص والاحتفال والأكل وغيرها من المظاهر الاحتفالية[2]، وتختلف عادات وتقاليد الاحتفالات اختلافا كبيرا من مكان لآخر ومن فئة لأخرى، وذلك يعود لاختلاف الملل والطوائف والطبقات الاجتماعية وعلى حسب عادات وتقاليد المنطقة حيث لكل منها عاداتها الاحتفالية الخاصة[3]، وسنقدم نماذخ من حفلات الأعراس من مناطق شامية مختلفة من خلال ملاحظات الرحالة الفرنسيين، والتي يمكن القول أنها تعرف تشابها كبيرا في مظاهرها وهي كالتالي:

أ- حفل زفاف في مدينة الناصرة:

قدمت لنا بعثة القافلة الفرنسية الحجية لسنة 1873م ملاحظات حول حفل زفاف عربي لفت أنظارهم بفخامته وجماله، وذكروا أنه مليء بالرقصات وأهل العريس يحدثون ضجة كبيرة فرحا لزواخ ابنهم، وأشاروا أن العريس في هذا الحفل يرتدي أجمل زي يمكن من خلاله تمييزه عن البقية، ويخصص له حصان مزين في الموكب الاحتفالي لأنه بطل الحفل، والموكب كبير به حوالي 100 شاب يغنون نغمة رتيبة برفقة رقصات وطلقات نارية.

تعدد الزوجات لدى سكان الريف القريبين من المدن كان أمرا مرغوبا فيه، خاصة وأن رب العائلة كان دائما في حاجة لإنجاب أكبر عدد من الأولاد الذكور من أجل مساعدته في أعمال الحقل. مُحَمَّد الخطيب، المرجع السابق، 191.

[1] تركي قاسم الزغبي، المرجع السابق، ص 300.

تعدد الزوجات لدى المسيحيين ممنوع ولا يمكن للرجل المسيحي أبدا أن يجمع زوجتين في آن واحد والعكس صحيح، وهم يلتزمون بتعاليم القديس بولوس الذي قال:" ليكن لكل واحد امرأته ولكل امرأة رجلها". الفريد ديات، **الوجيز في أحكام الزواج والأسرة للطوائف المسيحية في المملكة الأردنية الهاشمية**، دار الثقافة للنشر و التوزيع، ط1، عمان، الأردن2004م، ص 45.

[2] Léonie de bazelaire, op cit, pp222-223.

[3] عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص88.

تختلف حفلات الزواخ عند مسيحيي الناصرة عن أعراس المسلمين في العادات والتقاليد، فأعراس المسيحيين عادة ما تكون مختلطة بين الرجال والنساء والعروس تظهر دون حجاب يستر وجهها، ولذلك تحضر نفسها جيدا وتتزين بأحلى ما لديها حيث تقوم بظفر شعرها وتملأه بعملات معدنية، وترتدي ثوبا من الحرير الفاخر الذي عادة ما يكون أصفر مذهب والعملات موجودة أيضا في ذراعيها إضافة إلى أساور وقلائد[1]، ونفس المواصفات قدمها لنا الرحالة م م ب ف M m p v الذي قال:"... ترتدي العروس فستانا مخمليا قرمزيا طويلا مغطى بالذهب والزهور، ويخفي وجهها قطعة قماشية شفافة..."، وذكر أيضا أنه رأى مجموعة من الشبان خلال العرس يقفزون ويصرخون ويصفقون على إيقاع الموسيقى ليصل الزوجان بعدها إلى قاعة الاستقبال ويجلسون في مكان مخصص لهما، ثم تبدأ بعدها الرقصات والاحتفالات من جديد، ومن العادات أن ترمي العروس باقتها على الفتيات اللواتي لم يتزوجن بعد ويعتقدن أن المحظوظة من تقبضها[2].

ب- حفل زفاف في مدينة حلب:

قدم لنا القنصل الفرنسي هنري قيز Henri Guys الذي عاش لفترة طويلة بحلب مكنته من اكتشاف عاداتها وتقاليدها تفصيلا دقيقا لمراحل الزواخ في المدينة، وأهم المحطات التي تمر بها، فقال أنه بعد أن يتمكن الشاب من معرفة المواصفات الجسدية والشخصية للفتاة فإنه لا يتخذ قراره النهائي مباشرة، إلا بعد أن يتأكد بنفسه من صدق هذه الصفات بعد زيارته لها في المنزل وهو ما يعرف بلقاء السنة، وهذا الأمر الذي يمكنه من رؤيتها عن قرب لأنه يسمح للشاب في هذه المرة فقط رؤية الفتاة بشرط أن لا تكون الرؤية بشهوة، وكذلك تلعب بعض النساء دورا هاما في تزويج النساء وذلك بجعلهن لوحات جذابة في آذان السامعين.

بعد أن يتفق الطرفان على الشروط ويتم القبول تذهب النساء قبل الحفل بأيام قليلة من 7 إلى 8 أيام إلى منازل الأقارب والأصدقاء لتقديم الدعوات، ويصنع الآباء والأصدقاء الهدايا للعريس وهي عبارة عن أقمشة أو سلع وفي بعض الأحيان يرسلون شاة، وفي اليوم الذي يسبق الزفاف تقام حفلة بالموسيقى وفيها تصبغ يد

[1] g téqui , op cit, p202-203.
[2] M m p v, op cit, pp206-207.

الفتاة بالحناء[1]، وفي صباح يوم الزفاف يتناول الرجال وجبة الغذاء، ويبدأ هؤلاء الضيوف في التدفق على بيت العريس بعد ساعة واحدة من الشروق، وتقدم لهم العديد من الأطباق المختلفة وفي فترات عديدة لعدة مرات، وبعد الظهر يأتي أقارب العروس مصحوبين بالزغاريد، والنساء المدعوات يركضن من كل الجهات إلى هذه النقطة ويصل عدد المعزومات في بعض الأحيان إلى 300 أو أكثر.

تنتظر والدة العريس زوجة ابنها عند باب المنزل وبمجرد وصولها تفكك قطعة سكر كبيرة، وتحمل معها قطعة حلوى تضعها في فم العروس، وبعد غروب الشمس يقدم العشاء للنساء[2]، أما العريس فيجتمع مع أصدقائه وأقاربه الرئيسيين الذين يتراوح عددهم بين 30 و 40، ويتكفلون بتلبيسه وكذلك يوجد لديه صديق مقرب يرافقه في كل حركاته و مسئول عنه وهو بمثابة مستشاره الخاص، ثم يذهبون في موكب مضاء بالشموع ووسط أغاني وصيحات الفرح حتى الوصول إلى بيت الزوجين، ويستقبل بعادة وهي رمي منديل به قطعة ذهب أو فضة وتسمى عادة التبييض، ثم تحضر العروس وتوضع يدها في يد الزوخ ويتم إحضارهم إلى غرفة النوم حيث تتبعهم أمهاتهم فقط، ومصففة الشعر والقابلة ووالدة الفتاة تبقى عند الباب حتى يخرخ الزوخ وهي فترة ليست طويلة.

بعد خروج الزوخ تسارع والدة العروس بإحضار خبر عذرية الفتاة لوالدي العريس وهو أمر يبعث السرور والفرح ويبقى بعدها الزوخ ساعة واحدة مع والديه وأصدقائه، وفي صباح اليوم الموالي يعطي الزوخ هدية فضية لزوجته وهي تعد له بعض الملابس وتعطيها له، وبعد ذلك يأتي الجيران لدعوة العريس إلى الحمام وتبقى الأفراح والموسيقى ووجبات الطعام المقدمة لعدة أيام، وتمتد أحيانا إلى 15 يوم، وزيارات الآباء والأمهات ، الإخوة والأعمام والعمات تكون في مدة تتراوح من 4 إلى 5 أيام بعد الزفاف[3].

خ- حفل زفاف مسيحي[4] في مدينة بيروت:

[1] Henri guys, op cit, pp 197.
[2] Henri Guys, ibid, p202.
[3] Henri Guys, op cit, pp203-205.
[4] المسيحيون عكس المسلمين في مسألة اختيار الزوجة حيث أ ن الشاب المسيحي يمكنه تصفح وجوه النسوة في الاجتماعات العامة أو وقت الخروج من الصلاة، فمتى أعجبته إحدى الحاضرات يعلمها أنه يرغب أن تكون زوجته وهي عبارة عن خطبة أولى،

تختلف حفلات الزواخ المسيحية في مدينة بيروت قليلا عن حفلات زواخ المسلمين، فعند تحرك الموكب الذي هو مخصص لأخذ العروس تتظاهر أنها لا تريد ذلك، ولذلك يبدؤون في استعطافها لتمشي وتسرع ولكنها تصر على المشي ببطيء، فيتدخل الأقارب والأهل فتضطر للاستجابة لرغبتهم فتتقدم تم تتردد وتكرر العملية لعدة مرات[1]، وعندما تصل إلى بيت العريس تجلس فوق منصة مخصصة لها وهي بطول الصندوق في العلو وتبقى جامدة كالصنم لا تتحرك، ليملأ الزوخ ملعقة ويقوم بإطعامها ولكنها لا تفتح فمها إلا بعد ألف رجاء من قبل الزوخ والحاضرين، ولكنها نظرا لقيمتها فإنها تقابل الأحاديث اللطيفة التي تدور حولها بصمت ثابت، وتجيب برأسها فقط بنعم أو لا، ثم تقوم بتقبيل أيدي جميع من يدخل البيت حتى ولو أن أحدهم خرخ ودخل فتقبل يده مرة أخرى، أما إذا كان الداخل هو زوجها فإن القبلات تكون أكثر عددا.

يقبل عند الأرمن الزوخ على امرأته بعد أن يحصل على بركة الزواخ من الكاهن، ويقوم بعدها برفع الحجاب الأحمر الذي يغطيها بحد السيف الذي يسلمه له الكاهن، وذلك بعدما أن يكون قد وضعه بين الزوجين خلال الاحتفال الديني الذي أقيم لمباركة زواجهما بالكنيسة، والعروس لا تلبس ثيابها ولا تتزين إلا في بيت عريسها، أما العريس فكان لا يحضر أبدا تحضيرات زفافه ويختبأ عن الأنظار ولا يتم العثور عليه إلا بصعوبة[2]، والمهر عند المسيحيين يدفع من قبل الزوجة عكس المسلمين، خاصة إذا كانت رغبة الفتات في الزواخ أكثر من رغبة الشاب، أما إذا كانا يتبادلان نفس مستوى الرغبة فيكون المهر مهدى من الطرفين[3].

د- حفل زفاف كاثوليكي في مدينة صور:

ثم يذهب للخطبة الثانية بإرسال أحد أوليائه رفقة الكاهن إلى ولي مخطوبته، وتتم بعدها بقية الإجراءات. مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص286.

[1] هنري قيز ، المصدر السابق، ص109.

[2] هنري قيز ، المصدر نفسه، ص110.

[3] مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص288.

نفس الكلام يؤكده الباحث مُحَمَّد الخطيب حيث أكد أن المهر عند المسيحيين يقدم من طرف الفتاة عكس المسلمين الذين يقدم لديهم الرجل المهر المعجل والمؤجل. مُحَمَّد الخطيب، **بلاد الشام في العهد العثماني**، دار علاء الدين ط ن ت، دمشق، سوريا2018م، ص 189.

يمكن القول أن عادات المسيحيين باختلاف مذاهبهم تتشابه في الأعراس خاصة ما يخص عادة الاختلاط، ويذكر لويس Louise Marquette ماركت أن غرفة العروس محاطة بالضيوف من عائلة الزوجين، وقال أن العروس ترتدي فستان وردي مغطى بأزهار البرتقال دون حجاب، وذكر أنه في غرفة الرجال توضع طاولة كبيرة تجد فوقها كل الأشياء الضرورية للحفل، ويكون الزوخ والزوجة بقرب بعضهما وبجانبيهما عراب وعرابة وأفراد العائلة والأصدقاء أمامهم، ومعهم رئيس الأساقفة الذي يقرأ الصلاة ثم يحضن العريسان بعضهما بالأيدي، ويضع العريسان فوق رؤوسهم التيجان، وهي عبارة عن رمز تعبيري عن الاتحاد بينهما، ثم يشربون من نفس الكأس ويدورون في موكب حول الطاولة 3 مرات، ومن الأشياء اللافتة للانتباه في هذه الأعراس هو أزياء الحضور المتنوعة والأنيقة، ويقدم للضيوف العديد من المأكولات والمشروبات كعصير الليمون كما تقدم لهم النرجيلة[1].

ه- حفل زفاف جبلي:

لا تستخفي النساء الجبليات المسيحيات أبدا عن الرجال، ولذلك ينتقي الشباب في هذه المناطق أزواجهن بمفردهم، وعندما يعلن الأهل عن رضاهم بالاختيار تبدأ حفلة الخطبة التي تكتسي طابعا جماليا[2]، وينظم العقد بحضور شاهدين يكون أحدهما أو كلاهما من القساوسة، وفي هذا العقد يذكر العريس ما سيقدمه من أموال ثابتة ومنقولة، وعندها يمنح القس الموافقة والبركة، ويعظم السكان هذا العقد الديني كثيرا، فلا يمكن نقضه أو الإخلال بأحد فروعه بدون سبب مقنع أو بدون رضى الفريقين، كما أنه لا يجب أن تكون مدة الخطبة أكثر من سنة ففي نهاية هذا الأجل يجب أن يتم الزواخ، وإلا فالجهات المعنية تجبرهما على الزواخ.

[1] Louise marquette, op cit, pp187-189.

[2] للخطبة عند المسيحيين أهمية كبيرة جدا فهي تقريبا بمثابة عقد رسمي، وقد وضعت لها قوانين رسمية تنظمها فمثلا نذكر المادة 24 من قانون الأحوال الشخصية لطائفة اللاتين و 27 من قانون الأحوال الشخصية للطوائف الكاثوليكية الشرقية بأنها عقد بين رجل وامرأة يتضمن وعدا بالزواج، وقد تم تحديد مجموعة من الشروط كي تتم الخطبة رسميا وهي: أن يكونا عاقلين – السن لم يتم تحديده وهي سلطة تقديرية للوالدين وعلى العموم حددت سن 16 بالنسبة للرجل و 14 للمرأة – يجب أن تكون الخطبة كنسية تتم أمام الكاهن ويدونها في سجل الخطبة لدى الطائفة – لا تزيد مدة الخطبة القانونية على سنتين كاملتين. الفريد ديات، المرجع السابق، ص ص 34-35.

الأعراس في القرى الجبلية محبوبة كثيرا وذلك لما فيها من أسباب اللهو والترف والسعادة، فالقرويون يبتهجون في هذه المناسبات حتى درجة الجنون ويخرجون كل ما في جعبتهم، بل ويبلغ هذيانهم أشده فكل واحد يريد أن يعرب عن سعادته أمام قريبه أو صديقه المتزوخ، ويحاول أن يتميز عن غيره حتى يقال أن عرس فلان كان متميزا كثيرا عن غيره.

إذا كانت العائلة لا تمتلك جوادا فإنه يصعب عليها أن تكتري جوادا من المكان الذي تقيم فيه، لأنه من الخرافات المنتشرة في منطقة الجبل أن الجواد الذي تركبه العروس يموت بعد سنة، ولذلك أهل العروس مضطرون إلى اكتراء جواد من مكان بعيد، ويجب عليهم إخفاء سبب احتياجهم إليه حتى لا يلقوا الرفض، ويتألف وفد العروس من عدد غفير من سكان قرية العريس، وهؤلاء بعد أن يرتدوا أجمل ما لديهم من ملابس يبدؤون في عزف الأغاني وتتصاعد هتافات الفرح ويتبعونها بعدة طلقات نارية.

يقوم العريس في اليوم الموالي للزواخ بزيارة أهل العروس ويأخذ معه هدية، كما يجب عليه أن يرجع إلى بيته ولا يبيت عندهم، وفي اليوم الثامن يأتي أقارب العروس، ويصطحبون معهم هدية تتراوح قيمتها بين 20 و 100 قرش تهدى إلى العروس، وهي حرة في صرفها كما تشاء، والعريس يقوم بتقديم هدية مماثلة في حفل زفاف إخوة العروس ردا للجميل، وأخيرا تقام وليمة عائلية يجتمع فيها جميع الأنساب وهذه الوليمة هي علامة على نهاية حفلات الأعراس.

تنصرف العروس إلى تدبير شؤون منزلها في اليوم 8 من زواجها، وعليها أن تقوم بعدة أعمال كالطبخ والسقي من ماء العين، وفي بعض الأحيان تقوم بقطع الحطب، ومن عادات النساء حديثات العهد بالزواخ أنهن حين يباشرن العمل أن يشمروا على أثوابهن، ويقمن بشد قمصانهن حتى تبلغ ما فوق الركبتين فتربط بالزنار، ولهذا السبب كانوا يزينون سراويلهن بالتدبيج والتطريز[1].

تحدث الرحالة أيضا عن أمر آخر وهو الطلاق عند الشاميين ولذلك سنذكره بصفة استثنائية حتى لا نهمل رؤيتهم لهذا الجانب، وقد ذكروا أن المسلمين يستعملون كلمة اليمين كثيرا على زوجاتهم، وهو الأمر الذي يجعلهن يطلقن

[1] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص ص 76-79.

مباشرة في حال عدم الالتزام بالأمر الذي حلف عليه اليمين، وكثيرا ما كان يندم الحالف باليمين لأن الأمر قد يصير خارجا عن إرادته ويحدث الطلاق، وهناك نوع آخر من الطلاق وهو الطلاق النهائي الذي يجعل صاحبه ممنوعا من الرجوع إلى زوجته، ورجوعه لها يكون إلا في حالة واحدة وهي أن يتزوجها رجل آخر ثم يطلقها، وبذلك يمكنه أن يرجعها ويتزوخ منها مرة أخرى[1]، أما الطلاق عند الدروز هو من الأمور الجائزة، لكن ما يميزهم عن غيرهم أنهم لا يجمعون امرأتين معا في نفس الوقت، وإذا ما طلقت المرأة يدفع الرجل لها صداقها طبقا لما هو في عقد النكاح[2].

3- حفلات الختان:

ينظم الشاميون بمناسبة الختان موكبا احتفاليا كبيرا مليئا بالآلات الموسيقية كالطبل ومجموعة من الآلات النحاسية، ويسبق الموكب شباب يحملون العصي الطويلة وتتبعهم الجمال، وهذه الجمال مغطاة بأغطية وسجاد غالي الثمن، ويحمل فوقها الطفل المختون الذي يتراوح عمره ما بين 5 و 6 سنوات، ويلبسونه زيا جميلا لأنه بطل هذا الموكب، ويشد سنام فرسه طفلان أكبر منه سنا، ويرافقه مجموعة من الأطفال الآخرين الذين يمتطون خيولا ويرتدون أيضا ملابس جميلة، وتنظم بهذه المناسبة وليمة عظيمة خاصة إذا كانت أسرة الطفل المختون غنية[3].

أكد غوستاف لوبون Gustav le Bon مدى اهتمام سكان الشام بإحياء حفلات الولادة[4] والختان وقال:"... هي من المناسبات التي تنظم فيها الاحتفالات، وترى النساء يزغردن على الموكب ليصل بعدها الموكب للمسجد، ويختن الحلاق الصبي بعد الانتهاء من الأكل وعلى صوت الصنوخ خنقا لصوته، ويحيي المدعون ليلتهم

[1] Henri Guys, op cit, p30.

[2] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص56.

[3] G téqui, op cit, pp 269-270.

[4] من عادات سكان مدينة حلب أثناء الولادة أن القابلة تقوم بالصلاة على النبي في حال ما كان المولود ذكرا، وإن كان المولود بنت ترضت على فاطمة الزهراء، ثم يقدم لأحد أقاربه ليؤذن له في أذنه ثم يسمى من قبل وليه، ويطبخ لأمه طعام جيد كي يكثر لبنها، و رسل الزلابية والسكر من أصدقاء الأسرة، وفي اليوم 7 للولادة تنظم وليمة كبيرة يتم فيها دعوة الأقارب والأصدقاء والجيران ويقدم كل واحد منهم هدية، بعضها مأكول وبعضها على شكل حلي ومنها المسكوكات الذهبية التي تعلق في قلنسوة الطفل، وبعد مضي 40 يوم تؤخذ النفساء للحمام. محمد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص 281.

بشرب المرطبات والقهوة والنرجيلة..."[1]، ومن عادات سكان الشام أيضا إهداء صاحب الحفلة شيئا من السمن والأرز والغنم والقهوة، بل يهدونه كل ما يلزم من أجل الحفلة، ويكون ذلك عليه بمثابة الدين يرده لهم في مناسبات مماثلة[2].

4- الاستماع للموسيقى:

يحرم على المسلمين سماع الموسيقى حسب تعاليم دين الإسلام، وبالرغم من ذلك هناك بعض المسلمين من يستمعونها ولا يتخلون عنها، بل قد اتخذته بعض الفئات وسيلة عمل وكسب رزق، وهناك بعض الشباب من عائلات غنية يمتلكون آلات موسيقية ويعزفون بها في اجتماعاتهم ولقاءاتهم الخاصة، والموسيقى في الشام ليست للهو والطرب فقط بل هناك مجموعة من المنشدين المختصين في أداء الأغاني الدينية التي يذكر فيها اسم النبي (صلى الله عليه وسلم)، وهي الفرق الأكثر جاذبية وتناسبا مع جميع الأذواق وقصائدها مرحب بها على العموم.

تتكون الفرقة الموسيقية عادة من 5 إلى 6 أفراد[3] ويقوم الموسيقيون من فترة إلى أخرى بالذهاب إلى المناطق التي يتنزه بها الأهالي وذلك لإطرابهم مقابل الحصول على مكافئة[4]، وتعزف الأغاني كذلك في السهرات المسائية المنظمة في المقاهي أو الساحات العمومية أو في بعض المنازل[5]، وعادة ما تنظم الحفلات بعد فترة العشاء، ويعتبر طبل الباسك من أهم الأدوات الموسيقية التي تستخدم في العزف، وهو من الأدوات الشائعة التي تمتلكها كل أسرة، ومن الملاحظ أن الموسيقى في الشام عرفت تطورا بدخول آلات جديدة فبعض الحفلات يوظف أصحابها أسطوانة الموسيقى التي تزيد الحفلة رونقا[6]، إضافة إلى الآلات الموسيقية المذكورة سابقة تستعمل آلات أخرى مثل النظير والكمنجة والمزمار والدفوف الصغيرة والمزامير والطبول الضخمة[7].

---

[1] غوستاف لوبون ، المصدر السابق، ص 320.

[2] محمد كرد علي، المصدر السابق، ج6، ص275.

[3] Henri Guys, op cit, pp89-90.

[4] هنري قيز ، المصدر السابق، ص86.

[5] Henri Guys, op cit, p304.

[6] Henri guys, ibid, p91.

[7] أنيس الأبيض، المرجع السابق، د ص.

يقول غوستاف لوبون Gustav le Bons أن الشرقيين يتذوقون الموسيقى والأغاني كثيرا فقلما تدخل مقهى شرقي ولا تسمع فيها موسيقى من ألحان الرباب والكمان والمزمار الحادة ذات الصوت المحزن[1]، فمثلا في مدينة دمشق يتم تنظيم حفلات موسيقية في المقاهي التي تقع على ضفاف نهر بردى في الفترات المسائية[2]، وفي ليالي رمضان يقضي السكان سهراتهم في المقاهي ويسمع عشاق الموسيقى للأوركسترا[3]، والموسيقى الأكثر انتشارا هي الموسيقى الصاخبةk وهي موسيقى مؤلفة من مزامير وطبول ضخمة، وعادة ما يتم سماع هذا النوع من الموسيقى في الأفراح العامة والأعراس ومولد الصبيان[4].

تترافق الموسيقى مع مجموعة من المظاهر من بينها الرقص الذي يرتبط بها بقوة، وبصفة عامة يوجد نوعان من الرقص رقص خاص بالحفلات الدينية، ورقص خاص بالتسلية العامة[5]، والرقص من الأمور التي يقوم بها أشخاص مأجورون مأجورون مهنتهم الرقص، ويذكر لوبون في هذا الصدد أن السكان المحليين يحمرون خجلا من الرقص العلني، ويقول أنه ليس مما يلاءم الذوق السليم عند العرب أن يرقص رجل متزن في المسرح على أنغام آلات الطرب، والنساء اللاتي يلقبن بالعوالم هن من يرقصن، وتتألف هذه الرقصات من حركة البطن والخصر دون بقية البدن، إضافة إلى رقصة السيف المشهورة، حيث ترفع الراقصة سيفا وتقوم بحركات متنوعة وتوجد مجموعة أخرى مكلفة بالغناء، وتمس الراقصات رؤوس الزبائن بالسيف دون إيذائهم[6]، وعادة تكون الملاهي هي الأماكن المخصصة

---

[1] غوستاف لوبون ، المصدر السابق، ص 325.

[2] Louise marquette, op cit, p238.

[3] Eugène melchior de vogue, op cit, p83.

عرفت الدولة العثمانية بصفة عامة دخول العديد من المؤثرات الأوربية خاصة في القرن 19م وهو قرن الانفتاح، وقد مس التفتح عدة جوانب منها الفنون كالموسيقى التي لم تعد تكتسي طابعا محليا خالصا، وإنما دخلت عليها أنماط جديدة غربية كالبيانو والجوقة والأوركسترا والأوبيرا، وفي بداية الأمر كان يتولى شؤون تسيير هذه الفرق الموسيقية أوربيون لكن سرعان ما أصبحت من المكتسبات المحلية التي تدار من قبل أشخاص ومؤسسات عثمانية. الصاوي مُحَمَّد الصاوي، **الدولة العثمانية**، دار طيبة للطباعة، الجيزة، مصر2012م، ج1، ص 283.

[4] هنري قيز ، المصدر السابق، ص89.

[5] مُحَمَّد علي كرد، المصدر السابق،ج 4، ص125.

[6] غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص 325.

لجلب النساء الراقصات رفقة مجموعة موسيقية، ويمضي الحاضرون الليلة كلها في الترف واللهو[1].

تحدث عن الرقص المشرقي وخصائصه الرحالة الفرنسي فولني volney من خلال كتاباته، ولكنه كان مبالغا جدا، وقدم وصفا يخالف الواقع بل أعطى صورة سيئة حيث تحدث عن الراقصات اللواتي زعم أنهن يظهرن في بعض الأحيان ليثرن الجماهير الهادئة بالرقصات السيئة وقد خالف القنصل الفرنسي هنري قيز Henri Guys الرحالة فولني حيث يقول : "... أستطيع أن أقول وليس هذا نتيجة لاختباري بل هذا ما قاله الكثير من الأوربيين الذين زاروا المنطقة وأقاموا فيها أن امرأة واحدة ولو كانت أشد النساء فجورا وإباحية لا تجرؤ على الظهور في هذا المحل العمومي..."[2].

يذكر محمد علي كرد في كتابه خطط الشام أن الموسيقى في بلاد الشام كانت أمرا شاملا، ولا تكاد تخلو طبقة من طبقاتها المجتمعية من موسيقيين، ولا يخلو مجلس من مجالسهم أو سهرة من سهراتهم منها، أو نزهة من نزهاتهم، وكانت الشام تضم أناسا أتقنوا هذا الفن حتى صار لهم ملكة، وكانت تملأ الدور والقصور، وقال أن الموسيقى والإنشاد من الأمور المألوفة ولا يستغنى عنها، أما في القرى والبوادي أيضا كان لها نصيبها في الموسيقى فكان لهم الغناء والحداء وضرب الرباب والجيتار والمزمار والدف[3].

ختاما ومن خلال ما سبق ذكره نستنتج أن المجتمع الشامي هو عبارة عن محيط يضم في داخله كما هائلا من التنوع والاختلافات، فلكل فئة ديانتها وإن اشتركت بعض الفئات في الديانة فإنها تختلف في المذهب وحتى المذاهب انقسمت لفروع، ولكل فئة عاداتها الخاصة التي تميزها عن البقية والتي لاحظنا أن أغلب الفئات قد حافظت عليها ولم تغيرها بالرغم من عيشها في إطار مختلط يضم تنوعا فسيفسائيا، وبالتالي لم تتأثر لا بالروافد الداخلية ولا الخارجية، و تختلف كذلك تقاليد كل فئة ولكل منها نمط خاص في كيفية اللبس أو في كيفية الاحتفال وفي عديد من الأمور الأخرى، وهذا التباين لا يشمل كل جوانب الحياة فهناك أمور

[1] Léon paul, op cit, p202.

[2] هنري قيز ، المصدر السابق، ص 32.

[3] محمد كرد علي، المصدر السابق، ج4، ص 99.

يشترك فيها جميع السكان ولا تختلف من مكان لآخر، وهي موحدة تدخل في إطار نمط الحياة الشامي العامي الموحد وكل السكان يمارسونها.

الفصل الرابع

الأنشطة الاقتصادية للمجتمع الشامي

أولاً : الأنشطة الزراعية

ثانياً : الأنشطة الصناعية

ثالثاً : الأنشطة التجارية

الحياة الاجتماعية في بلاد الشام لا يمكن أن تدرس بمعزل عن الحياة الاقتصادية، وذلك بسبب العلاقة التكاملية بينهما فعلاقات الناس فيما بينهم تتشكل من خلال العصب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في كل مجتمع، وبالتالي يساهم المناج الاقتصادي الذي يحدد الأهداف والأبعاد والوسائل التي تتبعها منطقة معينة في بناء مجتمع متكامل ومترابط، وهذا الأمر يتضح جليا في التفاعلات الاقتصادية التي اتسمت بها بلاد الشام خلال القرن19م، والتي تميزت بتمازجها وتكاملها الإنتاجي والشرائي، فكل منطقة كانت مختصة في نمط معين من المنتجات الزراعية وذلك متوقف على حسب نوع المناج وطبيعة التربة، وبما أن بلاد الشام تتنوع في هذه الخصائص كما أشرنا إليه سابقا في المدخل، فإن المنتجات كانت متنوعة ومختلفة ومتكاملة من خلال عمليات المقايضة التي كانت تتم سواء بين مدينة وأخرى أو بين الريف والمدينة، ونفس الأمر ينطبق على الجانب الصناعي إذ أن كل منطقة كانت تشتهر بنمط معين من الصناعات ومنها ما كان مشتركا بين كل المناطق، وعليه التجارة كانت نشطة سواء على المستوى المحلي أو على المستوى الدولي، وطرقها كانت تعرف نشاط وحيوية كبيرة لاسيما طريق الحج الشامي الذي كان العصب الرئيسي للتجارة، وعليه سنعرض في هذا الفصل الأنشطة الاقتصادية المختلفة التي كان يمارسها سكان بلاد الشام، والتي تعكس مستوى معيشتهم ومدى تفاعلهم وتأثيرها في بقية الجوانب الأخرى.

أولا- الأنشطة الزراعية:

تأثرت أوضاع النشاط الزراعي في بلاد الشام بالعوامل الطبيعية والمناخية، كما تفاعل فلاحو الشام مع الوضع الطائفي والقبلي الذي تحكم في العلاقات الاجتماعية[1]، وتميزت الزراعة بالبلاد العربية بصفة عامة خلال العهد العثماني بأنها ذات طابع اكتفائي، ويعود السبب في ذلك إلى العقلية التي كانت سائدة لدى الفلاحين والمتمثلة في الاكتفاء بالقليل، وهو ما حال دون تطور العقلية بالاتجاه نحو فكر الزراعة التجارية القائمة على أساس المغامرة للوصول إلى إنتاخ وفير وربح كبير، وهو ما لم يحصل رغم توفر كل الإمكانيات في البلاد العربية[2]، وبالتالي

[1] ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 56.

[2] الغالي الغربي، المرجع السابق، ص.

يمكن القول أن الزراعة ببلاد الشام كانت بسيطة ذات طابع معاشي موجه للاستهلاك الخاص والمحلي.

أ- أنماط الإنتاخ الزراعي حسب المدن:

01- المدن الشمالية الشرقية:

مدينة دمشق هي من أشهر المدن الشامية بالمنطقة، وهي مدينة زراعية بامتياز حيث يمارس مزارعوها بالدرجة الأولى زراعة الأشجار المثمرة وهي بمثابة النشاط الرئيسي لهم، وأنواع الأشجار التي يغرسونها متنوعة وتتميز بكثرتها، ومن أهم أنواع الأشجار التي تغرس في دمشق وضواحيها: أشجار البرتقال، الجوز، المشمش، الكرز، الزيتون[1]، التين، الخوج، الرمان، الكمثري، التفاح[2]، التوت والملاحظ من خلال كتابات الرحالة أن هذه الأنواع منتشرة في ريف دمشق بكثرة[3]، كما أن الضواحي المجاورة للمدينة أيضا مليئة بالآلاف من البساتين المزروعة بهذه الأشجار المثمرة المتنوعة، وبالتالي يمكن أن نقول بأن زراعة الأشجار المثمرة كانت في الريف مزدهرة ازدهارا كبيرا[4].

---

[1] أفضل الشجر وأعمه في مختلف المناطق الشامية، وهو يكثر في جزرين والمختارة والشويفات وزغرتة والكورة وفي الغوطة والمرج وضواحي طرابلس وطرطوس وصافيتا وجبلة واللاذقية والباير وفي أرباض وأنطاكية وفي السويدية والقصير وكرطاغ، ويقل حول حلب والباب وسقلين وإدلب .مُحَمَّد علي كرد، المصدر السابق،ج 4، ص179.

مدينة دمشق معروفة بالغوطة التي تقع قربها، وهي كثيرة المياه نظرة الأشجار متجاوبة الأطيار موقنة الأزهار، ملتفة الأغصان وخضرة الجنان، كلها بساتين وقصور تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها، ومياهها خارجة من تلك الجبال، وتمتد في الغوطة عدة أنهر، والغوطة كلها أشجار وأنهار مترابطة قلما تتخللها مزرعة، وهي من أنزه بلاد الأرض وأجملها، وقال فيها أبو بكر الخوارزمي:جنان الدنيا أربع غوطة دمشق، وصغد سمرقند، وشعب بوان، وجزيرة الأبلة، وقد رأيتها كلها فأحسنها غوطة دمشق .زكرياء بن مُحَمَّد بن محمود القزويني، المصدر السابق، ص232.

[2] زراعة أشجار التفاح ليست حكرا على مدينة دمشق وحدها بل تنتشر زراعته في لبنان، وتنتج منه أجود الأنواع التي وصفها بعض الرحالة بحسن اللون وطيب الرائحة ولذة الطعم، وذكروا أنه كان يحمل منها الآلاف في وقت الخلفاء العباسيين في إطار خراج الأجناد، وبلغ عددها 30 ألف تفاحة .مُحَمَّد علي كرد، المصدر السابق، ج4، 139.

[3] L’abbé jean jacques bourassé, op cit, p 438.

[4] ذكرت الباحثة كارين صادر بأن السكان المحليين قد توجهوا مع منتصف القرن التاسع عشر إلى زراعة أشجار التوت، والتي لم تكن مزدهرة في المنطقة من قبل، والسبب في ذلك يعود إلى إزدهار تجارة الحرير، ولكن بالرغم من هذا التوجه إلى أن أشجار =المشمش والجوز والعنب ظلت الأكثر شهرة بغوطة دمشق، حيث عرفت الغوطة 21 نوعا من المشمش و52 نوعا من العنب، كارين صادر، المرجع السابق، ص 23.

الملاحظ أيضا أنه كلما تبتعد أكثر عن دمشق تتغير أنماط الأشجار المزروعة وتصبح زراعة أشجار الزيتون هي الرائجة[1] ولا شك أن العامل المناخي هو السبب الرئيسي في تغير أنماط الأشجار المزروعة، حيث كلما اتجهنا إلى الجنوب ترتفع درجة الحرارة نوعا ما وعليه تتناقص نسبة الأمطار وينقص الماء الخاص بالسقي، ومن هنا يلجأ السكان إلى استبدال الأشجار المثمرة التي تحتاج إلى الكثير من الماء بأشجار تتأقلم مع ندرة الماء كشجرة الزيتون وأشجار الجوز واللوز وغيرها.

تواجد هذا الكم الهائل من الأشجار المثمرة بسبب تفضيل مزارعي دمشق بل حتى السكان في بيوتهم لزراعتها[2]فإن إنتاخ الفواكه مزدهر جدا إلى درجة أن الداخل لأسواق المدينة في ذلك الوقت كان يجدها ممتلئة بمختلف أنواع الفواكه والمكسرات، حتى أن جزءا منها وهو الفائض يتم تصديره للمناطق الأخرى[3]، كما أن البيوت الدمشقية معروفة بعادة وضع سلة مليئة بمختلف الفواكه وسبب ذلك كثرتها التي تؤدي لانخفاض أسعارها مما يجعل اقتنائها ممكنا لكل الطبقات.

مدينة حلب[4] هي الأخرى تشتهر بأنشطتها الزراعية المتنوعة، ويعود السبب الرئيسي لذلك إلى تميز المدينة بخصوبة تربة الأراضي المحيطة بها وبالتحديد في المناطق القروية، لكن الأمر الملاحظ هو قلة الأشجار في المنطقة، والسبب في

---

[1] Edouard blondel, op cit, p185.

[2] أهم ما يلاحظه الدارس لوضع الزراعة ببلاد الشام هو اختلاف المناخ من متوسطي معتدل إلى جبلي قاري إلى صحراوي جاف، وهي منطقة انتقال طبيعي بين خصائص متوسطية إلى خصائص صحراوية، كما تشكل حيزا جغرافيا متنوعا يصل سلاسل جبال طوروس في الشمال بالصحراء العربية في الجنوب، ويتباين التساقط بين الواجهات الجبلية الغربية الكثيرة التساقط و بين الامتداد السهبي شبه الجاف الممتد شرقا، وهي عوامل أوجدت اختلافا في الإنتاج الزراعي، الأمر الذي جعل الفلاحين يمارسون زراعة الأشجار المثمرة ويزرعون الحبوب، ويعيشون على الرعي في السهول المنفتحة على بادية الشام .ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 57.

[3] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p148.

[4] مدينة حلب كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة التربة، وهي أرض جيدة للممارسة الأنشطة الزراعية المختلفة، وهي ملائمة لزراعة القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والمشمش والتفاح والتين، وتعرف المدينة تساقطا جيدا للمطر وفيها قيل شعر يصف غناها الطبيعي:

أرتك يد الغيـــــث آثارها وأخرجـت الأرض أزهارها
وما منعت جارهـا بلـــدة كما منعت حلـب جارها
هي الخلد يجمع ما تشتهي فزرهـــا فطوبى لمن زارها

=زكرياء بن محمد بن محمود القزويني، المصدر السابق، ص 183.

ذلك حسب القرويين يرجع إلى قلة المياه[1]، ولذلك يلجأ مزارعو المدينة إلى تبني زراعة تتناسب مع تربة ومناخ مدينة حلب لاسيما زراعة القمح والقطن التي تشهد رواجا كبيرا[2]، كما تنتشر بضواحي حلب زراعة معاشية لبعض أنواع الخضروات مثل الفاصولياء، البازلاء، العدس، السبانخ، السلق، القرنبيط، البرسيم، الشعير، الباذنجان، الذرى، أنواع من البطيخ واليقطين، كما تزرع أشجار تلاءم مناخ المنطقة منها اللوز والزيتون وتزرع أيضا الكروم في بعض المناطق[3]، ولعل السبب الرئيسي لإتباع سكان المنطقة بصفة خاصة وسكان الشام بصفة عامة للزراعة المعاشية هو عدم تطور وسائل الإنتاخ، وكذلك تدهور الأوضاع الأمنية بالريف وكثرة الضرائب التي أثقلت كاهل الفلاحين، كلها عوامل لا تساعد على تبني نمط الزراعة التجارية.

ينتج فلاحو القرى الساحلية خاصة الواقعة بين بيروت وصيدا الكثير من الزيت بسبب كثرة أشجار الزيتون، كما توجد مناطق أخرى متخصصة في إنتاخ العنب والتين والصنوبر واللوز والجوز خاصة في الجبل وضواحي مدينة بيروت حيث توجد كثافة سكانية مارونية ودرزية مهمة تلاءمت مع خصائص المنطقة وتمكنت من التعايش معها، وهو ما جعل المنطقة تنتج كمية من الجوز واللوز تكفي الاحتياخ المحلي، أما العنب والتين وخشب الصنوبر فهو وافر إلى درجة أنه يتم تصدير أجزاء منه إلى الخارخ، كما يشتهر الجبل بإنتاخ المشمش اللوزي ذو النواة الحلوة، وتتمتع بيروت أيضا بإنتاخ التين المشهور الذي ينافس بجودته أو يشابه تين مرسيليا[4]، وثمرة التين هي الأكثر شيوعا في مدينة بيروت والتي تسمى في شمال إفريقيا التين المسيحي، ويمثل هذا النوع غذاء هام عند جميع سكان المنطقة، خاصة لدى الفقراء الذي يجعلونه غدائهم الوحيد ويعيشون منه طوال الصيف، وكمية الصبار

---

[1] Henri Guys, op cit, p57.

[2] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p174.

كانت زراعة القطن منتشرة في ضواحي مدينتي حلب ودمشق، وقد لفتت زراعة شجيرة القطن نظر السياح الأجانب، وشجيرة القطن في مدينة دمشق صغيرة الطول مقارنة مع شجيرة حلب، وكانت كل من عكا واللاذقية وقبرص تنتج صنفا ثالثا من القطن، كما كانت بعض الأرجاء بمدينة نابلس تصدر من القطن كميات كبيرة تدر أرباحا مقدرة بالآلاف من الدنانير .مُحَمَّد علي كرد، المصدر السابق،ج 4، ص139.

[3] Louis Aleksander olivier de corancez, **itinéraire d'une partie peu connue de l'Asie mineur**, chez j m ebehrard imprimeur libreur, paris, france1816, pp26-28.

[4] هنري قيز ، المصدر السابق، ص230.

التي تنمو بهذه المناطق كبيرة جدا يستعملها السكان أيضا لإحاطة بساتينهم وحمايتها فتكون كالسياخ نظرا لتسلحها بأشواكها[1].

02- المدن الشمالية الغربية:

تمتلك صيدا أراضي زراعية خصبة واسعة زادتها شئنا أهمها سهول عكا، مرجعيون، صور، الحولة، البقاع الأسفل والتي اشتهرت بجودة تربتها، فما يزرع فيها من شعير وذرة وقطن وسمسم[2] يعطي إنتاجا مضاعفا بحوالي 20 إلى 25 ضعفا، وأراضي قيصرية فلسطين فيها غابة من شجر البلوط لا يوجد لها مثيل في الشام بأكملها، أما أراضي صفد فينبت فيها قطن يحاكي قطن جزيرة قبرص، وما يزرع في الأراضي المجاورة لصور الجبلية من تبغ ينافس بجودته تبغ اللاذقية، بل إنه يوجد صنف منها يمتلك رائحة عطرية كرائحة القرنفل يبعث إلى القصر السلطاني في الأستانة، كما يتوافر في بلاد الدروز إنتاخ النبيذ والحرير المستخرخ من تربية دودة القز[3].

إلى جانب ما ذكرنا سابقا من منتجات زراعية يغرس السكان المحليون بصيدا أيضا الأشجار المثمرة كالبرتقال، الليمون، إضافة إلى الموز والرمان والمشمش[4]، التوت، الزيتون، أشجار الموز العملاقة، ويمارس كذلك سكانها صيد الأسماك التي تجدها بكثرة في سوق صيدا[5]، ولقد سميت المدينة بصيدا نسبة إلى نشاط الصيد الرائج فيها[6]، وذكر لنا الرحالة لويس بينال Louis Bunel نمط آخر من الأشجار

[1] هنري قيز المصدر نفسه، ص233.

[2] ارتبطت الحالة الاقتصادية أحيانا بالحالة السياسة وكذلك بطبيعة العلاقات بين الدولة العثمانية والدول الأوربية، فمثلا في سنة 1852م أصبح طلب فرنسا على مادة السمسم يتضاعف أكثر ولذلك اضطرت الدولة إلى تغيير جزئي في نمط الإنتاج الزراعي، وكذلك ازداد الطلب على القمح والشعير بشكل مفاجئ بعد حرب القرم وتوقف تصدير الحبوب من روسيا، وتعتبر فلسطين كذلك من أهم المناطق الخاصة بزراعة القطن لكنه تراجع بسبب السمسم أيضا الذي احتاجه الفرنسيون كثيرا لاستخراج الزيت، ثم عاد سعر القطن مرة أخرى للارتفاع في أواخر القرن 19م بسبب تزايد الطلب الإنجليزي عليه، وبالتالي يمكن القول أن الزراعة أصبحت تأخذ طابعا تجاريا في النصف الثاني من القرن 19م .مُحَمَّد عبد الله مُحَمَّد شلح، المرجع السابق، ص 75.

[3] حبيب السيوفي، المصدر السابق،ج2، ص ص 21-22.

[4] Louise marquette, op cit, p 193.

[5] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p487.

[6] L'abbé jean jacques bourrasse, ibid, p488.

المزروعة بالمدينة وهي أشجار النخيل وهو ما يميزها عن بقية المدن التي ذكرناها سابقا[1].

نتوجه بعد صيدا إلى الشمال حيث توجد مدينة بيروت التي يمارس الفلاحون بها في المناطق الجبلية أنشطة زراعية متنوعة خاصة زراعة شجرة التوت والتي ينتجون منها الحرير الذي يتم بيعه في مدينة بيروت[2]، واهتمام مزارعي بيروت بها كبير ولذلك تجد المدينة محاطة بأشجار التوت[3]، والبساتين المجاورة للمدينة تتميز بحداثة أشجار التوت ووفرة إنتاجها، ويعود السبب في ذلك إلى أن أصحاب البساتين كانوا أثناء حكم الدروز يغرسون أشجارا جديدة بدل القديمة وهو ما جعل حريرها من أجود الأنواع[4]، ويذكر في هذا الصدد دولارواير M delaroiere أن مزارع التوت الأبيض منتشرة بكثرة في ضواحي بيروت، واعتبرها من أحسن الأنواع التي يتم استعمالها لتغذية ديدان الحرير[5]، ويعد مزارعو قرية تسوغ المجاورة للمدينة من أكثر سكان المنطقة نشاطا وحيوية وتخصصا في هذا المجال فجميعهم تقريبا يعملون في الحقول، ويقومون بجمع أوراق التوت في أكواج القصب المخصصة لإيواء ديدان القز[6].

ليست شجرة التوت المثمرة هي الوحيدة التي تزرع ببيروت بل تجد الأشجار المثمرة كالبرتقال، الليمون، اليوسفي، أشجار الكباد، اللوز، الفستق، النخيل[7]، ويمارس سكان ريف بيروت أيضا زراعة أشجار الزيتون التي يستخرجون منها زيت الزيتون[8]، كما تنتشر زراعة القطن في ضواحي مدينة بيروت مما منحها قوة تجارية كبيرة وأصبحت بفضله تنتج الأقمشة القطنية[9]، أما بالنسبة للحبوب يمكن القول أن إنتاجها قليل ولا يفي بحاجيات السكان، ويعود السبب في ذلك إلى أن زراعتها مازالت تعتمد على الطرق التقليدية، مما يجعل الإنتاخ قليلا فمثلا الحصاد يتم

[1] Louis Bunel, op cit, p280.
[2] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p119.
[3] Léon Paul, op cit, p153.
[4] حبيب السيوفي، المصدر السابق،ج2، ص24.
[5] M delaroiere, op cit, p48.
[6] Edouard blondel, op cit, p111.
[7] M m p v, op cit, p 36.
[8] Allard Camille, op cit, p114.
[9] Florimon jacques de basterotop cit, p 57.

باستعمال المنجل، ثم يمددونه على البيادر ليفصل الحب عن السنابل بسحقه بلوحة خشبية ثقيلة يجرها ثوران، ثم ينتظرون الريح لرمي الحبوب مع التبن في السماء، فتسقط الحبوب بمكان واحد ويتناثر التبن[1]، وبالتالي تأخذ وقتا وجهدا كبيرا مما يجعل السكان يستوردون المزيد من منطقة البحر الأسود، وذلك لعدم كفاية الإنتاخ المحلي لسد نصف احتياجات السكان، وغالبية السكان يعانون بشكل كبير خاصة الطبقة الفقيرة التي تحرم في بعض الأحيان من تناول الخبز، وإنتاخ اللبن شحيح ويستخرخ السكان المحليون منه الزبدة الذي يعتبر مادة أساسية يستخدم زيتها في تحضير الطعام والطهي[2].

03- المدن الشامية الجنوبية:

يمارس فلاحو المدن الشامية بكثرة زراعة الأشجار المثمرة بمختلف أنواعها، فهذه مدينة صفد مثلا يمارس المزارعون بها زراعة الأشجار المثمرة بكثرة ومن أهم أنواع الأشجار المزروعة بالمنطقة أشجار الجوز، الكمثري، الزيتون، الرمان،البرتقال، إضافة إلى اشتهار المدينة بغرس شجرة العنب التي يتم استعمالها في إنتاخ نبيذ جيد، وهو يعد من أشهر أنواع النبيذ في لبنان، وسكان البلد يحتفظون بنبيذهم في مزهريات قديمة خزفية مغطاة بزيت التربنتين حتى يحافظوا على سلامة النبيذ وهي عادة قديمة اكتسبوها عن أجدادهم[3]، كما تزدهر في ضواحي مدينة نابلس[4] الأنشطة الزراعية بشكل كبير، وهذا بسبب وفرة العيون المائية التي تسمح للفلاحين بسقي أراضيهم[5]، ويوجد غرب مدينة نابلس سهل سارون المليء بأشجار الليمون، الدفلى، الرمان، البرتقال، التين، النخيل، المشمش، وتسقى هذه المناطق بواسطة قنوات مياه، كما توجد بعض المناطق

[1] جوزف بدوي، المرجع السابق، د ص.

[2] Edouard blondel, op cit, p29.

[3] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p 412.

[4] تقسم فلسطين باعتبار النشاط الفلاحي إلى 4 أقسام: السواحل كساحل غزة ويافا، وهي صالحة لنمو مزروعات المنطقة تحت الحارة، ووادي الأردن يتناسب مع مزروعات المنطقة الحارة والجبال، وفيها الكثير من الأودية المخصبة كمرج ابن عامر، وأودية مجاورة بالناصرة ونابلس والخليل وهي تناسب مزروعات المنطقة المعتدلة، والسهول الداخلية تتناسب أكثر مع زراعة الحنطة والشعير والسمسم. محمد علي كرد، المصدر السابق،ج4، ص139.

[5] Martin donos, op cit, p159.

الكبيرة التي يمارس فيها الفلاحون زراعة الحبوب خاصة القمح[1]، ولذلك يعتبر سهل سارون من أغنى المناطق الزراعية في بلاد الشام ويوفر للسكان حاجياتهم الغذائية[2].

مدينة يافا هي الأخرى مدينة زراعية بامتياز إذ يمتلئ ريفها ببساتين تحتوي على أشجار الفاكهة ولكثرتها تظهر على شكل غابات، ويحيط بهذه البساتين جدران من الصبار العملاق والمزهر[3]، ومن مميزات هذه البساتين أنها شديدة الخصوبة مما ساعد المزارعين على غرس العديد من أنواع أشجار الفاكهة كالليمون، التين، البرتقال حيث تعطي هذه البساتين هواء عبقا للمنطقة، وقدم القس باسك L'abbe becq وصفا للمنطقة بعد زيارته لها إذ يقول:"....وبالتالي يمكننا القول أن هذه المنطقة تعتبر جنة فوق الأرض..."[4]، وبعد التوجه إلى الجنوب توجد مدينة أخرى انبهر الرحالة بالتنوع الزراعي الموجود فيها وهي مدينة بيت لحم، والتي بها سهول واسعة يمارس فيها السكان المحليون مختلف الأنشطة الزراعية، ومن أهم المنتجات المحلية القمح، الشعير، الزيتون[5]، كما يشتغل سكان بيت لحم لحم في فصل الصيف في زراعة الحقول خاصة زراعة الكروم[6]، والملاحظ من خلال خلال كتابات الرحالة الفرنسيين أن أهل بيت لحم يهتمون كثيرا بالنشاط الزراعي الذي قال عنه فرمين روزي Firmin rauzy أنه يسير جنبا إلى جنب مع ممارسة النشاط الصناعي[7]، ونفس الملاحظات السابقة تنطبق على مدينة القدس التي يمارس سكانها أيضا زراعة الأشجار المثمرة بكثرة، ولكن أكثر شجرة مزروعة بالمدينة شجرة الزيتون إذ لاحظ الرحالة أن المدينة محاطة بالكثير من مزارع الزيتون والتين[8]، وهو نفس الطرح الذي أكده لنا الرحالة فرمين روزي Firmin rauzyالذي يقول:"...يركز الفلاحون في البساتين المحيطة بالقدس على زراعة أشجار الزيتون إضافة إلى أنواع أخرى كأشجار التين، المشمش، اللوز،

[1] Alphonse couret, op cit, p150.
[2] L'abbe becq, op cit, p19.
[3] L'abbé jh Lespinasse, op cit, p81.
[4] L'abbe becq, op cit, p 18.
[5] L'abbe a. parraud, op cit, p200.
[6] Pierre louis péchenard, op cit, p176.
[7] Firmin rauzy,op cit, p147.
[8] Alphonse couret, op cit, p248.

الخروب..."[1] ومازال حب الفلسطنيين لهذه الشجرة المباركة مستمرا حتى يومنا هذا.

مدينة الناصرة هي الأخرى من المدن الشامية الجنوبية التي يشتغل السكان المحليون فيها بالأنشطة الزراعية وتعد من أهم نشاطاتهم كما يمارسون نشاط تربية الماشية، وهم معروفون بالجدية في العمل مما جعل الإنتاخ يتطور بالمنطقة مقارنة ببقية المناطق الجنوبية[2]، ومن أشهر المنتجات التي يزرعها السكان المحليون في بساتينهم الحبوب كالقمح، ويزرعون غلى جانبها أشجار الكروم والتين واللوز والرمان[3].

من خلال ما سبق نستنتج أن النشاط الغالب على الزراعة في بلاد الشام هو غرس الأشجار المثمرة بمختلف أنواعها، وذلك لتلاءم هذه الزراعة مع طبيعة الأرض والمناج، وهو ما أدى إلى رواخ تجارة الفواكه والمكسرات بالمنطقة، إضافة إلى الانتشار الواسع لزراعة شجرة الزيتون المباركة والتي يستخرخ منها زيت الزيتون، ويمكن القول أن بلاد الشام منطقة رائدة بامتياز في هذا المجال، ومازال السكان الشاميون يحافظون على هذه الأنماط إلى يومنا هذا.

ب- أنواع الأراضي الزراعية بالمنطقة الجبلية:

تزدهر الزراعة في بعض المناطق الجبلية خاصة في ضواحي لبنان وهي مزروعة جيدا من قبل الموارنة والدروز وأهم السهول المليئة بهم سهول سيلي[4]، وقد ساعد على النشاط الزراعي بالمنطقة خصوبة التربة الناشئة عن تفتت الصخور البركانية، وكذلك وفرة الأمطار التي تهطل في فصلي الشتاء والربيع، وتمون بالمياه عددا من الوديان التي تنحدر من سفوح الجبل خاصة السفوح الغربية التي تروي القرى الواقعة قربها[5].

---

[1] Firmin rauzy, op cit, p130.

اشتهرت مدينة نابلس باستخراج الزيتون حيث وصل الإنتاج السنوي بها 17 ألف لتر، وانتشرت المعاصر في معظم المدن الفلسطينية كالقدس، حيفا، عكا، نابلس، اللد، الرملة. مُحَمَّد عبد الله مُحَمَّد شلح، المرجع السابق، ص81.

[2] M m p v, op cit, p208.

[3] M m p v, ibid, p193.

[4] L'abbé joseph eschemann, op cit, p252.

[5] تركي قاسم الزغبي، المرجع السابق، ص 301.

يمارس السكان في أعالي الجبال بلبنان زراعة الكروم خاصة في المناطق المرتفعة أكثر من 200 إلى 300 متر فوق سطح البحر، والملاحظ من خلال كتابات الرحالة أن المزارعين في هذه المنطقة كانوا يعملون بجد لتطوير الإنتاج بالرغم من قسوة الظروف وذلك لتعويض النقص في المنتجات الأخرى، ومن أشهر المنتجات الجبلية العنب الذي يصنع منه النبيذ ذو النوعية الجيدة، وكذلك يستخدم بائعو النبيذ العنب لصنع زبيب ذو جودة عالية جدا[1]، ويشير القس جين جاكس بوراسي L'abbé jean jacques bourrasse إلى أن منطقة لبنان تمتاز بإنتاجها لأجود أنواع النبيذ[2]، وأهم مناطق إنتاجه المنطقة المحاذية لنهر الكلب وبالرابية المقابلة لبيروت، ونبيذ لبنان يتميز بلونه الأبيض والأصفر بصفة عامة، ومن هنا سمي نبيذ لبنان بالخمرة الذهبية، وينتج بلبنان نوع آخر من النبيذ ذو لون أحمر معروف بالخمرة الحمراء وهي معروفة أكثر من الأولى والأكثر رواجا، ومن أشهر مستهلكي االنبيذ الأوربيون خاصة بعدما عرفت بيروت نشأت العديد من المؤسسات الأوربية التي أصبح يرتادها الأجانب[3].

الملكية بالأقاليم الجبلية خاصة وفق تقاليد قديمة تستند للأعراف التي لا يمكن أن يتجرأ الأمراء الصغار على انتهاكها، ولا يمكن أن تحول إلى إقطاعيات كما هو الحال عند الموارنة[4]، وتنقسم الأراضي الزراعية في الجبل إلى ثلاث أقسام حسب الفئات وهي: أراضي الأمراء ورجال الإكريلوس، وأراضي المشايخ وبعض الفلاحين الميسورين، والأراضي الأخيرة هي للفلاحين الفقراء وهم يمثلون الأغلبية الساحقة، ويشتغل الفلاحون في حرث عقارات الطبقتين الأولين ويستثمرونها ويكون ذلك بطريقتين:

1- أن يأخذ الفلاح الذي يعتني بالأرض جزءا من غلتها وذلك مقابل التعب الذي يقدمه في سبيل إعمارها واستثمارها.

2- أن لا يتقاضى الفلاح إلا ربع الربع لقاء أتعابه، ولكن هذا الفلاح لا ينعم بحق الاستقرار في العقار، ويمكن أن ينزع من يده عند نهاية الموسم.

[1] Michel Jullien, op cit, p165.
[2] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p454.
[3] هنري قيز ، المصدر السابق، ص237.
[4] ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 70.

الطبقة الأخيرة من الملاكين وهي طبقة الفلاحين الميسورين، قلما تشرك أحدا في أعمالها وهم يستأجرون عمالا وأجراء عند جمع الشرانق، وهؤلاء العمال يقضون ثلاث أرباع أيام حياتهم دون عمل، ومهمتهم الوحيدة هي ترقب فترة تربية دود الحرير، ويمثلون أكثر عدد السكان، ومن بينهم: الرهبان، الصناعيون، الرعاة، الحطابون...[1].

خ- الضرائب المفروضة في الجبل:

الضرائب السنوية التي يؤديها سكان الجبل نوعان: الأول يدعى مال الأعناق أو الفريضة، وهي تفرض على الأعزب دفع 5 قروش كل عام، وعلى المتزوج أن يدفع ما بين 7 و 9 قرش على حسب ضواحي مدينة بيروت، والثانية تسمى الأموال الأميرية، وهي ضرائب تفرض على العقارات وفقا لجدول يجدد تنظيمه في فترات غير معينة، تتراوح ما بين 5 و 10 و 15 سنة، ويحدث ذلك بصفة خاصة عندما تحتاج الدولة إلى المال، وتجبى الضريبة التي تعرف بالبزرية أيضا في ضواحي بيروت وهي تبلغ حوالي 48000 قرش، أما في لبنان فتسمى الطرح، وهذه الضرائب تضر بصغار الفلاحين الذين تجدهم دائما يشتكون ولا يكفون عن التدمر لأوضاعهم، وفي المقابل تنعم الأسر الكبرى كأسرة آل شهاب وأحفادهم وآل روسلان الأمراء الدروز بامتيازات واسعة، ويعفى بموجبها كل من يشتغل عندهم من دفع ضرائب مال الأعناق والأموال الأميرية والبزرية والسخرة، أما الأمراء والمشايخ الآخرون فلا يعفون من تأدية جميع الضرائب، وعليهم أن يقدموا عددا كبيرا من الرجال والخيول حينما يطلب الأمير الكبير منهم ذلك وقت الاضطرار.

تفرض الأموال الأميرية وتوزع على جميع مقاطعات الدولة المختلفة، وكل شيخ أو أمير مكلف بجمعها من المقاطعة التابعة له، ثم يرسل المبلغ إلى مقر إقامة الأمير الكبير بعد أن يقتطع لنفسه مبلغ منه بمعدل بارتين عن كل قرش، أو ما تقدر نسبته بخمسة بالمائة من المجموع العام، وذلك من أجل سد بعض النفقات مثل نفقات الجباية، والمصارفات، والمبالغ الإضافية الأخرى وغيرها[2]، والأموال الأميرية هي مجموع جميع الضرائب، ويمكن أن تفرض بمعدل يتراوح ما

[1] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص ص 107-108.

[2] هنري غيز، المصدر نفسه، ج2، ص ص 104-105.

بين 15 و 25 بالمائة ويتوقف ذلك حسب المقاطعات والحاصلات، أما مجموع هذه الضرائب المباشرة والغير مباشرة فيبلغ حولي 12000 كيس (2400000 فرنك)، والضرائب لا توزع على الرعية بالسوية، وهناك اختلاف في كيفية فرضها يتوقف أساسا على العرف والعادات المحلية، وتوزع الضريبة في الشويفات التي يمثل الزيت محصولها الوحيد بكمية إنتاخ 20000 قنطار نسبة إلى قيمة الأرض، وهي تتراوح ما بين 9 و 18 قرشا عن كل قنطار، فالأهالي يدفعون قرشا على كل 20 درهما، والملاك الأجانب يدفعون قرشا واحدا عن كل 11 و 13 و 16 درهما[1].

د- أكل الفلاح اللبناني[2]:

الفلاح اللبناني يعيش حياة قاسية مقارنة بفلاحي أوربا، فهو لا يطبخ طعامه إلا في بعض الأحيان وفطوره بصفة عامة بسيط يتكون أساسا من الخبز والثمار المجففة إن لم تكن في وقتها، أما في المساء فيأكل البرغل والعدس المتبل بالزيت أو السمن بعد أن يمزخ باللبن، ويأكل معه البصل لإثارة الشهية للأكل، ويكون الزيتون قوام الفطور خاصة في المناطق التي تنتشر فيها أشجاره، ويأكل الفلاحون بعض الأعشاب التي يقتلعونها من الحقول والبساتين، ثم يقلونها بالزيت ويطبخونها بطرق مختلفة، أما إذا أراد الفلاح أن يشبع فإنه يرجع إلى مئونته والتي هي عبارة عن لحم خروف ذي الألية الضخمة، ويتم ذبح واحد بداية كل شتاء، وهذا اللحم يقلى بعد أن يقطع أجزاء صغيرة ويحفظ في ذهن ليأكل خلال السنة[3]، وبالتالي يمكن القول أن الفلاح كان يعتمد في غذائه على إنتاجه الزراعي الذاتي،

---

[1] هنري غيز، المصدر نفسه، ج2، ص106.

[2] شكل الفلاحون قاعدة عريضة في الهرم الاجتماعي لبلاد الشام، لأن مجتمعها كان زراعيا تخدمه بعض الحرف و الصناعات، و قد عاشوا على ممارسة نشاط الزراعة و تربية المواشي، و على الرغم من كثرة عددهم فلم يكن لهم أي تأثير على القرار السياسي وصنفوا في أدنى المراتب. محمد الخطيب، المرجع السابق، ص 151.

[3] هنري غيز، المصدر نفسه، ج2، ص67.

صعوبة الظروف بالنسبة للفلاح لم تقتصر على طبيعة العيش فقط بل حتى وسائل الإنتاج التي كانت تستخدم في ممارسة الأنشطة الزراعية كانت بسيطة جدا، كالمحراث الخشبي الذي لا يشق الأرض إلا سطحيا، كما أن الفلاح كان يصنع معظم أدواته كالمحراث والمنجل والنورج بنفسه ويستعمل الثيران لجر المحراث، ولم تكن هناك طرق مواصلات جيدة متوفرة بين القرى والمدن، خاصة في المناطق الجبلية الوعرة وفي فصل الشتاء مما كان يجعل بعض المناطق تعيش في عزلة تامة مما أدى إلى ركود تجارتها وأثر على فلاحيها، حتى الري لم يكن متطورا وكان الفلاحون يعتمدون على مياه الأمطار ولم تفعل الدولة أي شيء لتجاوز هذا التأخر وتركت النظم التقليدية للري قائمة على حالها. محمد الخطيب، المرجع السابق، ص 100.

وفي بعض الأحيان كان يلجأ إلى التبادل مع فلاحي قريته أو جيرانه أو مع فلاحي القرى المجاورة، وهو ما جعل نمط حياته يتميز بالبساطة[1].

- عوامل تراجع الزراعة:

أهم ما أثر في حالة الفلاح والزراعة النظام الذي كانت تتبعه الحكومة في المنطقة، وأصول التسيير الإداري لم تؤسس وفق نظم جيدة، وكثرت المظالم الأرضية والمفاسد البشرية التي كانت أشد تأثيرا على الفلاحين من الآفات والكوارث الطبيعية[2]، وتعتبر الضرائب التي فرضت على الفلاح البسيط من أهم العوامل التي ساهمت في تراجع الأنشطة الزراعية ببلاد الشام، وتميزت بالتنوع واختلاف المقادير، فمنها ما هو خاص بالأرض وأخرى للمحاصيل والحيوانات والأسواق الفلاحية، وكذلك تتوقف على حسب ظلم وعدل الإقطاعيين والملتزمين أصحاب الأراضي الكبرى، وكذلك وضعية الفلاح كانت مزرية لنقص مسؤولية الدولة في حمايته، فمثلا لم يكن للفلاح الحق في ترك قريته إلا بإذن سيده لفترة محدودة، وخولت للسيد قوانين تسمح له بإعادته بالقوة وفرض عقوبة يراها مناسبة، ومن العوامل التي أدت لتدهور وضعية الفلاح كذلك نشاط المراباة اليهودي الذين استغلوا عوز الفلاح للنقود والبذور، وراحوا يدينونه بفوائد كبيرة كان يعجز في أغلب الأحيان عن ردها مما يعرض أملاكه للمصادرة، وإضافة إلى ذلك نذكر غزوات القبائل البدوية التي ساهمت بشكل مباشر في عدم الاستقرار[3].

هناك عامل آخر وهو العوامل الطبيعية كالجراد والجفاف والأوبئة، وهي مشاكل اجتاحت كامل البلاد العربية، وكانت تؤدي إلى نتائج كارثية كالمجاعات وعدم قدرة أداء الضريبة للملتزمين، ويعتبر داء الطاعون من أكثر الأوبئة انتشارا

[1] عبد الله إبراهيم سعيد، المرجع السابق، ص 243.

[2] محمد علي كرد، المصدر السابق،ج 4، ص 134.

[3] الغالي الغربي، المرجع السابق، ص118.

يؤيد الباحث محمد الخطيب ما ذكره الأستاذ الغالي الغربي في حديثه عن اضطراب الأمن الذي أثر على حياة الفلاح، ويذكر أن غارات البدو كانت تشكل خطرا كبيرا على الزراعة منذ زمن سابق، وقال أن العثمانيين تمكنوا من استرضاء بعض القبائل البدوية بالقرب من حوران وساعدها في ذلك قرب حوران لها، أما فلسطين والمناطق التي كانت بعيدة عن سلطة الدولة فلم تتمكن من تأمينها. محمد الخطيب، المرجع السابق، ص ص 102-103.

وتأثيرا على الفلاحين، وأدى إلى تناقصهم وتراجع الزراعة، وكذلك تسبب في هجرة الكثير منهم تاركين مزارع وقرى ورائهم فارغة[1].

تأثرت حياة الفلاحين والإنتاخ الزراعي والحيواني ببلاد الشام كثيرا بالوضع الأمني، فكانت حركات العصيان والتمرد والاضطرابات سببا مباشرا في تراجع الزراعة، وأصبحت حياة الفلاح مهددة بعد انتشار الفتن في ربوع الشام، والتي صاحبتها أعمال عنف ونهب أدت إلى تغيير الحكام واستبداد الجند الانكشاري بسكان القرى والمدن، ونذكر على سبيل المثال حملة نابليون على عكا 1799م، والنزاع الذي كان بين الانكشارية وجماعة الأسياد(الأشراف) بحلب ونواحيها 1804و 1807 و1833م، مواجهة والي دمشق لأحمد الجزار والي عكا 1776-1804م، ثورة أهالي دمشق وتصدي بشير الشهابي لوالي عكا 1795-1803م، الدمار الذي خلفته هجمات الوهابيين على الشام (حلب 1803و 1808- سهول حوران1810م)، اكتساح محمد علي للشام1832م[2].

هجرة الفلاحين بسبب الظروف الأمنية والاقتصادية، وتعتبر الهجرة من أعظم ما أضر بالزراعة في بلاد الشام، وقد هاجر الألوف من الفلاحين بحثا عن بدائل اقتصادية توفر لهم عيشا كريما، ومنهم من هاجر إلى أمريكا الشمالية والجنوبية، ومنهم من هاجر نحو مصر والسودان بعد الاحتلال الإنجليزي سنة 1882م، وحرمت الشام في فترة 40 سنة من حوالي 700ألف فلاح[3].

ثانيا- الأنشطة الصناعية:

ارتبط النشاط الصناعي في الدولة العثمانية بنظام الطوائف أو الحرف، وهو الأمر الذي كان سائدا في المجتمعات العربية الإسلامية قبل دخول العثمانيين، ولم يتغير الأمر بعد ذلك بل بقي محافظا على أسسه وأنماطه وهو ما سهل أمر تسييرها، والطوائف عبارة عن هيئات مستقلة ذات تنظيم خاص وكيان معين، كما تعتبر هيكلا منظما يضم أصحاب المهنة أو الحرفة الواحدة[4]، والملاحظة العامة

[1] الغالي الغربي، المرجع نفسه، ص120.
[2] ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص ص 62 -64.
[3] محمد علي كرد، المصدر السابق،ج 4، ص138.
[4] الغالي الغربي، المرجع السابق، ص 106.

التي تميز الصناعة في بلاد الشام هي بساطتها وإتقانها أو بالأحرى يمكن القول أنها عبارة عن حرف محلية، وهي متنوعة ومختلفة حيث نقل لنا الباحث عبد الكريم رافق إحصاءا لعدد الحرف في مدينتي حلب ودمشق من خلال سجلات المحاكم الشرعية، والملاحظ من خلالها هو كثرة عدد الطوائف الحرفية في بلاد الشام حيث بلغت في القرن 19م ما يقارب 163 طائفة، وهو ما يدل على تميز التنظيم الحرفي في بلاد الشام بالتخصص وتوزيع العمل والتنوع[1]،وعلى العموم يمكن القول أن الصناعة في بلاد الشام انقسمت إلى قسمين الأول يهدف إلى الاستهلاك المحلي والقسم الثاني ذو طابع تجاري موجه للسوق المحلية وكذلك للتصدير[2].

أ- أنماط الإنتاخ الصناعي:

تنشط الصناعة بشكل واضح في المدن الشامية الكبرى ولعل من أبرزها مدينة دمشق، ويعود السبب في هذا التميز امتلاك المدينة طابع تجاري مما جعلها تستقطب العديد من التجار، ومن العوامل الأخرى التي جعلت من دمشق مركزا تجاريا هاما احتلالها لموقع هام تمر عبره العديد من الطرق التجارية، وكلها عوامل جعلت سكانها يمارسون العديد من الأنشطة الصناعية لغرض المتاجرة وتغطية متطلبات السوق المحلية، ولعل من أبرز الصناعات الحرفية التي يتم إنتاجها في المدينة الأدوات النحاسية التي تعتبر منتجاتها من أجود الأنواع وأحسنها إتقانا مقارنة مع بقية المناطق[3]، وتتنوع المنتجات النحاسية وتختلف أشكالها وزخرفاتها، ومن أشهر الأدوات النحاسية الأباريق التي يتم إنتاجها بكثرة حتى أنه تم تخصيص سوق خاص بها، كما تنتشر بدمشق حرفة النسيج والخياطة ولهذا الغرض تم إنشاء مصانع صغيرة خاصة لإنتاخ الأرائك والأقمشة[4]، ومن أمثلة هذه المصانع ما ذكرته

---

[1] عبد الكريم رافق، **مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني**، مجلة كلية الآداب، جامعة دمشق، د ت، ص ص 30 - 62.

[2] مُحَمَّد الخطيب، المرجع السابق، ص 107.

[3] من أهم أعمال الصناعة النحاسية التي تبرز تطور هذه الحرفة بدمشق حلقة باب المدرسة الخضيرية، والحلقتان الموجودتان في بابي المستشفى النوري، وهما آية في الإبداع و المتانة، وإتقان هذه الحرفة أمر موجود لدى سكان دمشق منذ زمن قديم. مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ج4، ص 214.

[4] Louise marquette, op cit, p251.

تعتبر الصناعة النسيجية من أهم النشاطات الاقتصادية التي كانت تعتمد عليها بلاد الشام خلال العهد العثماني وليست دمشق وحدها المشهورة بهذه الصناعة إنما اشتهرت عدة مدن أخرى مثل حمص، صيدا، غزة، حماة،بعلبك و غيرها وكانت تتبعها عدة

لنا تقارير مؤسسة الكتب الدينية لمدينة تولوز التي زارت المدينة في سنة 1854م، والتي تحدثت عن وجود معمل لإنتاخ الحرير الدمشقي، ووصفته بأنه كبير إلى حد ما يشتغل فيه عدد معتبر من العمال، وهو ما يؤكد لنا تطور هذا النشاط الصناعي بشكل كبير وسنثبت هذا الطرح في ما بعد عند حديثنا عن النشطة التجارية لمدينة دمشق[1].

تطور الأنشطة الصناعية بمدينة دمشق ليس مقتصرا على ما ذكرنا سابقا بل أجمعت ملاحظات الرحالة على مدى تطور معظم الصناعات الحرفية بالمدينة وذكرت أن حرفيي مدينة دمشق بدون تخصيص يمتازون بالمهارة العالية[2]، ولذلك وصلت بعض المنتجات في دمشق إلى درجة الكمال مثل صناعة الأقمشة الجميلة وفن النقع وحرفة وصل الفولاذ وصناعة النصال والسيوف[3]، كما توجد في مدينة دمشق حرفة صناعة السروخ وحرفة صناعة الأسلحة، وتتميز هي الأخرى بدرجة عالية من الجودة إذ أكد لنا القس جين جاك L'abbé jean jacques bourassé في ملاحظاته الإتقان الكبير لهاتين الحرفتين فيقول:"...يصنع تجار الأسلحة أسلحة رائعة وشهيرة، وكذلك صانعو السروخ هم من أكثر الصناع مهرة وإتقانا وإبداعا في بازارات دمشق..."، وبعدها انتقل إلى الحديث عن تفاصيل السروخ الدمشقية التي أبهرته بجمال مكوناتها ومركباتها المتنوعة، وجزم أن لا شيء في أوربا يساوي الذوق والجمال الذي تتميز به هذه السروخ ولواحقها خاصة إذا كان الإنتاخ مخصص للآغوات والزعماء المحليين، ومما ذكره في التفاصيل ما يلي:"...وهي مغطاة بالمخمل والحرير المطرز بالذهب واللؤلؤ، وقلادات مغربية حمراء مزينة بشراشيب

صناعات أخرى مثل الصباغة، التطريز، صنع الخيوط الذهبية والفضية التي اشتهرت بها الشام، و التي كانت تمزج مع الخيوط الحريرية لتنتج منها نوع من القماش الحريري المعروف بالبروكار. مُحَمَّد الخطيب، المرجع السابق، ص 107.

[1] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p152.

بقيت بلاد الشام تحافظ على الطرق التقليدية في الصناعة الحرفية ومعظم الحرفيين يصنعون منتجاتهم باليد، ولم يتم إدخال الصناعات الحديثة الأوربية والتي تعتمد على الآلات البخارية والمصانع الكبرى، ومع ذلك يبقى الإتقان الميزة الأساسية التي تمتلكها الصناعات الشامية حتى أن ملوك وأمراء أوربا كانوا يفرحون بالهدايا الآتية من بلاد الشام لشدة إتقانها وجمالها. شاهين مكاريوس، المصدر السابق، ص ص 10-11.

[2] Victor Guérin, op cit,p419.

[3] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p158.

فضية وذهب وخصل من اللآلئ، واللجام يوجد بلا حدود وهو أنيق وأحسن من الموجود بأوروبا، وهو مزين بألوان مختلفة وشراشيب من الحرير والذهب..."[1].

تشتهر المناطق الشمالية من بلاد الشام بانتشار نشاط تربية ديدان القز التي يصنع منها الحرير[2]، وعليه تجد أغلب حرفيي هذه المناطق يمتهنون بصفة عامة الصناعات الحريرية وعلى وجه الخصوص الأقمشة الحريرية[3]، ومن أشهر المدن المشهورة بهذه الصناعة مدينة حلب التي يشتغل معظم حرفييها في صناعة الأقمشة القطنية[4]، والتي تعتبر من الصناعات الوحيدة في المنطقة التي تمكنت من منافسة التجارة الأجنبية خاصة ألبسة الكشمير وذلك بسبب جودت منتجاتها وإتقانها[5].

ليست الأقمشة القطنية الوحيدة التي تصنع في المدينة بل هناك عدة أنواع منها الأقمشة الحريرية والأقمشة المطرزة بخيوط من ذهب وفضة[6]، وصناعة الأقمشة والخياطة ليست حكرا على الرجال فقط بل تمتهن النساء نفس الحرفة، ولذلك استحدثت مؤسسات تعليمية خاصة بالنساء فقط وتشرف عليها امرأة ولا يمكن لأي أحد اختراقها أو دخولها، وفيها يتم تكوين الفتيات حيث يتعلمن فيها الخياطة والتطريز الخشن، وفي العادة تكون هذه المؤسسات من إنشاء كبار الخياطين بالمدينة[7]، وتطور نشاط الخياطة في دمشق دفع كبار التجار إلى تأسيس تأسيس مصانع كبيرة تضم عددا مهما من العمال، ومن الأمثلة التي ذكرها الرحالة الفرنسيون في هذا المجال مصنع الخياطة الكبير بحلب، والذي كان موجودا في أوائل القرن 19م حسب ملاحظات الرحالة لويس ألكسندر Louis Aleksander، وهو ما يؤكد أن تطور هذا النمط في المدينة كان في مراحل متقدمة، وجاء في كتابه ما يلي:"... يوجد بمدينة حلب مصنع كبير إلى حد ما مخصص لصناعة الأرائك والوسائد ومنتوجه معتبر إلى درجة أنه يتم تصديره..."، وهو ما يؤكد لنا

[1] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, pp 428-429.
[2] L'abbé jean jacques bourrasse, ibid, p462.
[3] ibid, p440.
[4] ينظر إلى الملحق رقم 13.
[5] Henri guys, op cit, p78.
[6] Edouard blondel, op cit, p280.
[7] Henri Guys, op cit, p125.

التطور النسبي لهذه الحرفة في المدينة مما جعل المدينة تتطور كثيرا في الجانب التجاري[1].

اشتهرت مدينة بيروت في الجانب الصناعي على غرار بقية المدن الشامية خلال النصف الثاني من القرن 19م، والملاحظ أنها عرفت في هذا القرن تحسنا ملحوظا يعود السبب فيه إلى تلاؤم هذه الأنشطة مع عقلية أهلها وحكامها، كما أن وسائل الإنتاخ كالدواليب والأدوات البسيطة كلها يتم صناعتها محليا[2]، والأنشطة التي يمارسها السكان المحليون متنوعة وهو ما تؤكده لنا ملاحظات ريتشارد كنتونبارت Richard cortambert الذي قال:"...يشتغل سكان بيروت في مختلف الصناعات ويتقنونها..."[3]، والحرفييون بدينة بيروت سريعو التعلم، وقد تمكن البعض منهم من تعلم الصناعات التي ينتجها الأوربيون بمجرد الاحتكاك أو الملاحظة[4].

يتقن سكان مدينة بيروت صناعة الخشب وفي هذا الصدد أشار جون باتيست Jean baptiste morotop إلى أن صناعة الخشب مزدهرة في المدينة وقال:"... يوجد في بيروت نجارون لديهم ورشات مفتوحة، وعمال هذه الصناعة يصنعون بكرات الحرير، وهذه الحرفة منتشرة بكثرة في مدينة بيروت، ويستعمل السكان أشجار التوت في شد الخيوط ويدحرجونها عبر أصابعهم..."[5]، كما تنتشر في بيروت صناعات تقليدية محلية بسيطة أخرى لا تحتاج إلى وسائل متطورة[6]، ونذكر على سبيل المثال صناعة الصابون إذ لاحظ الرحالة ألارد كاميل Allard Camille وجود عدد معتبر من المعامل الصغيرة البسيطة الخاصة بإنتاخ الصابون وقال أنها كثيرة جدا في بيروت[7].

[1] Louis Aleksander olivier de corancez, op cit, p27.

[2] هنري قيز ، المصدر السابق، ص132.

[3] Richard cortambert, op cit, p22.
[4] L'abbé jean jacques bourassé, op cit, p478.
[5] M m p v, op cit, p37.
[6] Jean baptiste morotop cit, p283.
[7] Allard Camille, op cit, p114.

يوجد في بيروت العديد من المصانع الصغيرة التي تربى بها ديدان القز لغرض إنتاخ الحرير الذي يستعمل في عدة صناعات[1]، وهي من المصادر الرئيسية لثروة المدينة وتتميز بتطورها في هذه المنطقة مقارنة مع بقية المناطق، كما يتم تربية ديدان القز في الهواء الطلق وسط مزارع أشجار التوت، وهي محمية من الحرارة فقط، وعليه صناعة الأقمشة الحريرية هي الأكثر رواجا بالمدينة وتجدها تمثل النشاط الرئيسي في البازارات، وإلى جانب الإنتاخ المحلي توجد سلع أجنبية مستوردة وهي تنافس المنتجات المحلية، ولذلك كان ميناء بيروت ممتلئ بالحركة والنشاط خلال القرن 19م، وكل يوم كانت تصل العديد من السفن المحملة بالسلع والبضائع[2].

أعطانا هنري قيز Henri Guys وصفا حيا لطريقة عمل حرفيي الحرير فقال:"...هم يستغلون الأرجل الحافية التي تنفعهم كثيرا، فالإبهام يساعد على وقف خيوط الفتيلة التي يبرمونها، ويستعينون بها كذلك على حل الحرير والتقاط ما يسقط من أيديهم دون انحناء للأرض، وطاولات النجارين ومقاعدهم هي أقدامهم ولا يوجد غيرها، والرجل هنا يصبح حدادا بممارسة الحدادة[3] فالحرف هنا هنا يتم تعلمها بالتقليد والممارسة، فكل حرفي لا يعرف أصول حرفته ولكنه يتعلمها بطريقة تقليدية، وهو يعلمها لغيره بنفس الطريقة التي تعلم بها، والمنطقة غنية جدا بالحرفيين الممتازين الذين برزوا في هذه الحرف وأصبحت لهم أهلية فريدة...".

[1] تربية دود الحرير تعد في بلاد الشام من أهم الصناعات، ويختص في ذلك بالدرجة الأولى اللبنانيون وسكان أرجاء أنطاكية، وكانت تغرس مساحات واسعة من الأراضي بالتوت الصالح لتربية دود الحرير، وكانت عمالتا وادي التيم والبقاع مغروستين كاملا بشجر التوت، وطور حرفيو تربيو دود القز وسائل تربيتها وازدادوا إتقانا لهذه الحرفة، ويتم تصدير كميات وافرة لمعامل ليون الفرنسية، ويعيش عشرات الألوف من الناس من حرفة تربية دود الحرير، وصناعتها تزدهر في هذه المناطق لملائمة المناخ لذلك خاصة الساحلية المعتدلة. مُحَّد كرد علي، المصدر السابق، ج4، ص207.

[2] Jean baptiste morot, op cit, pp 284-285.

[3] كان سكان الشام يطرقون المعادن بإتقان خاصة في مدينة دمشق، وهذه الحرفة هي أكثر إتقانا مقارنة مع الدول الأوربية، والحديد والحديد بالشام متوفر بكثرة خاصة في المناطق الجبلية في حلب ولبنان، والشام مشهورة بسيوفها وذلك منذ العهد الجاهلي والمعروفة منها السيوف المشرفية، وكانت تصنع السيوف والدروع والخوذ والخناجر والمغازل والصنارات والأسياخ والقيود والمباضع والمشارط...، ويطرق كل ذلك في كير الحدادين وسنداناتهم وتضرب بالمطارق. مُحَّد كرد علي، المصدر السابق، ج4، ص213.

يوجد أيضا في مدينة بيروت عدد وافر من حاكة الزنانير الحريرية التي تلف حول الخصر أو يعصب بها الرأس، كما يوجد عدد آخر مهم لا يقل عن الأول حرفته صناعة الصناديق، وصناديق هذه المدينة ذات اللون الأحمر والأخضر قد حازت شهرة واسعة في جميع أنحاء بلاد الشام ومصر، خاصة وأن من عادات الشاميين أن كل عروس جديدة كان عليها أن تتزود بصندوق مرصع بمسامير مذهبة الرأس، كما يوجد صنف آخر ثمين تخرجه مصانع بيروت يسمى الكلفا وهو جزء أيضا من جهاز العروس، وهو عبارة هن عجين يصنع من عصارة مسحوق جذور نبات الكلفا والخروب الممزوخ بمادة ملونة.

تحتوي مدينة بيروت أيضا على مصانع للمناديل واشتهرت بجودة وجمال مناديلها في جميع أنحاء بلاد الشام، وبالرغم من كل ما كانت تنتجه هذه المعامل لم يكن يوازي الكمية المستهلكة فالطلب كان أكثر من العرض، وقد كانت هذه المناديل في وقت سابق تصنع في إنجلترا فقط وكانت عبارة عن شاش غليظ جدا، أما في القرن 19 بالشام أصبحت رائجة لكن شكلها مختلف عن الإنجليزية فطابعها مستدير وحمراء اللون وتمثل كف أسد وهو الرمز الذي يثير خيال سكان الشام، وهذا هو الدافع الرئيسي الذي جعلهم يقبلون عليها رجالا ونساء، ويأتي على رأس المعجبين بها عرب الصحراء وكذلك أبناء الجبل الذين يريدون جميعا الثلثم بكف الأسد، كما أنهم يتفاءلون بها ويعتقدون أنها تولد فيهم بعض صفات الأسد الذي يعد من أكثر الحيوانات قوة وشجاعة[1]، ومدينة بيروت مشهورة أيضا بأباريقها المصنوعة من الفخار، والتي هي وسيلة لحفظ برودة الماء بسبب كثرة مسامها التي يدخل منها الهواء.

أهم عمل يشتغل فيه أهالي بيروت هو زراعة شجرة التوت الأبيض الذي يربى على ورقه دود الحرير، وتربية دود الحرير هي العمل الذي يتعاطاه جميع الأهالي لأنها تهم الرأسماليين وأصحاب الصناعة، وتربة بيروت الرملية تتناسب مع زراعة شجرة التوت، وهم يغرسونها في أماكن منحدرة بسبب كثرة الرطوبة بها، وشجرة التوت تعيش أكثر من 100 سنة إذا تلقت الرعاية التامة[2]، وإذا لم يتم الاعتناء بها فإن عمرها لا يتجاوز 25 سنة، وهي معرضة لهجوم دودة بيضاء طولها من 6 إلى 7

[1] هنري قيز ، المصدر السابق، ص ص 133- 135.

[2] هنري قيز ، المصدر نفسه، ص136.

سنتمترات مسلحة بثنيتن تفتك أشجار التوت وتنخر جذوعها، والشجرة تهلك إذا لم يتم القضاء عليها ثم يتم تغطية جذور الشجرة ببعر الماعز.

تربية شجرة التوت لها علاقة مباشرة بالنشاط الصناعي حيث أن خشب التوت تنتشر فيه عروق عريضة مصفرة وهي كثيرة الطلب لدى النجارين، وهم يلتمسونه من أجل صناعة الأبواب والنوافذ وغيرها، ولذلك تجد الفلاحين يهتمون بها كثيرا إلى درجة أنهم يصلون في بعض الأحيان إلى اقتلاع الأشجار الأخرى المجاورة لها، وهذا حتى لا تتقاسم معها خصوبة التربة المحيطة بها.

يتم إنتاخ أجمل أنواع الحرير في المنطقة وهو الحرير الأبيض، وهذا النوع تجده في ضواحي مدينة بيروت التي تبعد بفرسخين عنها، ويسمى أيضا بالحرير البلدي وهو نوع يصدر كله إلى الخارج، أما الحرير الأصفر الذي يعتبر من أحسن الأنواع أيضا فهو حرير كسروان والدامور، وهذه الأخيرة تقع بين الطريق الرابط بين بيروت ومدينة صيدا، ويستعمل هذا النوع كثيرا في مصانع الأنسجة[1] بالمدن السورية والتي توليه الأسبقية نظرا لجمال لونه، فهو يكسب النسيج لمعانا وتموجات حين يعكس الضوء، وهذا أمر يرغب فيه ويحبذه كثيرا أصحاب الذوق الرفيع، وهناك اختلاف كبير بين الطريقة الشامية والطريقة الأوربية في استخراج الحرير، وهو أمر يحرم الشاميين من الانتفاع التام من الفائدة الكبيرة لهذه الصناعة، وقد تأسس في القرن 19م مصنعان فرنسيان في بيروت لكن السكان المحليون لم يستفيدوا من الخبرة الفرنسية التي بقيت حكرا عليهم، وتميزت الخيوط التي تنتزع فيه مقارنة بالتي يستخرجها السكان المحليون بأنها متساوية في الحجم و الطول وهو ما ينتج ملابس ذات جودة عالية[2].

مدينة صفد هي الأخرى تتميز برواج أنشطتها الصناعية والتي تعرف نشاطا ملحوظا خاصة وأن عددا معتبرا من اليهود الأثرياء يعيشون في المدينة، وهو ما ساهم في انتشار مجموعة من الصناعات التي عرفت انتشارا كبيرا حتى أن جزءا

[1] حرفة النساجة والحياكة والغزل راقية وقلما يكون إنتاجها رديئا بل كانت تخرج جيده ونفيسه، وكان أهلها يحسنون غسلها ونقشها ومشطها وحلجها وفتلها ومشقها وحياكتها ونسجها، وهناك من يستعمل الآلات الأوربية الحديثة، ومنهم من يقتص على القوس والنداف وعلى الطريقة القديمة في الحلج والغزل، ولديهم مصانع تدار بالأيدي، وتنتشر هذه الصناعة في أغلب المدن. مُحَمَّد علي كرد، المصدر السابق،ج 4، ص 200.

[2] هنري قيز ، المصدر السابق، ص ص137- 138.

منها أصبح موجها للتصدير، ومن الصناعات الرئيسية التي يتم إنتاجها في مدينة صفد صناعة المنظفات الجافة وهو فن موروث في بعض العائلات اليهودية الكبرى، والملاحظ من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين أن اليهود كانوا يمتلكون العديد من مصانع القطن والقماش التي ينتج فيها أجود أنواعه، ويعود ذلك لامتلاك النساجين هنا تقنية خاصة تجعل لون القماش أبيض مثل لون الثلج وهو النوع الذي يحبه عامة الناس، كما تصنع الأقمشة الفاخرة من الحرير وتمزخ بخيوط الذهب والفضة وبالتالي يمكن القول أن مدينة صفد مدينة تجارية بامتياز[1].

تمارس في مدينة بيت لحم العديد من الأنشطة الصناعية المتنوعة، ويتميز سكان بيت لحم في فصل الشتاء بنوع مميز من الصناعات وهو إنتاخ عرق اللؤلؤ الذي يصقلونه بمهارة كبيرة[2]، وقد ذكر فرمين روزي Firmin rauzy في رحلته أن أهل بيت لحم يهتمون بالصناعة بدرجة كبيرة بالرغم من رواخ الأنشطة الزراعية فهي تمارس جنبا إلى جنب مع الزراعة[3].

تشتهر بعض القرى الشامية مثل المدن الكبرى بإنتاخ مادة الحرير، ونذكر على سبيل المثال قرية تسوغ التي تتميز بوفرة مادة الحرير، وحرير هذه القرية يعد من أحسن الأنواع الموجودة في المنطقة الشرقية للشام ولهذا كان الطلب عليه كبيرا، ووفرة الحرير بالمنطقة أدى إلى إنشاء العديد من المصانع الحريرية والتي تنتج الأقمشة الخاصة لاحتياجات الدولة والفائض الباقي يصدر إلى عدة مناطق خاصة مصر وشمال إفريقيا[4]، ومناج القرية ساعد كذلك على رواخ زراعة الكروم وبالتالي وفرت مزارع هذه القرية نبيذا محبوب لدى الأوربيين يسمى فان دور، والسكان المحليون يحافظون عليه بشكل كبير في أواني خزفية كبيرة أو في قوارير الماعز الجلدية[5].

أكثر دخل الأمراء بمنطقة الجبل يأتي من كرائهم للأشياء التي يملكونها كمعادن الحديد، الميزان، الحرير، المصابن، أما الأعمال الصناعية التي يتعاطاها

[1] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p414.
[2] Pierre louis péchenard, op cit, p176.
[3] Firmin rauzy, op cit, p148.
[4] Edouard blondel, op cit, pp 110-111.
[5] Edouard blondel, ibid, p113.

أهالي الجبل فهي محصورة في أعمال ثقيلة كاستخراخ المعادن، والملاحظ أن اليد العاملة هنا لم يتم تشجيعها ولم تنال أجرا كافيا خاصة وأن الأنشطة التي كانت تمارس فيها شاقة، وفي المقابل هناك فئة أتقنت صنع المنسوجات الحريرية خاصة وأن المنطقة تزخر بأشجار التوت، ولكن رواخ منتجات الحرير الإنجليزية رخيصة الثمن أدى إلى تراجع المصانع المحلية وقلتها، لأن الأهالي يؤثرون شراء المنتجات الرخيصة ولو كانت أجنبية، أما بالنسبة لأجور العمال بالمنطقة فالملاحظ أنها كانت زهيدة حيث يتقاضى الصاغة والحاكة والإسكافيين والخياطين والحدادين والبنائين والنجارين وبوجه عام جميع العمال أجرا لا يكاد يسد حاجاتهم، فأكبر مبلغ يتقاضاه العامل يبلغ 2 ونصف فرنك على أقصى تقدير، والمستفيد الأكبر هم الأمراء إذ أن الكلس الذي يصنع في الجبل كان يباع لحساب الأمير، وإذا سمح لبعض الأمراء أو المشايخ باستخدامه فإن ذلك يكون مقابل دفع ضريبة للأمير[1]، وبالتالي يمكن القول أن الصناعة في الجبل لم ترقى إلى مفهومها الحديث، وتميزت بالبساطة والطابع الإستخراجي وإنتاجها كان يدوي محدود داخل في نطاق الاستعمال اليومي[2].

ب- عوامل تراجع الصناعة المحلية:

عرفت الصناعة ببلاد الشام تدهورا كبيرا مع مطلع القرن 19م، ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى الانفتاح التجاري الكبير مع البلاد الأوربية، مما أدى إلى إغراق السوق المحلية بالمنتجات الأوربية التي أصبحت تنافس المنتجات المحلية، وأدت عدة عوامل إلى تدفق السلع الأوربية نذكر منها:

- الأمن والسلام والاستقرار الذي عرفه حوض البحر المتوسط.
- تحسن وسائل النقل البحري التي سهلت وصول البضائع إلى المنطقة بتكلفة منخفضة.
- توقيع العديد من معاهدات الامتيازات التجارية التي جمدت الرسوم على الواردات.
- سلبية سياسة الدولة العثمانية اتجاه النشاط الصناعي.

[1] هنري غيز، المصدر السابق، ج2، ص111.
[2] تركي قاسم الزغبي، المرجع السابق، ص 151.

- انفتاح الأسواق الداخلية على مصرعيها أمام السلع الأوربية[1].

رغم رواخ السلع الأوربية خاصة الإنجليزية منها وتفوقها على السلع المحلية إلا أن الصناع الحرفيين المحليين ظلوا يصنعون أنواعا من الحرير، والشال البديع والعباءات الحريرية للنساء، وهي من الأمور التي يتفاخر السياح الأوربيون باقتنائها في بيوتهم، وأسرهم منها في المناسبات والسهرات الليلية، والسكان المحليون أهملوها بالرغم من متانتها وجمالها، لأنهم ابتلوا بداء التقليد ويقبلون على كل ما هو آتي من أوربا[2].

ثالثا- الأنشطة التجارية:

الأسواق هي من أهم مكونات المدن في بلاد الشام حيث يوجد في كل مدينة مهمة كثير من الأبنية التي يتألف من مجموعها حي مخصص للتجارة وحدها، ويسمى السوق، وتحتوي السوق على أروقة طويلة مغطاة بألواح أو حصر، ويوجد داخلها دكاكين متجمعة على حسب أنواع السلع، ويضاف نوع السلع التي تباع في الرواق إلى كلمة السوق فتعين بذلك فيقال مثلا سوق الأسلحة ، سوق الأزياء ...، ومن مميزات المدن الكبرى عدم وجود أماكن جوارية غير السوق للبيع بالرغم من أن السلع هي من الأمور التي تستهلك يوميا، والسوق هو من أهم المناطق فهو ملتقى الناس المفضل في بلاد الشام، وليس حكرا على الرجال فقط بل تقصده كذلك النساء، وتقضين فيه ساعات طويلة في التنزه والتبضع، والرجال هم وحدهم من يقوم بإدارة شؤون الدكاكين الموجودة في الأسواق[3].

1- التجارة في مدينة دمشق:

[1] الغالي الغربي، المرجع السابق، ص110.

إضافة إلى ما ذكره الأستاذ الغالي عن أسباب تراجع وتدهور الصناعة مع مطلع القرن 19م نذكر ما أورده الرحالة الروسي بازيلي الذي بقي في الشام خلال هذه الفترة لمدة طويلة، والذي تحدث عن السبب الرئيسي لتراجع الأنشطة الاقتصادية بصفة عامة وهو ابتزاز الأموال الاستبدادي والغرامات التي كان يجمعها الباشاوات من الأشخاص والفئات أو من المدن أو السناجق، وكان ذلك حسبما تسمح به الأوضاع السياسية والاجتماعية، ويقول أيضا أن صناعة سوريا التي كانت مزدهرة في وقت سابق وكانت لعدة قرون تمد أوربا بالأنسجة وغيرها من المنتجات كانت مستنزفة مع بداية عهد مُحَمَّد علي. بازيلي مخاتيلوفيتش، المصدر السابق، ص ص 181-182.

[2] مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ج4، ص 202.

[3] غوستاف لوبون ، المصدر السابق، ص 319.

أ- البازارات:

البازارات في دمشق كما هو الحال في أي مكان في الشرق عبارة عن شوارع طويلة مغطاة تصطف على جانبيها المحلات التجارية التي تتميز بضيق مساحتها وعددها كبير لا يمكن إحصاءه[1]، وشوارع البازار على العموم مغطاة بالكامل ويصل طولها أحيانا إلى 1000 متر[2]، ويوجد كذلك بعض البازارات الكبيرة التي قد يصل طول بعضها إلى حوالي 2000 م[3]، وهي مغطاة بمجموعة من الأشياء التي تحجب أشعة الشمس التي لا تخترقها الشمس، وبالتالي يمكن للمتسوق التجول دون أن تصيبه أشعة الشمس[4]، والملاحظ كذلك من خلال كتابات الرحالة أن شوارع البازارات تتميز بالضيق مما يحدث فيها ازدحاما كبيرا[5].

تكتظ شوارع البازار مقارنة مع بقية الأحياء بالمدينة التي غالبا ما تجدها هادئة[6]، والسبب الرئيسي للازدحام هو أن معظم السكان سواء القاطنين بالمدينة أو الوافدين من مناطق أخرى يقضون فيه كافة يومهم[7]، وبقائهم لفترة طويلة في السوق يعود إلى عدم وجود أشياء أخرى يقضون فيها وقتهم، وعليه يعد من أفضل الأشياء الموجودة لدى السكان الشاميين[8].

تتميز البازارات الكبيرة بدمشق عن بازارات بقية المدن، وهو ما ذكره لنا القس جين جاك L'abbé jean jacques bourassé الذي قال عنها أنها مثيرة للفضول حتى أنه ذكر أنها أحسن من نظيراتها في القاهرة وإسطنبول، وأسواق دمشق غنية بالعديد من الأشياء الفاخرة الشرقية، والعديد من المنتجات الأوربية الصناعية التي تجلب من مختلف المناطق كفرنسا وإنجلترا وألمانيا، كما توجد فيها إلى جانب المحلات مجموعة من الأكشاك الصغيرة، المقاهي، والمخازن

[1] J t missionnaire, op cit, p 468.
[2] M m p v, op cit, p61.
[3] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p427.
[4] Louise marquette, op cit, p250.
[5] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p 156.
[6] Florimon jacques de basterot, op cit, p113.
[7] M m p v, op cit, p61.
[8] G de lombay, op cit, p160.

المليئة بالبضاعة القادمة من مختلف النواحي خاصة الأقمشة الهندية التي تتدفق إلى دمشق بواسطة القوافل القادمة من بغداد[1].

توجد بالقرب من البازارات الخانات[2] والتي هي عبارة عن فضاءات شاسعة تستعمل كمستودع لتخزين البضائع[3]، والخانات هي عبارة عن حظائر غالبا ما تكون مقببة وتدعمها أعمدة، وفي هذه المستودعات الكبيرة توجد البضائع وكذلك تجد فيها الحيوانات، وتمتلك الخانات منظرا جميلا ونمط بنائها ممتاز حيث يوجد بها تيجان منحوتة، وقصاصات من الفسيفساء واللوحات الفاخرة وأبوابها مصنوعة من البرونز ووزنها ثقيل لأنها كبيرة، أما الحجارة التي بنيت بها فهي ذات لون رمادي وتتميز بصلابتها وقسوتها، وبالتالي تقاوم السرقة والحرائق وتؤمن سلامة البضائع الموجودة داخلها[4].

عدد الخانات كثير في مدينة دمشق، ومعظمها لها طابع جمالي ومزينة كذلك بمنحوتات ذات لمسة نهائية جميلة، وتحتوي معظمها في داخلها على فناء كبير مربع محاط من جميع الجهات بمخازن تفوقها في الارتفاع بها عدة أرضيات مقببة تستخدم كمخازن، وعددها كبير جدا فمن الخانات من توجد فيه حوالي 100 قبة والفناء الداخلي كبير يمكنه وحده أن يحمل 100 جمل.

---

[1] L'abbé jean jacques bourassé, op cit, p427.

[2] تحتوي مدينة دمشق على 139 خان متفرقة على جميع أنحائها، فمنها ما هو خاص بالتجار وموقعه ضمن المدينة في الأسواق المجتمعة، ومنها ما هو مخصص للبهائم وهي متفرقة في أنحاء المدينة، ومن أشهر خانات المدينة خان أسعد باشا وهو مشهور جدا وقديم وموقعه في سوق العطارين، ويقيم به أشهر التجار خاصة تجار بغداد، ويتميز بجماله وحسن وصلابة بنائه، وله قبة شاهقة، وبه بركة متسعة، ومزخرف بزخارف جميلة، وثاني خان بدمشق من حيث العظمة والاتساع خان سليمان باشا الذي أنشأ سنة 1732م، كما توجد الكثير من الخانات الواسعة الأخرى، وتوجد خانات بسوق الخيل والعمارة وباب المعلا والشاغور. عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص92.

المكان الذي يضع التجار بضائعهم فيه بصفة عامة فهو الخانات أو الوكالات أو المستودعات وذلك لاحتوائها على مخازن أرضية وتوفر الأمن بها.

Savigny de moncorps, op cit, p163.

[3] G téqui, op cit, p264.

[4] M m p v, op cit, p64.

يذكر الرحالة جول قزافي Jules Xavier saguez de freuvry أنه من بين أشهر الخانات الموجودة بمدينة دمشق فنا ومعمارا واتساعا خان أسعد باشا[1]، وهي نفس الملاحظة الذي ذهب إليها إدموند دو بريسونسي Edmond de Pressensé الذي قال عنه:"... هو خان جميل جدا مبني وفق الطراز العربي، وبه العديد من الأمور الأنيقة التي تجعله مميزا..."[2]، وخان أسعد باشا عبارة عن صرح شاسع مربع الشكل، تدخله من خلال العبور عبر بوابة ضخمة مصنوعة بنمط فن العمارة العربية الأصيلة، وفيه مجموعة من المخازن ذات القباب العالية والكبيرة؛ مما يدل أنه كان محلا لتخزين العديد من السلع[3].

ب- خصائص البازار الدمشقي:

تعتبر بازارات دمشق من أبرز المعالم الموجودة في المدينة، وهي المكان الأول الذي يقصده السائحون والتجار الأجانب[4]، حيث تضم تنوعا بشريا وتجاريا كبيرا ففيها تجد البائعين والمشترين القادمين من جميع المناطق ومن جميع بلدان العالم، والسلع أيضا تأتي من عدة مناطق حتى أن بضائع ليفربول موجودة بها[5]، كما يتدفق المشترون إلى بازارات دمشق من جميع أنحاء الصحراء[6]، ونذكر منهم عرب الصحراء الكبرى وعرب تدمر الذين يدخلون إلى المدينة بقوافلهم الكبيرة وينتشرون في البازار، ومن أهم الأسواق التي يفضلونها سوق التبغ، سوق صناع السروخ، سوق السلاح حيث يشكلون جماعات جماعات أمام محلات هذه

[1] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, p37.

ينظر إلى الملحق رقم 03.

[2] Edmond de pressensé, op cit, p239.

[3] Edouard blondel, op cit, Pp163-164.

[4] أسواق دمشق كثيرة العدد وتحتوي على حوالي 7000 محل تجاري، وهي بين مجموعة ومتفرقة، فالمجموعة يطلق عليها تسمية المدينة وعدد أسواقها 28 سوق أشهرها: باب البريد موقعه تجاه باب الأموي الغربي، سوق مدحت باشا أقيم أثناء ولايته ويتميز بجماله، سوق الحميدية أنشئ حديثا (مع أواخر القرن18م)، وكل هذه الأسواق عالية ومسقوفة، أما الأسواق المتفرقة فهي كثيرة وتوجد في الحارات، وأهمها الأسواق الممتدة من باب الجابية إلى باب مصر، وهي طويلة حتى أن داخلها يسير فيها مسافة معتبرة، ولكل سوق من الأسواق التي تسمى المدينة أصناف خاصة من البضائع تباع فيها. عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص91.

[5] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p154.

[6] G téqui, op cit, p262.

الأسواق[1]، ويذكر الرحالة م م ب ف M m p v أنهم يتسوقون راكبين فوق الخيول والبغال والحمير والجمال[2]، وخيولهم مغطاة بسروخ قطيفة مزينة بالذهب أو الجلد الفهدي والتطريز مزين باللؤلؤ والصدف[3]ومرايا صغيرة تعكس ضوء الشمس[4].

يأتي التجار كذلك من بغداد بأعداد كبيرة في قوافل مكونة من عدد مهم من الجمال المحملة بالسلع، ومن أشهر السلع التي يجلبونها السجاد[5]، كما أشار بعض بعض الرحالة إلى تواجد النساء في الأسواق، فهن أيضا يتسوقن لكنهن يرتدين ملابس مستورة تلفهن تماما حيث لا يمكن أن رؤية شيء من تفاصيلهن أو سماتهن[6]، سماتهن[6]، والسوق يوجد فيه كذلك الذميين كاليونانيين الذين يتميزون عن غيرهم غيرهم بملابسهم الحمراء الفاخرة المبطنة بالفراء[7]، ويضم السوق خليطا متنوعا من كل الطبقات نذكر منهم العمال التابعين للإدارة العثمانية بدمشق، وهو ما أشار إليه الرحالة جين جاكس بوراسي L'abbé jean jacques bourrasse حيث يقول:"... كما تجد في السوق آغوات من القصر الملكي يتجولون في حشد رائع يرتدون حريرا طويلا قرمزي وفي حزامهم خنجر أو سيوف غني بالماس، ويتبعهم من 5 إلى 6 من رجال الحاشية أو الخدم أو العبيد الذين يمشون خلفهم بصمت ويحملون لهم السلع التي يشترونها..."[8].

تتميز بازارات مدينة دمشق بنشاطها وحيويتها الدائمة[9]خاصة في الفترة الممتدة من 10 صباحا إلى 3 بعد الظهر[10]، والأنشطة التجارية تبدأ من الصباح

---

[1] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p428.
[2] M m p v, op cit, p61.
[3] اشتهرت بيت لحم والقدس بصناعة الصدف الذي يستخدم في صناعة الصناديق الصغيرة التي توضع بها أدوات الزينة، وتباع منها كميات كبيرة للغرب لما فيها من دقة الصنعة وجمال الأسلوب والتفنن في الشكل، ويتنافس الغربيون في اقتناء هذا المنتج خاصة وأنه قادم من الأرض المقدسة لديهم. محمد كرد علي، المصدر السابق، ج4، ص 226.
[4] M m p v, op cit, p61.
[5] Eugène melchior de vogue, op cit, p83.
[6] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p 156.
عرف هذا النوع من الصناعات تراجعا كبيرا في بلاد المشرق، ويعود السبب في ذلك للمنافسة الشرسة التي تعرفها سوقها، حيث تراكم توافد البسط الإفرنجية واليابانية الرخيصة. محمد كرد علي، المصد السابق، ج4، ص 228.
[7] M m p v, op cit, p63.
[8] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p428.
[9] Edmond de pressensé, op cit, p239.
[10] Edouard blondel, op cit, p162.

الباكر والكل ينهض في الصباح الباكر للعمل[1]، ومن الأمور التي أشار إليها الرحالة وجود العاطلين عن العمل في السوق يقفون أحيانا أثناء إجراء عمليات البيع، حتى أن بعضهم يتدخلون لتقديم رأيهم بشأن جودة الأشياء في صفقات هم غير معنيين بها[2]، والازدحام في الفترة الصباحية كبير جدا بالبازارات تسمع وسطه صرخات متعددة تنادي لبيع سلعها المختلفة[3]، وهذا الضجيج والصحيات تزداد في السوق في الفترة المسائية، وذلك لأن التجار يحاولون قدر الإمكان إنهاء سلعهم[4]، والمحلات التجارية يتم إغلاقها جميعا عند غروب الشمس حيث تصبح فارغة[5]، وقد وقد نال هذا الجو إعجاب الرحالة الفرنسيين وسحرهم حتى أن معظمهم قد أشاد بذلك في كتاباته[6].

بنيت محلات بازار دمشق[7] بشكل جيد ولذلك قلما تتعرض للحرائق لأن طريقة البناء مصممة لمقاومتها، فهي مبنية بصالات حجرية مقببة ومرصوفة بشكل قوي، وعند المشي في البازار تصطف الدكاكين على اليمين واليسار بشكل متوازي وفي الوسط يوجد شارع ضيق يتجول فيه المشاة ومعهم حيواناتهم جمال، حمير، بغال.. كل الأنواع، وبسبب الاكتظاظ المشاة يتعرضون دائما للاحتكاك مع حمولة الجمال والعربات الخشبية[8]، وتحتاخ البازارات إلى وجود مجموعة من المرافق الأساسية كي تلبي حاجيات السكان خاصة الذين يأتون من أماكن بعيدة مثل المساجد، الحمامات، المقاهي، وهذه الأمور كلها موجودة في بازارات دمشق؛ فبإمكان المشتري أن يستحم ويأكل ويصلي ويقضي حاجاته في نفس الوقت[9].

خ- طرق التجارة الدمشقية:

[1] M m p v, op cit, p64.
[2] La société des livres religieux de toulous, op cit, p155.
[3] M m p v, op cit, p62.
[4] M m p v, ibid, p63.
[5] Edouard blondel, op cit, p162.
[6] La société des livres religieux de toulous, op cit, p155.
[7] ينظر إلى الملحق رقم 09.
[8] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, p36.
[9] M m p v, op cit, p63.

تعد مدينة دمشق منذ أقدم العصور من أبرز المراكز التجارية الكبرى التي يقصدها كل تجار العالم[1]، ويذكر شارل بورومي Charles Borromée Houry أنه لا يوجد بلد مأهول بالقناصل أكثر من دمشق، وأرجع السبب في ذلك لكثرة التجار الأوربيين بالمنطقة وتعدد مصالحهم[2]، والنشاط الذي تعرفه مدينة دمشق قائم في الأساس على حيوية الأسواق الموجودة بها ونشاطها الكبير[3]، ويعود هذا التطور التجاري إلى الاستقرار الذي عرفته خلال القرن 18م، خاصة في عهد ولاة آل العظم الذين عرفوا كيف يستفيدون من امتيازات قافلة الحج الشامية، وعرفوا كيف يفرضون الأمن على مختلف الطرق التجارية المارة بالمدينة[4].

تحتل مدينة دمشق موقعا هاما جعلها تمثل مركزا محوريا لتجارة واسعة النطاق، وتتصل عن طريق حلب بأرمينية وبلاد الأناضول وديار بكر وبلاد فارس، وتتوافد القوافل من القاهرة عن طريق جسر بنات يعقوب وطبرية ونابلس وغزة، وتستورد البضائع من الأستانة وأوربا عن طريق بيروت، وتصدر منها أيضا الأقمشة الحريرية والقطنية التي اشتهرت بنسيجها، والفواكه المجففة، ومربى الورد والمشمش، إضافة إلى أنواع من الحلوى التي تتقن صنعها[5].

تتميز دمشق بأسواقها التجارية وبنشاطها التجاري الواسع القائم بينها وبين بقية الشرق، وهو الأمر الذي يمنحها حياة اقتصادية عظيمة وطابعا شرقيا خاصا[6]، خاصا[6]، وكل الأمم تتدفق لأسواق حيث تأتي من مدينة بغداد قافلة سنوية يبلغ عدد عدد الإبل المحملة بالبضائع بها من 4 إلى 5 آلاف جمل[7]، وكانت تنقل مختلف أنواع السلع كالبارود الأبيض وجلد الماعز والقطن المغزول المصبوغ جيدا بالقرمز وأقمشة بغداد وضواحيها، كما تأتي هذه القوافل أيضا من بلاد العجم بجلود الغنم والسجادات باختلاف أنواعها، والكوفيات وكل المنتجات الجميلة التي تنتجها هذه المنطقة الشاسعة الأطراف، كما كانت تأتي هذه القوافل بمنتجات البنغال وشواطئ

[1] Francois lacoste, op cit, p497.
[2] Charles borromée houry, op cit, p26.
[3] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص61.
[4] عبد الكريم محمود غرايبه، المرجع السابق، ص 51.
[5] حبيب السيوفي، المصدر السابق،ج2، ص 59.
[6] غوستاف لوبون ، المصدر السابق، ص 159.
[7] Edouard blondel, op cit, pp 166-167.

كورماندل مالايو المنقولة إلى البصرة وبغداد عن طريق خليج فارس، ومن أهم المنتجات التي تأتي منها: أجود أنواع الحرير، القطن المغزول الناعم، الشاش باختلاف أصنافه، الكرموت الزاهي، الكوفيات الفاخرة، الأواني الصينية، الجواهر، الحجارة الكريمة، وكل مادة يتجر بها في الهند[1].

تحمل من دمشق المنسوجات الحريرية المشهورة والجلود المدبوغة والبزوز إضافة إلى النحاس المطلي بالفضة[2]، ويقيم تجار مدينة دمشق علاقات تجارية كبيرة مع مدينة بغداد، ويعتبر الطريق الرابط بين المدينتين غير آمن فكثيرا ما تعرضت القوافل إلى السلب والنهب مما ألحق ضررا كبيرا بالتجارة[3]، وهذا لا ينقص ينقص أبدا من حيويته حيث يعد من أهم الخطوط التجارية إلى جانب طريق أصفهان، طريق بلاد فارس، طريق اليمن[4]، كما يوجد طريق تجاري آخر مهم وهو الطريق الرابط بين دمشق وبيروت، وتوجد به حركة كبيرة، وهو دائم الازدحام بالقوافل التجارية المحملة بالبضائع، كما أنه طريق نشيط يوجد فيه في كل الأوقات عربات مرقمة وكذلك قوافل من الجمال[5].

يوجد في جنوب مدينة دمشق سهل تتجمع فيه القوافل القادمة إلى المدينة، والتي تحتوي على عدد كبير من الجمال والذي لا يعد ولا يحصى، ويقوم التجار القادمون بنصب خيامهم في هذا المكان ويعرف بالميدان[6]، والقوافل تذهب وتجيء إلى الأسواق محملة بالبضائع فتفرغها وتأخذ ما تحتاج من سلع أخرى[7]، وعرفت دمشق كغيرها من مدن الشام مع أوائل القرن 19م تراجعا تاما للتجارة، لكن سرعان ما تمكنت من استعادة جزء من نشاطها وحيويتها مع منتصف القرن 19م، حيث أصبحت تصنع الأقمشة الحريرية التي يتم إرسالها إلى مصر، إضافة إلى صناعة

[1] هنري قيز ، المصدر السابق، ص189.

[2] غوستاف لوبون ، المصدر السابق ، ص 159.

[3] Edouard blondel, op cit, p171.

[4] Jules xavier saguez de freuvry, op cit, p39.

[5] G de lombay, op cit, p182.

[6] Jules xavier saguez de freuvry, op cit, p39.

[7] Savigny de moncorps, op cit, p171.

القوافل الكبيرة دائما ترتب أمورها جيدا للسفر، و تأخذ الترتيبات اللازمة للعبور عبر الصحراء بأمان، و أصبحت تتفق مع القبائل القاطنة في الطريق على دفع مبلغ معين مقابل ضمان أمنها وسلامتها.

Edouard blondel, op cit, p172.

المجوهرات والملابس الصوفية وأنواع من الأسلحة الشائعة، كما حافظت دمشق على نشاط تصدير الفواكه المجففة والحرير[1].

د- صفات التاجر الدمشقي:

أورد لنا الرحالة الفرنسيون لمدينة دمشق وصفا لأهم صفات التجار الدمشقيين، وقاموا بوصف عمليات التجارة والبيع وطرقها التي تتم في السوق، حيث يجلس التجار في أسواق دمشق في العادة أمام محلاتهم حتى يتمكنوا من استقبال الزبائن والسياح الأجانب[2]، وهذه المحلات تتميز بأنها مقببة، وفي كل محل توجد أرائك خشبية تحتها سجاد يجلس عليه التجار[3]، وغالبا ما يجلس التاجر على عقبيه ويستغل وقت فراغه في التدخين بالنرجيلة الموجودة بجانبه، ومن التجار من يستغلون فرصة فراغ المحل من الزبائن في قراءة القرآن أو الصلاة أو التحدث مع الجار، ويذكر م م ب ف M m p v خاصية يتميز بها التاجر المسلم وهي الرضا بقسمة الله فيقول في ذلك:"... من بين خصال التجار الشرقين أنهم لا يشعرون بالمنافسة من قبل المحلات المجاورة لهم، والبائع يبدأ في انتظار المشترين بهدوء وهو يؤمن أن الله هو الذي يرسل المشتري له ويرسل من يشاء لجاره...".

المحلات التجارية الموجودة في بازار مدينة دمشق صغيرة جدا ولا تكفي لحمل كمية كبيرة من السلع[4]، وهي ذات أبعاد ضيقة تمكن التاجر من الجلوس على على سجادته دون أن يزعج نفسه، ويجلس الزبون بنفسه على زاوية أخرى من هذه السجادة، حيث يقوم بفحص السلع كما يشاء[5]، وبما أن القهوة موجودة في كل الأسواق فهي تصب للضيف بناء على إشارة صاحب الدكان، ويقدم له الغليون لأنه كما يقال لا لذة توازي شرب جرعات من القهوة والتدخين عليها فتتمازخ وتطيب[6].

---

[1] Jules xavier saguez de freuvry, op cit, p38.

[2] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص61.

[3] Edouard blondel, op cit, p164.

[4] M m p v, op cit, pp 61-62.

[5] Edouard blondel, op cit, p163.

[6] هنري قيز ، المصدر السابق، ص ص 29 - 30.

على العموم يعرف التاجر الدمشقي بأخلاقه ومعاملته الحسنة للزبائن، وفي هذا المقام يذكر عبد الرحمن بك سامي في رحلته لدمشق هذه العادات ويقول: "...إذا قصدت شراء شيء من دمشقي رأيت منه المؤانسة والملاطفة، ولا تكاد ترى بين الباعة من هو مخالف لذلك وصفته التهكم بالمشتري والجفاء له في القول، وإن وجد فناذر والناذر لا يقاس عليه، وهذا يدلك على حقيقة أخلاق الجماعة،... وإذا سألت أحدا عن مكان وكان يعرفه هداك إليه دون تكلف..."[1]، وهذا لا يعني أن الاستقامة موجودة بالكامل في السوق فقد ذكر م م ب ف M m p v في رحلته أنه كان أحيانا يشعر كأنه يتفاوض مع لصوص وليس مع تجار[2].

لاحظ الرحالة الفرنسيون أن التاجر المسلم أو المسيحي ينتظر المشتري أمام دكانه دون أن يزعج أحد، لكن التجار اليهود مقارنة معهم كانوا يقومون بإزعاج المارة ويلحون عليهم من أجل شراء بضاعة معينة، ولا يمكن أن يتخلص الزبون منهم إلا بصعوبة كبيرة، ومن عادات التاجر الشرقي أن يطلب لأول وهلة 5 أمثال ما تساويه سلعته، كما أن من العادات الثابتة ألا تتم الصفقة إلا بعد جدل طويل، وفي بعض الأحيان يستمر الأمر لمدة أيام، وقد ذكر غوستاف لوبون Gustav lobons في هذا الصدد قصة حدثت له في أحد أسواق الشام، وقال أنه قد استغرق مدة أسبوع كامل من أجل شراء نارجيلة نحاسية مزينة بالفضة، وذكر أن التاجر لم يتنازل عن السعر الذي طلبه في البداية إلا بصعوبة ولذلك ذكر أنه على المشتري الصبر من أجل الوصول إلى مبتغاه[3].

يتفاوت تجار مدينة دمشق من حيث درجة الغنى فمنهم البسطاء ومنهم الأثرياء الذين يعقدون مع بعضهم البعض صفقات كبيرة، وعادة ما يجتمع التجار الأغنياء في مقاهي فاخرة موجودة في فنادق جميلة مكسوة بالرخام[4]، وفي وسطها ساحة كبيرة بوسطها توجد نافورة جميلة، وهي تعد من أبرز تحف العمارة العربية

[1] عبد الرحمن بك سامي، المصدر السابق، ص66.

[2] M m p v, op cit, p63.

[3] غوستاف لوبون ، المصدر السابق، ص 319.

[4] يمتلك بعض حرفيي مدينة دمشق دقة في الصناعة الرخامية، فمنهم من يصنع أحواض الماء من قطع صغيرة فيها عدة ألوان من الرخام، ومنهم من يصنع خزائن للكتب رخامية ملونة من قطع صغيرة لا تتجاوز إحداها 1 سنتمتر. مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ج4، ص 227.

الإسلامية، وهذا الاجتماع يكون بغرض عقد صفقات تجارية خاصة مع التجار الأجانب المقيمين الذين يقيمون في فنادق المدينة[1].

ه- الأنشطة التجارية الممارسة في الأسواق الدمشقية:

يتميز التوزيع الطوبوغرافي للأسواق بالمدن الإسلامية بنمط خاص بحيث نجد بنية الأسواق هي نفسها تقريبا في كل البلاد الإسلامية، وقد تم مراعاة مجموعة من المعايير والمقاييس في هذا التوزيع المنظم، منها معيار التفضيل بين الحرف الرفيعة والجليلة والحرف الدنيئة، أو على أساس معيار التخصص، وهو من أبرز الخصائص المميزة لأسواق المدن العربية، وهذا ما تعكسه أسماء الأسواق[2]، وتسمى في العادة نسبة إلى المنتجات التي تباع فيها[3] ، كما أن كل سوق منفرد وكان مخصص لبيع سلعة معينة[4].

السوق هو عادة عبارة عن شارع طويل تتشابه فيه أنواع الصنعة[5]، فمثلا إن كان المشتري يبحث عن شبشب يذهب إلى شارع طويل لا يوجد فيه سوى المتاجر الخاصة ببيع النعال الموجودة على كلا الجانبين، وعلى طول الشارع حتى النهاية[6]، النهاية[6]، وهناك إلى جانب ذلك بعض المتاجر الخاصة التي تجد فيها أنواعا مختلفة من السلع؛ كما توجد محلات خاصة للبيع بالجملة ومنها ما هو خاص للبيع بالتجزئة[7]، وقد عرفت دمشق على غرار بعض المدن الشامية الأخرى بريقها الصناعي وتسلسل تقاليدها الصناعية المتوارثة، وقد ساعدها في ذلك وفرة مواد الصناعة الأولية، ولذلك اشتهرت دمشق بالعديد من الحرف وعددها كان كبير جدا تجاوز 340 حرفة وصناعة[8]، ومن أهم الأنشطة التجارية الممارسة في أسواق مدينة مدينة دمشق ما يلي:

---

[1] Louise marquette, op cit, p250.

[2] عائشة غطاس، **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقاربة اجتماعية اقتصادية**، منشوراتanep، الجزائر2012م، ص 204.

[3] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, p29.

[4] J t missionnaire, op cit, p468.

[5] M m p v, op cit, p61.

[6] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p154.

[7] Savigny de moncorps, op cit, p163.

[8] فؤاد العادل، المرجع السابق، ص 14.

تجارة الخشب إذ يوجد بدمشق شارع مخصص لتجار الأثاث به محلات ذات حجم مناسب للممارسة هذه المهنة، وتوجد فيها عدة مصنوعات خشبية[1] كالقباقيب البلدية والقطع الخشبية الصغيرة المطعمة بالصدف والعاج وشكلها مثل الموائد والرفوف[2]، كما يبيع تجار الخشب مختلف أنواع الأثاث سواء ذات الحجم الصغير أو الكبير[3]، ومن الصناعات الخشبية المشهورة في مدينة دمشق صناعة تسمى المصري، وهي بواقي خشب الجوز اليابس، وتفصل بالحسب المطلوب ثم تصقل صقلا تاما، ويرسم عليها بقلم رسومات على شكل عروق أو جذور غاية في الإبداع، ويحفر على حسب رسم القلم، ثم ينزل الغراء ويوضع فوقه الصدف والذي له عدة أنواع[4]، ويعرف السوق الذي تباع فيه هذه البضائع سوق العلبية نسبة إلى العلب الخشبية التي تصنع فيها[5].

يوجد بدمشق سوق كبير مخصص لبيع المجوهرات والحلي[6]، ويسمى سوق الصاغة وله 4 أبواب ودكاكينه مفصولة عن بعضها البعض بألواح خشبية فقط[7]، ومحلات الصياغة مليئة بالمجوهرات التي لا تقدر بثمن، ويعرض الصاغة أحيانا أمام محلاتهم بعض ذهبهم في صناديق زجاجية[8]، وهي عبارة عن مربعات زجاجية

---

[1] لعب حرفيو مدينة دمشق المتخصصون في النجارة دورا هاما في ازدهار تجارة الخشب، حيث كانوا يتقنون عملهم ولم يكتفوا بالخشب المحلي بل استوردوا أخشاب من البلاد الأجنبية، وصنعوا منها العديد من اللوازم المنزلية، وقد اعتنى هؤلاء النجارون بصنعتهم حتى أنها ضاهت الصناعات الأوربية بل إنها فاتتها إتقانا، وآثار هذه الصناعة مازالت موجودة إلى يومنا في دور و مساجد دمشق. مُحَّد الخطيب، المرجع السابق، ص110.

[2] M m p v, op cit, p62.

[3] Eugène melchior de vogue, op cit, p83.

[4] مُحَّد كرد علي، المصدر السابق، ج4، ص 209.

[5] نعمان قساطلي، المصدر السابق، ص99.

[6] M m p v, op cit, p61.

اشتهرت مدينة دمشق بحرفة صقل الذهب وتركيب الجواهر عليه، وفي ذلك ننقل ما قاله شاهين مكاريوس الذي عاصر القرن 19م عن صاغة مدينة دمشق، وجاء في كتابه:"...واشتهر أهل دمشق في ترصيع الأدوات الخشبية بالعاج وعرق اللؤلؤ وفي تركيب الجواهر على الذهب ولهم في ذلك ذوق تضرب به الأمثال...". ينظر إلى شاهين مكاريوس، المصدر السابق، ص 11.

[7] نعمان قساطلي، المصدر السابق، ص99.

[8] عرفت دمشق بزجاجها واشتهرت بصناعته، وعملت منها المصابيح والأكواب والأواني على اختلاف أنواعها، وهذه الحرفة ليست ليست حكرا على دمشق وحدها بل كانت هناك العديد من المعامل في عدة مدن كحلب والخليل وصور وعكا، وقد أجاد الدمشقيون صناعة القاشاني وتفننوا في رسمها وتشكيلها وكتبوا عليها الآيات القرآنية والشعر والأحاديث النبوية ورسموا عليها نقوشا مختلفة. مُحَّد الخطيب، المرجع السابق، ص 109.

مكعبة بسيطة تحتوي على كنوز من اللؤلؤ والأحجار الكريمة، وقلادات مصنوعة من كرات ذهبية جوفاء[1]، والصاغة يعرضون كمية قليلة فكل شيء عندهم مغلق ولا يفتح إلا عندما يطلب الزبون ذلك[2]، ومحلات الصاغة تبدو كورشة الحداد حيث تجد الجواهر مخبأة في خزائن ذات أدراخ يتم سحبها واحدة تلوى الأخرى[3]، كما تنتشر تجارة أخرى وهي تجارة بيع المواد الفاخرة كالفيروز والأحجار الكريمة[4]، والملاحظ أن أكثر من يتوافد على سوق الصاغة هن النساء، لاسيما المرأة الصحراوية فهي الأكثر إقبالا على شراء المجوهرات، ويمكن القول أن سوق الصاغة هو من الأماكن المفضلة للنساء في الأسواق الدمشقية[5].

ينظم بدمشق كذلك سوق الخيل في أيام معينة بشكل خاص، وهناك أنواع مختلفة من الحيوانات تباع فيه، والمميز منها ما يأتي من الصحراء[6]، وتجد فيه الكثير من الخيول، إضافة إلى مجموعة من الجمال والبغال، ويقوم أصحابها باختبارها أمام الجمهور حتى يتمكنوا من الحكم على صفاتها وقدراتها[7]، وتوجد حرفة موازية لنشاط بيع الخيول وفي نفس السوق وهي صناعة السروخ؛ حيث توجد عدة أسواق لبيع السروخ التي تجد بها السروخ الحمراء المطرزة بالحرير والذهب، اللجام المصنوع ببراعة، الصدف، ويعرف العرب بصفة عامة التصميم الجيد وسكان دمشق موهوبون في ذلك[8]، كما توجد سروخ قطيفة مزينة بالذهب أو الجلد الفهدي، وتطريزها باللؤلؤ والصدف، القبعات الريشية، المرايا الصغيرة[9].

يوجد سوق آخر مشهور بمدينة دمشق مخصص لبيع الأشياء القديمة مثل: الخزف الفارسي، الصينيات النحاسية المنحوتة، والملاحظ أن من هذه السلع

تعتبر الصناعات الزجاجية الدمشقية الأروع في بلاد الشام والأكثر دقة وإتقانا، ويضرب المثل بزجاج الشام في الرقة والصفاء. فؤاد العادل، المرجع السابق، ص 15.

[1] G de lombay, op cit, p161.
[2] M m p v, op cit, p62.
[3] J t missionnaire, op cit, p468.
[4] Louise marquette, op cit, p237.
[5] M m p v, op cit, p63.
[6] Victor Guérin, op cit,p420.
[7] Louise marquette, op cit, p240.
[8] G téqui, op cit, p263.
[9] M m p v, op cit, p61.

ثروات قيمة، وأصحابها لا يولونها أية أهمية، فهي مبعثرة وموزعة على الأرض دون انتظام، لكنهم يعرفون قيمتها وعليه تتميز بغلاء أسعارها[1]، كما تجد في السوق في في بعض الأحيان عروضا مختلطة في أكوام بها أشياء ثمينة مع أشياء لا قيمة لها، مثل القطع الخزفية والأواني القديمة والياقوت النصف مكسور[2].

تمتلئ أسواق مدينة دمشق بمختلف الأسلحة[3]، وتعرف هذه التجارة نشاطا كبيرا خاصة أن سكان الشام مشهورون ببيع الأسلحة، والإقبال على شرائها هذه السلع كبير جدا[4]، ولهذا الغرض يوجد في سوق دمشق شارع مخصص لصانعي الأسلحة الذين تجد محلاتهم ممتلئة ومزدحمة دائما، وهي تفيض بالأسلحة القديمة والحديثة مثل: المسدسات، البنادق، الخناجر، السيوف من كل العصور حيث يوجد منها ما هو قديم وصدئ[5]، كما توجد به الخناجر النحاسية المنحوتة، وهي كذلك تعرف إقبال كبير؛ ذلك لأن من عادات العرب وضع الخناجر في الحزام الذي يرتدونه[6]، ويعرف هذا السوق عند سكان دمشق بسوق التنن.

يوجد أيضا بمدينة دمشق سوق يسمى سوق الدقاقين وبه يدقون الأقمشة الحريرية ويبيعونها[7]، وهو عبارة عن شارع خاص ببيع أقمشة الحرير والكشمير، والسلع المعروضة متنوعة فمنها ما هو غالي الثمن مطرز بالذهب، ومنها ما هو بسيط التصميم ورخيص الثمن، ومثل سوق الصاغة النساء هن الأكثر إقبالا على هذه المنتجات، وقد لاحظ الرحالة الفرنسيون الذين زاروا المدينة تجمعهن بعدد كبير في هذه المحلات[8].

---

[1] G téqui, op cit, p269.
[2] M m p v, op cit, p63.
[3] Eugène melchior de vogue, op cit, p73.
تدخل صناعة الأسلحة ضمن نشاط وحرفة الحدادة وصقل المعادن وهي من أشهرها في مدينة دمشق، ولم تقتصر على صنع الأسلحة فقط بل تنوعت منتجاتها ونذكر منها: المغازل، الصنارات، القيود، المشارط، آلات الزراعة، الأبواب، الأقفال، الشبابيك، المواقد، المناشير، الملاعق، المناجل، المبارد....
محمد الخطيب، المرجع السابق، ص 109.
[4] Eugène melchior de vogue, ibid., p83.
[5] G de lombay, op cit, p162.
[6] Louise marquette, op cit, p250.
[7] نعمان قساطلي، المصدر السابق، ص99.
[8] G de lombay, op cit, p163.

توجد عدة أنواع من الأقمشة التي تباع بهذا السوق نذكر منها الأقمشة المطرزة ذات الألوان المتلألئة التي تعرف رواجا كبيرا[1]، وبازارات مدينة دمشق مليئة بمحلات بيع الأقمشة[2]، كما يوجد بنفس السوق مكان مخصص لنسج الحرير[3]، وهناك بازارات خاصة بالقطن الأوربي والمسولين الهندي المطرز بالذهب، والذي يستخدم في صناعة العمائم والأحزمة، إضافة إلى الأقمشة الحريرية ذات الألوان الزاهية والتصفيح الذهبي[4].

هذا السوق هو عبارة عن خليط من كل شيء خاصة في ما يخص الأزياء الملابس والأفرشة وسلع أخرى يتم بيعها في المزاد، والبيع ليس في المحلات فقط بل يوجد رجال يحملون سلعهم ويتمشون عبر السوق لبيعها[5]، الفساتين الحريرية بجميع أنواعها، الكشمير الهندي[6]، إضافة إلى الأوشحة اللامعة والقلائد الدمشقية الدمشقية الجميلة، وتجد في الخانات البسط الفارسية والشامية[7]، كما تجد الفساتين الحريرية بجميع أنواعها[8]، وقد عرفت تجارة الحرير تراجعا كبيرا بسبب الضرائب المفروضة في العهد المصري، والتي ألحقت بالسكان المحليين خسائر باهظة وفرضت عليهم بمختلف الذرائع، وانخفضت من 300 حرفة إلى 50 حرفة لأن الإنتاخ أصبح يفوق الاستهلاك، خاصة وأن الأقمشة أصبحت باهظة الثمن والسكان لا يقبلون على شرائها[9].

سحر أسواق مدينة دمشق لا ينتهي حيث تجد محلات مخصصة لبائعي الفاكهة حسب المواسم وأشهرها الكمثري والتفاح، المشمش الذي يتم حصاده في فصل الصيف، ويتم تجفيفه وتصديره لمصر وتركيا بكميات كبيرة، ويصنع منه

[1] Louise marquette, op cit, p250.
[2] Eugène melchior de vogue, op cit, p73.
[3] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص63.
[4] G téqui, op cit, p263.
[5] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p155.
[6] M m p v, op cit, p64.
[7] G téqui, op cit, p264.
[8] M m p v, op cit, p62.
[9] Edouard blondel, op cit, p170.

كذلك مربى جاف[1]، وتباع أيضا جنب الفواكه الخضر والسوق الخاص بها يسمى سوق الخضراوية، وتباع السلع فيه وفق نشاط الجملة[2].

خصص بدمشق مكان لبيع المربى والكعك ذو الحجم الكبير، ويعرف إقبالا كبيرا بسبب حب الدمشقيين للأكل خاصة في أوقات العمل[3]، ويعتبر مربى دمشق من أحسن أنواع المربى في بلاد الشام، وتكثر تجارته بسبب كثرة زراعة شجرة المشمش التي تنتج كميات كبيرة يتم جمعها، وتصنع منه إلى جانب المربى حلوى لذيذة جدا تسمى: قمر الدين[4]، وتوجد بالسوق كذلك مجموعة من الأفران التي تبقى مشتعلة وتخرخ من حين لآخر كعكات ذهبية تشبه المعجنات الفرنسية، والطهاة يخلطون الكثير من العجين مع العسل مما يعطيها ذوقا جيدا، ويوجد كذلك كعك مصنوع من اللوز والبعض الآخر من الفستق، وهذه الحلويات يتم استهلاكها بشكل كبير في شهر رمضان[5]، كما ينتشر في السوق عدد من بائعي الكعك الكعك العربي التقليدي[6].

يوجد إلى جانب الكعك سوق بدمشق معروف بسوق الحلوانيين يباع فيه المربى وكذلك قطع من الحلوى كالحلقوم[7] و يباع فيه أيضا المشمش المعلب[8]، ومن أشهر ما يباع في أسواق مدينة دمشق ما يعرف بمعجون المشمش، وهو عصير مصنوع من المشمش الصغير وهو مشروب منعش يروي العطش[9]، ويسمى هذا السوق بسوق البزورية، والملاحظ أنها من أجمل الأسواق الدمشقية، حيث تجد فيها البضائع مرتبة بشكل جيد وجميل يجذب الزبون[10].

---

[1] Edouard blondel, ibid, pp165-166.

[2] نعمان قساطلي، المصدر السابق، ص100.

[3] G téqui, op cit, p269.

[4] كارين صادر، المرجع السابق، ص 61.

[5] M m p v, op cit, p63.

[6] Florimon jacques de basterot, op cit, p133.

[7] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص62.

[8] Eugéne melchior de vogue, op cit, p83.

[9] Louise marquette, op cit, p240.

[10] نعمان قساطلي، المصدر السابق، ص99.

إلى جانب ما ذكرنا سابقا هناك أنشطة تجارية أخرى تمارس بمدينة دمشق لم يفصل الرحالة في وصفها ونذكر منها العطارة والتي يبيع فيها التجار أنواعا مختلفة من العطور ذات الأنواع المختلفة[1] ويعرف هذا السوق بسوق باب الجابية[2]، الجابية[2]، وكذلك يوجد سوق مخصص لتجارة الأحذية، وتوجد فيه أحذية متنوعة صفراء، سوداء، خضراء، حمراء، ويوجد منها العادي ويوجد المطرز مع الترتر اللامع، وهو سوق يعرف عددا كبيرا من المشترين[3]، وهناك سوق خاص بالخياطين[4]، وسوق آخر تمارس فيه حرفة الصيرفة، والتي يحتكرها بعض اليهود ، ، ومنهم من تمكن من الوصول إلى جمع ثروة كبيرة بفضلها[5].

تتوفر إلى جانب الأنشطة الحرفية أنشطة أخرى تجارية تمارس في هذه الأسواق كتجارة اللحوم، وقد لاحظ الرحالة الفرنسي أوجان ميلشيور Eugène Melchior أن أسواق مدينة دمشق مليئة ببائعي اللحم[6]، وتوجد إلى جانب ذلك محلات مخصصة للشواء خاصة شواء لحم الغنم، وتجارها يعدون وجبات ممتازة تغري المارين لتذوقها[7]، كما تمتلئ بازارات دمشق بباعة المياه العذبة والآيس كريم المحمول في الزجاجات الصغيرة المعلقة حول الأعناق[8]، ويوجد في وسط السوق بائعوا الشربات وأصحاب الغليونات يحملون معهم مواقد فحمية ليشعلوا غليونات الزبائن[9].

باعة الحلوى الصغيرة موجودون أيضا في البازار، إضافة إلى عدد لا يحصى من بائعي عصير الليمون الجليدي الصغير، ويحملون مشروبهم في برميل زجاجي مزخرف ومعلق عليه أدوات نحاسية أو لؤلؤية تصدر أصواتا حين احتكاكها، أوانيهم

[1] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص67.
[2] نعمان قساطلي، المصدر السابق، ص99.
[3] G téqui, op cit, p263.
[4] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص67.
[5] Victor Guérin, op cit,p420.
[6] Eugène melchior de vogue, op cit, p73.
[7] G téqui, op cit, pp 268-269.
[8] M m p v, op cit, p61.
[9] غوسطاف فلوبير، المصدر السابق، ص61.

فخارية، وكل ذلك من أجل جذب انتباه المارة للشرب، كما يباع في السوق أيضا زهر البرتقال[1]، إضافة إلى عصير الليمون الذي يباع في كل مكان من السوق[2].

يوجد في الأسواق كذلك الحلاقون الذين يقومون بدعوة المارة لحلق شعرهم، وتوجد مجموعة من الأكشاك الصغيرة التي تبيع التبغ مليئة بالناس دائما[3]، وقد ذكر فلوريمون جاك Florimon jacques de basterot أن المار بها يشم رائحتها القوية لدرجة أنه يعطس[4]، وتحتوي أسواق مدينة دمشق على محلات مخصصة لخدمة الأسنان[5]، إضافة إلى وجود محلات لبيع مختلف المواد الغذائية[6]، وبالتالي يمكننا القول أن أسواق مدينة دمشق كانت توفر كل المرافق التي التي يحتاجها القادمون إليها خاصة الأجانب والسياح والبدو الآتون من مناطق بعيدة، وهذا ما جعلها قبلة للتجار من مختلف أصقاع الأرض، وجعلها مركزا تجاريا دائم النشاط.

بالنسبة لنمط التجارة عند البدو فهو قائم على أساس تبادل الإبل والجداء، والذكور من الخيل والألبان والأسلحة والثياب والأرز والحنطة والنقود التي يطمرونها[7]، وتشتغل النساء البدويات في بعض الأعمال اليدوية كنسج القماش الخاص بالخيام، ويعد من الأنواع القوية التي تقاوم كثيرا الظروف الطبيعية، ويصنعون الحبال كذلك، كما تعد الجمال موردا أساسيا للصوف والجلود، وهي كلها أمور تساعدهم على ممارسة التجارة في المدن التي ينزلون فيها في فترة الربيع، وفي بعض الأحيان يوجد وسطاء يجلبون لهم المواد الغذائية والأشياء التي تلزمهم، وفي المقابل يؤخذون من عندهم السلع الغير متوفرة في المدن ويبيعونها، والقوافل

---

[1] M m p v, op cit, pp62-63.
[2] Louise marquette, op cit, p252.
[3] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p428.
تعرف محلات الحلاقين نشاطا كبيرا ويتوافد عليها العديد من الزبائن. مُحَّد الخطيب، المرجع السابق، ص 246.
[4] Florimon jacques de basterot, op cit, p133.
[5] J t missionnaire, op cit, p468.
[6] Victor Guérin, op cit,p419.
[7] حبيب السيوفي، المصدر السابق، ص27.

تتكون من مرشدين وسائقي جمال وكذلك بعض المضاربين إضافة إلى رجال مسلحين وكلهم من البدو[1].

2- تجارة مدينة حلب[2]:

تعد التجارة هي من أبرز الأنشطة التي يمارسها سكان مدينة حلب، ويمكن القول أنها مدينة ذات طابع تجاري بامتياز[3]، ويعود السبب في ذلك لامتلاك المدينة المدينة موقع استراتيجي هام جدا؛ فهي ملتقى القوافل الذاهبة والقادمة ما بين أرمينيا وديار بكر وبغداد وبلاد فارس، وتتصل كذلك بالخليج الفارسي وبلاد الهند من طريق البصرة، وبمصر ومكة عبر طريق دمشق، وبأوروبا عن طريق إسكندرونة واللاذقية، والتجارة فيها قائمة فيها على أساس المقايضة، ومن أهم بضائعها القطن والصوف والغزل وأنواع مختلفة من الحرير المنسوخ، والأقمشة الغليظة المصنوعة في القرى والنحاس والوبر وشعر الماعز الوارد من الأناضول، وبعض منتجات بلاد الأكراد، والفستق، والشال، والشاش الهندي، أما الواردات فتتمثل أساسا في جوج لانغدوق، ودودة القرمز والنيلة والسكر وبعض التوابل والأباريز[4]، وقد وقد عرفت حلب أوقات ثراء ونشاط كبير، حيث كانت تدخلها منتجات كبيرة من الهند وبلاد فارس بواسطة القوافل الكبيرة[5].

تعرف الأنشطة التجارية بصفة عامة رواجا كبيرا خاصة تجارة الأقمشة الحريرية إضافة إلى العديد من الحرف الأخرى، وهذا النشاط جعل السلطات تقوم ببناء خانات خصصت كنزل لإيواء الأجانب الذين أصبحوا يتدفقون بكثرة بسبب

---

[1] Le compte de perthuis, op cit, pp18-30.

[2] حلب هي من أهم المدن التجارية الشامية التي أقامت علاقات تجارية مع المدن الأخرى خاصة الأوربية كإيطاليا، وأقام بها البنادقة قناصل منذ عهد المماليك، وقد كثر عدد الأوربيين في هذه المدينة لأنها أقرب منفذ للاتصال بأوربا، وكانت فرنسا والبندقية على رأس الدول الأكثر تعاملا معها وعقدت الاتفاقيات والصلات التجارية و أقامت مكاتب بها، ودخلها الإنجليز كذلك وتلاهم الهولنديون، حتى أن بعض الأوربيين تناسلوا بها وعدوا كأنهم من أهلها، وكان بحلب وكلاء لتجار الهند والفرس والأرمن وغيرهم، وكان بحلب سنة 1775م أكثر من 80 وكالة تجارية لبيوت أوربية، وأكثر اعتماد الأوربيين كان على سماسرة يهود يتجرون بالصادرات والواردات. محمد كرد علي، المصدر السابق، ج4، ص247.

[3] Louis Aleksander olivier de corancez, op cit, p27.

[4] حبيب السيوفي، المصدر نفسه،ج2، ص ص 10-11.

[5] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p186.

تطور النشاط التجاري[1]، وقد كان الأوربيون في القرن 19م يملئون مدينة حلب خاصة التجار ويفضلون العيش بها وتمكنوا بها من جمع ثروة كبيرة[2]، وقد أثر الانتشار الواسع للسلع الغربية وسيطرت التجار الأوربيين على التجارة على الصناعة المحلية، وأصبح الكثير من السكان المحليين يفتقرون إلى الطموح التجاري بسبب المنافسة وأغلبهم أصبح عاطلا عن العمل[3].

يقام في مدينة حلب عدة أسواق أسبوعية من أشهرها السوق الأسبوعي بنقوسة، وهو سوق يتميز بأسعار أقل من الأسعار الموجودة والمفروضة في المتاجر والبازارات الموجودة بالمدينة، ويعرض في هذا السوق كل أنواع المبيعات، ويستمر من فترة الصباح الباكر إلى غاية الظهر، وتباع فيه عدة أشياء كالخضر والفواكه، الأواني، الأثاث، الملابس، أشياء قديمة من جميع الأنواع، وهناك سوق آخر يقام يوم الجمعة تباع فيه الحيوانات الأليفة كالخيول، الحمير، الأغنام، الثيران، وكذلك تباع فيه الإبل التي يأتي بها البدو من أماكن بعيدة[4]، وحلب تشتهر أيضا بتجارة الفستق خاصة وأن قرية الأنصارية قريبة منها، وهي مقر رئيسي لإنتاخ وزراعة أشجار الفستق واللوز[5].

توجد في شوارع مدينة حلب مجموعة من البازارات بها محلات مختصة في إعداد الطعام، وهي معروفة بتقديم أطباق رائعة جدا للزبائن، ومن أهم الأطباق المقدمة فيها حسب ملاحظات هنري قيز Henri Guys الأرز، اللحم، المحشي، المفروم، الحساء، الكباب، إضافة إلى الكسكس الخشن الذين يتناوله بكثرة الجزائريون المقيمون في حلب، كما توجد متاجر خاصة بالشربات، وهي تحظى باهتمام السكان حيث يقبلون عليها كثيرا لاسيما في أوقات ارتفاع درجة الحرارة، ويتكون هذا المشروب من نشا القمح الذي توضع بعض القطع منه في كوب، وتضاف إليه بعض الأطراف من العنب وماء الورد أو زهر البرتقال، وبالتالي يصبح مشروب منعش، إضافة إلى هذه المتاجر يوجد باعة متنقلون للمشروبات الخفيفة والمرطبات يجوبون الشوارع، وعلى العموم واجهات متاجر مدينة حلب بصفة عامة

[1] Henri Guys, op cit, p108.
[2] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p187.
[3] Henri guys, op cit, p109.
[4] Henri guys, ibid, p100.
[5] Louis alescandre olivier de corancezop cit, p 24.

مزينة بأطباق ومزهريات مختلفة الأشكال، وكل شيء فيها نظيف للغاية وذلك لجذب المستهلكين، والمزهريات الموضوعة على الواجهة بعضها مصنوع من الخزف الكريستالي الجميل وبداخلها زهور[1].

لما قل الأمن في البحر الأبيض المتوسط في عهد نابليون، وبسبب سوء الإدارة العثمانية وثورات الانكشارية سنة 1814-1826م وزلزال 1822 و 1827 و 1832م ووباء سنة 1832م وطاعون سنة 1837م خربت تجارة حلب ودمشق، وكثرت بالمنطقة السلع والبضائع الإنجليزية التي كانت تباع بأثمان بخسة، وحرير ليون سحق حرير دمشق وحلب بسبب تشابهها وقلة ثمن الليونية، وتعد هذه الأسباب من أهم عوامل تراجع التجارة بالمنطقة[2].

3- تجارة مدينة بيروت[3]:

يمكن القول أن مدينة بيروت تعد ثاني أكبر مدينة تجارية في الشام بعد مدينة دمشق[4]، وتمتعت بشهرة تجارية واسعة في الخارج، حيث تعد من أكثر المدن الشامية إنتاجا للسلع التجارية، وقد حبتها الطبيعة مرفأ آمنا وموقعا ممتازا فأصبحت ملتقى سفن العالم، وورثت هذه المدينة الأهمية التجارية التي أدركتها مدن عكا ويافا وصيدا وطرابلس واللاذقية عبر مختلف العصور[5]، والموقع الذي تحتله مدينة بيروت على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وكذلك قربها من دمشق جعلها نقطة مركزية للتجارة، وأصبحت السفن تتوافد بكثرة على ميناء بيروت[6]، والعديد من هذه السفن قادم من أوربا(مرسيليا، إنجلترا، مرسيليا، توسكانا،

---

[1] Henri Guys, op cit, pp 81-83.

[2] مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ج4، ص 249.

[3] عرفت مدينة بيروت مع السنوات الأخيرة من القرن 19م تطورا اقتصاديا كبيرا، وهو الأمر الذي جعلها محطة للاهتمام وخولها أن تكون المركز الرسمي لولاية جديدة عرفت باسم ولاية بيروت، وتم الإعلان عنها رسميا في 1887-1888م، وأصبحت تمتد جنوبا حتى نابلس بفلسطين، وشمالا امتدت إلى اللاذقية، وقد ألحق ببيروت إلى جانب صيدا وصور ومرجيعيون متصرفيات (ألوية) وهي طرابلس الشام واللاذقية وعكا ونابلس. حسان حلاق، المرجع السابق، ص 14.

[4] M m p v, op cit, p44.

[5] هنري قيز ، المصدر السابق ، ص159.

[6] يطلق الإنجليز على خليج مدينة بيروت سان جورج وهو يتجه نحو الشمال حيث تأمن السفن الموجودة فيه من الرياح الجنوبية الشرقية، وبعد سنة 1840م استفاضت تجارة بيروت وزادت مكانتها بسرعة كبيرة وهو ما اضطر الحكام إلى أن يعيروا الاهتمام بمرفئها، وذلك لأنهم علموا أنه سينتج عن استغلاله فوائد كبيرة للاقتصاد. مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ج5، ص154.

النمسا، اليونان) إضافة لسفن مصرية وتركية، وبالنسبة للسلع التي تجلبها السفن الأوربية فهي متنوعة مثل الطعام خاصة السكر والقهوة، ستائر رخيصة الثمن، أقمشة إنجليزية، حديد...، أما مصر فترسل الأرز مقابل أخذها للتبغ القادم من اللاذقية[1]، ويأتي من لبنان النبيذ والحرير، ومن اليمن القهوة، ومن تدمر الجياد، ومن دمشق السلاح، ومن بغداد الأقمشة[2].

يمكن القول أن معظم التجارة في بلاد الشام تمر عبر ميناء بيروت[3]، وعليه أصبحت مدينة بيروت الميناء الرئيسي للتجارة منذ النصف الثاني للقرن 19م[4]، وصارت مركزا أساسيا لتبادل تجاري هائل بين أوربا وآسيا، وقد شبه القس بينوت L'abbé Bunote مينائها بالرسوم المتحركة، وذلك بسبب كثرة أعلام الدول المختلفة التي لاحظ أنها تأتي إلى مينائها[5]، وموقع بيروت البحري الممتاز جعلها مدينة تجارية عالمية بامتياز مما جعل الكثير من الأوربيين يتوافدون عليها وتجارتهم صارت ثابتة معهم[6]، ونفس الرأي نجده في كتاب الرحالة لومباي G de Lombay الذي أكد هو الآخر أن بيروت مدينة تجارية بامتياز[7]، وقد أصبح للتجار الأوربيين هيمنة واضحة على التجارة في مدينة بيروت[8]، وهذا لا ينفي وجود تجار محليين نجحوا في ممارسة التجارة فبسبب رواج التجارة نشأت بعض العائلات البرجوازية في مدينة بيروت وامتلكت ثروات كبيرة[9].

يتميز رصيف ميناء بيروت بالنشاط ولذلك هو دائما ممتلئ بعدد كبير من السكان المحليين الذين يلبسون أزياء رائعة ذات ألوان مختلفة، والزائر للميناء يلاحظ حركة لا تتوقف، وتدخل فيه العديد من السفن الأوربية المحملة بالسلع وحركتها مستمرة بدون انقطاع[10]، وميناء بيروت يوفر دخلا للعديد من العائلات

[1] Edouard blondel, op cit, pp56-57.
[2] Leon dhéralde, op cit, p 141.
[3] M delaroiere, op cit, p48.
[4] Florimon jacques de basterot, op cit, p59.
[5] L'abbé bunote, op cit, p284.
[6] Allard Camille, op cit, p66.
[7] G de lombay, op cit, p 140.
[8] Eugène melchior de vogue, op cit, p30.
[9] G téqui, op cit, p252.
[10] La société des livres religieux de Toulouse, op cit, p 106.

بسبب توفر فرص كسب المال فيه خاصة حمل البضائع والسلع والأمتعة، وتحدث قابريال روجيرون Gabriel Rogeron عن هؤلاء فقال:"... عند ميناء بيروت تلاحظ رجال شبه عراة يعرضون على المسافرين خدمات متعددة..."[1]، ونفس الشيء ذكره ألارد كاميل Allard Camille بقوله:"... يشتغلون في مهنة حمل البضائع للمسافرين القادمين للمدينة، ويذهبون بها إلى غاية دخولهم الشوارع المتعرجة الغير مرصوفة جيدا بالمدينة..."[2]، وذكر دولابلانش Delaplanche أنهم ينتظرون نزول المسافرين والسياح من السفن، وقال أنه بمجرد النزول يتشاجرون على حمل بضائع وأمتعة المسافرين، وكل ذلك من أجل الحصول على بعض القروش[3].

البازارات في بيروت لها طابع شرقي بامتياز، وشوارعها ضيقة بها منازل عالية على الجانبين، أقبية، أروقة، أكشاك مظلمة خشبية، وبصفة عامة دكاكين بلاد الشام خلابة تجد فيها جبالا من الفاكهة مرتبة بشكل مماثل، محلات توابل، محلات عطور، محلات مخصصة لصائغي المجوهرات[4]، والبازارات الموجودة في مدينة بيروت كبيرة وتفيض بالبضائع ومليئة بالحياة والنشاط والحركة[5]، ويعتبر البازار المكان الأكثر حيوية في مدينة بيروت، وهو المكان الذي يوجد فيه تنوع كبير في الأزياء (كهنة، دراويش، بدو الصحراء، فلاحو لبنان، الدروز، المصريون، نساء، عبيد سود..)، وبسبب الاكتظاظ يحدث التصادم فيه والازدحام في كل جزء[6] على الرغم من أن مساحتها واسعة، وكغيرها من أسواق الشام تم تخصيص كل حي لمهنة معينة أو لحرفة[7]، ومن أهم الأسواق المنتظمة ذات الحرفة الواحدة أو في بعض الأحيان تضم حرفتين أو أكثر تجد: سوق الأساكفة، سوق البازركان الخاص بتجار

[1] Gabriel rogeron, op cit, p 126.
[2] Allard Camille, op cit, p65.
[3] L'abbé delaplanche, op cit, p216.
[4] Eugène melchior de vogue, op cit, p29.
[5] Gabriel charmes, op cit, p136.
[6] Edouard blondel, op cit, p25.
[7] هي من أهم الصناعات القديمة، وهي خاصة بالذهب والفضة، ويتفنن صناعها في تصويرها ووضع الأحجار الكريمة عليها، وكانوا وكانوا يصنعون أقرطة الذهب المزينة بالياقوت ويصنعون الخواتم والقلائد والأطواق والخلاخيل بأشكال ورسوم جميلة، ولكن هذه الصناعة عرفت تراجعا بسبب رواج الصياغة الأجنبية المغشوشة مما أدى لكسادها، وصناعة الحلي هي من الصناعات اليدوية الدقيقة جدا، وهي تحتاج لذكاء ومهارة لتغيير أوضاعها وأشكالها بحسب الذوق والرغبة، وتنقسم إلى 7 أقسام رئيسية كما أكد العارفون به. مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ج4، ص224.

الأقمشة والخياطة، سوق الحدادين، سوق البوابجية، سوق البياطرة، سوق الخضار، سوق زاوية ومسجد التوبة، سوق الساحة، سوق ساحة الخبز، سوق سرسق، سوق الشبقجية، سوق الشعارين، سوق الطويلة، سوق العطارين، سوق القطن، سوق اللحامين، سوق المنجدين، سوق النجارين، إضافة إلى مجموعة من الأسواق الأخرى[1].

تشبه المحلات الموجودة بالبازار مثيلاتها في دمشق وحلب فهي تأخذ مساحة تتراوح ما بين 5 إلى 6 أقدام مربعة على الأكثر، وهي مساحة تسمح للتاجر بتناول كل ما لديه من سلع دون أن يكلف نفسه عناء النهوض والتنقل[2]، ويمكن القول أن البازار الموجود في مدينة بيروت يعكس الازدهار التجاري الضخم للمدينة، حيث تجد فيها كل الثروات الشرقية كمنتجات الهند والثروات الغربية كالمنتجات الأوربية[3].

تصطف المتاجر في الشوارع وتجد أصحابها من المسلمين أو اليهود جالسين في وسط بضاعتهم دون حراك[4]، كما يقوم بعض التجار الآخرين بعرض تجارتهم على المارين ويحاولون إقناعهم بشرائها[5]، والتاجر المسلم يلفظ كلمات دقيقة أثناء أثناء بيع سلعته، وينتظر بفارغ الصبر قرار الزبون، ويتميز بعض التجار المسلمين بكثرة الكلام والحرص على ترويج السلع، ويقدم بعضهم للزبائن أسعار معقولة ويعرف كيف يقنعهم، خاصة مع أنهم يعلمون بوجود أشخاص يحبون المساومة ولا يشترون حتى يحدث نقاش حاد حول الثمن، ونفس الصفات تجدها عند التجار اليهود لكنهم أكثر كلاما، ويعملون كل ما بوسعهم لجذب ثقة الزبون، ويقول إدوارد بلوندال Edouard Blondel عن أحد التجار اليهود:"...يطلق عبارات ونغمات معسولة ومليئة بمصطلحات الإخلاص والتفاني كي يرضي الزبون..."[6].

الملاحظ في أسواق بيروت أن كل فئة تنشط في مجال معين ولها تجارتها الخاصة؛ فتجد المسلمين يملكون محلات للجزارة ويبيعون الخضر، ومنهم صانعوا

[1] حسان حلاق، المرجع السابق، ص ص 23-24.

[2] Edouard blondel, op cit, p 13.
[3] Leon dhéralde, op cit, p141.
[4] Richard cortambert, op cit, p22.
[5] M m p v, op cit, p37.
[6] Edouard blondel, op cit, pp23-24.

الأقفال والأفرشة، أما المارونيون فيشتغلون في تجارة الأقمشة والحرير والألبسة القطنية، والأرثوذكسيين يمارسون حرفة النحت على الحجارة ويملكون الأفران والمطاعم، في حين يشتغل اليهود والأرمن في الصناعات الحرفية كالذهب والفضة والخشب[1].

تباع بأسواق بيروت الخضار لكنها قليلة الكمية، ومن أشهر الخضار الموجودة في سوق بيروت الخيار، الخرشف، الباذنجان، الطماطم، البصل، بطيخ قبرص، القرنبيط، البطاطا التي يتم إحضارها من فرنسا أو إنجلترا، أما الفاكهة فهناك وفرة من التين والعنب اللذيذ والرمان، الفاصولياء السوداء، المشمش، الموز اللذيذ، ويتم جلب البرتقال والليمون من طرابلس ويافا، ويوجد التوت والفراولة، قصب السكر الحلو[2]، كما توجد محلات للجزارة تباع فيها لحوم الأغنام وتباع فيها أيضا لحوم الدواجن التي ترتفع أسعارها وهم يجلبونها من قبرص، إضافة إلى بيع لحم البقر والأسماك خاصة وأن سواحل بيروت غنية بالأسماك، والملاحظ من خلال كتب الرحالة أن الحكومة فرضت أسعارا محددة على بعض المنتجات في السوق حتى لا تحدث المضاربة[3].

تباع المأكولات في أسواق بيروت بكثرة ومن أشهرها المقبلات اللذيذة التي تحظى بشعبية كبيرة، الكافيار وهو بيض السمك، الحفش، سمك فريد، الأرز وهو طبق وطني، هريس الأرض الشوكي، الخضار، البيض، القشطة، التفاح اللبناني العطر، الموز والبرتقال[4]، كما يوجد في بيروت محلات لبيع الخبز الذي هو على شكل فطائر صغيرة رقيقة بالكاد مطبوخة، وقد استقر ببيروت في هذه الفترة بعض الطباخين المالطيين ينتجون خبز شبيه بالخبز الأوربي[5].

من المحلات الأكثر إثارة للاهتمام وجلبا للمشترين في بيروت محلات الأقمشة الحريرية والمنتجات المحلية، وهي بضائع جميلة يتم صنعها بواسطة أدوات محلية بسيطة، وفي وقت سابق كان كل الناس يلبسون الأقمشة الحريرية لكن

[1] جوزف بدوي، المرجع السابق، د ص.

[2] Edouard blondel, op cit, p27.
[3] Edouard blondel, ibid, p28.
[4] M m p v, op cit, p45.
[5] Edouard blondel, op cit, p29.

بعد الدخول المصري الذي فرض ضرائب باهظة على السكان، أصبح عدد قليل من السكان الأثرياء يرتدون الحرير وبدأت صناعة الأقمشة الحريرية تتراجع شيئا فشيئا، خاصة وأنها أصبحت تلقى منافسة شرسة من الأقمشة والأنسجة الإنجليزية[1].

يتعلم الأطفال اليتامى المتواجدون في المستشفى المسيحي وفي مؤسسة راهبات المحبة ببيروت بعض الفنون مثل الخياطة، وقد أقيم لهذا الغرض ورشات للعمل واسعة تابعة للمؤسسة تنتج مجموعة من الصناعات من أهمها الفساتين المخصصة للنساء التركيات، وتعتبر الأخوات الراهبات خياطات ماهرات، ولذلك الفساتين التي يصنعنها تتميز بجودتها[2].

تعرف التجارة في بيروت مجموعة من السلبيات كغيرها من المناطق خاصة الضرائب المرهقة التي كانت تفرض من قبل السلطات، فأكثر السكان الأغنياء في بداية القرن 19م كانوا يلجئون إلى القرى الواقعة في سفوح الجبال عند أقل بادرة تنبئ بالظلم، أو أقل خبر يسبق هذه النكبات المحزنة، فيمكثون هناك حتى تهدأ الأمور ولا يعودون إلا بعد أن يدفعوا مبلغا من القيمة المفروضة عليهم، أو بحصولهم على كفالة تضمن راحتهم، وقد كان نزوح السكان يحدث جمودا في الأعمال إلى حد شلل الأنشطة الاقتصادية وتوقف حركتها، ويأخذ البؤس في الانتشار بين الناس[3]، لكن بالرغم من كل هذه العوائق شهدت مدينة بيروت تطورا نسبيا مع نهاية القرن 19م، وانتشرت فيها المحلات التجارية الجديدة المليئة بمختلف أنواع السلع والمنتجات، خاصة مع انفتاحها على السوق الأوربية[4].

4ـــ التجارة في المدن الشامية الجنوبية:

مدينة القدس تحتوي على بازار كبير، وهو الآخر عبارة عن شارع طويل تصطف به العديد من المحلات المليئة بالأشياء المتنوعة وهي ضيقة لدرجة أن بعضا من تجارها يبقون واقفين على أبوابها[5]، وتتميز شوارع بازارات القدس كغيرها

[1] Edouard blondel, ibid, p24.
[2] G téqui, op cit, p252.
[3] هنري قيز ، المصدر السابق، ص 22.
[4] جوزف بدوي، المرجع السابق، د ص.
[5] Léonie de bazelaire, op cit, p112.

من المدن الأخرى أنها مغطاة بالكامل مما يجعل دخول أشعة الشمس إليها أمرا ناذرا والهواء لا يدور فيها بحرية بسبب ضيقها[1]، وتوجد فيها إلى جانب المحلات العديد من الأكشاك الصغيرة، وتجد السلع ملقاة أمامها فهناك من يبيع الكعك المذهب بالزيت، كما يكثر فيها الإسكافيون الذين يصلحون الأحذية، وتوجد تجارة الخردة التي تجد بها أنواعا مختلفة من الأشياء القديمة مكدسة، إضافة إلى ذلك توجد تجارة الأسلحة التي يقبل عليها البدو كثيرا وهم مهوسون بها[2].

توجد في بازارات القدس كل الحرف والمهن نذكر منها: الخبازين، صانعي الحلويات، الجزارين، الحلاقين، بيع الأقمشة والصوف المبهرخ والحرير والأوشحة التي تجلب من أزمير، حلب، دمشق، وتمتاز بجودتها وبدقة اللون وبحسن الرسم، ويوجد سوق المؤن بالقدس عرض شارعه 3 أمتار وهو محاط بالمتاجر حيث تجد بضائع في سلال موضوعة على الرفوف كالبطيخ، الخروب،الخبز المحلي المستدير الشكل، أجبان[3]، وقد انبهر الرحالة بيار بيتيوت Pierre Petiot من التنوع الذي لاحظه في بازار القدس فقال:"... تباع في مدينة القدس أشياء متنوعة كالفواكه خاصة المشمش، التين، اللوز، ويباع فيها أيضا الكعك المستدير، ويوجد في السوق أعداد كبيرة من الناس يتحركون من متجر لآخر، يصرخون، يتحركون، يدخنون، وترى جمالا محملة بالبضائع، الأزياء غريبة ومتنوعة إلى مالا نهاية، وأحيانا يأتيك التاجر بنفسه ويصطحبك لمحله كي ترى سلعه..."[4]، كما توجد به محلات تبيع مسابح العنبر، وعرق اللؤلؤ، الشموع الملونة، اللبان، أيقونات يونانية، وهي موجهة على وجه الخصوص للحجاج المسيحيين الذين يشترونها

[1] Pierre petiot, op cit, p89.
[2] Léonie de bazelaire, op cit, p177.
[3] L'abbé jh lespinasse, op cit, pp 341-343..
[4] Pierre petiot, op cit, p89.
تحدث القس لاسبيناج أيضا عن التنوع الكبير الذي يوجد في سوق القدس بقوله:"...تجد في السوق مزيجا من السكان سوريين، أتراك، بدو، زنوج، وتجد البعض في خرق، والبعض يرتدي ملابس جميلة، وبعضهم مسلحون مثل قطاع الطرق..."
L'abbé jh Lespinasse, op cit, p341.
ينظر كذلك للملحق رقم 12.

للذكرى[1]، والأسعار خاضعة للمراقبة وتفرض على البضائع ضرائب محددة وهي مهمة يقوم بها ضباط الجمارك[2].

من الظواهر الموجودة في البازارات والتي ذكرها لنا الرحالة بيار لويس Pierre Louis Péchenard هي ظاهرة التسكع والتسول المنتشرة في الأسواق فيقول:"... هناك من السكان المحليين من لا يشتغل، وعملهم الوحيد هو طلب البقشيش من السياح والحجاج المسيحيين مقابل حمل أمتعتهم..."[3]، والملاحظ من خلال كتب الرحالة أن الذين تمكنوا من وضع أيديهم على كل أنواع التجارة المربحة وحتى المهن المربحة هم اليهود الذين تغلغلوا في وسط المجتمع وأصبح عددهم معتبرا في المدينة، وقد أشار إلى ذلك بيار لويس Pierre Louis Péchenard الذي زار المدينة في سنة 1893م[4]، ونفس الملاحظة نجدها عند الرحالة م م ب ف M m p v الذي زار المدينة في سنة 1895م والذي قال هو الآخر أن اليهود أصبحوا يحتكرون التجارة بالمدينة[5].

صفد هي الأخرى مدينة تجارية بامتياز ويعود السبب الرئيسي لذلك امتلاكها لموقع هام، لكنها بدأت تفقد تدريجيا تلك المكانة بسبب تحول طرق التجارة التي كانت على علاقة بها، وأهمها القوافل القادمة من دمشق إلى مصر ومن القاهرة إلى بغداد، كما أنها لم تعد في علاقة مع التجارة الأوربية التي أصبحت مدينة بيروت مركزا جديدا لها، ومن الملاحظ في هذه المدينة أيضا أن اليهود تمكنوا من بسط سيطرتهم على التجارة، وأصبحوا يتمتعون بامتيازات واسعة مقارنة مع بقية المناطق في بلاد الشام[6].

---

[1] Alphonse couret, op cit, p159.
[2] Alphonse couret, ibid, p161.
[3] Pierre louis péchenard, op cit, p92.
[4] Pierre louis péchenard, ibid, p291.
[5] M m p v, op cit, p149.
[6] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p413.

بالفعل تمكن اليهود خلال القرن 19م من بسط سيطرتهم على جزء كبير من تجارة بلاد الشام، فمثلا تذكر الكتابات التاريخية أنه في مدينة دمشق وحدها وجدت حوالي 24 بيت رأس مالها يقارب 5 ملايين فرنك، وقد تمتع اليهود بنفوذ تجاري كبير وسيطروا على كبريات المدن كدمشق وصفد وحلب وبيروت وعكا وحيفا، وحتى مع دخول الامتيازات الأوربية التجارية إلى البلاد العثمانية

يقام السوق في صفد كل يوم جمعة وكذلك ينظم سوق آخر يوم الاثنين على سفح جبل ثابور، ويوجد فيه مزيج من الأزياء المتنوعة والمختلفة الأشكال والألوان، وفي السوق يوجد خليط يضم اختلافات سكانية كالمتواليس، اليهود، البدو، الأتراك، ويأتي بعضهم من الناصرة، وكذلك من مدينة عكا القريبة، كما يأتي لهذا السوق الفلاحون من منطقة الجولان، وهذا السوق متنوع البضائع ويوجد فيه أشياء متنوعة كالأقمشة، المواد الغذائية، الخيام، المقاهي، الخيول، الرماح، الباعة، المشترين، الصيحات المختلفة، خليط من الأجناس، غبار التراب[1].

التجارة في مدينة يافا نشطة جدا، وهذا ما ذكره ليوني دو بازولار Léonie de Bazelaire **الذي زار المدينة أن سوق يافا نشط جدا وبه حركة كبيرة جدا وصرخات وضجيج، ويأتيه الناس من كل مكان، وتباع به سلع متنوعة أكوام من البرتقال، سلال الليمون، قطعان من الأغنام والماعز...[2]، ويعود سبب النشاط التجاري الكبير بالمدينة إلى ميناء المدينة[3] الذي يمتلك مكانة هاما، ويعتبر مركزا تجاريا بامتياز ودائما هو مليء بالحيوية والنشاط الكبير[4]، وتمتلك المدينة كذلك أهمية تجارية كبيرة بسبب مرور آلاف الحجاج عبر مينائها سنويا[5]، وقدم لنا القس لسبيناس** L'abbé jh Lespinasse **شرحا مفصلا عن التنوع الذي يعرفه سوق يافا فيقول:"... سوق يافا مليء بمختلف الأجناس أتراك، عرب، يهود، زنوخ، وهم يرتدون أزياء مختلفة، جالسون، واقفون، البعض يتكلم بصوت عال، والبعض يدخن النرجيلة والشيبوك، الجمال الخيول والحمير، سلال من البرتقال والليمون، الإسكواش، حبوب التين، الجراد، أشخاص يحزمون البندقية على الكتف وخناجر و مسدسات على الحزام، قوافل طويلة من الجمال..."[6].**

كان لهم نصيب وافر من الأرباح والمعاملات التجارية مع الغرب خاصة مع الإنجليز. سهام مُحَمَّد هنداوي، المرجع السابق، ص 157.

[1] L'abbé jean jacques bourrasse, op cit, p 415.

[2] Léonie de bazelaire, op cit, p255.

[3] عرفت مدينة يافا تزايدا ملحوظا في عدد السكان مع نهاية القرن 18م و بداية القرن19م، ولذلك تم توسيع المرفأ الموجود بها بالنحت ونسف الصخور بالمفرقعات. مُحَمَّد كرد علي، المصدر السابق، ج5، ص149.

[4] L'abbé jh Lespinasse, op cit, p79.

[5] Edouard blondel, op cit, p241.

[6] L'abbé jh Lespinasse, op cit, p81.

يوجد في مدينة نابلس هي الأخرى بازار كبير به الكثير من المحلات التجارية التي تبيع منتجات مختلفة[1]، ومدينة نابلس مشهورة بتجارة الصابون والدباغة والقطن[2]، كما تشتهر بوفرة مصادرها الأولية، وهو ما جعلها مدينة مزدهرة تجاريا وأصبحت تعرف نشاطا كبيرا[3]، وتحظى نابلس بشهرة كبيرة وفيها كم هائل من الأزياء، وتأتيها الشعوب من كل مكان حتى القبائل البدوية[4].

نستنتج من خلال ما سبق أن الجوانب الاقتصادية في بلاد الشام خلال القرن 19م لم تعرف تطورا ملحوظا مقارنة بالفترة السابقة وهي فترة الحكم المملوكي، ولم تنفتح كثيرا على التطورات التي عرفتها أوربا منذ عهد الثورة الصناعية، وعليه حافظ السكان على نفس الأنماط التقليدية في كل الجوانب ولم يسعوا إلى تطويرها، وبقية الزراعة على نمطها التقليدي الذي يعتمد على وسائل بسيطة مما جعل إنتاجه يكون ذو طابع معيشي فقط، وعانت الصناعة المحلية في النصف الثاني من القرن 19م من تدفق السلع الأوربية التي أصبحت تنافس المنتجات المحلية بسبب أسعارها المنخفضة، ولكن بالرغم من ذلك الملاحظ على الصناعة المحلية هو الجودة والإتقان وحسن التصميم، أما التجارة فهي الأخرى لم ترقى لمستوى النشاط الدولي العالي بسبب عوامل قديمة كتحول طرق التجارة الدولية، وعوامل حديثة كتطور وسائل النقل الأوربية وتضاعف الإنتاخ الذي يعود للتطور الصناعي وانفتاح الشام على الروافد الأوربية بعد منح الدول الأوربية لامتيازات اقتصادية واسعة، هذا الأمر لا يشمل كل المدن الشامية فمنها ما بقي محافظا على تقاليده التجارية ونذكر على سبيل المثال: حلب، بيروت، دمشق.

[1] L’abbé jh Lespinasse, ibid, p175.
[2] L’abbe a. parraud, op cit, p126.
[3] L’abbe becq, op cit, p179.
[4] Firmin rauzy, op cit, p63.

الخاتمة

نالت بلاد الشام أهمية كبيرة في أذهان الفرنسيين، وهو ما جعل أعدادا كثيرة منهم تنظم رحلات إليها، وقد دونوا كل ملاحظاتهم عنها مما وفر لنا مادة علمية غزيرة مكنتنا من التعرف على خصائص المنطقة من منظور آخر، وبعد دراساتنا وبحثنا في تفاصيل هذه الكتب تمكنا من استخلاص مجموعة من النتائج في الختام وهي كالتالي:

*غزارة الرحلات الفرنسية المتجهة نحو بلاد الشام، وتميزها عن باقي الكتابات الأوربية بالتفصيل والتدقيق والتمحيص في سرد الوقائع وتحليلها، كما أنها تتميز بالشمولية من حيث المواضيع التي عالجتها، فتجد فيها كل مظاهر الحياة الشرقية وتطوراتها والعوامل المتحكمة في ذلك.

*تميزت الرحلات الفرنسية بانتظامها إذ تعاقبت طوال القرن 19م مما يسمح بدراسة تطور الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية للمنطقة، وقد ساهم الرحالة الفرنسيون من خلال كتاباتهم في تقديم تفصيل لنمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية لبلاد الشام، وغيرها من المظاهر التي لا تجدها أحيانا في الكتابات المحلية.

*غنى وتنوع الملاحظات التي دونها الرحالة حول المناطق التي زاروها، والباحث في كتبهم يجد كما هائلا من المعلومات العامة والدقيقة؛ إذ أنهم لم يهملوا الحديث عن التفاصيل والجزئيات، بل كان لهم العديد من التعليقات على مواضيع متنوعة، ودعموا ملاحظاتهم بشهادات محلية أخذوها من عند سكان المناطق التي زاروها، وبالتالي يمكن القول أنها دراسات شاملة وملمة بجميع جوانب الحياة الشامية.

*توفر الرحلات الفرنسية مادة تاريخية خام للباحثين لاسيما وأن الرحلة تعتبر من المصادر المهمة في كتابة التاريخ باعتبارها وثيقة من وثائقه الأساسية، ولكن دائما يبقى على الباحث الحذر في الأخذ منها، ولا بد على الباحث في التاريخ التمحيص والتدقيق والمقارنة والغربلة لهذه المعلومات، لأنها في الأخير تبقى دراسات نسبية خاضعة لنوع من الذاتية وقائمة على أساس توجه الرحالة وتربيته الدينية وطبيعة الدافع الذي جعله يقوم بالرحلة.

*تعدد وتنوع أسباب ودوافع الرحلات حسب الأغراض منها، وحسب طبيعة الإيديولوجية التي يحملها الرحالة في حد ذاته، مما أدى إلى توفر مادة شاملة

عالجت كل الجوانب، وعدد أدبيات الرحلة الفرنسية كبير جدا استخدمنا منه في دراستنا أكثر من 54 مصدر، وهي عبارة عن جزء بسيط مما كتبه الرحالة الفرنسيون، كل هذا ساهم في بناء قاعدة استشرافية متينة مكنت الدول الأوروبية فيما بعد من تحقيق أهدافها الاستدمارية، لأنها زودتها بما تحتاجه من معلومات وتفاصيل حتى الدقيقة منها، ومن هنا نقول: أن الدول الأوربية عرفت كيف تستفيد من هذه المادة وتمكنت بالفعل في بداية القرن 20م من تحقيق أطماعها الاستدمارية.

*اختلاف أسباب ودوافع الرحلات أدى في نهاية المطاف لوجود تباين واضح في الحقائق والمعلومات التي قدموها، فمنهم من كانت له إيديولوجية دينية تدفعه للتحدث عن المرجعية الدينية المسيحية للمنطقة وتجده يمجد هذا التاريخ ويطنب في ذلك، بل وفي بعض الأحيان يوجد من بالغ في حديثه عن الفئات المسيحية حتى أن القارئ في بعض الأحيان يظن أنه في عالم مسيحي، وهناك من الرحالة من كان لهم نظرة استعلائية فتجدهم يحتقرون المسلمين ويصفونهم بأسوء الصفات ويصورونهم على أساس أنهم شعب همجي، ويلصقون فيهم كل ما هو سلبي عكس ذكرهم لتفاصيل حياة النصارى خاصة و أن فرنسا كان لها علاقات معهم أسست لها الامتيازات التي منحت لها.

*يوجد من الرحالة من كانت رحلته ذات طابع تجسسي خاصة الرحالة العسكريين وبالتالي تجد ملاحظاتهم وإحصائياتهم شاملة ودقيقة هدفها شرح الوضعية الاجتماعية لتسهيل تحقيق الأهداف بعيدة المدى كالاستعمار، وما ذكرناه سابقا لا يعني عدم وجود ثلة من الرحالة الذين كانت نظرتهم للمجتمع الشامي خلال القرن 19م موضوعية وهو ما التمسناه في كتاباتهم، وذلك بعد التمحيص فيها ومقارنتها مع الكتابات المحلية التي كانت متطابقة معها إلى حد ما.

*يمكن القول: أن من أهم آثار الرحلة الفرنسية إلى بلاد الشام هو تأسيس دعائم الاحتلال، إضافة إلى زيادة شغف الشعوب الأوربية نحو المنطقة بسبب أسلوب التشويق الذي تضمنته الرحلات، وهو ما دفع أعدادا كبيرة منهم إلى البحث عن اقتحام هذا الفضاء الجديد الساحر، وتنوعت أغراضهم نذكر منها جانبين أساسيين هما: الدافع الديني المتمثل في الحج المسيحي، والدافع الاقتصادي وهدفه تحقيق أرباح خاصة من خلال استثمار رؤوس الأموال في المنطقة، وقد زادت الوتيرة مع

النصف الثاني من القرن 19م بعد منح الدول الأوربية العديد من الامتيازات في المنطقة خاصة الدينية والاقتصادية.

*المجتمع الشامي هو مجتمع فسيفسائي مركب ومتكون من عدة فئات وعدة ديانات وتختلف عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم، إضافة إلى التنوع المذهبي والطائفي الكبير وتنوع الميول وتنوع الاتجاهات الفكرية وأنماط المعيشة، ولكن بالرغم من ذلك كانوا يعيشون في جو من التسامح الديني والتكامل الاقتصادي تحت لواء الدولة العثمانية، وتقريبا في كل المدن الشامية نجد هذا المزيج السكاني الذي كان يعيش في جو من الأمن والسلام ويتعاملون تعاملا طيبا قائما على احترام الآخر، وقليلا ما تحدث مشاكل بينها، والمشكل الوحيد الذي يمكن الإشارة له هو الفتنة التي حدثت سنة 1860م، لكننا بينا في الدراسة أسبابها الخارجية والأيادي التي كانت وراء حدوث هذه الحرب الأهلية.

*تحتل مدن لبنان الشامية المكانة الأولى في التنوع الفسيفسائي المجتمعي، ويعود ذلك إلى عدة عوامل من بينها الموقع الذي تحتله فهو موقع تتجاذب فيه مصالح عدة دول إقليمية وحتى دولية بسبب موقعه الهام، ونذكر على سبيل المثال مدينة بيروت التي نجد فيها مختلف الفئات منها الإسلامية والمسيحية التي توجد بكثرة مقارنة ببقية المناطق، حتى أن الرحالة في كتاباتهم قد بالغوا في تقدير عددهم، ويخول للقارئ أنه في مدينة مسيحية، وهي مدينة مليئة بالموارنة وكذلك مختلف الطوائف المسيحية الأورثودوكسية والبروتستانتية والكاثوليكية، وللدول الأوربية مصالح فيها وكذلك لديها العديد من الامتيازات، وأشهرها: امتياز حماية الكاثوليك لفرنسا وامتياز حماية البروتستانت لبريطانيا وامتياز حماية الأورثودوكس الممنوح لروسيا، وبالتالي هي مركز تجاذب تحول إلى إطار عالمي مركب من عدة أديان وأجناس.

*قدمت كتب الرحلة إحصائيات مفصلة عن عدد سكان المدن الشامية الكبرى التي زاروها، بل قدمت تفصيلا حتى على عدد السكان حسب الديانات، وإحصائياتها شملت كل مراحل القرن 19م تقريبا لأن الرحلات كانت منتظمة، وعرف عدد سكان المدن الشامية تزايدا ملحوظا ومنتظما طوال هذا القرن، ويعود السبب في ذلك لعدة أمور نذكر منها التطور الاقتصادي الملحوظ للمدن مقارنة بالريف مما جعل السكان يلجئون إليها هربا من صعوبة الظروف المعيشية في الريف، ونذكر على

سبيل المثال الضرائب الكثيرة التي كانت ترهق كاهل الفلاحين، وكذلك انتشار ظاهرة انعدام الأمن والاستقرار، وانتشار قطاع الطرق والمعتدين، أضف إلى ذلك فترات الجفاف التي عرفتها بلاد الشام، ونذكر أيضا من العوامل التي ساهمت في تطور الأنشطة الاقتصادية بالمدن انفتاح بلاد الشام على أوربا بعد منح الدولة العثمانية لامتيازات وتسهيلات للدول الأوربية، وفتح باب ممارسة الطقوس الدينية بكل حرية لاسيما وأن بلاد الشام تحتوي على مقدسات دينية مسيحية، ونذكر أهمها: كنيسة القيامة بالقدس التي تعتبر الركن الأساسي للحج المسيحي، وبالتالي تزايد الحجاج المسيحيين هو تزايد للأنشطة الاقتصادية وفرص العمل، وهذا يعتبر من أهم عوامل الجذب والاستقرار للسكان.

*الملاحظ على عدد سكان المجتمع الشامي هو التزايد الكبير للعنصر اليهودي، وذلك بسبب تزايد عمليات الهجرة لاسيما إلى مدينة القدس، وقد منعت السلطات العثمانية دخولهم لاسيما في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، لكنهم كانوا يتسللون فرادى وجماعات ويختبئون في ملاجئ كالفئران، وقويت شوكتهم وأصبحوا بعد مرور فترة زمنية يشكلون قوة بشرية مهمة تزامنت مع ظهور الحركة الصهيونية، وهو ما جعلهم يؤسسون للفكر الاستيطاني بالمنطقة ويمهدون الطريق لإخوانهم من أجل اتخاذها كوطن قومي، وبنو فكرتهم على مجموعة من الإدعاءات الباطلة التي لا أساس لها.

*ساهم تحسن الظروف الصحية في بلاد الشام بصفة عامة طوال القرن 19م في تزايد عدد السكان، ويمكن القول أن مناخ بلاد الشام مناخ صحي وملائم لعيش، مما جعل المنطقة تستقطب السكان سواء المهاجرين أو السائحين، والمناخ ليس هو عامل الجذب الوحيد إنما هناك عوامل أخرى أبرزها العامل الديني، حيث تعتبر الشام مهبط الأنبياء والرسل ومكان مليء بالمقدسات الدينية، ومن أبرز المقدسات الدينية الإسلامية: المسجد الأقصى، وكذلك بلاد الشام بلاد مباركة ومذكورة في الكتاب والسنة وهناك العديد من المزارات الدينية الإسلامية الأخرى، ونذكر من أهم الهجرات التي توجهت نحو بلاد الشام هجرة المغاربة لاسيما الجزائريين الذين لحقوا بالأمير عبد القادر الجزائري الذي اختار مدينة دمشق، وبالنسبة للمقدسات المسيحية كما أشرنا سابقا توجد كنيسة القيامة في بيت المقدس والتي تحتوي على القبر المقدس الذي يعتبر محور الحج المسيحي والمكان الأكثر قدسية لدى المسيحيين، وهو الأمر الذي ساهم في تضاعف عدد الرحلات الحجية للمنطقة

خاصة بعد انفتاح الشام على أوربا في عهد الامتيازات الدينية والاقتصادية الممنوحة من قبل الدولة العثمانية .

*التمييز بين مختلف طوائف المجتمع وبين مختلف دياناته في بلاد الشام يتم عبر اللباس إذ هو من أهم الوسائل التي يمكن من خلالها التفريق، وحتى يمكننا من خلالها معرفة طبقات المجتمع فتبين لنا الغني والفقير، وتبين الفلاح والحرفي والموظف الحكومي ورجل الدين، وتبين لنا المسلمين بمختلف مذاهبهم وطرقهم والمسيحيين بمختلف طوائفهم واليهوديين، ويتباين اللباس في الشكل واللون والحجم، ويمكن لأي شخص حتى ولو كان أجنبيا عن المكان عند قدومه للشام معرفة انتماء الشخص الديني والمذهبي والاجتماعي، والمدن الشامية تظهر على شكل لوحة فنية مكونة من مختلف الألوان والأشكال متراكبة مع بعضها في إطار واحد، وهي من أبرز عوامل السحر الشرقي الذي استقطب الرحالة الفرنسيين وغيرهم.

*انتشار مبادئ التسامح والتعايش الديني والمذهبي حيث يتعايش أفراد الديانات السماوية بالمنطقة مع بعضهم البعض وهم المسلمون والمسيحيون واليهود، وتتعايش في نفس الوقت المذاهب الإسلامية فتجد المسلمين السنة بمختلف مذاهبهم والشيعة بمختلف فروعهم، وتتعايش المذاهب المسيحية بمختلف أقسامها سواء الكبرى وهم الكاثوليك والأورثودوكس والبروتستانت أو الفروع المختلفة، وتتعايش كذلك مختلف الطبقات الاجتماعية في نسق اجتماعي واقتصادي مترابط.

*انفتاح المجتمع الشامي على العادات والتقاليد الغربية بداية من منتصف القرن 19م، وبدأ يظهر فكر التقليد خاصة بعد تزايد العلاقات مع أوربا بعد حصولها على العديد من الامتيازات داخل الأراضي الشامية، وهو ما أدى إلى تضاعف عدد الأجانب المقيمين بها وكذلك تضاعفت مؤسساتهم خاصة الدينية المسيحية، وتم إنشاء العديد من المدارس مما أدى إلى رواج العادات الغربية، فتغيرت العادات والتقاليد وطريقة الكلام واللبس والأكل وغيرها، وتعتبر مدينة بيروت أولى المدن الشامية التي عرفت انتشار هذا التقليد والانفتاح بحكم موقعها وبحكم كثرة الفئة المسيحية بها، والتي كانت في علاقة وطيدة مع فرنسا خاصة وأن سكانها المارونيين اعتبروا أنفسهم من الرعايا الفرنسيين، كما أن فرنسا لم تقصر

معهم ودعمتهم وقدمت لهم يد العون باعتبارها المشرفة على حقوق المسيحيين الكاثوليك بالمنطقة.

*تميز سكان الشام بعادات وتقاليد حسنة فهم مرنون في تعاملاتهم، ومنفتحون على مختلف الأمم ويكرمون الضيف ويستقبلونه بحفاوة، وبإمكان أي أحد العيش بينهم في أمان وسلام ويمكنه التأقلم معهم بسرعة لأنهم أهل لذلك، وظل سكان الشام يحافظون على تقاليدهم المتوارثة منذ القديم ولم يتخلوا عنها، وبالنسبة للجانب الديني حافظ الشاميون على التزامهم وحشمتهم والتزموا بتعاليم الدين، ونساؤهن مستورات لا ترى منهن أي شيء ولا يمكنك أن تفرق بينهن، حتى مسيحيو بلاد الشام تميزوا تقريبا بنفس الأخلاق والعادات وتعايشوا مع المسلمين، وربطتهم علاقات متينة حتى صاروا شيئا واحدا، أما اليهود فهم معروفون بعاداتهم السيئة كالخداع والغش والسمسرة والتحايل وغيرها من الأمور التي أصبحت جزءا لا يتجزأ منهم، وهم منبوذون ومكروهون في كل زمان.

*تنوع الأنشطة الاقتصادية التي كان يمارسها السكان، ومن أكثرها انتشارا الزراعة التي عرفت تباينا في الأنشطة الممارسة، والتنوع كان قائما على أساس مجموعة من العوامل الطبيعية كالمناج الذي كان امتدادا من المناج المتوسطي إلى المناج الجبلي القاري نهاية بالصحراوي، وهو ما فرض على الفلاح غرس محاصيل ملائمة لطبيعته مما جعل الإنتاخ متنوعا، وكذلك تخضع الفلاحة إلى عامل طبيعي آخر وهو التنوع التضاريسي من جبال وسهول، فاضطر سكان المناطق الجبلية إلى التوجه لغرس الأشجار المثمرة وسكان المناطق السهلية خاصة الداخلية توجهوا نحو زراعة الحبوب.

*تأثرت الزراعة بعوامل سياسية قائمة على أساس السياسة المتبعة من قبل السلطة المحلية في تسيير الأراضي، ومدى قدرتها على توفير الأمن والاستقرار للفلاحين من أجل ممارسة أنشطتهم بحرية واطمئنان، وكذلك طبيعة النظام الضريبي المتبع الذي كثيرا ما عانى منه الفلاح البسيط، واضطر لهجر أرضه، وتأثرت الزراعة أيضا بوسائل الإنتاخ التي كانت بسيطة جدا ولا تساعد النشاط الزراعي الكثيف، وعليه توجه أغلب الفلاحين إلى الزراعة المعيشية الاكتفائية.

*تنوع الحرف والصنائع التي مارسها سكان الشام، وكان إنتاجها يتميز بالإتقان والدقة والاحترافية الكبيرة، لكنها كانت تتعرض لمنافسة شرسة من قبل

المنتجات الأوربية التي غزت الأسواق الشامية بسبب انفتاحها على أوربا، وبالتالي تدنى المستوى المعيشي لهذه الطبقة التي تعتبر الحرفة المدخول الرئيسي لديها،

*غلبة النشاط التجاري على النشاط الاقتصادي بسبب موقع بلاد الشام التجاري الممتاز، والذي يعتبر مركز عبور إستراتيجي لمختلف القوافل البرية وحتى الرحلات البحرية بحكم إطلال بعض المدن الشامية على البحر الأبيض المتوسط خاصة مدينة بيروت، كما لعب طريق الحج الشامي دورا كبيرا في ازدهار النشاط التجاري للمنطقة فكان بمثابة الرابط بين أوربا والمنطقة، مما أدى إلى تنوع السلع والبضائع وامتلاء الأسواق بالمنتجات الأجنبية.

*خضوع الأسواق الشامية لنفس نمط التقسيم القائم على أساس معايير يأتي في مقدمتها التخصص، حيث نجد كل سوق مسماة على أساس الحرفة التي تمارس فيها، كما غلب الطابع الحرفي على الصناعات الشامية وهي على العموم قائمة على التوارث أبا عن جدا، والشامين معروفون بعادة عدم التخلي عن حرف العائلة المتوارثة ولو كان دخلها قليلا، وهذا الأمر ساهم في وجود بعض الحرف القديمة التقليدية بكثرة وكمثال على ذلك: نذكر الصناعات النحاسية وصناعة السروخ وصناعة السيوف.

*مجال البحث ما يزال مفتوحا لكتابة مواضيع جديدة عن الشرق عامة وبلاد الشام خاصة من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين، خاصة وأنها تزخر بالعديد من المعلومات حول العديد من الجوانب الأخرى التي لم نعالجها في موضوعنا، لاسيما وأننا قد اقتصرنا في هذه الدراسة على الجانب الاجتماعي فقط، وقد لاحظنا من خلال احتكاكنا بمصادر الرحالة الفرنسيين تطرقهم بالتفصيل لمظاهر الحياة الأخرى بالمناطق التي زاروها، فمثلا يمكن كتابة موضوع خاص بنمط العمران المشرقي الذي عالجه الرحالة بالتفصيل، إذ تحدثوا عن المنشآت الدينية والمباني العامة والمنازل الخاصة، وكذلك يمكن تخصيص دراسة أثرية حول المخلفات العمرانية القديمة ببلاد الشام لاسيما آثار تدمر وآثار بعلبك التي أفاض الرحالة في وصفها.

*من المناطق الأخرى التي مستها كتابات الرحالة الفرنسيين كثيرا مصر التي كانت محور عبور في رحلات الفرنسيين وقدموا الكثير حولها، فتجد الحديث عن المجتمع المصري وعن عاداته وتقاليده، وكذلك وصف لمختلف المظاهر

الاجتماعية كالمقاهي والحمامات ودور العبادة الإسلامية والمسيحية، ونجد كذلك تفصيلا حول الآثار الفرعونية وعلى رأسها الأهرامات، وتحدثوا أيضا عن الجانب الاقتصادي ومراحل تطوره من أواخر القرن 18م إلى القرن 19م.

*كما يمكننا تخصيص دراسات أخرى خاصة حول المدن المصرية التي فصل فيها الرحالة كالإسكندرية والقاهرة والإسماعيلية وبورسعيد، كما تتحدث الرحلات الفرنسية عن العديد من المدن التركية وصفا وتفصيلا كمدينة إسطنبول وأزمير وغيرها، وبالتالي يمكننا القول أن كتب الرحلات الفرنسية خلال القرن 19م هي أرضية خصبة للباحثين ومجال البحث لا يزال فيها مفتوحا للعديد من المواضيع، وهي مصدر مهم من المصادر التاريخية التي أعطت تفصيلا عن بلاد الشام خلال هذه الفترة.

تم بحمد الله وفضله إنجاز هذا العمل الذي نرجو من ورائه الفائدة العامة وإثراء مجال البحث.

الـــملاحق

قائمة الملاحق:

-الملحق رقم 01: خريطة بلاد الشام.

-الملحق رقم 02:مناطق كان يسكنها اليهود في مطلع القرن 19م.

-الملحق رقم 03: صورة للأمير عبد القادر الجزائري.

-الملحق رقم 04: قائمة لأسماء القناصل الفرنسيين في مدينة القدس خلال القرن 19م و مطلع القرن 20م.

-الملحق رقم 05:صورة للباس بدو شاميين.

- الملحق رقم 06: قائمة للمدارس البروتستانتية التي تأسست في جبل لبنا خلال القرن 19م.

- الملحق رقم 07: لوحة فنية لجبل لبنان في القرن 19م للرحالة الإنجليزي وليام هنري بارتلت.

- الملحق رقم 08: صورة خاصة بالبازار المخصص لبيع السلع التقليدية بمدينة دمشق.

- الملحق رقم 09: صورة لأحد مقاهي مدينة دمشق.

- الملحق رقم 10: الحي المؤدي لكنيسة القيامة في مدينة القدس.

- الملحق رقم 11: صورة لأحد الأسواق الموجودة في شوارع مدينة القدس.

- الملحق رقم 12: صورة لحرفي متخصص في صناعة القطن في مدينة القدس.

- الملحق رقم 13: دائرة نسبية تبين عدد سكان مدينة دمشق حسب الديانة حسب تقدير الرحالة جول قزافي ديفروفي1848م.

-الملحق رقم 14: دائرة نسبية تبين عدد سكان مدينة حلب حسب الديانة بتقدير الرحالة الفرنسي ليون بول 1865م.

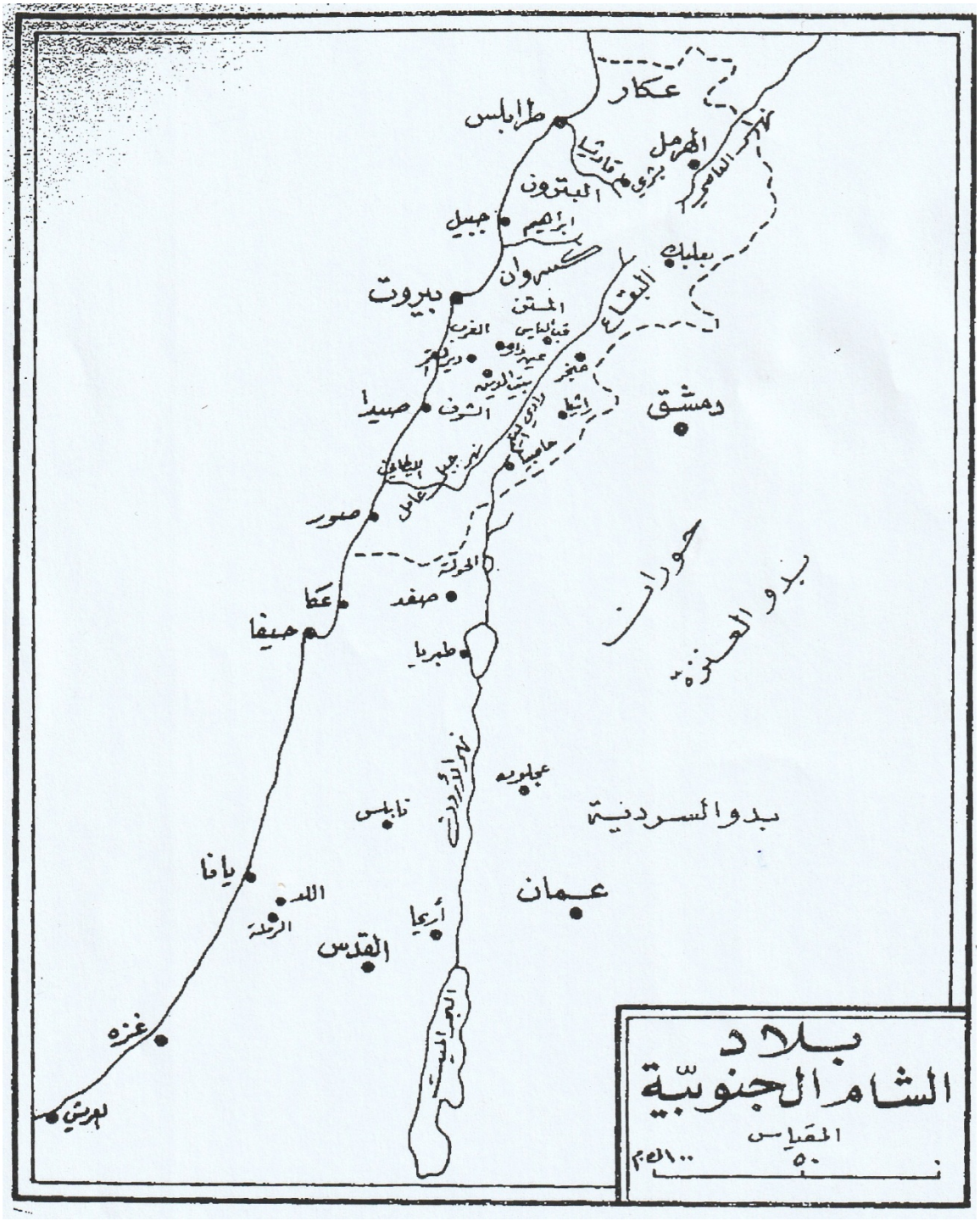
- **الملحق رقم 15:** دائرة نسبية تبين عدد سكان مدينة حماة حسب الديانات بتقدير الرحالة ميشال جوليان 1893م.

- **الملحق رقم 16:** منحنى بياني يبين تطور عدد سكان مدينة صور خلال القرن 19م.

- **الملحق رقم 17:** دائرة نسبية تبين عدد سكان مدينة نابلس حسب الديانات بتقدير الرحالة الفرنسي جين ليان 1882م.

الملحق رقم 01:

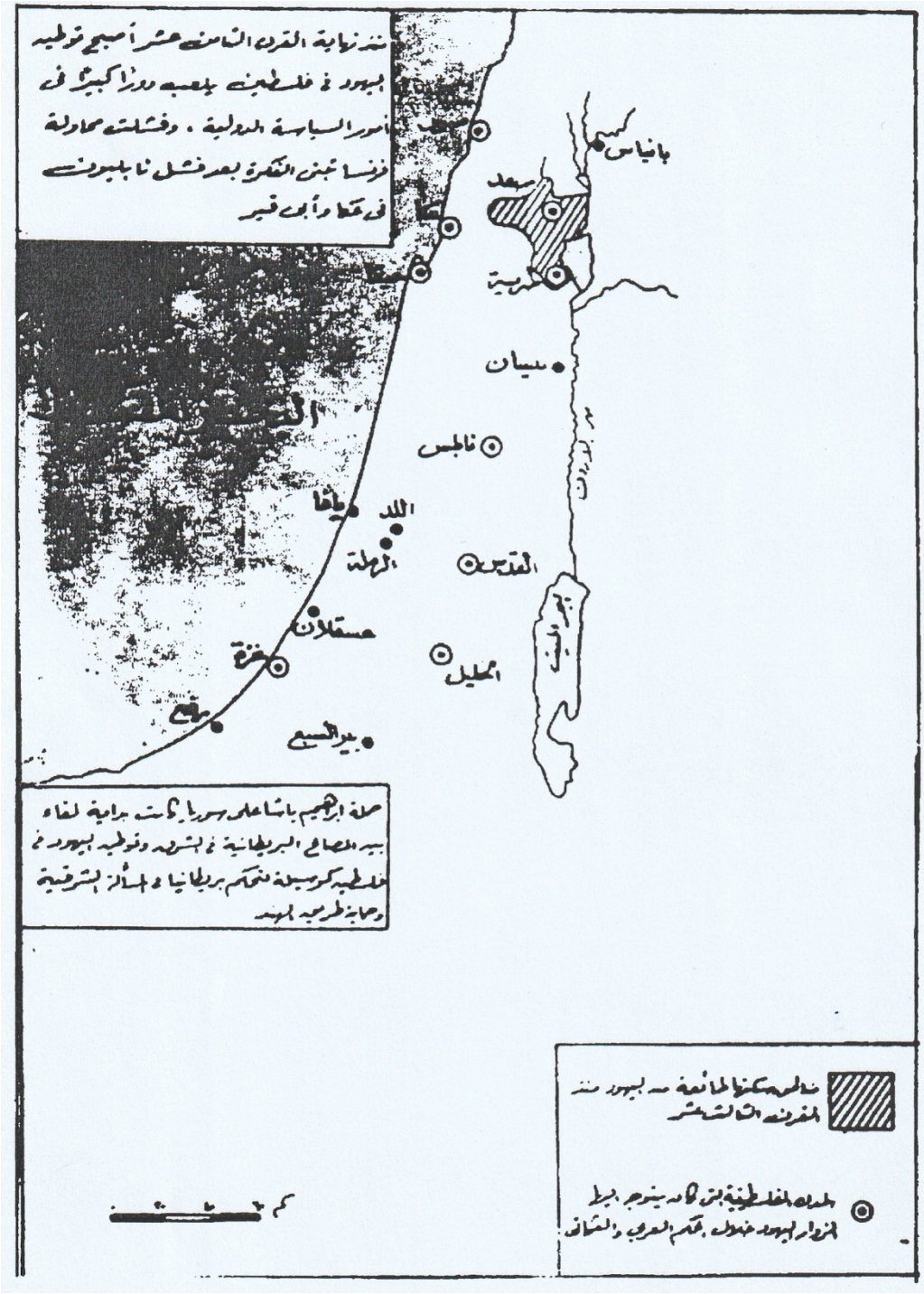
خريطة بلاد الشام[1].



الملحق رقم 02:

[1] عبد الكريم رافق، **بلاد الشام و مصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت 1516م-1798**، دراسات في تاريخ العرب الحديث، دمشق ، سوريا 1968م، ص 471.

مناطق كان يسكنها اليهود في مطلع القرن 19م[1].



الملحق رقم 03:

[1] نائلة الوعري، **دور القنصليات الأجنبية في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين 1840–1914**، دار الشروق، الأردن2007م، ص357.

صورة للأمير عبد القادر الجزائري[1].



الملحق رقم 04:

[1] عادل إسماعيل، **لبنان في تاريخه و تراثه**، مركز الحريري الثقافي، بيروت، لبنان1993م، ص 544.

قائمة لأسماء القناصل الفرنسيين في مدينة القدس خلال القرن 19م ومطلع القرن 20م[1].

اسم القنصل	سنوات العمل
01- قابريال دو لانتيفي	1844-1843
02- إدموند دو برارد	1845-1844
03- جوزيف هولويس	1848-1845
04- بول إميل بوتا	1855-1848
05- إدموند دو برارد	1871-1855
06- إرنست كرامبون	1873-1871
07- سالفاتور باتيمونيو	1881-1873
08- أدريان لانقلاز	1883-1881
09- شارل ديستراس	1885-1883
10- لوسيان مونج	1885
11- شارل لودولوكس	1898-1885
12- إرنست أوزيبي	1901-1898
13- هونور دوماس	1902
14- أوغست بوب	1904-1902
15- جورخ أوتري	1908-1905
16- جورخ قيرود	1914-1908

الملحق رقم 05:

صورة للباس سكان البدو الشاميين[1].

[1] نائلة الوعري، المرجع السابق، ص 365.



الملحق رقم 06:

[1]https://bestsale.2021factorystore.ru/content.

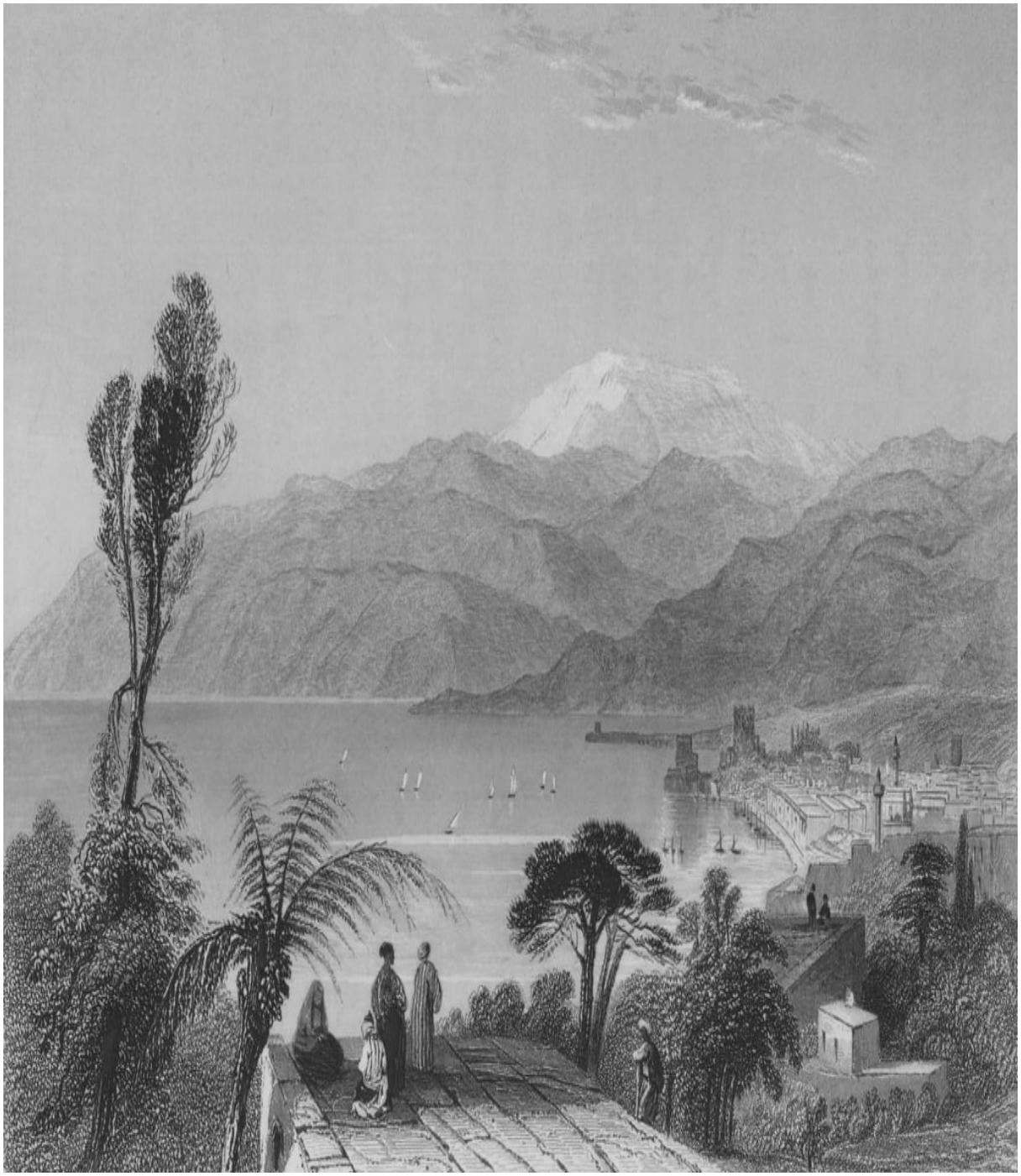
قائمة للمدارس البروتستانتية التي تأسست في جبل لبنا خلال القرن 19م[1].

اسم المدرسة	الموقع	سنة التأسيس
01- بتاتر	الشوف	1853م
02- بتخنية	المتن	1854م
03- عالية	الشوف	1855م
04- سوق الغرب	الشوف	1856م
05- عتيات	الشوف	1858م
06- الشوير	المتن	1859م
07- بسكنتا	المتن	1860م
08- زحلة	زحلة	1860م
09- رأس المتن	المتن	1861م
10- العبادية	المتن	1861م
11- زحلة	زحلة	1861م
12- سوق الغرب للبنات	الشوف	1863م
13- بحمدون	الشوف	1864م
14- تولا	البترون	1866م
15- دير قوبل	الشوف	1867م
16- دير الغزال	كسروان	1867م
17- بحمدون للبنات	الشوف	1870م
18- مجدليا	البترون	1870م
19- حمانا	المتن	1870م

الملحق رقم 07:

لوحة فنية لجبل لبنان في القرن 19م للرحالة الإنجليزي وليام هنري بارتلت[1].

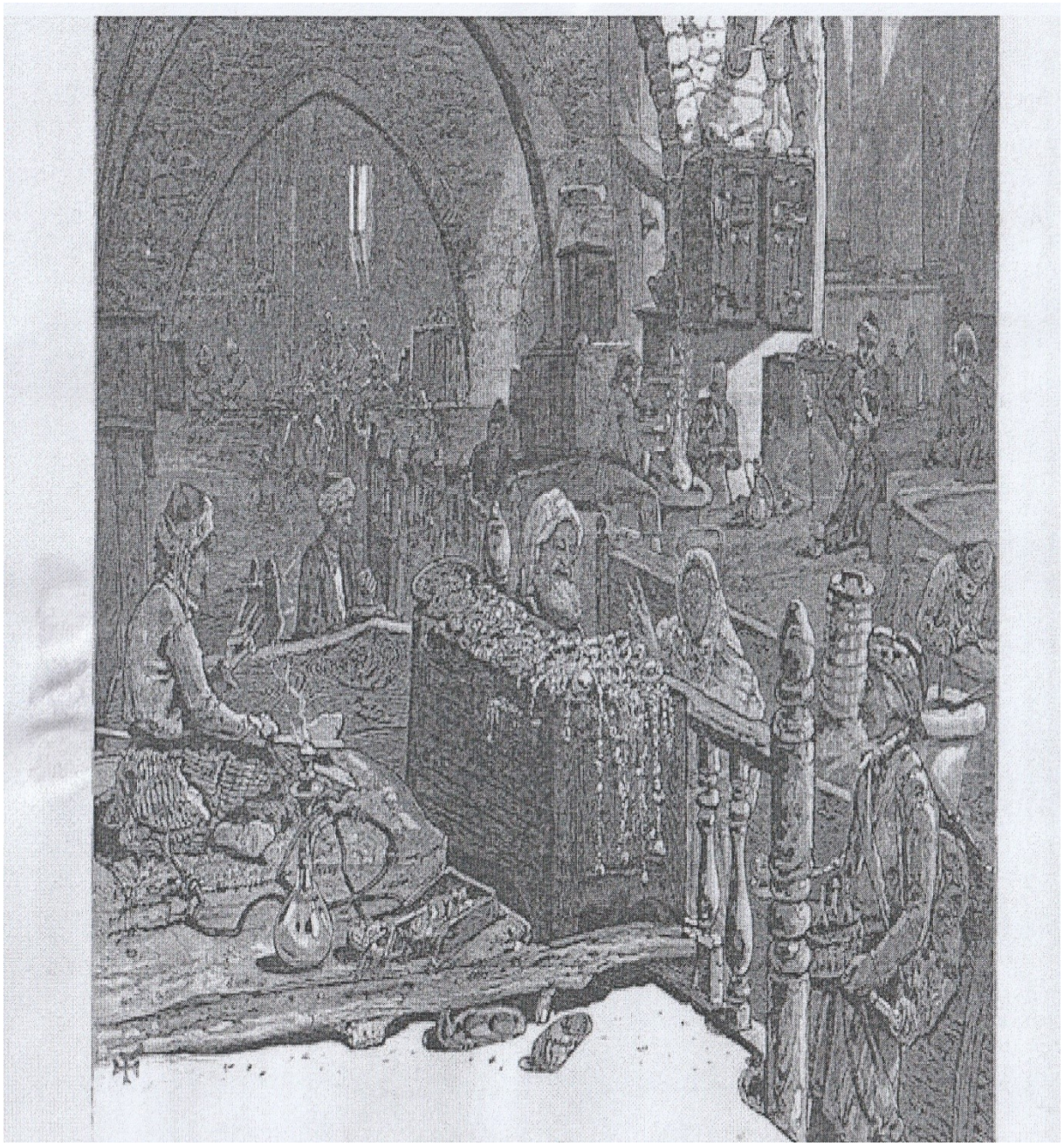
[1] ماجد حمدان بهير، **متصرفية جبل لبنان 1861-1914م** ، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، العراق، 2006م، ص ص 147-148.



الملحق رقم 08:

[1] وليام هنري بارتلت، جبل لبنان، موقع مستر دروك.
www.meisterdrucke.ae/fine-art-prints/William-Henry-Bartlett/1053000/جبل-لبنان-(نقش.html).

صورة خاصة بالبازار المخصص لبيع السلع التقليدية بمدينة دمشق القرن19م[1].



الملحق رقم 09:

[1] Victor Guérin, op.cit, p397.

صورة لأحد مقاهي مدينة دمشق القرن 19م[1].



الملحق رقم 10:

[1] mp Chardin, la Palestine par la bon Ludovic de vaux, Ernest Leroux éditeur, france1883, p 431.

الحي المؤدي لكنيسة القيامة في مدينة القدس القرن 19م[1].



الملحق رقم 11:

[1] mp Chardin, op.cit, p 175.

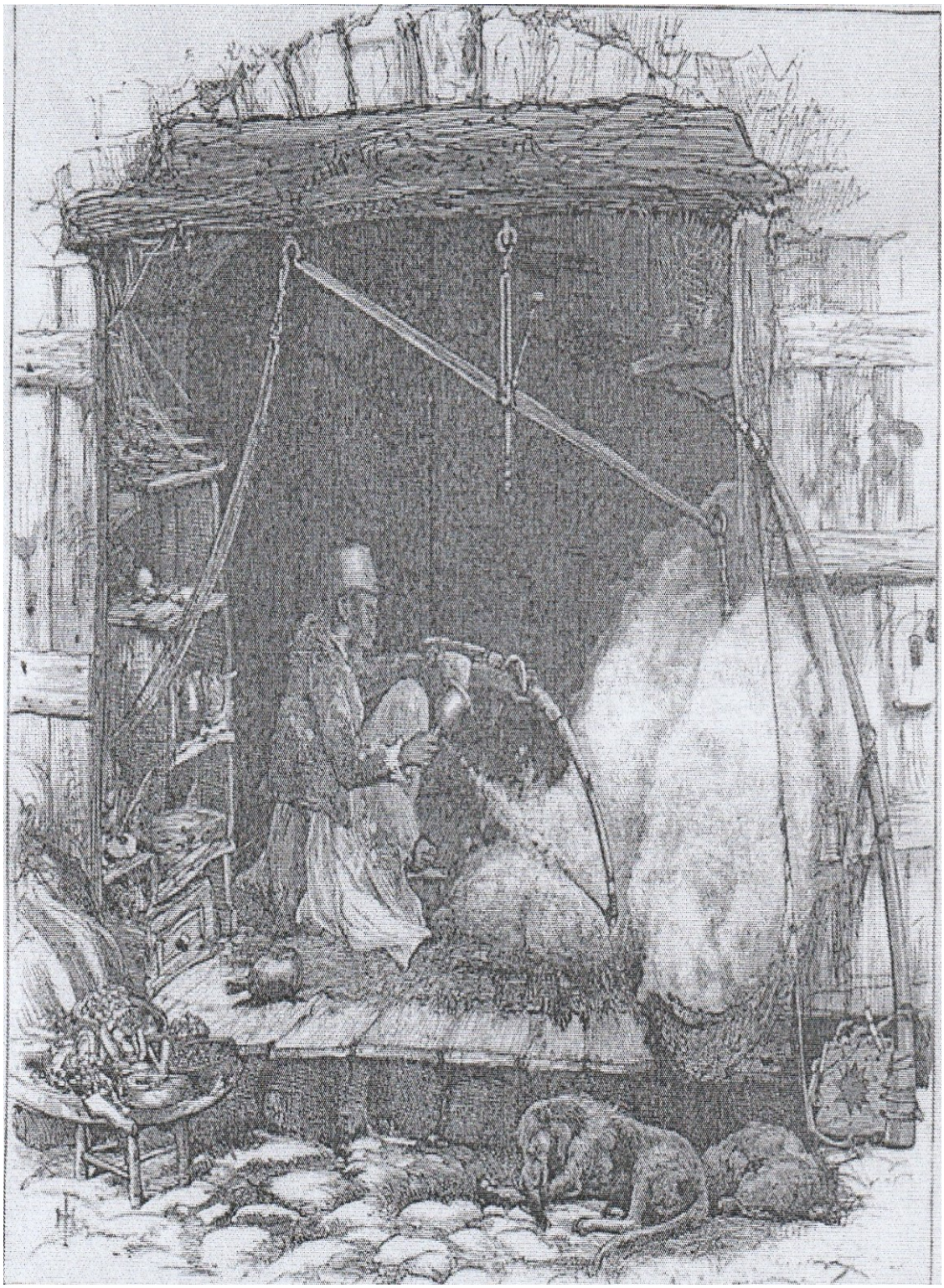
صورة لأحد الأسواق الموجودة في شوارع مدينة القدس القرن19م[1].



الملحق رقم 12:

[1] mp Chardin, op.cit, p 90.

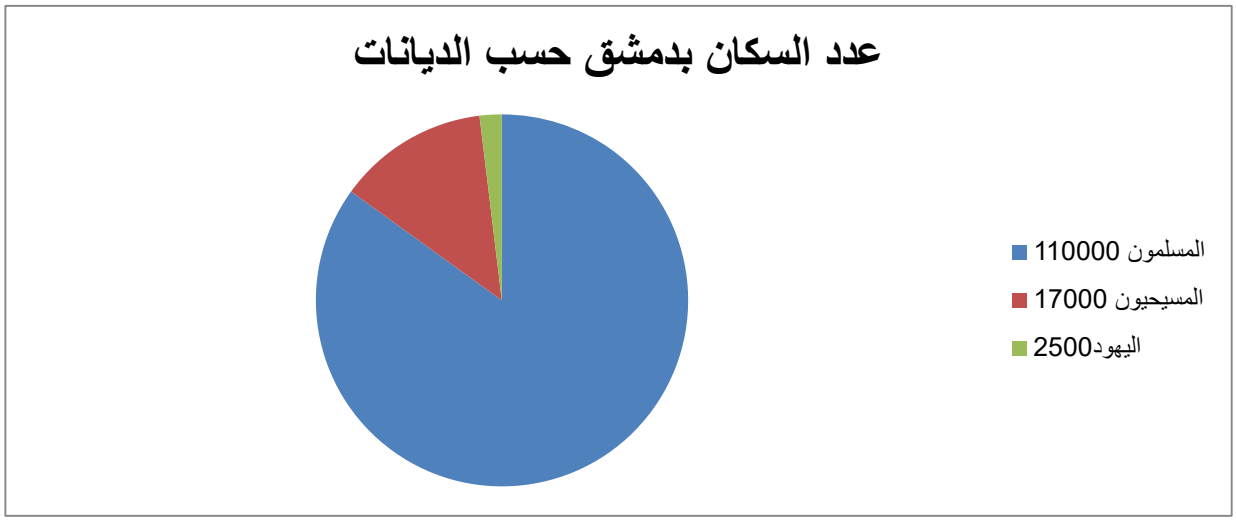
صورة لحرفي متخصص في صناعة القطن في مدينة القدس القرن 19م[1].



الملحق رقم 13:

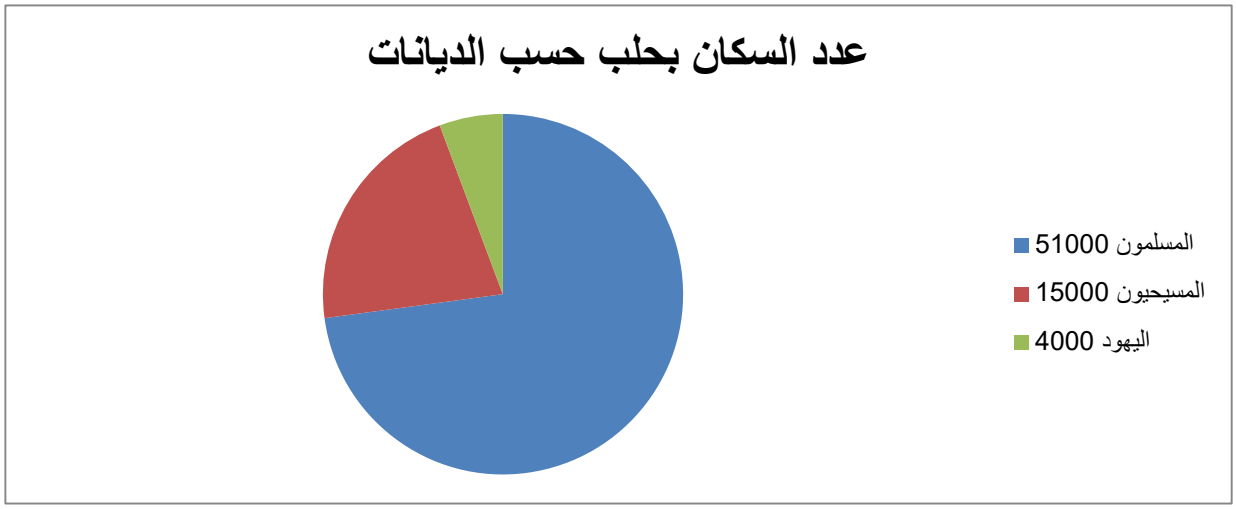
[1] Victor Guérin, op.cit, p 148.

دائرة نسبية تبين عدد سكان مدينة دمشق حسب الديانة حسب تقدير الرحالة جول قزافي ديفروفي1848م[1].



الملحق رقم 14:

دائرة نسبية تبين عدد سكان مدينة حلب حسب الديانة بتقدير الرحالة الفرنسي ليون بول 1865م[2].

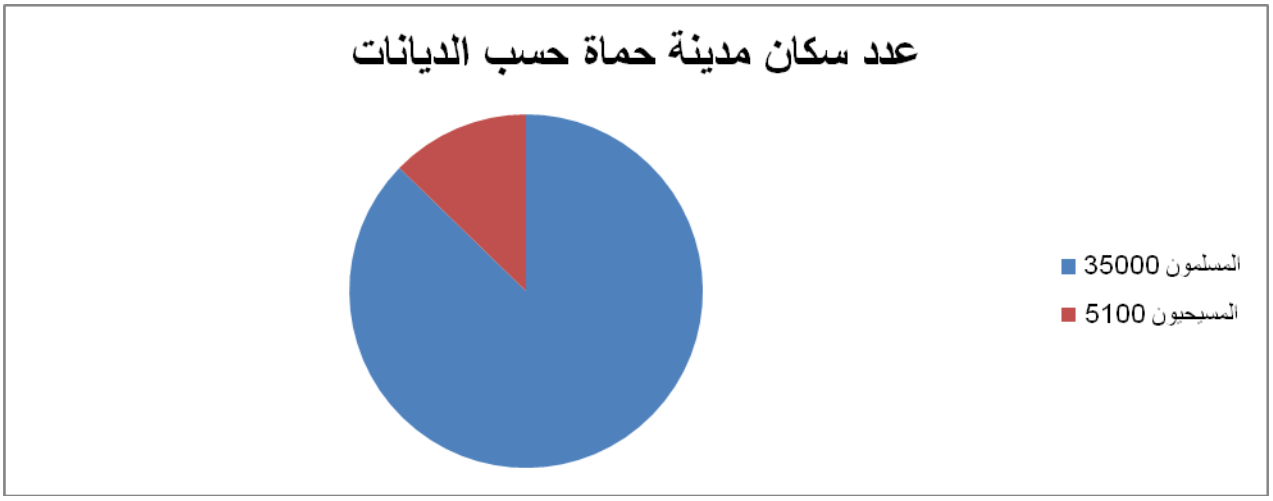


الملحق رقم 15:

[1] Jules Xavier saguez de freuvry, op cit, p11.

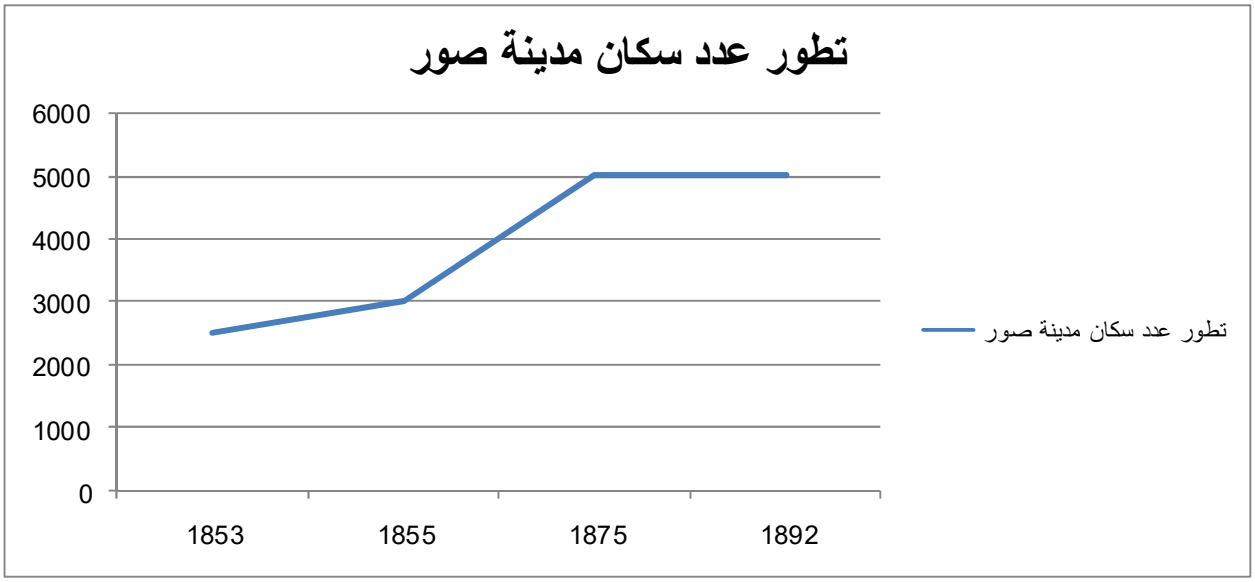
[2] Léon Paul, op cit, p200.

دائرة نسبية تبين عدد سكان مدينة حماة حسب الديانات بتقدير الرحالة ميشال جوليان 1893م[1].



الملحق رقم 16:

منحنى بياني يبين تطور عدد سكان مدينة صور خلال القرن 19م[2].

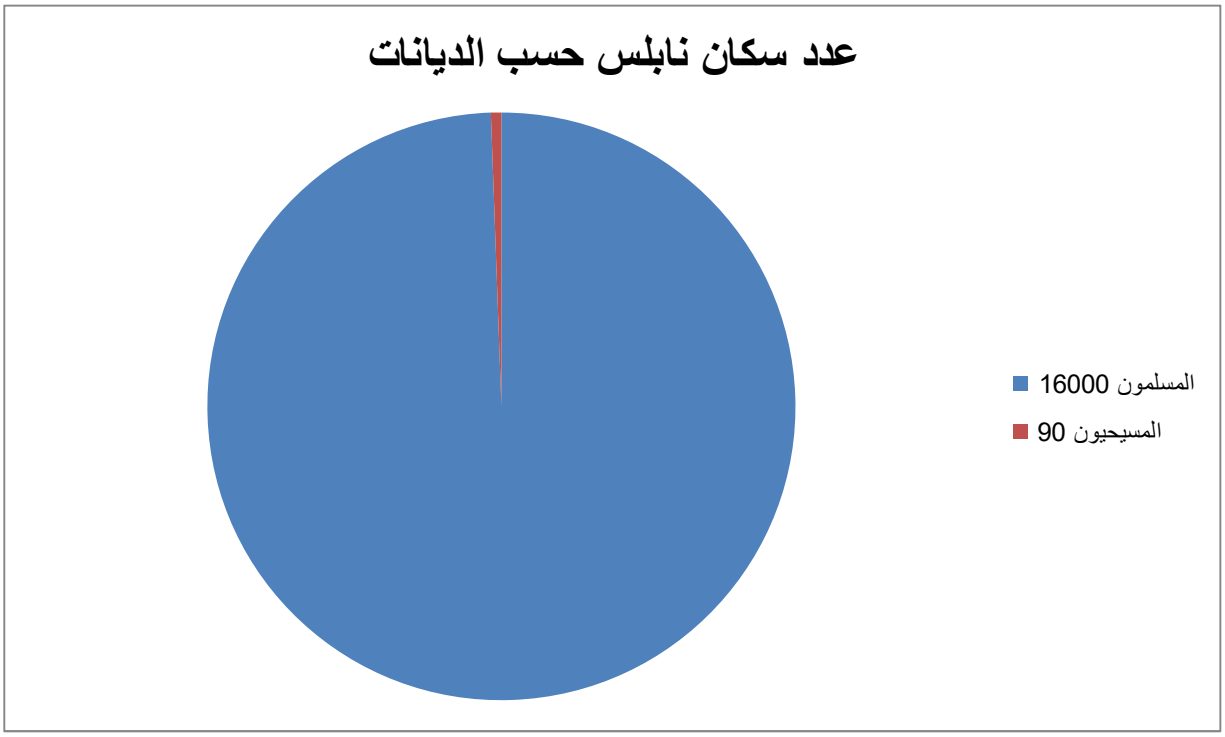


الملحق رقم 17:

[1] Michel Jullien, op cit, p191.

[2] ينظر إلى الجدول ص 124.

دائرة نسبية تبين عدد سكان مدينة نابلس حسب الديانات بتقدير الرحالة الفرنسي جين ليان 1882م[1].



[1] Jean lian, op cit, p43.

البيبليوغرافيا

- القرآن الكريم، رواية ورش.

- كتب الحديث:

01) البخاري أبي عبد الله محمد: **صحيح البخاري**، دار الحديث، القاهرة، مصر 2004م.

قائمة المصادر و المراجع:

- المصادر:

أ) المصادر باللغة العربية:

01) أسطواني الشيخ محمد سعيد: **مشاهد وأحداث دمشقية في منتصف القرن التاسع عشر1356هـ - 1277 هـ/ 1840- 1861م**، تح ونشر: أسعد الأسطواني، دار الجمهورية، ط 1، دمشق1994م.

02) أوبنهايم ماكس: **الدروز**، تر: محمود لبيبو، الفرات للنشر و التوزيع، ط2، بيروت، لبنان2009م.

03) بدري أبي البقاء عبد الله: **نزهة الأنام في محاسن الشام**، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان1980م.

04) تاقرينييه جان بابتيست: **رحلة الفرنسي تاقرينييه إلى العراق في القرن السابع عشر سنة 1676**، تر: كوركيس عواد وبشير فرنسيس، الدار العربية للموسوعات، ط1، بيروت، لبنان2006م.

05) تشرشل شارلز: **بين الدروز والموارنة في ظل الحكم التركي من 1840 إلى 1860م**، تر: فندي الشعار، دار المروخ، 1984م.

06) التميمي محمد رفيق: **فلسطين في نهاية العصر العثماني من خلال الرحلة التي قام بها محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت الكاتب**، در و تح: زهير عبد اللطيف غدايم ومحمد عبد الكريم محافظة، الشركة الجديدة للطباعة و التجليد، عمان 2000م.

07) بن جبير أبو الحسن محمد بن أحمد: **رحلة ابن جبير**، ضبط: محمد زينهم، دار المعارف، ط2، القاهرة، مصر 2021م.

08) جلبي أوليا: **الرحلة الحجازية**، تر تق: الصفصافي أحمد المرسي، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر 1999م.

09) الحفناوي أبو القاسم محمد: **تعريف الخلف برجال السلف**، موفم للنشر، الجزائر، 1991م، خ2.

10) الحكيم يوسف: **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، دار النهار للنشر، ط4، بيروت، لبنان1991م.

11) الحلاق أحمد البديري: **حوادث دمشق اليومية1154-1175هـ/1741-1762م**، نق:محمد سعيد القاسمي، تح نش:أحمد عزت عبد الكريم، مطبعة البيان العربي، ط1، القاهرة، مصر1959م.

12) بن حمادوش الجزائري عبد الرزاق: **رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال**، تق تح تع: أبو القاسم سعد الله، ش و ن ت، الجزائر 1983م.

13) بن خلدون عبد الرحمن بن محمد: **مقدمة بن خلدون**، إع در: أحمد الزعبي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر2009م.

14) سامي عبد الرحمن بك: **القول الحق في بيروت ودمشق**، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان1981م.

15) السيوفي حبيب: **سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر كما وصفها أحد المشاهير الغربيين**، المطبعة المخلصية، بيروت، لبنان 1941م،خ1 و خ2.

16) الشافعي أبي عبد الله محمد ابن إدريس: **ديوان الإمام الشافعي**، جمعه وشرحه: نعيم زرزور، تق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان1984م.

17) الشرقي الفاسي أبي عبد الله محمد بن الطيب: **الرحلة الحجازية**، تق تح: نور الدين شوبد وحسناء بوتوادي: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية 2018م، خ1.

18) الشهرستاني أبي الفتح محمد بن عبد الكريم: **الملل والنحل**، إع تع: أبو عبد الله السعيد الندوه، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، بيروت، لبنان 1994م، خ1.

19) صديقي مصطفى بن كمال الدين بن علي البكري: **الخطرة الثانية الأنسية للروضة الدانية القدسية**، تح در: عبد الرحمن محمد مغربي وعبد الرؤوف خريوش، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، فلسطين 2015م.

20) صديقي مصطفى بن كمال الدين بن علي البكري: **الرحلة العراقية عام 1139هـ/1726م كشط الصدأ و غسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان**، تح تع: ميعاد شرف الدين الكيلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان1971م.

21) طهطاوي رفاعة رافع: **تلخيص الإبريز في تلخيص باريز أو الديوان النفيس بإيوان باريس**، تق: الصغير بن عمار، موفم للنشر، الجزائر2007م.

22) علي باشا محمد: **الرحلة الشامية**، تح تق: علي أحمد كنعان، دار فارس للنشر والتوزيع، ط1، الأردن2002م.

23) فلوبير غوسطاف: **رحلة إلى الشرق فلسطين ولبنان وقرطاخ**، ترجمة: فريد الزاهي، دار الكتب الوطنية ، أبو ظبي2013م.

24) فولني قسطنطين فرانسوا: **ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام**، نقلها إلى العربية: إدوار البستاني، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، ط1، بيروت، لبنان1949م، خ2.

25) القزويني زكرياء بن محمد بن محمود: **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت.

26) القساطلي نعمان: **الروضة الغناء في دمشق الفيحاء**، دار الرائد العربي، ط1، بيروت، لبنان1879م.

27) قيز هنري: **بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن**، تعريب: مارون عبود، منشورات دار المكشوف، ط2، بيروت، لبنان1949، خ1.

28) كرد محمد علي: **خطط الشام**، مكتبة إبن تيمية، ط1، القاهرة، مصر2007م، خ4.

29) لوبون غوستاف: **اليهود في تاريخ الحضارات الأولى**، تر:عادل زعيتر، عليسة للنشر والتوزيع، ط1، تونس2018م.

30) لوبون غوستاف: **حضارة العرب**، ترجمة: عادل زعيتر، عصير الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر 2017م.

31) أبو ماضي إيليا: **ديوان إيليا أبو ماضي**، تق: جبران خليل جبران، تص: سامي الدهان، در: زهير ميرزا، دار العودة، بيروت، لبنان، د ت.

32) مجهول: **مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا**، تح تق: أحمد غان سباتو، سلسلة دراسات ووثاق تاريخ دمشق و الشام، د ت.

33) مخاتيلوفيتش بازيلي: **سوريا ولبنان تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية**، تر:يسير جابر، مر:منذر جابر، دار الحداثة، بيروت، لبنان1988م.

34) مسعد بولس: **لبنان والدستور العثماني بحث سياسي قانوني تاريخي في موقف لبنان الحاضر إزاء الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده**، المطبعة السورية، شارع دمنهور، مصر الجديدة، مصر، د ت.

35) مسعد بولس: **لبنان وسوريا قبل الانتداب وبعده**، المطبعة السورية، شارع دمنهور، مصر الجديدة، مصر 1929م.

36) المسعودي أبو الحسين بن علي: **مروخ الذهب ومعادن الجوهر**، تق: محمد السويدي، موفم للنشر، الجزائر1989م، خ1.

37) مشاقة ميخائيل: **مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان**، إنشاء: ملحم خليل عبدو وواند راوس حنا شخاشيري، مكتبة الجامعة الأمريكية بمصر، مصر1908م.

38) مكاريوس شاهين: **حسر اللثام عن نكبات الشام**، مكتبة فلسطين الرقمية للكتب الملونة، ط1، مصر1895م.

39) نرفال جيراردي: **رحلة إلى الشرق**، تر: كوثر عبد السلام المجيري، مر: سهيد القلماوي، الدار المصرية للتأليف و الترجمة، مصر 1966م، خ1.

40) هابنسترايت جيمس: **رحلة العالم الألماني خ أو هابنسترايت**، تق تع تر:ناصر الدين سعيدوني، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر2013م.

41) الواسطي يحي بن محمود: **فضائل بيت المقدس**، تق تح تع: محمد زينهم محمد عزب، دار المعارف، القاهرة، مصر2001م.

42) ويلسون شارلز: **لوحات من القرن التاسع عشر لبنان فلسطين سيناء 150 لوحة وثيقة مع نص مونوغرافي متميز**، تر: محمد شيا، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان 1995م.

ب) المصادر باللغة الفرنسية:

01) Aleksander Louis olivier corancez(de): **itinéraire d'une partie peu connue de l'Asie mineur**, ebehrard imprimeur libreur, paris, france1816.

02) baudot Victor: **du Bosphore au Jourdain souvenirs d'un pèlerinage de vacances**, société de sainte augustin, Lille, france1889.

03) bazelaire (de) Leonie: **chevauchée en Palestine**, Louis carré Editeur, Paris, france1889.

04) Blondel Edouard: **deusc ans en syrie et en palestine 1838-1839**, chez dufart libraire, paris, france1840.

05) Borromée Houry Charles: **de la syrie considerer sous le rapport commercial**, Arthurs Bertrand libraries Editeur, Paris, France 1842.

06) Bunel Louis: **Jerusalem la cote de Syrie et Constantinople en 1853**, sagnier et Bray libraires Editeurs, Paris, france1854.

07) Camille Allard: **souvenirs d 'orient les Echelles du Levant**, Adrian le clere, dillet éditeur, paris, france1864.

08) Capitaine Deville: **palmyre souvenirs de voyage et histoire**, libraries plon, Paris, France 1894.

09) **Caravan Francaise de 1873 Bonheur et facility du pélérinage de Jerusalem et Bethlehem**, téqui libraries Editeur, Paris, France1875.

10) Charms Gabriel: **voyage en syrie**, calmann lévy Editeur, Paris, france1891.

11) Chateaubriand (de)M, **Itineraire de paris a jerusalem et de jerusalem a paris**, bernardin bechet libraire, France 1867, P 240.

12) Cortambert Richard: **adventures d'un artiste dans le Liban anecdotes mœurs pays ages**, libraries Française, Paris, france1864.

13) Couret Alphonse: **en Terre promise notes de mon voyage en Egypt et en Palestine 16 Avril – 04 juin 1890**, rue francois1, Paris, france1891.

14) Delaroiere (M): **voyage en orient**, Dobécourt libraire éditeur, Paris, france1836.

15) Dhéralde Leon: **voyage en orient Jerusalem et Palestine**, fardant frères quai du marché neuf, Paris, france1881.

16) Donos Martin: **au pays du sauveur impressions de voyage d'un pelerine**, Imprimerie gourand, France1893.

17) Gautier Théophile: **L 'orient**, Charpentier éditeurs, Paris, france1882.

18) Guerin Victor: **la Terre Sainte son histoire ses souvenirs ses sites ses monuments**, 2ed, libraries Plon, Paris , France 1884.

19) Guys Henri: **voyage en Syrie**, Just Rouvier libraries, France, 1855.

20) Jacques Basterot(de) Florimon: **le liban la Galilee et Rome journal d'un voyage en orient et en etalie September 1867 mai 1868**, Charles douniol libraries éditeur, Paris, france1869.

21) Julian Michel: **Sinai et Syrie souvenirs biblique et Chretien's**, societies de saint august in, Lille, france1893.

22) L'abbé beco: **impressions d'un pèlerin de Terre Sainte au printemps de 1855**, g^{xe} imprimeurs libraries , tours, France , 1859.

23) L'abbe becq: **impressions d'un pèlerin de Terre Sainte au printemps de 1855**, a d mome et cie imprimeurs libraires, Paris, france1859.

24) L'abbé Berton Charles: **quatre années en orient et en Italie ou Constantinople Jerusalem et Rome en 1848-49-50-51**, Louis vives libraire éditeur, Paris, france1854.

25) L'abbé bourassé jean jacques**: la Terre Sainte voyage dans l'Arabie pétrée la Judée la Samarie la Galilee at. la Syrie**, mame et cie imprimeurs libraires, tours, france1860.

26) L'abbé bunote: **un pèlerinage a Jerusalem souvenirs de Terre Sainte**, Evreux imprimerie, france1882.

27) L'abbé delaplanche: **le pèlerin voyage en Egypt en Palestine en Syrie a Smyrne êt a Constantinople**, 2ed, chez lever libraire, france1876.

28) L'abbé eschemann Joseph: **souvenirs d'un voyage en Terre Sainte en 1874**, imprimerie catholique Suisse, Fribourg, Suisse 1879.

29) L'abbé landrieusc(m): **aux pays du Christ etudes biblique en Egypt et en Palestine** , maison de la bone press , Paris, France , 1895.

30) L'abbé lespinasse(jh): **d'Agen a Jerusalem journal et letters d'un pèlerin**, Michel et Medan libraries éditeurs, Agen, france1885.

31) L'abbe parraud(a): **Egypt et Palestine souvenir de pèlerinage**, Aubanel frères imprimeurs de nsp le pape et de l'archevêque, Avignon, france1891.

32) l'abbé vannesson(a) : au pays de notre seigneur études et impressions d'un pèlerin ,imprimerie librairie de l'œuvre de sainte Paul, paris ,France , 1890.

33) La société des livres religieux de Toulouse: **Le jeune voyageurs dans la Syrie l'Arabie et la presse**, societies des livers religieuse, france1854.

34) Lacoste Francois: **le glaneur sur le chemain de Jerusalem ou mon pélérinage en Terre Sainte**, marchand imprimeur, Dijon, France 1875.

35) Lamartine: **souvenirs impressions penses et paysages pendant un voyage en orient 1832 -1833 ou note d'un voyage**, chez l'auteur rue de la ville Leveque, t6, paris France 1861.

36) Le compte perthuis (de): **le désert de Syrie l'Euphrate et la Mésopotamie**, librairie hachette et cie, paris, France 1896.

37) Lian Jean: **Jerusalem et la Terre Sainte histoire de pèlerinage de penitence de France aux Sainte lieu 28 avril 08 juin 1882**, imprimerie et lithography g foix rue balquerie, France 1883.

38) Lombay (de) G: **au Sinai Palestine et syrie**, Emest lerousc Editeur, Paris, france1892.

39) M m p v: **impressions et souvenirs deusc sœurs jumelles en voyage**, societies de saint august in, Lille, Paris, france1897.

40) Marquette Louise: **a traverse la Syrie souvenir de voyage**, illustrations par m Louis de Goncourt, societies de ante august in, Lille, france1892.

41) Melchior de vogue Eugene: **surie Palestine month athos voyage ausc pays du passé**, eplon et cie imprimeurs éditeurs, france1876.

42) Missionnaire (Jt): **une excursion en orient**, Eugene ardent éditeur , Limoges, france1879.

43) Moncorps (de) Savigny: **journal d'un voyage en orient 1869-1870 Egypt Syrie Constantinople**, illustré par rio et alph de Neville, libraries Hachette, France 1873.

44) Morot Jean baptiste: **journal de voyage Paris a Jerusalem 1839-1840**, imprimerie de j clave, Paris, france1869.

45) Paul Leon: **journal de voyage Italie Egypt Judée Samarie Galilee Syrie Taurus citicien archipel grec**, librairie Française et étranger, Paris, france1865.

46) Pétigny clara Filleul: **la Palestine ou une visite ausc lieusc saints**, mégard libraires éditeurs, Rouen, france1866.

47) Pétigny Clara filleul: **les jeunes voyageurs en Palestine**, mégard imprimeurs libraires, Rouen, France 1852.

48) Petiot Pierre: **impressions souvenirs de Dijon a Jérusalem vie pèlerinage de penitence 1887**, damongeot imprimeurs, Dijon, france1888.

49) Pierre Louis péchenard: **de Reims a Jerusalem en 1893**, Dubois poplimont imprimeur-éditeur, Reims, france1893.

50) Pressensé (de) Edmond: **le pays de l 'evangile notes d'un voyage en orient**, libraries de chmyrueis Editeur, Paris, France 1864.

51) Rauzy Firmin: **Jerusalem Constantinople athénes**, libraire francal, foix, france1897.

52) Rogeron Gabriel: **souvenirs d'un voyage en orient**, Alphonse Picard et fills éditeurs, Paris, france1899.

53) Saguez freuvry(de) Jules Xavier: **de Damas a Palmyre fragment inédit d'un voyage en orient**, l'imprimerie de bean, saint Germaine, france1848.

54) Sigausc Jean: **voyage au pays du doute accompli par fortune Ram pal**, libraries de la societies des gens de letters, Paris, France 1882.

55) téqui (G)**: caravan française de 1873 Bonheur et facility du pèlerinage de Jerusalem et de Bethlehem**, libraire éditeur de léoeuvre de saint Michel, Paris, France 1875.

-المراجع:

أ) المراجع باللغة العربية:

01) أحمد عادل كمال: **الطريق إلى دمشق فتح بلاد الشام**، دار النفائس، ط1، بيروت، لبنان 1980م.

02) إده ميشال: **الشتات اليهودي والصراع العربي الإسرائيلي**، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان1990م.

03) إسماعيل عادل: **لبنان في تاريخه و تراثه**، مركز الحريري الثقافي، بيروت، لبنان1993م.

04) آن سميت باميلا: **فلسطين والفلسطينيون 1876-1983**، تر: الهام بشارة الخوري، دار الحصاد للنشر و التوزيع، ط1، دمشق، سوريا 1991م.

05) أوفيشر هاينز: **الاستيطان اليهودي في فلسطين مراحله ومصاعبه**، تر تق: ناصر الدين سعيدوني ومعاوية سعيدوني، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر2013م.

06) بايزيدي محمود: **رسالة في عادات الأكراد وتقاليدهم**، تر: جان دوست، أبو ظبي للثقافة والتراث، ط1، الإمارات 2010م.

07) بغدادي عبد القاهر بن الطاهر بن محمد: **الفرق بين الفرق**، در تح:مجدي فتحي السيد، إش: توفيق شعلان، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، د ت.

08) بكار يوسف خليل الشيخ: **الأدب المقارن**، منشورات جامعة القدس المفتوحة، ط1، عمان، الأردن1996م.

09) بلحميسي مولاي: **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، ش و ن ت ، الجزائر1981م.

10) بلعيد عمر لخضر: **الشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة الفكرية والثقافية في بلاد الشام**، جسور للنشر و التوزيع، ط1، المحمدية، الجزائر 2018م.
11) بلغيث محمد الأمين: **دولة المرابطين بالأندلس من مدينة السياسة إلى مدينة العلم**، دار الوعي، ط1، الجزائر2009م.
12) بهران محمد بيومي: **بلاد الشام**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر1990م.
13) بوضرساية بوعزة: **سياسة فرنسا البربرية في الجزائر 1830-1930 وانعكاساتها على المغرب العربي**، دار الحكمة للنشر، الجزائر2010م.

14) بوطالب عبد القادر: **الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير**، تق: روبير أجيرون، منشورات دحلب، الجزائر2009م.
15) بوعزيز يحي: **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر2013م، خ3.
16) بيطار زينات: **الإستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي**، عالم المعرفة، الكويت 1992م.
17) جابري محمد صالح: **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962**، ش و ن ت ، الجزائر1983م.
18) جودا بيير: **الرحلة إلى الشرق رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر**، تر تق: مي عبد الكريم وعلي بدر، الأهالي للطباعة والنشر و التوزيع، ط1، دمشق، سوريا2000م.

19) حسني الجزائري بديعة: **أصحاب الميمنة إن شاء الله**، دار سلام للترجمة والنشر، دمشق، سوريا1993م.
20) حسني محمد الهادي: **الاحتلال الفرنسي للجزائر من خلال نصوص معاصرة**، عالم الأفكار، الجزائر2006م.
21) حسني محمود حسين: **أدب الرحلة عند العرب**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2 منقحة ومزيدة، بيروت، لبنان1983م.

22) حلاق حسان: **التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في بيروت والولايات العثمانية في القرن التاسع عشر سجلات المحكمة الشرعية في بيروت**، الدار الجامعية، بيروت، لبنان 1987م.
23) حمد محمد بن سعود: **موسوعة الرحلات العربية والمعربة المخطوطة والمطبوعة**، كتاب إلكتروني، موقع طريق الإسلام، ط1، 2007م.

24) الخطيب محمد: **بلاد الشام في العهد العثماني**، دار علاء الدين ط ن ت، دمشق، سوريا2018م.
) خوري إميل و عادل إسماعيل: **السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة 1789 إلى سنة 1957**، دار النشر للسياسة و التاريخ، بيروت، لبنان1961م.

25) دراخ محمد: **الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس(1512-1543)**، تصدير: ناصر الدين سعيدوني، شركة الأصالة للنشر، ط3، الجزائر2015م.
26) ديات الفريد: **الوجيز في أحكام الزواج والأسرة للطوائف المسيحية في المملكة الأردنية الهاشمية**، دار الثقافة للنشر و التوزيع، ط1، عمان، الأردن2004م.

27) رافق عبد الكريم: **بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت 1516-1798**، دراسات في تاريخ العرب الحديث، دمشق ، سوريا 1968م.
28) رافق عبد الكريم: **فلسطين في عهد العثمانيين من مطلع القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر ميلادي إلى العام 1326هـ/1918م**، مستل من الموسوعة الفلسطينية، القسم الخاص، المجلد 02، 2016م.

29) رائسي إدريس الناصر: **العلاقات العثمانية الأوربية في القرن السادس عشر**، دار الهادي، ط1، بيروت، لبنان2007م.
30) ركيبي عبد الله: **الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز**، دار الحكمة، الجزائر1998م، خ1.

31) أبو روس أيمن: **نابليون بونابرت إمبراطور فرنسا الذي اكتسح أوربا ثم وقع في الفخ الروسي**، دار الهدى ط ن ت، عين مليلة، الجزائر2015م.
32) ريمون أندريه: **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، تر: لطيف فرخ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر 1991م.

33) الزغبي تركي قاسم: **جبل الدروز في العهد العثماني**، دار البلد للنشر و الطباعة و التوزيع، ط1، سوريا2009م.
34) زيدان جرجي: **تاريخ آداب اللغة العربية**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د ت، خ2.

35) سعد الله أبو القاسم: **أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر**، ش و ن ت، الجزائر1981م، خ1و خ2.
36) سعد الله أبو القاسم: **تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان1998م، خ2.
37) سعدون حمادة: **تاريخ الشيعة في لبنان**، دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان 2008م.
38) سعيد إدوارد: **الإستشراق المفاهيم الغربية للشرق**، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر2006م.

39) سعيدوني ناصر الدين: **دراسات وترجمات في تاريخ المشرق العربي**، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر 2012م.
40) سلسلة عوالم: **أحمد فارس الشدياق المعلم والطالب ونصوص أخرى**، دار القصبة للنشر، الجزائر2012م.

41) سليم حماد الطراونة فاطمة: **الدولة العثمانية وسياستها الدينية تجاه الطوائف النصرانية في القدس وموقف فرنسا منها بخاصة من واقع سجلات محكمة القدس الشرعية(1153-1246هـ/1740-1830م)**، اصدار كلية الآداب، جامعة البترا، عمان 2009م.

42) شاهين فؤاد: **الطائفية في لبنان حاضرها وجذورها التاريخية والاجتماعية**، دار الحداثة، ط2، بيروت، لبنان1986م.

43) شلح محمد عبد الله: **التعليم في فلسطين في عهد الدولة العثمانية 1516-1917م**، تق:أحمد صدقي الدجاني، دار الإحياء الثقافي، القاهرة2003م.

44) الشيخ رضا فرحات أميرة: **الفاطميون تاريخهم و آثارهم في مصر**، كتاب ناشرون، ط1، بيروت، لبنان2013م.

45) شيلشر ليندا: **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، تر: عمرو الملاح ودينا الملاح، مر: عطاف ماردیني، مطبعة دار الجمهورية، ط 1، دمشق، سوريا 1998م.

46) صادر كارين: **دمشق في نصوص الرحالة الفرنسيين بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر**، دار الانتشار العربي، ط1، بيروت، لبنان2010م.

47) الصاوي محمد الصاوي: **الدولة العثمانية**، دار طيبة للطباعة، الجيزة، مصر2012م، خ1.

48) الصاوي محمد الصاوي: **الدولة العثمانية**، دار طيبة للطباعة، الجيزة، مصر2012م.

49) الصباغ ليلى: **الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين 16 و 10/17 و 11 هـ**، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، لبنان1989م.

50) صحراوي عبد القادر: **الأولياء والتصوف في الجزائر خلال العهد العثماني 1520-1830**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2016م.

51) الصعيدي عبد الحكم عبد اللطيف: **الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب**، ط1، القاهرة، مصر1996م.

52) الصلابي علي محمد: **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط**، دار ابن الجوزي، ط1، القاهرة، مصر2007م.

53) الصلابي علي محمد: **صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي**، دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر 2007م.

54) الصليبي كمال: **الدروز في التاريخ**، مؤسسة التراث الدرزي، بيروت، لبنان 2001م.

55) صواف محمد شريف عدنان: **حدثيني يا شام قصص و شخصيات وحوادث تاريخية متجذرة في الذاكرة الدمشقية**، دار العصماء، ط1، دمشق، سوريا2022م.

56) ضومط أنطوان خليل: **الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري 1290-1422**، دار الحداثة، بيروت، لبنان1980م.

57) عادل فؤاد: **المجتمع الشامي**، سلسلة الثقافة الشعبية، القاهرة، مصر، د ت.

58) عبد الرحمن الشوابكة نوال: **أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع هجري**، تق:صلاح جرار، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط1، القدس، فلسطين2008م.

59) عبد الرزاق منصور محمد: **الحمامات العامة بمدينة حلب منذ بداية العصر الأيوبي وحتى نهاية العصر العثماني دراسة آثارية مقارنة**، المكتب العربي للمعارف، ط1، القاهرة، مصر 2014م.

60) عبد الله إبراهيم سعيد: **العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في الأرياف اللبنانية 1861-1914م دراسة مقارنة في التاريخ الريفي استنادا لوثائق أصلية**، دار الفارابي، بيروت، لبنان2003م.

61) عتريسي طلال: **البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان دراسة وثائقية تاريخية**، الوكالة العالمية للتوزيع،ط1، بيروت، لبنان1987م.

62) العطار عدنان: **الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط**، دار الأصالة، الجزائر2010م.

63) العظمة عبد العزيز: **مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها**، تح: نجدة فتحي صفوة، رياض الرايس للكتب و النشر، دمشق، سوريا1947م.

64) عفرون محرز: **آل روتشيلد وآل بكري وآل تليران**، تر: مسعود حاخ مسعود، دار هومة ط ن ت، الجزائر 2013م.

65) علبي أكرم حسن: **يهود الشام في العصر العثماني من خلال سجلات المحاكم الشرعية في مركز الوثائق التاريخية بدمشق 991هـ- 1336هـ/ 1583م- 1909م**، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا2011م.

66) عميراوي أحميدة: **الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني(مذكرات تيدنا أنموذجا)**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر2003م.

67) غاشي محمد: **الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في بناء الصورة**، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، بيروت، لبنان2015م.

68) غرايبه عبد الكريم محمود: **تاريخ العرب الحديث**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان1984م.

69) غربي الغالي: **دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي 1288-1916**، د م خ، ط2، الجزائر2011م.

70) غطاس عائشة: **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقاربة اجتماعية اقتصادية**، منشوراتanep، الجزائر2012م.

71) فهيم حسين محمد: **أدب الرحلات**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت1978م.

72) فيلالي عبد العزيز: **بحوث في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط**، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر2014م.

73) قرود أمحمد: **الدور الثقافي لعلماء الجزائر بالمشرق العربي في القرن 11هـ/17م من خلال ثلاثة نماذخ أحمد المقري عيسى الثعالبي يحي الشاوي النائلي**، دار الخيل العلمية، الجزائر2016م.

74) قطوش وهيبة: **الصراع الفرنسي البريطاني في المشرق العربي 1798-1899 مصر و سوريا**، دار الخلدونية، الجزائر2013م.

75) قنديل فؤاد: **أدب الرحلة في التراث العربي**، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر 2002م.

) كوثراني وجيه: **الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي من المتصرفية العثمانية إلى دولة لبنان الكبير**، منشورات بحسون الثقافية، بيروت، لبنان 1986م.

76) كوثراني وجيه: **السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان1988م.

77) كيالي عبد الوهاب: **الموجز في تاريخ فلسطين الحديث**، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان1971م.

78) لطفي فؤاد: **خانات بلاد الشام**، الفارابي، بيروت، بنان2015م.

79) مارجوليت دافيد صموئيل: **القاهرة و بيت المقدس ودمشق**، تر:خالد أسد عيسى، أحمد غسان سبانو، منشورات دار علاء الدين، دمشق، سوريا2018م.

80) محمد أنيس: **الدولة العثمانية والشرق العربي 1514-1914**، دار الجيل للطباعة، القاهرة، مصر، د ت.

81) محمد سالم لطيفة: **الحكم المصري في الشام 1831-1841م**، مكتبة مدبولي، ط2، القاهرة، مصر 1990م.

82) مسعودي أحمد: **الحملة الفرنسية على الجزائر و المواقف الدولية منها 1792-1830**، دار الخليل، ط ج، الجلفة، الجزائر 2013م.

83) المهيبل إسمى: **الأمير عبد القادر الجزائري في دمشق نشاطه السياسي والفكري 1855-1883**، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر2017م.

84) مي عبد الكريم، **رحالة رومانطقيون يوميات ومشاهدات فلسطين والأردن في كتابات فرنسية في القرن التاسع عشر**، سلسلة شرق الغربيين، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة 2005م.

85) النابلسي عبد الغني بن إسماعيل: **الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز**، تق: أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر1986م.

86) نجيب يوسف: **القدس عبر التاريخ دراسة كتابية وتاريخية وأثرية للقدس والأراضي المقدسة** مطبعة المصريين، ط1، مصر، 2004م.

87) نساخ سيد حامد: **مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب**، الإسكندرية، مصر1984م.

88) هلال عمار: **الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام 1847-1918**، دار هومة للطباعة و ن و ت ، الجزائر2007م.

89) هنداوي سهام محمد: **تاريخ دمشق في عهد السلطان العثماني عبد الحميد**، دار ومؤسسة رسلان، ط1، دمشق، سوريا2012م.

90) وعري نائلة: **دور القنصليات الأجنبية في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين 1840-1914**، دار الشروق، الأردن2007م.

- الرسائل الجامعية :

أ) رسائل الدكتوراه:

01) جبر أميرة، **لبنان من خلال الرحالة الفرنسيين 1798-1918**، أطروحة دكتوراه حلقة ثالثة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية فرع الآداب العربية، بيروت، لبنان 1981-1982م.

02) بارودي شنوفي: **الإ ستشراق الفرنسي والأدب العربي القديم رجيس بلاشير أنموذجا**، أطروحة دكتوراه، جامعة بلعباس، الجزائر2017-2018م.

ب) رسائل الماجستير:

01) بعيو غانية: **التنظيمات العثمانية وآثارها على الولايات العربية الشام والعراق نموذجا 1839-1876م**، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر2، الجزائر 2008-2009م.

02) بهير ماجد حمدان: **متصرفية جبل لبنان 1861-1914م** ، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، العراق، 2006م.

03) حسنة كمال: **العلاقات العثمانية الفرنسية في عهد السلطان سليم الثالث 1789-1807م**، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر2، الجزائر 2005-2006م.

04) رحال أماني خليل: **طريق الحج وعمائره الخدمية في سورية في الفترة العثمانية دراسة تاريخية و مقارنة**، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، سوريا 2015م.

05) زكري لامعة: **الرحلة العلمية بين الأندلس و الدولة المرينية ودورها في تمتين الصلات الثقافية خلال القرنين 7/9هـ-13/15م**، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان 2009-2010م.

06) شايب الدور أمحمد: **الإستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر**، رسالة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر 2009-2010م.

07) الصاعدي هيفة صالح صلاح: **الأوبئة والأمراض في العصرين الأيوبي والمملوكي في مصر والشام**، رسالة ماجستير، جامعة طيبة، السعودية 2012م.

08) العطار عدنان: **الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط**، دار الأصالة، الجزائر2010م.

09) عيزوقي رامي علي: **الأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في لواء بيروت 1839- 1887م قراءة جديدة**، رسالة ماجستير، جامعة تشرين، سوريا 2017م.

10) مراجدة تمارا جورخ إبراهيم: **سيكولوجية بعض المسيحيين في بيت لحم**، رسالة ماجستير، جامعة بير زيت، فلسطين2012م.

- المقالات:

أ) المقالات باللغة العربية:

01) آجقو سامية: **الرحلة بين الواقع وفعل الكتابة**، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد 21، العدد 02، جامعة باتنة، الجزائر، ديسمبر2020م.

02) الأسدي كاظم حسن جاسم: **مدحت باشا واليا لسوريا (1878-1880)**، مجلة جامعة كربلاء العلمية، المجلد السابع، العدد الثاني، العراق 2009م.

03) بدوي جوزيف: **موارنة القرن19 أفراحهم وأتراحهم بعين رحالة فرنسي**، مقال في جريدة المدن الإلكترونية، 2020/09/03 www.almodon.com

04) بغداد عبد الرحمن: **الجزائر في أدبيات الرحالة الفرنسي ألفونس دوديه**، مجلة دراسات إستشراقية، العدد 25، 2021م.

05) بلعيد بن حمده وسيلة: **الرحلة في طلب العلم**، مجلة سيرتا التاريخية الاجتماعية، العدد3، جامعة قسنطينة، ماي 1980م.

06) بن علي طاهر: **دور نصوص الرحلة في الكتابة التاريخية**، مجلة روافد للبحوث والدراسات، العدد 07، جامعة غرداية، الجزائر، ديسمبر2019م.

07) جباري ليلى: **تمثلات الشرق في أدب الرحلة الفرنسي**، مجلة العلوم الإنسانية، العدد48، قسنطينة، ديسمبر 2017م.

08) دين قادة: **رحلة التمقروتي النفحة المسكية وقيمتها التاريخية والعلمية**، مجلة دراسات تاريخية، المجلد العاشر، العدد الأول، 2022م.

09) رافق عبد الكريم: **مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني**، مجلة كلية الآداب، جامعة دمشق، سوريا، د ت.

10) رافق عبد الكريم: **مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني**، مجلة كلية الآداب، جامعة دمشق، د ت.

11) رحماني فاطمة الزهراء: محمد دراخ، **الرحلة أداة تواصل بين العرب والغرب الأوربي خلال القرن 19م الرحلة المصرية والتونسية أنموذجا**، مجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 10، العدد 4 ديسمبر 2018م.

12) رحموني نورة، سعاد شابي: **الرحلة والرحالة في الأدب الجزائري**، مجلة رفوف، المجلد 07، العدد 02، جوان 2019م.

13) رزق جانيت: **الحج الروحي والرحمة المنشودة في السنة البوبيلية**، مجلة المشرق الرقمية، مجلة إلكترونية تصدر مرتين في السنة عن دار المشرق، العدد 08، جوان 2016م.

14) الرويعي حيدر جاسم: **تطور مفهوم الشرق في الفكر الأوربي من خلال كتابات الرحالة الأوربيين**، مجلة القادسية في الآداب و العلوم التربوية ، المجلد 10 العدد(3-4)، 2011م.

15) سديرة سهام: **أدب الرحلة الماهية البنية والشكل، مجلة دراسات معاصرة**، السنة 02، المجلد 02، العدد 02، جامعة تسمسيلت، الجزائر، جويلية 2018م.

16) شترة خير الدين يوسف: **عصام مصطفى عقلة، أدب الرحلة والترحال عند التنيلانيين خلال القرنين 12-13هـ/18-19م**، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، المجلد 07، العدد 02، ديسمبر2021م.

17) صاب رجب معد: **قراءة جديدة في الأسباب الحقيقية لضعف الدولة العثمانية من خلال الامتيازات الفرنسية والتوجه للمشرق العربي 1520- 1798م**، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد 20، العدد 03، 2013م.

18) صانع أحمد: **الرحلة بين الأدبية والإثنوغرافية مقاربة في نصوص رحلية**، مجلة دراسات معاصرة، المجلد 05، العدد 02، جامعة تسمسيلت 2021م.

19) عبد العزيز الحاخ علاوي نسيبة: **مشكلة القهوة والتدخين في الدولة العثمانية 1525-1654م**، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد 18، العدد 11، 2011م.

20) عبد الله التهامي إيمان: **المجتمع المسيحي في طرابلس الشام خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر الميلاديين**، مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد 47، أكتوبر 2018م.

21) العواد محمد: **دبلوماسيون فرنسيون في الدولة العثمانية خلال القرنين 18 و19م**، مجلة جيل للعلوم الإنسانية والاجتماعية، العام08، العدد 72، فبراير2021م.

22) غويني ليلى: **التواصل الثقافي للرحالة الجزائريين مع العلماء المغاربة في العصر الحديث**، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 14، جامعة الجزائر2، الجزائر2012م.

23) بن قومار جلول: **هدايا وعطايا المبعوثين الدبلوماسيين وأهدافها السياسية في البلاط المغربي في عهدي السلطانين أحمد المنصور السعدي والمولى إسماعيل العلوي 1578-1603/1672-1727م**، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 13، العدد 01، 2022م.

24) ماكرثي جوستين: **سياسات الإصلاح العثماني**، تر: عبد اللطيف الحارس، مجلة الاجتهاد، العدد 45-46، بيروت، لبنان2000م.

25) مجاهدي زوليخة: **ملامح الأنثروبولوجية الاجتماعية والدينية في أدب الرحلة رحلة ابن جبير نموذجا**، مجلة أنثروبولوجية الأديان، المجلد 16، العدد 02، جامعة تلمسان، 15/06/2020م.

ب) المقالات باللغة الفرنسية:

01) hasanat Mohamed adel majed: Mohammed al katib, poétique de la ville orientale dans les récits de voyageurs française en orient au XIXème siècle ,Tishreen Université

Journal of Scientifique Studies and Research _ Séries of Arts and Humanités Volume (26) Issue 2, 2004.

- **القواميس والمعاجم:**

01) أبادي الفيروز: **القاموس المحيط**، مر إع: أنس محمد الشامي و زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر 2008م.

02) الزبيدي محمد مرتضى الحسيني: **تاخ العروس من جواهر القاموس**، تح: عبد الفتاح الحلو، مر: أحمد مختار عمر، خالد عبد الكريم جمعة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، خ 29، الكويت1997م.

03) الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر: أساس البلاغة، **كتاب إلكتروني**، موقع كتب عربية.

04) صابان سهيل: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السلسلة 3، الرياض، السعودية2000م.

05) بن منظور جمال الدين: **لسان العرب**، دار المعارف، القاهرة، مصر، د ت، ص 1611.

- **الملتقيات:**

01) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، أعمال المؤتمر الثاني عشر للآثار في الوطن العربي، عنوان المؤتمر: **المسح الأثري في الوطن العربي**، المنامة، البحرين، ماي 1993م.

- **الجرائد:**

01) الأبيض أنيس: المشهد الثقافي والعمراني الذي رسمه الرحالة لمدن لبنان والشام، جريدة الحياة، يومية سياسية عربية دولية مستقلة إلكترونية، بيروت، لبنان، 25 أكتوبر2014م.

02) الأبيض أنيس: شهادة الرحالة الأجانب في الريف اللبناني من القرن السابع عشر إلى التاسع عشر، جريدة الحياة، صحيفة يومية سياسية عربية دولية مستقلة إلكترونية ، بيروت، لبنان، السبت 19 أكتوبر 2013.

03) الأبيض أنيس: لوحات بيروت ودمشق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية عند كرايمسكي، جريدة الحياة، يومية سياسية عربية دولية مستقلة إلكترونية ، بيروت، لبنان، 14 فيفري 2015م.

04) الأسمر جودي: مقاهي مدينة طرابلس اللبنانية، جريدة المدن، جريدة إلكترونية مستقلة إلكترونية ، الثلاثاء 10/04/2018، موقع اللغة و الثقافة العربية www. Langue-arabe.fr

05) بكري محمد: الأمير عبد القادر الجزائري في كتب فرنسية يوم كان للعرب سلطان، جريدة الحياة، يومية سياسية عربية دولية مستقلة إلكترونية ، بيروت، لبنان، السبت 13 جويلية 2013م.

06) مبيضين مهند: التنزه والسيران في دمشق العثمانية، جريدة الحياة، صحيفة يومية سياسية عربية دولية مستقلة إلكترونية، بيروت، لبنان، السبت 3 جوان 2017م.

الفهارس

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

أ

الأمير عبد القادر75/92/93/95/96/97 - - ابن زاكور الفاسي31 -أبو الريحان البيروني32 -أحمد المنصور41 -ابن خلدون52 - احمد الاول60 -ال جنبلاط78 - ال عماد78 -ال نكد78 - الامير مراد78 -الامير قايد78 -الا ارسلان78 -ال هرموش79 -ابو علوان79 - الارد

كاميل82/107/177/191/223/ 225/294/322- اوجان ميشلور 82/91/316-ال حرفوش83 - الكسندر الثاني87 -ادوارد بلوندال108/113/121/122/ 131/137/144/146/150/173/ 175/177/179/190/220/246/ 248/252/323-اف بارت128- اوغست اديب باشا128 - الاسكندر الاكبر -احمد البديري172 -الفونس كورات174/192 -ادموند دي بريسونسي188/218-ادم عليه السلام211 -ايوب عليه السلام211 -ابو الدرداء212 -اوس بن اوس الثقفي212 - ابي ريحانة212 -اثلة بن الاصقع212 -ابي الدحداح212 -الياس عليه السلام 186- ابراهيم عليه السلام214- اسحاق عليه السلام 214-ابي زيد الهلالي251 -أحمد الجزار 290-اسعد باشا 303- ابراهيم باشا - أميرة جبر 82

ب

بوتان42 - بطليموس45 -بايزيد الثاني58 - بارود86/99/108/141/144/ 148/150/154/192/231/ 232/233-بيار لويس بيشونارد87/99/142/150/ 153/155/187/327- باسك88/107/108/134/137/ 147/152/284-بارتيس102 - بينوت135/321-بول هوفلان160 -بورتر 169-بازيلي178 - بيكو191 -بيار بيتيوت194/326-بولس القديس211 -بلال بن رباح212 - البغدادي 38

ت

التمقروتي41 -تاقرينيه43 - تيوفيل قوتيه 82-تشارلز تشرشل133 -تميم الداري 213

ج

جورجي زيدان238- جين جاكس84/115/116/132/133/ 155/161/195/204/209/286/ 292/301/304-جول قزافي90/113/114/115/155/ 177/197/199/207/219/245/ 303-جون تيكي97/117/127/165/190- جورج توماس -جين باتيست108 /223/294-جين سيجوكس117/119/128-جوزيف ايشمان127/156/190/207/210 -جين ليان147/154/157/175/195/ 208-جيراردي نرفال216 - جودي الاسمر 251

ح

حنانيا سيد بولوس211 -حرملة بن يزيد 213

د

دولاروايار80/125/282-
دولابلانش96/106/117/127/188
/322-ديدس160 -دي الكفل
عليه السلام 212

ر

ريتشارد بيرتون38 -رفاعة
رافع الطهطاوي54 -
روتشيلد88 -ريتشارد
كونتومبارت107/294-رامي
علي عيزوقي125 -رضية
الكلبي213
ز
الزمخشري28 -الزبيدي28 -
زكرياء عليه السلام212

س

-سليمان القانوني59 -سليم
الثالث61 -سافنجي دو
مونكوربس97/218/221-سهام
هنداوي212 -سهل بن ربيع
الانصاري212 -سهيل ابن
الحنظلية 212

ش

الشافعي49 -شارل الخامس58 -
شارل بورومي111/306-شاهين
ماكاريوس120/160-شوماخر
156-شاتوبراين208/230/260

ض

ضرار بن الازور 212

ع

عبد الحميد
الثاني20/141/144-عبد
المجيد الاول65 -علي بن ابي
طالب رضي الله عنه84/184/185-
عبد الرحمن بك
سامي119/165/309 -عيسى
عليه السلام36/ 76/174/191-
عمر بن الخطاب رضي الله
عنه217 -عنترة بن شداد251
-عبدالكريم رافق291 -
عبدالوهاب الكيالي 82

غ

-غوتيه63 -غوسطاف فلوبير
91/171/207/251-غوسطاف
لوبون
106/203/219/245/249/272/
309/273

ف

الفيروز أبادي28 -فاسكو
ديجاما46 -فرانسوا الاول58
-فلوبير63 -
فولني66/73/75/79/80/81/98
/103/106/112/113/121/124/
125/171/172/274-فلوريمون
جاك83/94/198/317-فيكتور
قرين88/118/161/172-فرمين
روزي89/108/145/151/194/
208/227/228/232/233/284/
298-فرانسوا
لاكوست116/117/127/134/156-
فيكتور بودوت139/143-فارس
الشدياق167-فضالة بن عبيد
212

ق

قاسم تركي الزغبي 79-قابريال
روجيرون164/321-قابيل211-
قابريال شارمز 243

ك

كريستوف كولومبوس46 -كلارا
فليل دو
76/83/85/86/105/
بيتجني

211/184/182 -كارين
صادر245

ل

لويس الرابع عشر 60-
لامارتين63 -لويس
ماركت85/96/118/119/133/
135/136/218/269-ليوني دو
بازولار89/98/99/140/142/
148/157/194/200/203/230/
328-
لسبيناس89/90/101/147/162/
186/194/234/328-ليون
بول112/115/116/122/123/
126/127/155/156/162-لويس
بينال126/132/134/135/282-
لاورتي حجي138/139 -ليوني
دو برادزالي153-
لومباي183/222/321-ليون
دارالد226 /247-لويس
الكسندر 293

م

محمد
ﷺ32/35/38/76/105/182/184/
185/201/273-ماكس فون
أوبنهايم38 -ماركو
بولو45/56 -محمد بن سعود49 -
المسعودي54 -ماركو بولو-محمد
الثالث60 -محمد علي65/178-
ميشال
جوليان75/85/103/123/134-م
م ب
ف87/90/91/95/129/145/174/
187/220/226/231/266/304/
308/309/327-مارتن
دونوس87/88/145/148/152/
153/157/201-محمد علي
كرد189/190/235/250/275-
موسى عليه السلام76 /212-
محمود الكاراكيزي 251-محمد
الخطيب259- مارون74/81

ن

نابليون بونابرت42/56/61/64
/290/320-نرفال63 -نوح
عليه السلام 17/211/214

هـ

هنري الثاني59 -هنري
الرابع59 -هنري قيز
/76/83/84/104/111/124/167
/176/178/184/196/203/205
/209/215/236/237/238/255
/257/258/261/265/267/275
/295/319-هابيل211 -هود
عليه السلام 212

ي

-يوحنا الدمشقي190-يحي عليه
السلام212 -اليسع عليه
السلام212- -يعقوب عليه
السلام214

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس الأماكن والبلدان

أ

الأردن17 -أنطاكية17/23/85/102-إدلب23 -
انجلترا24/57/60/64/108/165/186/
290/296/300/301/320/321/325-
افريقيا24/25/39/298-
اسيا24/39/102/103/195/197/321-
اوربا24/25/36/38/55/56/57/59/62/
64/65/66/107/129/130/160/161/
178/195/197/218/222/224/226/
244/249/251/265/275/286/292/
293/297/299/300/306/318/319/
321/323-الأناضول26/306 -
ألمانيا23/38/57/156/301-
اسطنبول41/60/178 /200/301-
الاندلس45 -ايطاليا57/187 -
اسبانيا58/60/186 -ارض روم102 -
اريقان102 -اسكندرونة103/104/318-
ارمينيا103/306/318-
امريكا120/170/187/290-
الاستانة121/281/306-ازمير121/326-
اريحا 157-اللاذقية318/320/321-
اصفهان307

ب

بيسان17 -البحر المتوسط -بلاد النهرين -
بيروت20/21/80/82/83/84/85/107/
111/124/125/126/127/128/129/
130/146/163/168/170/173/175/
177/189/190/191/223/224/225/
226/227/247/268/280/282/286/
287/294/295/296/306/307/320/
321/322/323/324/325/328-
بعلبك23/84 /156-البندقية24/25 /60-
البرازيل25 -بلاد الروم -البوسنة26 -بخارى38
-برلين57 -بولونيا59 /228-
بريطانيا38/63/64/80/82/138/170/
186/190-الباروك78 /79-البقاع83 -
بيلان102 -بيت
لحم149/150/151/233/284/298-
بروسيا187 -بافاريا186 -بلجيكا 187-بولندا
187-
بغداد200/302/304/307/318/327-
البصرة307/318-البلاد العربية -بتاتر79

ت

تركيا197/315/321-تونس26/38/235-
تنجنيقا38 -تولوز103/292 -
تدمر155/321 -تسوغ282/298-
توسكانا320

خ

جبل لبنان23/76/170/175-جبل العرب23 -
جبل النصيرية 23 -جنوة25 -
الجزائر26/42/60/91/92/95/96/98-
جيجل60 -الجزر الايونية61 -الجرد76 -
جبل سيون88 -الجليل184 -جنين152-
الجديدات85 -الجولان 328

ح

حمص17/23/84/155-
حماة17/23/84/123/253-
حلب17/20/21/23/25/78/102/103/
104/111/121/122/123/146/166/
168/172/173/176/200/222/246/
258/261/267/279/280/290/291/

293/306/318/319/320/323/326/
328-حوران18/76/101/199-الحجاز38 -
حيفا 154
خ
الخليل 157

د
دمشق17/20/21/23/38/90/91/92/93/
94/95/97/98/99/102/104/105/
106/107/111/112/113/114/115/
116/117/118/119/120/121/123/
146/161/165/171/172/175/
183/188/189/197/198/199/200/
206/207/210/211/212/213/218/
219/220/221/222/230/244/245/
246/247/251/261/273/278/279/
290/291/292/293/300/301/302/
303/304/305/306/307/308/309/
310/311/312/313/314/315/316/
317/318/320/321/323/326/327/
328-دير الزور21 -دير القمر76/78 -ديار
بكر102/104/306/318 -دير أيوب211

ر
الرملة 17 -
روسيا61/62/82/87/120/141/187/
228-روما26/73/114
ز
زحلة 227/133

س
سوريا
17/25/62/73/85/96/103/104/111/
112/121/125/160/161/197/297-
سيناء17 -السقانية79 - سيواس102 -
سارون283 -السودان

ش
شام17/18/19/20/21/22/23/24/25/26/
36/58/65/67/68/72/73/75/76/78/
80/84/85/86/87/90/91/93/99/103
/104/105/106/108/109/110/111/
112/113/120/121/122/124/127/
130/131/133/136/144/146/149/
153/158/160/161/164/167/178/
180/182/184/185/186/187/188/
196/197/202/204/209/210/216/
217/222/224/226/227/231/233/
235/236/237/238/239/240/241/
244/247/248/250/252/253/254/
256/257/258/259/260/261/262/
265/266/271/272/273/275/277/
278/281/283/284/285/289/290/
291/293/294/296/297/298/299/
300/306/307/309/310/314/320/
321/322/325/327/328
-الشوف26/76/79/124/288- الشحار 76

ص
صيدا23/84/135/136/280/281/282/
320- صليما 78-
صور84/134/135/269/281-
صفد155/195/220/283/297/298/
327-الصالحية211

ط
طبرية17/88/89/157/195/220/306-
طرطوس17 -

طرابلس20/23/84/131/132/251/320/
324-طوروس17

ع

عسقلان17 -العرقوب76 -عين عنوب79 -عين
قنا79 -عيات79 -عالية79 -
عكا84/156/281/290/320 -عمواس253
-عدران78

غ

غزة 17/306- الغور17 -الغوطة 17

ف

فلسطين
17/23/73/87/88/140/141/142/
150/214/281-فرنسا22/24/28/36/
42/55/57/58/59/60/61/62/63/64/
65/66/69/72/73/75/76/77/80/82/
83/86/91/92/93/96/99/104/108/
111/112/113/114/121/123/126/
130/131/134/136/152/154/157/
158/160/161/162/163/164/166/
182/184/187/188/189/192/193/
214/217/223/227/231/232/233/
244/246/252/261/266/284/285/
297/298/301/305/308/309-
فارس19/84/98/104/197/306/307/
314/318-الفرات103 -فالوغا78

ق

قنسرين17 - -
القاهرة38/197/200/301/306/327-
القسطنطينية112 -قبرص324 -القرم59 -
قاسيون- القدس
17/21/23/65/87/88/108/111/137/
138/139/140/141/142/143/144/
148/149/150/153/162/174/186/
187/192/193/195/214/220/227/
228/229/230/231/284/325/326-

ك

الكعبة 17 -كفرطاب17 -كرواتيا26 -كريت60 -
كردستان102 -كندا187 -قاسيون212

ل

لبنان17/21/62/73/75/82/83/84/85/
120/128/129/251/283/286/288/
321/322-ليفربول 303-اللاذقية281

م

مصيصة17 -مرسيليا25/320-
مكة28/32/35/36/38/39/197/200/
201/318-المدينة32/35/36/38 -
مصر56/61/64/67/104/157/178/
232/296/298/315/318/321/327-
المجر60/61 -المتن76/78 -
مرجعيون281- المناصف76 -المختارة78

ن

نابلس23/146/147/148/149/214/232/
283/306/328-
النمسا58/60/61/62/64/187/193/
320-
الناصرة100/144/145/146/187/214/
231/232/266-نهر الزاب10 -النيل-38 -
نهر العاصي81- نهر عكار85

هـ

الهند 25/318/323

و

وادي البقاع 84- وادي
قدرون88/89/144/200/208-

ي

اليرموك17 -
يافا153/154/233/234/249/284/
320/324/328-اليمن17 /307- اليونان
320

فهرس الجداول والأشكال البيانية

فهرس الجداول:

01- جدول تطور سكان مدينة دمشق.113

02- جدول تطور سكان مدينة حلب. 121

03- جدول تطور سكان مدينة حماة. 123

04- جدول تطور سكان مدينة بيروت. 125

05- جدول تطور سكان مدينة طرابلس. 131

06- جدول تطور سكان مدينة زحلة. 133

07- جدول تطور سكان مدينة صور. 134

08- جدول تطور سكان مدينة صيدا. 135

09- جدول تطور سكان مدينة القدس. 137

10- جدول تطور سكان مدينة الناصرة. 144

11- جدول تطور سكان مدينة نابلس. 146

12- جدول تطور سكان مدينة بيت لحم. 149

13- جدول تطور سكان مدينة جنين. 152

14- جدول تطور سكان مدينة يافا. 153

15- جدول تطور سكان مدينة حيفا. 154

16- جدول تطور سكان مدن متفرقة. 155

17-جدول الهجرة اليهودية لطبرية. 158

18-جدول خاص بتعليم الفتيات سنة 1890م. 168

فهرس الأشكال البيانية:

01- منحنى بياني يوضح تطور عدد سكان مدينة دمشق خلال القرن 19م. 119

02-منحنى بياني يبين تطور سكان مدينة بيروت خلال القرن19م. 129

03-دائرة نسبية تبين عدد سكان مدينة بيروت حسب الديانة بتقدير القنصل الفرنسي بيروت هنري قيز مع مطلع القرن 19م.130

04-منحنى بياني يبين تطور عدد سكان مدينة القدس في القرن19م.142

05-دائرة نسبية تبين عدد سكان مدينة القدس حسب الديانات بتقدير الرحالة الفرنسي فيكتور بودوت.143

06-منحنى بياني يوضح تطور سكان مدينة الناصرة خلال القرن 19م. 146

07-منحنى بياني يوضح تطور عدد سكان مدينة نابلس خلال القرن 19م. 149

08- منحنى بياني يبين تطور عدد سكان مدينة بيت لحم خلال القرن 19م. 151

09- دائرة نسبية تبين عدد سكان مدينة يافا حسب الديانات بتقدير الرحالة الفرنسي بيار لويس1893م. 154

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

- الإهداء.....
..
- الشكر.....
..
- قائمة المختصرات.....
- مقدمة.....
..
- **الفصل التمهيدي: خصائص بلاد الشام في العهد العثماني**.....16
أولا- خصائص بلاد الشام الطبيعية.....17
ثانيا- النظم السياسية والإدارية في بلاد الشام.....18
ثالثا- مميزات المجتمع الشامي.....21
رابعا- الملامح العامة للاقتصاد ببلاد الشام:.....22
خامسا- التنظيمات العسكرية العثمانية في بلاد الشام.....25
- **الفصل الأول:** أدب الرحلة.....27

أولا- أدب الرحلة المفهوم اللغوي والمدلول الاصطلاحي:.....28

01- المفهوم اللغوي.....28

02- المدلول الاصطلاحي.....29

ثانيا- أنواع الرحلات.....34

ثالثا- أهمية أدب الرحلات.....46

رابعا- الرحلة الفرنسية للشرق:.....55

01- العالم الأوربي وصلته بعالم الشرق.....54

02- طبيعة العلاقات العثمانية الفرنسية.....57

03- اهتمامات وأطماع فرنسا بالشرق.....62

- الفصل الثاني: ديموغرافية بلاد الشام في عيون الرحالة الفرنسيين.....67

أولا- التركيبات السكانية المكونة للمجتمع الشامي:.....72

أ- الفئات السكانية للمجتمع الشامي:.....72

01- سكان الحضر:.....75

أ-
الدروز.....
71
ب-
المارونيون.....
80
خ-
الشيعة.....83
د-
اليهود.....86
ه- دراويش
الصوفية.....89
و-
الأجانب.....91
02- سكان
البادية:.....98
أ- عرب
البادية.....98
ب-
الأكراد.....102
خ-
التركمان.....103
د-
الجبليون.....
104

ب- نماذخ من الفسيفساء السكانية المشكلة للمدن الشامية الكبرى.....105

ثانيا- تطور عدد سكان بلاد الشام خلال القرن 19م:.....108

01- إحصائيات التطور بالمدن الشامية الشمالية الشرقية:.....111

02- إحصائيات التطور بالمدن الشامية الشمالية الغربية.....124

03- إحصائيات التطور بالمدن الشامية الجنوبية.....136

04- مدن أخرى.....155

ثالثا- واقع التعليم والصحة بالشام:.....158

ا-

التعليم:.....
159

أ- المؤسسات التعليمية المسيحية.....161

ب- مناهج التعليم وبرامجه:.....166

01- مدينة حلب.....166

02- تعليم أولاد الجبل قرب بيروت.....168

II-
الصحة:.....
170
01- الأمراض
والأوبئة.....170
2- طرق
العلاج.....176
- الفصل الثالث: المجتمع الشامي مظاهر
وتفاعلات.....182
أولا- الجانب الديني:
.....182
1- المجموعات الدينية:
.....182
1/1 -
المسلمون.....182
2/1- أهل الذمة:
.....185
أ-
المسيحيون.....
185
ب-
اليهود.....193
2- عادات وتقاليد المسلمين في شهر
رمضان.....195
3 -ركب الحج
الشامي.....197

4 -حفظ القرآن.
.....201

5 - الممارسات والمسائل المتعلقة بالوفاة:.....203

أ- العادات الخاصة بالوفاة.....195

ب- المقابر:.....
206

خ- زيارة المقابر.....209

6/المزارات المقدسة في بلاد الشام:
.....210

7- طقوس دراويش الصوفية.....214

ثانيا- مميزات وخصائص اللباس الشامي:.....216

أ- فسيفساء اللباس في المدن:
.....218

1- المدن الشمالية الشرقية.....218

2- المدن الشمالية الغربية.....223

3- المدن الجنوبية.....227

ب- اللباس الخاص بالفئات:
.....234

1-
الدروز.....234

2-
الموارنة.....235

3- لباس سكان
الجبل.....236

ثالثا- يوميات سكان
الشام.....237

1- الممارسات اليومية
العامة.....237

2 - الزيارات المتبادلة بين
السكان.....241

3- الجلوس في المقاهي:
.....242

أ- أشهر مقاهي بلاد الشام
.....244

ب- الاستماع للقصاصين في
المقاهي.....248

خ- ممارسة ألعاب الترفيه في
المقاهي.....250

د- التدخين في
المقاهي.....251

5- الذهاب للحمامات:
.....252
أ- حمامات
الشام.....252
ب- طريقة الاستحمام:
.....253
6- الملاهي وشرب
الخمر.....257
7- تربية الحيوانات:
.....259
أ- تربية
الخيول.....259
ب- حيوانات
أخرى.....261
رابعا- الاحتفالات:
.....261
1- حفلات
الزواخ.....262
2- نماذخ من الأعراس
الشامية.....265
3- حفلات
الختان.....272
4- الاستماع
للموسيقى.....272
- الفصل الرابع: التفاعلات الاقتصادية للمجتمع الشامي.....276

أولا- الأنشطة الزراعية:.....277

أ- أنماط الإنتاخ الزراعي حسب المدن:.....278

01- المدن الشمالية الشرقية.....278

02- المدن الشمالية الغربية.....281

03- المدن الجنوبية.....283

ب- أنواع الأراضي الزراعية بالمنطقة الجبلية.....285

خ- الضرائب المفروضة في الجبل.....287

د- أكل الفلاح اللبناني.....288

ه- عوامل تراجع الزراعة.....289

ثانيا- الأنشطة الصناعية: 290

أ- أنماط الإنتاخ الصناعي:.....291

ب- عوامل تراجع الصناعة المحلية.....299

ثالثا- الأنشطة التجارية: 300

1- التجارة في مدينة دمشق:
.....300

أ- البازارات:
.....301

ب- خصائص البازار الدمشقي.....303

خ- طرق التجارة الدمشقية.....305

د- صفات التاجر الدمشقي.....308

ه- الأنشطة التجارية الممارسة في الأسواق الدمشقية.....310

2- تجارة مدينة حلب.....318

3- تجارة مدينة بيروت.....320

4— التجارة في المدن الشامية الجنوبية.....325

-
خاتمة.....
330

-
الملاحق.....
340

-
البيبليوغرافيا.....
357
-
الفهارس.....
375

المستخلص

كليَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة جامعة يحي فارس بالمدية- الجزائر **الطالب**: حصاد عبد الصمد	**التخصص**: تاريخ الدولة العثمانية **الدرجة العلمية**: أطروحة دكتوراه الطور الثالث نظام (LMD)	**التاريخ:** 2022-2023 **عدد الصفحات**: 395

عنوان الأطروحة:

المجتمع الشامي من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن 19م

المستخلص:

يعتبر القرن 19م قرن رحلات بامتياز، وهو القرن الذي أنتج مادة علمية غزيرة ترتكز على يوميات الرحلة ومخاطرها، وكثر هم الرحالة الذين زاروا الشرق عامة وبلاد الشام خاصة خلال القرن 19م، وكان ذلك بعد الانفتاح الكبير الذي عرفته بلاد الشام على الدول الأوربية بسبب الامتيازات التي منحت للدول الأوربية من قبل الدولة العثمانية، ويحتل الرحالة الفرنسيون الطليعة من حيث عدد الرحلات، وقد خلفوا إرثا تاريخيا كبيرا من خلال تدوين رحلاتهم التي تميزت بالشمولية ودقة الملاحظة والتدوين وغطت كل جوانب الحياة العامة في بلاد الشام، ووفرت للباحثين قاعدة خصبة لدراسة خصائص وبنيات هذه الشعوب، وتطرقنا في هذه الدراسة إلى الجانب الاجتماعي لهذه المنطقة وخصائصه من خلال المادة العلمية الغزيرة التي قدمها لنا الرحالة الفرنسيون، وتمكنا من خلالها من تسليط الضوء على العديد من الجوانب والتفاعلات الاجتماعية المتنوعة التي مارسها سكان المنطقة خلال القرن 19م بنظرة الآخر.

الكلمات المفتاحيَّة:

الرحلة – المجتمع – الشام – فرنسا – القرن 19م – الإستشراق – دمشق – بيروت – حلب .

College of Humanities and Social Sciences Yahya Fares University Medea, Algeria **Student:** hassad abdessamed	**Specialization:** History of the Ottoman Empire. Doctoral Thesis (LMD)	**Date:** 2022-2023 **Number of pages:** 395

Thesis Title

Levantine society through the writings of French travelers in the 19th century

Abstract

The 19th century is considered the undisputed century of trips, and it is the century that produced abundant scientific material based on the diaries of the strip and its dangers, European countries because of the privileges granted to European countries by the ottoman empire, and the French travelers occupy the forefront in terms of the number of trips, and they have left a great historical legacy by writing down their trips that were characterized by comprehensiveness and accuracy of observation and codification and covered all aspects of public life in the Levant, and provided researchers with a fertile base to study the characteristics and structures of these peoples, and we presented in this study the social aspect of this region and its characteristics through the abundant scientific material presented to us by the French travelers, through which we were able to shed light on many aspects and the various social interactions that it was practiced by the inhabitants of the area during the 19th century ad.

key words:

the journey - society - Levant - French - 19th century ad - orientalism - Damascus - Beirut - Aleppo.